

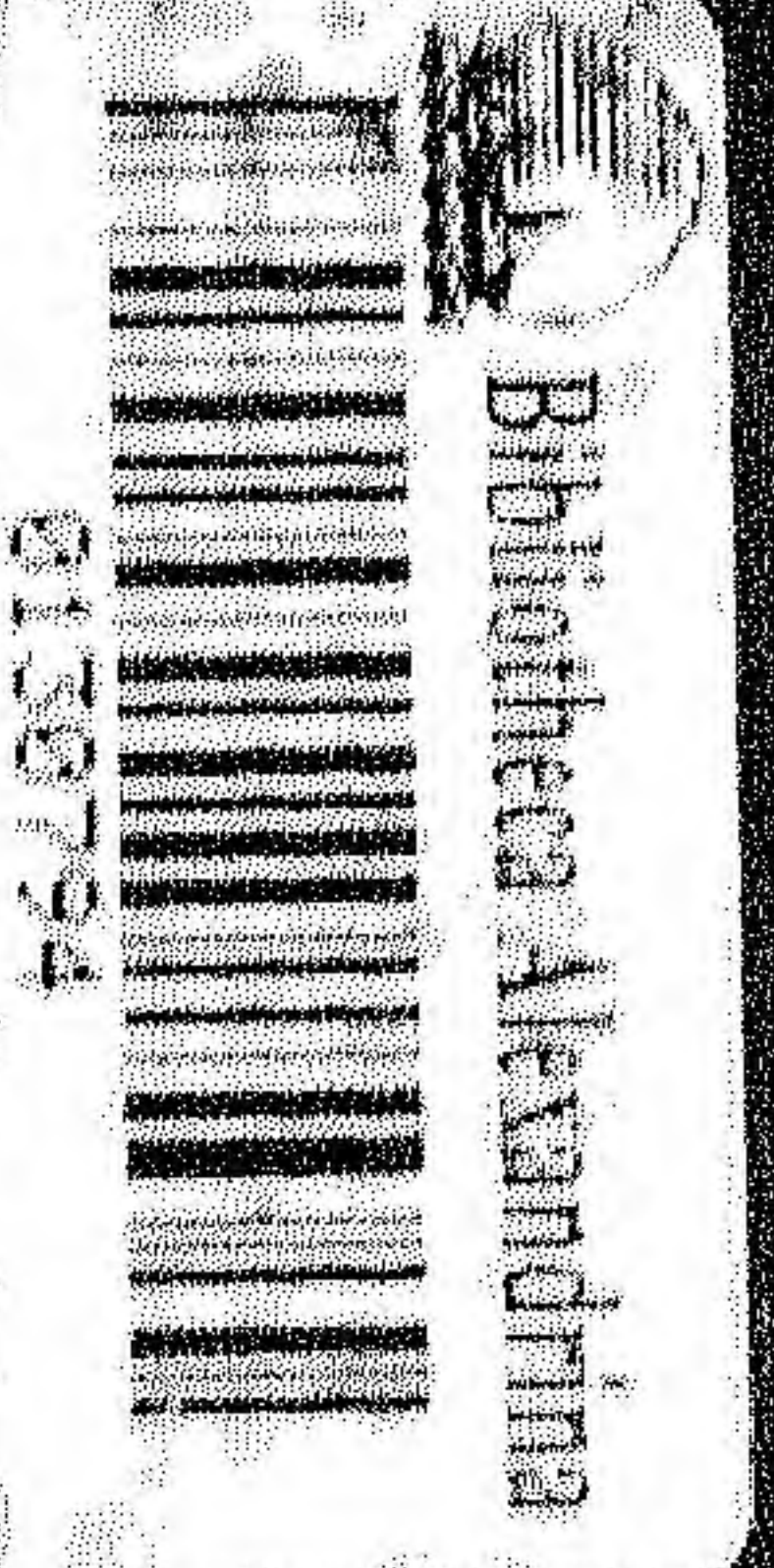
كتاب الادب والعلوم
التي هي من اثار
الشيخ الفاضل
الشيخ الفاضل

كتاب الادب والعلوم

كتاب الادب والعلوم

كتاب الادب والعلوم

كتاب الادب والعلوم



لنوادير السلطانية والمجاسين البوسفية

سيرة صلاح الدين

صف وطبع هذا الكتاب بمكتبة ومطبعة الخانجي
ص . ب / ١٣٧٥ بالقاهرة

الطبعة الأولى
١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م

الطبعة الثانية
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

حقوق الطبع والنشر محفوظة لمكتبة الخانجي
بالقاهرة

رقم الإيداع
٩٤ / ٢١٦٥
الترقيم الدولي

I.S.B.N

977-505-099-7

نراثنا

النوادر السلطانية والحجابات النبوية

أو

سيرة صلاح الدين

بهاء الدين بن شداد

تحقيق

الدكتور محمد الدين الشيباني

الناشر مكتبة النخاس بالعمارة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدم

مؤلف الكتاب هو بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم شهر بابن شدّاد ، لأن شدّاد جده لأمه ، وقد توفي أبوه وهو طفل صغير ، فرى في كنف أخواله بنى شدّاد ، ولهذا نسب إليهم .

ولد في الموصل سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٥ م) وتوفي بحلب سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٩ م) ، فهو قد عمّر وعاش ثلاثاً وتسعين سنة أى قرابة قرن من الزمان .

تلقى علومه الأولى في الموصل ، فحفظ القرآن وقرأ على شيوخ الموصل كتباً في علوم الحديث والتفسير والفقه والقراءات والأدب ، وكانت المدرسة النظامية في بغداد تجتذب إليها وقتذاك طلاب العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، فارتحل إليها مؤرخنا ابن شدّاد ، وترتب فيها معيداً بعد وصوله إليها بقليل ، وكان ذلك في سنة ٥٦٦ هـ (١١٧١ م) أى وهو في السابعة والعشرين من عمره ، وظل يشغل هذا المنصب نحو أربع سنوات حيث عاد إلى بلده الموصل ، وعين هناك مدرساً بالمدرسة التى أنشأها القاضى كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزورى ، ولأزم - كما يقول ابن خلكان - : « الاشتغال وانتفع به جماعة » ، وعلت مكانته وارتفع ذكره لما اشتهر به من الحكمة ورجاحة العقل والاتزان في التفكير ، ولهذا نجد أتابك الموصل يعهد إليه بالسفارة إلى الخليفة العباسي في بغداد ، وإلى صلاح الدين ^(١) وكثير من الحكام المجاورين في أمور خطيرة من أمور الدولة .

(١) انظر أخبار هذه السفارات فيما يلى هنا ، ص ١١٢ ، ٩٦ ، ١٣٩ .

وفي سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٨ م) سافر إلى مكة وأدى فريضة الحج وزار قبر الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان يزعم في عودته أن يزور بيت المقدس - وكان قد استردها البطل صلاح الدين - ، ولكنه نزل أولاً بمدينة دمشق ، وكان صلاح الدين يحاصر قلعة كوكب ، وعلم بوصول ابن شداد إلى دمشق ، وكان يعرفه معرفة أكيدة منذ اتصل به في سفاراته السابقة ، فاستدعاه إليه ، « فلما دخل عليه قابله بالاكرام التام ، ومازاد على السؤال عن الطريق : ومن كان فيه من مشايخ العلم والعمل ، وسأله عن جزء من الحديث ليسمعه عليه ، فأخرج له جزءاً جمع فيه أذكار البخاري ، وقرأه عليه بنفسه » .

وقد شرح ابن شداد في كتابه هذا « النوادر السلطانية » كيف اتصل بخدمة صلاح الدين ، قال : « ولما ودعته ذاهباً إلى القدس خرج لي بعض خواصه - عماد الدين الكاتب الأصفهاني - ، وأبلغني تقدمه إليّ بأن أعود أمثل في خدمته عند العود من القدس ، فظننت أنه يوصيني بمهم إلى الموصل » .

وأتى ابن شداد زيارته للقدس وعاد إلى دمشق ، وفي عزمه أن يستأذن من صلاح الدين في العودة إلى بلده الموصل حيث يترك دنيا الوظائف ويعتكف للدراسة والعبادة ، وكان ابن شداد قد ألف أثناء مقامه في دمشق هذه المرة كتاباً في الجهاد وأحكامه وآدابه ، فقدمه لصلاح الدين « فأعجبه ، وكان يلزم مطالعته » ^(١) .

ويستطرد ابن شداد فيروي كيف منعه صلاح الدين من العودة إلى الموصل ، وألحقه بخدمته فيقول : « ومازلت أطلب دستوراً في كل وقت وهو يدافني عن ذلك ، ويستدعيني للحضور في خدمته في كل وقت ، ويبلغني على السنة الحاضرين ثناءه عليّ وذكره إياي بالجميل ... ثم سیر إلى مع الفقه عيسى ، وكشف إليّ أنه ليس في عزمه أن يمكثني من العود إلى بلادى ، وكان الله قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيته وحببه الجهاد ، فأحببته لذلك ، وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين » .

(١) انظر كذلك ما يلي هنا ص ٥٣ و ١٤١ .

وقد عين صلاح الدين بهاء الدين بن شداد قاضيًا لعسكره وللقدس الشريف ، وظل بهاء الدين في خدمته وملازمًا له لا يفارقه ليلاً أو نهاراً إلى أن أدركته الوفاة ، وكان مقيماً هو والقاضي الفاضل إلى جوار صلاح الدين أثناء مرضه الأخير ، ووصف اللحظات الأخيرة التي انتهت بوفاة هذا البطل العظيم وصفاً مؤثراً .

وبعد وفاة صلاح الدين اتجه ابن شداد إلى حلب ولعب دوراً كبيراً في التقريب بين الأخوة أولاد صلاح الدين وكانوا جميعاً يرجعون إلى رأيه ويستمعون إلى نصحه ، وقد عينه الملك الظاهر صاحب حلب في سنة ٥٩١ هـ قاضيًا لمدينة حلب ومشرقاً على أوقافها ، يقول ابن خلكان « وكانت حلب في ذلك الزمان قليلة المدارس ، وليس بها من العلماء إلا نفر يسير ، فاعتنى أبو المحاسن المذكور بترتيب أمورها ، وجمع الفقهاء بها ، وعمرت في أيامه المدارس الكثيرة » .

وكان الملك الظاهر قد قرر لابن شداد إقطاعاً جيداً يدر عليه مبلغاً كبيراً من المال ، ولم يكن ابن شداد قد تزوج ولم تكن له أسرة أو ولد ، فتوفرت له ثروة لها قيمة ، فعمر بها مدرسة فخمة لتدريس المذهب الشافعي بالقرب من باب العراق في مدينة حلب ، قبالة مدرسة نور الدين محمود زنكي ، وبنى إلى جانبها داراً للحديث ، وأنشأ بين المدرستين تربة ليدفن بها بعد وفاته .

ومنذ بنيت هذه المدرسة ومنذ رتب ابن شداد دروسه بها أصبحت لحلب منزلة علمية مرموقة تجذب إليها طلاب العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، يقرر هذه الحقيقة المؤرخ ابن خلكان - وقد كان واحداً ممن سافروا إلى حلب خصيصاً للتلمذ على القاضي ابن شداد في مدرسته - فيقول :

« ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد ، وحصل الاشتغال والاستفادة ، وكثر الجمع بها » .

وقد لعب ابن شداد دوراً كبيراً في التوفيق بين أفراد البيت الأيوبي في مصر والشام كلما نشب نزاع بين بعضهم والبعض الآخر ، ولهذا كان دائم التنقل

بين حلب والقاهرة لتحقيق هذا الهدف ، وتذكر المراجع أنه وفد على القاهرة في هذه المهام وأشباهها في السنوات ٥٩٣ و ٦٠٨ و ٦١٣ و ٦٢٩ هـ .

ظلت لابن شداد الكلمة النافذة والرأى المطاع في عهد الملك العزيز بن الظاهر صاحب حلب ، ولما خطب العزيز ابنة الملك الكامل محمد صاحب مصر كان ابن شداد على رأس الوفد الذى سافر إلى القاهرة في سنة ٦٢٩ لإحضار العروس ومرافقتها إلى القاهرة .

غير أن السنين كانت قد نالت منه وأصابته الأمراض ووهن الشيخوخة ، فلزم مكاناً دافئاً يقيم فيه متدثراً ، لا يقوم إلا لأداء فريضة الصلاة ، ويلقى فيه بعض الدروس على وفود أصدقائه وزواره وتلاميذه الذين يترددون عليه ، وقد صحبه ولازمه في أيامه الأخيرة المؤرخ ابن خلكان ، وقدم لنا في الترجمة التى أرخ فيها لحياة ابن شداد فى كتاب : « وفيات الأعيان » صورة رائعة للعالم الشيخ الذى أضعفه المرض وأكدته الشيخوخة ، قال : « وكنا نسمع عليه الحديث ، وتردد إليه فى داره ، وقد كانت له قبة تختص به ، وهى شتوية ، لا يجلس فى الصيف أو الشتاء إلا فيها ، لأن الهرم كان قد أثر عليه حتى صار كفرخ الطائر من الضعف ، لا يقدر على الحركة للصلوات وغيرها إلا بمشقة عظيمة ، وكانت النزلات تعتريه فى دماغه ، فلا يفارق تلك القبة ، وفى الشتاء يكون عنده منقد كبير فيه من الفحم والنار شئ كثير ، ومع هذا كله لا يزال مزكوما وعليه الفرجية البرطاس والثياب الكثيرة ، وتحت الطراحة الوثيرة فوق البسط ذوات الخمائل الثمينة ، بحيث إنا كنا نجد عنده الحر والكرب ، وهو لا يشعر به لكثرة إستيلاء البرودة عليه من الضعف ، وكان لا يخرج لصلاة الجمعة إلا فى شدة القيظ ، وإذا قام إلى الصلاة بعد الجهد يكاد يسقط .

ولقد كنت انظر إلى ساقيه إذا وقف للصلاة كأنهما عودان دقيقان لا لحم عليهما ، وكان عقيب صلاة الجمعة يسمع المصلون عنده الحديث عليه وكان يعجبه ذلك ، وكان حسن المحاضرة ، جميل الذاكرة ، والأدب غالب عليه - إلخ ، .

وقد تتلمذ على ابن شداد - عدا ابن خلكان - عدد آخر من كبار المؤرخين المعاصرين ، منهم أبو شامة صاحب كتابي « الروضتين » و « الذيل على الروضتين » ، وقد ترجم له في الكتاب الأخير في وفيات سنة ٦٣٢ هـ ، قال : « وفيها توفي القاضي بهاء الدين بن شداد بحلب ، واسمه يوسف بن رافع ابن تميم ، وكان من رؤسائها ، وكان للناس به نفع ، وكنت قد اجتمعت بابن شداد بدمشق وأجاز لي جميع ما يرويه ، ثم سمعت عليه بمصر وعند قبة الإمام الشافعي - رحمه الله - سنة ثمان وعشرين وستائة » .

ومنهم جمال الدين بن واصل مؤرخ الدولة الأيوبية وصاحب الموسوعة الكبيرة : « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » ، ففى سنة ٦٢٧ كان ابن واصل قد سافر إلى حلب ، ولبت بها نحو عامين تردد في خلاهما على ما بها من مدارس ومكتبات ، واتصل بمن فيها من علماء بارزين وخاصة القاضي المؤرخ بهاء الدين ابن شداد ، والشيخ نجم الدين بن الخباز ، والشيخ موفق الدين بن نفيس ، ويبدو أنه أفاد من هؤلاء الشيوخ فوائد جمة ، فقد كان يعتز بهذه الزيارة فيما بعد ، ولهذا ذكرها في كتابه « مفرج الكروب » أكثر من مرة .

قال أولا في حوادث سنة ٦٢٨ : « وكنت في حلب في هذه السنة ، قد توجهت للاشتغال بالعلم على الشيخ نجم الدين بن الخباز ، وكان إماما في المذهب والأصول ، وعلى الشيخ موفق الدين بن نفيس في علم النحو واللغة ولتحصيل البركة بالقاضي بهاء الدين بن شداد - رحمه الله - وكان سفرى إلى حلب في أواخر سنة ٦٢٧ فأقمت بها إلى شعبان سنة ٦٢٨ ، ثم ترددت إلى خدمة القاضي بهاء الدين بن شداد مرارا ، وكان نزولى بمدرسته التي أنشأها بالقرب من داره » . وأشار إلى هذه الزيارة مرة أخرى عند ترجمته لابن شداد بمناسبة وفاته . قال : « وقصدت خدمته بحلب سنة ٦٢٧ وحضرت مجلسه واستفدت منه ، وأقمت بمدرسته التي أنشأها إلى جانب داره - رحمه الله - نحو سنة وكسر » .

وأشار إليها مرة ثالثة بقوله : « وكان القاضى بهاء الدين يذكر بنفسه الدرس فى مدرسته ، ثم لما أسنَّ وضعف بقى المعيدون فى كل يوم يُقرأ عليهم العلم ، ولا يذكر أحد درسًا فى المدرسة إلى أن توفى ، وكنت بحلب سنة ٦٢٧ وسنة ٦٢٨ وكان الأمر جاريا على ذلك ، وكانت الرُبعة تحضر فى كل يوم فيقرأ منها ماتيسر ثم يدعو الداعى له . »

وحدث أثناء إقامة ابن واصل فى حلب أن احتبس الغيث فخرج الناس للاستسقاء ، وفى مقدمتهم شيخ البلدة بهاء الدين بن شداد ، وقد حضر ابن واصل هذا الحادث وأرخ له بقوله : « واحتبس الغيث فى هذه السنة احتباسًا كثيرًا بحلب ، وارتفعت الأسعار ، فخرج الناس إلى جبل بانقوسا واستسقوا ، وحضر الاستسقاء بهاء الدين بن شداد ، فجاء مطر يسير بعد ذلك وانحطت الأسعار قليلا . »

وفى سنة ٦٣٢ كان الكتاب قد بلغ أجله ، وارتفعت روح بن شداد إلى بارئها بعد أن عمُر قرابة قرن من الزمان أو ثلاثا وتسعين سنة على وجه التحديد قضاه فى الدراسة والتدريس والتأليف والعمل الصالح ، ودفن فى تربته التى بناها لنفسه بجوار مدرسته فى حلب .

ومؤلفات ابن شداد ليست كثيرة ، وسنقدم فيما يلى بيانًا بالمعروف منها الذى أشارت إليه المراجع ، غير أننا نحب قبل إثبات هذا البيان أن نشير إلى أن مؤرخنا ابن شداد لم يكن الوحيد بين المؤرخين العرب الذى حمل هذا الاسم ، فهناك ابن شداد آخر يشترك مع مؤرخنا فى أشياء كثيرة ، فكل منهما كان يسمى ابن شداد ، وبهذا الاسم عرفا وأشير إليهما فى المراجع المختلفة ، غير أن مؤرخنا صاحب سيرة صلاح الدين كان يكنى ببهاء الدين واسمه بالكامل بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن شداد ، وسمّيه كان يكنى بعز الدين واسمه الكامل عز الدين أبو عبد الله محمد بن على بن إبراهيم بن شداد .

ومؤرخنا بهاء الدين ولد ونشأ فى الموصل ، غير أنه قضى معظم حياته

وتوفى في حلب في سنة ٦٣٢ هـ ، أما عز الدين بن شداد فقد ولد ونشأ في حلب ، ولكنه قضى معظم حياته في القاهرة وبها توفى ودفن في سنة ٦٨٤ هـ أى بعد وفاة سميه باثنتين وخمسين سنة ، وبهاء الدين كان فقيها ومحدثا ومؤرخا ، وعز الدين كان مؤرخا وجغرافيا .

ومع هذا فقد خلط المؤرخون وكتاب السير والبلوجرافيون بين الرجلين عند إحصاء مؤلفات كل منهما ، ودفعهم إلى هذا الخلط تشابه اسمي كل منهما ونسبتهما إلى حلب واشتغالهما بالتاريخ وتأليفهما فيه ، وكونهما توفيا في قرن واحد وهو القرن السابع الهجرى (١٣ م) .

وقد سبق المؤرخون والباحثون بإلقاء الأضواء أولا على حياة بهاء الدين ابن شداد ، ولهذا كان ولا زال أكثر شهرة من سميه عز الدين ، ولعل هذا يرجع إلى أن بهاء الدين كتب سيرة صلاح الدين . فكانت عناية المؤرخين بدراسة هذه السيرة السبب الأكبر في شهرة بهاء الدين ، ولهذا نجد الباحثين ينسبون إليه عددا من مؤلفات عز الدين بن شداد .

وكان أول من وقع في هذا الخطأ حاجي خليفة صاحب كتاب « كشف الظنون » فقد ذكر كتاب « الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة » ^(١) ونسبه إلى بهاء الدين بن شداد لا إلى مؤلفه الأصلي عز الدين بن شداد ، وقد وقع في نفس الخطأ مؤرخون آخرون لأنهم نقلوا عن حاجي خليفة ، فنجد نفس الخطأ عند جورجى زيدان في « تاريخ آداب اللغة العربية » ^(٢) ، والغزى في « نهر الذهب » ^(٣) ، والدكتور أحمد بدوى في « الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام » ^(٤) .

(١) كشف الظنون ، الطبعة الأولى ، ج ١ ، ص ١٢٣ .

(٢) ج ٣ ، ص ٦٣ .

(٣) ج ١ ، ص ١١ .

(٤) ص ٢٦٥ حيث قال : « كما وضع ابن شداد الحلبي المتوفى سنة ٦٣٢ هـ كتابه الأعلام الخطيرة

في تاريخ الشام والجزيرة » .

والكتاب الثانى الذى نُسب خطأً إلى بهاء الدين بن شداد فى حين أنه من تأليف سميّه عز الدين هو كتاب « تاريخ حلب » ، وأول من أخطأ فى هذه النسبة بروكلمان فى كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ، فقد ذكره ضمن مؤلفات بهاء الدين وأضاف أنه توجد منه نسخة خطية فى مكتبة بطرسبرج تحت رقم A.M.203^(١) ووقع فى نفس الخطأ الدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتاب « الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبي والمملوكي »^(٢) ، والدكتور السيد الباز العرينى فى كتابه « مؤرخو الحروب الصليبية »^(٣) .

والكتاب الثالث الذى نسب خطأً إلى بهاء الدين بن شداد فى حين أنه من تأليف سميّه عز الدين هو كتاب « الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر » ، والمقصود هنا هو الملك الظاهر بيبرس البندقدارى^(٤) لا الملك الظاهر بن صلاح الدين - صاحب حلب - ، وقع فى هذا الخطأ بروكلمان وقال بوجود نسخة خطية من المجلد الثانى من هذا الكتاب فى مكتبة سليم رقم ١٥٠٧ وأنه ترجم إلى اللغة التركية تحت عنوان « بيبرس تاريخى جكنداكى تاريخى أيكنجى جلدى » وطبع فى استانبول سنة ١٩٤١ . وتبعه فى هذا الخطأ الدكتور السيد الباز العرينى فى كتابه سالف الذكر .

هذه كتب ثلاثة تنسب خطأً لمؤرخنا بهاء الدين بن شداد وإن كانت فى الحقيقة من تأليف سميّه عز الدين أما المؤلفات التى قام بتأليفها فعلاً مؤرخنا بهاء الدين فقيماً إلى بيانها .

١ - دلائل الأحكام^(٥) ، تحدث فيه المؤلف عن الأحاديث النبوية

Brockelman : G. der Lit. Araber. Suppl. I.P. 549.

(١)

(٢) ص ٣٠٩ .

(٣) ص ٢٠٢ .

(٤) انظر المقدمة القيمة التى قدم بها الدكتور سامى الدهان لكتاب الأعلام الخطرة (الجزء الخاص

بمدينة دمشق ، ١٩٥٦) .

(٥) ذكره ابن خلكان فى وفيات الأعيان ، و بروكلمان .

المستنبط منها الأحكام ، مخطوط بالمكتبة الأهلية في باريس رقم ٧٣٦ .
 ٢ - ملجأ الأحكام عند التباس الأحكام ^(١) (في الأقضية) ، مخطوط
 بدار الكتب المصرية بالقاهرة في مجلدين (الفهرس القديم لدار الكتب ج ٣ ،
 ص ٢٩٧ - ٢٩٨) .

٣ - دروس في الحديث ^(٢) (ألقاها في القاهرة حين سافر إليها في سنة
 ٦٢٩ هـ = ١٢٣١ م لإحضار ابنة الملك الكامل ، محمد عروس الملك
 العزيز صاحب حلب) ، مخطوط بالمكتبة البودليانية في أكسفورد .

٤ - كتاب العصا ^(٣) (المقصود موسى وفرعون) ، مخطوط بمكتبة باتنا
 . Patna

٥ - فضائل الجهاد ^(٤) ، ألفه خصيصاً لصلاح الدين ، مخطوط بمكتبة
 كوبريللي رقم ٧٦٤ .

٦ - أسماء الرجال الذين في المذهب للشيرازي ^(٥) :

مخطوط بمكتبة ولي الدين جار الله رقم ٢٥٥ ، نسخ في القرن التاسع
 الهجري ، وكتب بقلم معتاد وبخط قديم ، ويقع في ٥٢ ورقة بمقاس ١٣ ×
 ١٨ سم ، وتوجد منه نسخة على فيلم صغير رقم ٨٧٢ بمعهد المخطوطات العربية
 بالقاهرة التابع للجامعة العربية ، وهذا الكتاب لم يشر إليه بروكلمان أو أى مرجع
 آخر من المراجع التي ترجمت لبهاء الدين بن شداد .

(١) ذكره ابن خلكان و بروكلمان .

(٢) راجع ابن خلكان و بروكلمان .

(٣) راجع بروكلمان .

(٤) راجع ابن خلكان ، و Brockelman Pr. Clt. Supp I, p. 550

(٥) انظر : فهرس المخطوطات المصورة بمعهد المخطوطات العربية ، الجزء الثاني ، القسم الأول

ص ١١ ، والقسم الثاني ، ص ٢١٢ .

٧ - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (المعروف بسيرة صلاح الدين) . وقد قام على نشره أول مرة A. Schultens في ١٧٣٢ - ١٧٥٥ ، ثم أعيد نشره في القاهرة سنة ١٣١٧ هـ بعناية السيد / محمد أمين الخانجي - رحمه الله - ثم ترجمه C. R. Conder إلى اللغة الإنجليزية ، ونشرت الترجمة في سنة ١٨٩٧ ضمن مجموعة جمعية دراسات حجاج فلسطين ، تحت عنوان :
The life of Saladin by Beha ad-Din Compared with the Original Arabic and annotated with a Preface by ch. Wilson-London. Palestine Pilgrims Text Society 1897.

وهذا ينقلنا إلى الحديث عن أهم مؤلفات بهاء الدين بن شداد وهو هذا الكتاب الذي نقدم له « المحاسن اليوسفية والنوادر السلطانية » فهو الذي أكسب مؤلفه هذه الشهرة ووضع في صفوف المؤرخين الكبار .

وقد قسم بهاء الدين بن شداد كتابه إلى قسمين :

الأول : في مولد صلاح الدين ومنشئه وخصائصه وأوصافه وأخلاقه المرضية وشمائله الراجعة في نظر الشرع .

والثاني : في تقلبات الأحوال به ووقائعه وفتوحه وتواريخ ذلك إلى آخر حياته .

وقد نص المؤلف في كتابه على أنه بدأ الاتصال بخدمة صلاح الدين في شهر جمادى الأولى سنة ٥٨٤ هـ ، وعلى أنه اعتمد عند التاريخ للأحداث السابقة على هذا التاريخ على من يثق به ، أما الأحداث اللاحقة لهذا اليوم فقد وصفها كما شاهدها بنفسه ، أو على حد قوله هو : « ومن هذا التاريخ ما أسطر إلا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان » ^(١) .

وفي سنة ١٩٥٩ كانت لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب

(١) انظر المتن ما فيما يلي ص ١٤١ .

والعلوم الاجتماعية تنظر في بعض المقترحات المقدمة لإحياء ذكرى البطل صلاح الدين يوسف بن أيوب ومن بينها إعادة نشر كتاب « المحاسن اليوسفية والنوادر السلطانية » لبهاء الدين بن شداد نشرة جديدة علمية محققة ، وتفضلت اللجنة فعهدت إلى بالقيام بإعداد هذه النشرة ، وعهدت إلى وزارة الثقافة والإرشاد بإخراج هذه الطبعة .

وبدأت انظر في النسخ المطبوعة والمخطوطة لهذا الكتاب ، وكان من توفيق الله أن وجدت بمعهد المخطوطات العربية فيلماً^(١) مصوراً لنسخة من هذا الكتاب موجودة أصلاً في مكتبة المسجد الأقصى بالقدس الشريف تحت رقم ٥٩٥ سير تاريخ (وتتكون من ٢٠٠ ورقة ومقاسها ٢٣×١٦ سم) ، وبفحص هذه النسخة اتضح لي أنها كتبت في الثاني عشر من شهر رجب سنة ٦٢٦ هـ أى في حياة المؤلف وقبل وفاته بست سنوات ، وأنها قرئت عليه ، وبمقارنتها بالنسخة المطبوعة في مصر والمتداولة بين القراء تبين لي أن هذه المخطوطة بها زيادات كثيرة عن النسخة المطبوعة لا تقل في جملتها عن ربع الكتاب .

كل هذه الأسباب كانت مرجحات كافية لاختيار مخطوطة القدس واعتمادها أصلاً للطبع ، وإذا كانت النسخة المطبوعة في القاهرة هي المتداولة والتي يشير إليها الباحثون دائماً عند الرجوع إلى هذا الكتاب فقد اعتمدتها نسخة ثانية ورمزت لها بالحرف م ، وقارنت بين نسخة الأصل وبينها لبيان أفضلية الأولى ، وأثبتت المقارنات دائماً في الهوامش لإعطاء القارئ فكرة عن الزيادات الكثيرة التي تمتاز بها مخطوطة القدس .

ومما يزيد في قيمة مخطوطة القدس أنها - كما أسلفنا - كتبت في حياة المؤلف وقرئت عليه ، بدليل تاريخ نسخها المثبت في نهاية الكتاب ، وبدليل نص العنوان المثبت على الصفحة الأولى وهو :

(١) رقم الفيلم ١٢٩٦ ، انظر فهرس المخطوطات المصورة بمعهد المخطوطات العربية ، فهرس التاريخ .

كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

تأليف مولانا صاحب قاضى القضاة شيخ مشايخ الإسلام بهاء الدين أبى المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ولى أمير المؤمنين أدام الله أيامه ، سماع

وقد جرت العادة أن يدعو الناسخ للمؤلف بالرحمة إذا كان المؤلف قد توفى فى تاريخ سابق لتاريخ النسخ ، فيقول : « رحمه الله » ، ولكنه هنا يدعو له بدوام الأيام فيقول « أدام الله أيامه » ، ثم أردف الدعاء بكلمة سماع وهى تقصيد قراءة النسخة على المؤلف .

* * *

ومن مميزات مخطوطة القدس كذلك أنها تنفرد فى نهايتها بفصل - لم يرد له ذكر فى النسخة المطبوعة - أحصى فيه المؤلف أسماء المدن والقلاع التى فتحها صلاح الدين فى المدة من ٥٨٣ إلى ٥٨٦ هـ .

وقد أشرنا من قبل إلى أن صلاح الدين كان قد عين بهاء الدين بن شداد قاضيا لعسكره فى سنة ٥٨٤ ، ولهذا نجد ابن شداد يلزم صلاح الدين طول الحقة الأخيرة من حياته التى قضاه فى الشام أى من ٥٨٤ إلى ٥٨٩ هـ ويخالطه مخالطة تامة ، ولذلك فهو يروى معظم هذه السيرة وأحداثها عن مشاهدة ، وهو ينص فى معظم الأحوال على أنه رأى الأحداث التى يؤرخ لها أو سمع الأقوال التى يرويها ^(١) ، أما إذا لم يكن قد شاهد حادثة ما بنفسه فإن الأمانة العلمية كانت تقتضيه أن ينص على أنه كان متغيباً ، فهو يصف مثلاً وقعة الرمل فى سنة ٥٨٥ ويعقب على الوصف بقوله : « وهذه الوقعة لم أحضرها فإني كنت مسافراً ، وما مضى من الوقعات شاهدت منها ما يشاهده مثلى ، وعرفت الباقي مثل ما يعرفه الحاضر فى هذه الأمور » ^(٢) .

(١) الأمثلة على ذلك كثيراً ، انظر مثلاً ما يلى هنا ص ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٨ - الخ :

(٢) انظر ما يلى هنا ص ١٨٠

لهذا أُعتبرت هذه السيرة أوثق المراجع للتأريخ لحياة البطل صلاح الدين ، وعليها اعتمد جل المؤرخين اللاحقين من عرب وأوروبيين عند الكتابة عن حياة صلاح الدين ، وخاصة الفترة الأخيرة من هذه الحياة (٥٨٤ - ٥٨٩) وهي فترة حافلة بالنضال ضد الصليبيين ، فإن انتصار صلاح الدين في موقعة حطين واستعادته لبيت المقدس في سنة ٥٨٣ أحدثتا ضجة كبرى في أوروبا ، وكان رد الفعل إرسال الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ثلاثة من كبار ملوك أوروبا وهم ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب اوجست ملك فرنسا ، وفردريك بارباروسا ملك ألمانيا .

واحتدم القتال في أعنف صوره بين جيوش هذه الحملة وجيوش صلاح الدين طوال هذه السنوات الأربع إلى أن انتهى بصلح الرملة في شعبان ٥٨٨ (سبتمبر ١١٩٢) .

وهذه السيرة التي كتبها ابن شداد تقدم وصفًا تفصيليًا دقيقًا للأحداث التاريخية وللمعارك الحربية ولأدوات القتال والحرب المستعملة في الجيشين مما لا نجده في مرجع آخر ، وقد تتبعنا الألفاظ الاصطلاحية الواردة في الكتاب وخاصة ما اتصل منها بآلات القتال في البر والبحر ، وشرحنا كلاً منها شرحاً وافياً في الهوامش مع ذكر المراجع التي أفدنا منها ، ومنها على سبيل المثال :

اليزك (٣/٣٨) ^(١) والكوسات (٣/٥١) والطلب (٣/٥٧) والمنجنيق (٣/٦٠) والحركة (١/٦٣) والدبابة (٢/٨٢) والجرج (٣/٨٢) والشيني (٤/٨٩) والطريدة (٣/٩٠) والبطسة (٣/٩٠) والجاليش (٤/١٠٨) والنشاب (٣/١٠٩) والشحنة (٦/١٢٣) والتمجاة (٢/١٣١) والأسطول (٤/١٣٧) واللامة (١/١٤٣) والزراقون (١/١٨٣) والطوارق (٢/١٩٥) والوطاق (١/١٩٨) والحمالة (١/٢١٢) والبركوس (٢/٢١٨) والزنبورك (١/٢٢٥) والباشورة (٢/٢٣٢) ... الخ .

(١) الرقم الأول هو رقم الصفحة في هذه الطبعة والرقم الثاني رقم الهامش .

وفي الكتاب مصطلحات حربية أخرى ألفت إليها الأنظار لأهميتها ولأنها تعنى كل المشتغلين بالتاريخ الحربي لهذا العصر ، ومنها : الحشاشة ، والمستأمنون ، والحلقة السلطانية ، والجموع البحرية ... إلخ .

وإلى جانب هذه المصطلحات الحربية التي أوردها المؤلف عَرَضًا عند وصف المعارك ولم يشرحها ، والتي شرحناها نحن في الهوامش شرحًا مفصلاً ، توجد في النص فقرات كثيرة ذات أهمية كبرى وصف فيها المؤلف بعض هذه الآلات وصفًا جديدًا مفيدًا - ، ومثل ذلك وصفه الدقيق النادر للدبابة والكبش ، وللسنور - وهو نوع جديد من الأسلحة - ، وللبرج ذي الخرطوم ، ووصفه للدبابة ذات الأبراج الأربعة .

وينفرد الكتاب كذلك بوصف كثير من الأوضاع الاجتماعية والإدارية في المجتمعين الصليبي والإسلامي ، فهو يشير في ص ٤١ إلى بعض تقاليد الصليبيين في التشاور والتحكيم فيقول : « ومن عادتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل ، وأنهم قد نصوا على عشرة أنفس منهم وحكموهم ، فأى شيء أشاروا به لا يخالفونهم » .

وفي ص ٤١ نص هام يصف فيه كيف كان يجلس صلاح الدين للنظر في المظالم .

وفي ص ١٤٥ نص آخر يفيد أن المسلمين المقيمين في الأراضي الخاضعة للصليبيين كانوا يرجعون في خصوماتهم إلى قاضٍ منهم .

وفي ص ١٥٥ نص يدل على أن بعض أمراء الصليبيين في الشام « كان يعرف العربية وعنده إطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث » .

وفي ص ١٩٤ وصف طريف لبعض الشرائع والأحكام التي كان يؤخذ بها جنود ملك الألمان ، ومنها « أن من جنى منهم جناية فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة » .

وفي ص ٢٢٥ وصف آخر طريف ونادر لعلم الجيوش الصليبية يقول فيه :

« .. وَعَلَّمَ العدو مرتفع على عجلة هو مغروس فيها ، وهى تسحب بالبغال ، وهم يذبُّون عن العَلَم ، وهو عالٍ جدًا كالمنارة ، يخرقته بياض ، مُلْمَعٌ بِحُمْرَةٍ على شكل الصليبان » .

وفى الكتاب عدد من الوثائق الهامة التى تلقى أضواء على العلاقات بين صلاح الدين والدول المسيحية المجاورة ، ومن بينها نصوص الخطابات المرسلة من كل من الكاغيكوس مقدم الأرمن ، وامبراطور بيزنطة إلى صلاح الدين ^(١) ومن الممكن أن نضيف إلى هذه الوثائق الوصف الوافى المفصل للسفارة التى أرسلها صلاح الدين إلى القسطنطينية ولكيفية إقامة الخطبة فى المسجد المقام فى عاصمة الدولة البيزنطية .

وبعد فهذا تعريف موجز بالمؤلف ولحظة سريعة عن الكتاب ، وقيمته ، أما منهجى فى نشره وتحقيقه فهو نفس المنهج الذى اتبعته فى الكتب الأخرى التى قمت بتحقيقها من قبل ، وأخص بالذكر منها كتب المقرئى الصغير وكتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لابن واصل ، ويلخص هذا المنهج فى التزام الدقة التامة فى ضبط النص ، وفى التعريف بالمصطلحات التاريخية والأعلام والمدن ، وفى تقسيم النص إلى فقرات واستعمال علامات الترقيم الحديثة ليسهل على القارئ تتبعه وفهمه .

وقد كنت صحت المخطوطة معى إلى المغرب حيث كنت أشغل منصب المستشار الثقافى بسفارتنا هناك ، ولما أتممت تحقيق الكتاب قدمته إلى وزارة الثقافة والإرشاد فى يناير سنة ١٩٦٢ .

ثم قدمته الوزارة إلى المطبعة أثناء غيابى فى المغرب ، وعهد المسؤولون إلى غبرى بتصحيح تجارب الطبع ، وللأسف الشديد لم يوفق هذا الغير إلى تصحيح النص تصحيحًا سليمًا ، فخرجت الطبعة وبها أخطاء كثيرة ^(٢) ، كما أنه لم يلتزم

(١) انظر فيما يلى هنا ص ١٩١ - ١٩٣ و ٢٠٢ - ٢٠٤ .

(٢) تم تصحيح الأخطاء فى هذه الطبعة .

تقسيم الفقرات الذى اتبعته بل ضم بعضها البعض الآخر حتى لقد خرجت بعض الفقرات وهى تشغل صفحتين أو ثلاث صفحات ، وهذا أمر مقبول فى المخطوطات القديمة ، ولكنه غير مقبول فى النشرات العلمية الحديثة ، وعلاجاً للأمر الواقع ألحقت بالكتاب فى نهايته قائمة بأهم الأخطاء وتركت الباقى لفطنة القارئ .

وأنا لا أحاول أن أوجه الاتهام أو اللوم إلى أحد ، ولكننى أقدم الاعتذار إلى القارئ الكريم عنى وعن الجميع ، فالنية الطيبة والقصد الحسن كانا رائدى الجميع ، وأقدم الوعد أن أتلافى هذه الأخطاء كلها فى الطبعة الثانية إن شاء الله ، والله أسأل أن يجنبنا الخطأ ، وأن يلهمنا الصواب ، ويكتب لنا التوفيق دائماً .

جمال الدين الشيال

١٢ رجب ١٣٨٤ هـ
الاسكندرية فى
١٦ نوفمبر ١٩٦٤ م

...

قائمة المراجع

التي رجعنا إليها عند كتابة المقدمة (١)

- ١ - بدوى (الدكتور أحمد أحمد) = الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام .
- ٢ - حاجى خليفة = كشف الظنون .
- ٣ - حمزة (الدكتور عبد اللطيف) = الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي .
- ٤ - ابن خلكان = وفيات الأعيان .
- ٥ - الزركلى (خير الدين) = الأعلام .
- ٦ - زيدان (جورجى) = تاريخ آداب اللغة العربية .
- ٧ - أبو شامة = كتاب الروضتين في أخبار الدولتين . الذيل على الروضتين .
- ٨ - ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله محمد بن على بن إبراهيم) = الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، الخاص بتاريخ مدينة دمشق ، نشر الدكتور سامى الدهان .
- ٩ - العرينى (الدكتور السيد الباز) = مؤرخو الحروب الصليبية .
- ١٠ - أبو الفدا = المختصر في أخبار البشر .
- ١١ - ابن قاضى شهاب = طبقات الشافعية (مخطوط) .
- ١٢ - المنذرى = التكملة لوفيات النقلة (مخطوط) .
- ١٣ - ابن واصل = مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب ، ٣ أجزاء ، نشر جمال الدين الشيال .
- ١٤ - فهرس المخطوطات المصورة بمعهد المخطوطات العربية الملحق بجامعة الدول العربية (الجزء الثانى بأقسامه الثلاثة الخاص بعلم التاريخ) .

(١) أما مراجع التحقيق فقد أشير إليها في الهوامش ، ولم نشأ أن نذكرها هنا لكثرتها .

15 - Brockelmann (Carl) = .

= Geschite detr Arabichen Literature vol, I. P. 386, Supp. 1, 549 - 550 .

16 - Cahen (Claude) .

= La Syrie du Nord á L'Epoque des Croissades .

17 - Gibb .

= The Arabic Sources for the Life of Saladin (Speculum, 25, 1950) .

18- Lane - Poole (St.) .

= Saladin .

19- Recueil des Historiens des Croissades , Historiens Orientaux,

* * *

سيرة صلاح الدين

« السيرة اليوسيفية »

بهاء الدين بن شداد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى مَنَّ علينا بالإسلام ، وهدانا للإيمان الجارى على أحسن نظام ، وأنعم علينا بشفاعته نبينا [محمد] عليه أفضل الصلاة والسلام ، وجعل سير الأولين عِبْرَةً لأولى الأفهام ، وتقلبات الأحوال قاضيةً على كل أمرٍ حادثٍ بالانصرام ، كيلا يغترّ ذو حالٍ حسن ، ولا ييأس من لعبت بأحواله أكف السقام .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادةً تشفى القلوب من لظى الأوام .

وأشهد أن [سيدنا] محمدًا عبده ورسوله ، الذى فتح للهداية أبوابًا يلج فيها المستفتحون لها بمفاتيح الانقياد والاستسلام ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة باقية ببقاء الأيام .

وبعد ؛

فإني لما رأيت أيام مولانا السلطان ، الملك الناصر جامع كلمة الإيمان ، قامع عبدة الصليبان ، رافع علم العدل والإحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين ، خادم الحرمين الشريفين ، أبى المظفر يوسف بن أيوب بن شاذى -- سقى الله ضريحه صوب الرضوان ، وأذاقه فى مقر رحمته حلاوة نتيجة الإيمان -- ، قد صدقت من أخبار

١٢ الأولين ما / كذبته الاستبعاد ، وشهدت بالصحة لما روى من نوادر الكرام الأجواد ، وحققت وقعات شجعان مالِكها ^(١) ما قدحت فيه الشكوك من أخبار الشجعان ، وأرت العيان ^(٢) من الصبر على المكاره في ذات الله ما قوى بها الإيمان ، وعظمت عجائبها عن أن يحويها ^(٣) خاطر أو يُجنها جنان ، وجُلت نوادرها عن ^(٤) أن تحد ببيان لسان ، أو أن تسطر في طرس بينان .

وكانت - مع ذلك - من قبيل ^(٥) ما لا يمكن الخبير بها إخفاؤها ، ولا يسع المطلع عليها إلا أن تروى عنه أخبارها وأنباؤها ، ومسنى من رق نعمتها ، وحق صحبتها ^(٦) وواجب خدمتها ، ماتعني ^(٧) على به إبداء ما تحققت ^(٨) من حسناتها ، ورواية ما علمته من محاسن صفاتها :

رأيتُ أن أختصر من ذلك على ما أملاه على العيان ، أو الخبر الذي يقارب مظنونه درجة الإيقان ، وذلك جزء من كل ، وقُلُّ من كل ، ليستدل بالقليل على الكثير ، وبالشعاع على المستطيل بعد المستطير .

وأسميتُ هذا المختصر من تاريخها :

« النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية »

وجعلته قسمين :

-
- (١) م : « ممالكها » .
 - (٢) م : « ورأيت بالمان » .
 - (٣) م : « يحيط بها » .
 - (٤) هذا اللفظ ساقط من (م) .
 - (٥) م : « محبتها » .
 - (٦) م : « يجب » .
 - (٧) م : « حققت » .

أحدهما : فى مولده - رحمه الله - ومنشئه ، وخصائمه ، وأوصافه ،
وأخلاقه المرضية ، وشمائله الراجحة فى نظر الشرع الوفية . والقسم الثانى : فى
تقلبات الأحوال / به ، ووقائعه وفتوحه ، وتواريخ ذلك إلى آخر حياته ^(١) ، ٢ ب
قدس الله روحه .

والله المستعان فى الصيانة عن هفوات اللسان والقلم ، وجريان الخاطر بما
فيه منزلة القدم ، وهو حسبى ونعم الوكيل

(١) م : « أيام حياته » .

القسم الأول

في ذكر

مولده وخصائصه وأوصافه وشمائله وخلاله

رحمة الله عليه

ذكر مولده ^(١) رحمة الله عليه

كان مولده - رحمه الله - على ما بلغنا على ألسنة ثقات تتبعوه ^(٢) حتى بنوا عليه تسيير مولده على ما تقتضيه صناعة التنجيم - في شهور سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة ، وذلك بقلعة تكريت ^(٣) .

وكان والده أيوب بن شاذى - رحمه الله تعالى - واليًا بها ، وكان كريمًا أريحيًا حليما حسن الأخلاق ، مولده بدوين ^(٤) ، ثم اتفق له الانتقال من تكريت إلى محروسة الموصل ^(٥) ، وانتقل ولده المذكور معه ، وأقام بها إلى أن ترعرع ، وكان والده محترمًا مقدّمًا ^(٦) هو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتابك زنكى .

واتفق لوالده الانتقال إلى الشام - - حرسه الله تعالى ^(٧) - وأعطى بعلبك ، وأقام بها مدة ، ونقل ولده المذكور - رحمهما الله تعالى ^(٧) - إلى بعلبك المحروسة ، وأقام [بها] في خدمة والده يتربى تحت حجره ، ويرتضع / ثدى

أ ٣

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) م : « من ألسنة الثقات الذين تتبعوه » .

(٣) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال : والعامّة تقول : تكريت ، وذكر أنها بلدة مشهورة بين بغداد

والموصل ، وهي إلى بغداد أقرب ، ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى راكبة على دجلة ، وهي غربي دجلة .

(٤) هكذا ضبطها (ياقوت : معجم البلدان) وعرفها بأنها بلدة من نواحي أران في آخر حدود

أذربيجان بقرب من قلنس منها ملوك الشام بنو أيوب ، ولكن (ابن خلكان : الوفيات : ج ٣ ، ص ٤٧٠)

ضبطها « دوين » ، وعرفها بما لا يختلف كثيرًا عن تعريف ياقوت ، قال : « هي بلدة في آخر عمل

أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج » .

(٥) م : « الموصل المحروسة » .

(٦) هذا اللفظ غير موجود في (م)

(٧) هذا الدعاء غير موجود في (م) .

محاسن أخلاقه ، حتى بدت منه أمارات السعادة ، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة ، فقدّمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى - رحمه الله تعالى - وعوّل عليه ، ونظر إليه ، وقربه وخصصه ، ولم يزل كلما تقدم قدما تبدو منه أسباب تقتضى تقديمه إلى ما هو أعلى ، حتى اتفق ^(١) لعمه أسد الدين - رحمه الله - الحركة إلى محروسة مصر والنهوض ^(٢) إليها .

وسياتى ذكر ذلك مفصلا مبينا في موضعه ^(٣) إن شاء الله تعالى .

* * *

(١) م : د بدا .

(٢) م : د إلى مصر المحروسة وذهابه إليها .

(٣) هذان اللفظان غير موجودين في (م) .

ذكر ماشاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية
وملاحظته للأمور الشرعية
رحمه الله

ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال :
« بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ،
وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَالْحَجِّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ » .
وكان - رحمه الله عليه - حَسَنَ العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى ، قد
أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء ،
وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه ، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول
فيه قولاً حسناً ، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء ، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته
/ عن كدر التشبيه ، غير مارق سهم النظر فيها إلى التعطيل والتمويه ، جارية ٣ ب
على نمط الاستقامة ، موافقة لقانون النظر الصحيح ، مرضية عند أكابر العلماء .
وكان - رحمه الله - قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابوري
- رحمه الله - عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب ، وكان من شدة
حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى تترسخ في أذهانهم من الصغر ،
ورأيت^(١) وهو يأخذها عليهم ، وهم يقرؤونها^(٢) من حفظهم بين يديه ، رحمه
الله .

(١) كان مؤلف هذا الكتاب بهاء الدين بن شداد قاضياً لعسكر صلاح الدين ، وقد لازمه خلال
الحقبة الأخيرة من حياته التي قضها في الشام ، وخالطه مخالطة تامة ، وهو يروي معظم هذه السيرة عن
مشاهدة ، وهو ينص في معظم الأحوال على أنه رأى الأحداث التي يؤرخ لها أو سمع الأقوال التي يرويها ،
ولهذا اعتبرت سيرته هذه أوثق المراجع للتاريخ لحياة البطل صلاح الدين ، وعليها اعتمد جل المؤرخين اللاحقين
من عرب وأوروبيين عند الكتابة عن حياة صلاح الدين ، وهذا هو أول نص يشير فيه ابن شداد إلى أنه
كان شاهد عيان للأحداث التي يؤرخ لها .

(٢) م : « يلقونها » .

وأما الصلاة :

فإنه - رحمه الله تعالى - كان شديد المواظبة عليها بالجماعة ، حتى إنه ذكر يوماً أن له سنين ما صلى إلا جماعة ، وكان إذا مرض يستدعى الإمام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلى جماعة ، وكان يواظب على السنن الرواتب .

وكان له ركعات يصلّيها إن استيقظ بوقت ^(١) في الليل ، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح ، وما كان يترك الصلاة ما دام عقله عليه ، ولقد رأيتُه ، - قدس الله روحه - يصلى في مرضه الذى مات فيه قائماً ، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التى تغيب فيها ذهنه ^(٢) .

٤ أ / وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى .

وأما الزكاة :

فإنه مات - رحمه الله تعالى - ولم يحفظ ما وجبت به عليه الزكاة .
وأما صدقة النفل فإنها استنفدت ^(٣) جميع مملكه من الأموال ، فإنه ملك ما ملك ومات ^(٤) ، ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصيرة ، وجرما ^(٥) واحداً ذهباً صورياً ^(٤) ، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ، ولا قرية ، ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك ، رحمة الله عليه .

(١) م : « وكان له صلوات يصلّيها إذا استيقظ في الليل » .

(٢) انظر : (ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشيال ، ج ٢ ص ٤٢٩) .

(٣) م : « استرقت » .

(٤) هذا اللفظ غير موجود في (م) .

(٥) كذا في الأصل ، وفي (سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٤٣٢) : « ديناراً » ، ويبدو أن لفظ جرم كان يعنى ديناراً ، فقد ورد في مرآة الزمان ، نفس الجزء ، ص ٤٣٣ : وقال العماد الكاتب : لم يخلف في خزائنه سوى ستة وثلاثين درهماً ، وديناراً واحداً ذهباً ، وإن كنت لم أعر في المعاجم التى بين يدي على أن لفظ « جرم » يعنى الدينار .

وأما صوم رمضان :

فإنه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة ، وكان القاضى الفاضل قد تولّى ثبت تلك الأيام ، وشرع - رحمه الله - في قضاء فوائت ذلك في القدس الشريف في السنة التى توفى فيها ، وواظب على الصوم مقدارًا زائدًا على شهر ؛ فإنه كان عليه ^(١) فوائت رمضانين ، شغلته الأمراض وملازمه الجهاد عن قضائها ، وكان الصوم ^(٢) / لا يوافق مزاجه ، ^{٤ ب} فألهمه الله تعالى الصوم ، بقضاء الفوائت ^(٣) ، فكان يصوم وأنا أثبت ^(٤) الأيام التى يصومها ، لأن القاضى كان غائبًا ، والطبيب يلومه وهو لا يسمع ، ويقول : « لا أعلم ما يكون » فكأنه كان ملهمًا ببراءة ذمته ، رحمة الله عليه ، ولم يزل حتى قضى ما كان عليه ^(٥) .

وأما الحج :

فإنه لم يزل عازمًا عليه ، وناويًا له ، سيما في العام الذى توفى فيه ، فإنه صمّ العزم عليه ، وأمر بالتأهب ، وعملت الزوادة ^(٦) ، ولم يبق إلا المسير ، فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت وفراغ ^(٧) اليد عما يليق بأمثاله ، فأخره إلى العام المستقبل ، فقضى الله ما قضى ؛ وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعام .

(١) م : « وقد واظب مدة حتى بقيت عليه فوائت » .

(٢) م : « ومع كون الصوم » .

(٣) م : « وأقدره على ما قضاه من تلك الفوائت » .

(٤) م : هذا النص شاهد على شدة صلة المؤلف بصلاح الدين وهو النص الثانى الذى يشير فيه إلى أنه يروى عن مشاهدة أو مشاركة .

(٥) م : « فكأنه كان ملهمًا ما يراد به ، رحمه الله تعالى » .

(٦) م : « وعملنا الرفادة » .

(٧) م : « وخلو » .

وكان - رحمه الله تعالى - يحب سماع القرآن العظيم ، حتى إنه كان يستخير^(١) إمامه ، ويشترط أن يكون عالمًا بعلوم^(٢) القرآن العظيم ، متقنًا لحفظه .

وكان يستقرئ من يحضره^(٣) في الليل - وهو في برجه - الجزئين والثلاثة والأربعة ، وهو يسمع .

وكان يستقرئ - في مجلسه العام - من جرث عادته بذلك الآية / والعشرين ، والزائد على ذلك . ه أ

ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن ، فاستحسن قراءته ، فقرّبه ، وجعل له حظًا من خاص طعامه ، ووقف عليه وعلى أبيه جزءًا من مزرعة .

وكان - رحمه الله تعالى - رقيق القلب ، خاشع الدمعة^(٤) ، إذا سمع القرآن يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته .

وكان - رحمه الله - شديد الرغبة في سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير ، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه ، فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصين به ؛ وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث لإجلاله ؛ وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ، ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه ، وسمع عليه ؛ تردد إلى الحافظ الأصفهاني^(٥) بالإسكندرية - حرسها الله تعالى - ، وروى عنه أحاديث كثيرة .

(١) م : « ويستجيد إمامه » .

(٢) م : « بعلم » .

(٣) م : « من يحضره » .

(٤) م : « خاشع القلب رقيقه ، غزير الدمعة » .

(٥) الحافظ الأصفهاني هو الحافظ السلفي أبو الطاهر عماد الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد -

وكان - رحمه الله تعالى - يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضرني ^(١) في خلوته ، ويحضر شيئاً من كتب الحديث ويقرأ هو ، فإذا مرَّ بحديث فيه عبرة رُقُّ قلبه ، ودمعت عينه .

وكان - رحمه الله عليه - كثير التعظيم لشعائر الدين ، قائلاً ^(٢) بيعت الأجسام ونشورها / ، ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار ، مصداقاً بجميع ماوردت به الشرائع ، منشرحاً بذلك صدره ، مبغضاً للفلاسفة والمعتلة والدهرية ^(٣) ومن يعاند الشريعة ، ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر

= ابن إبراهيم المحدث المشهور ، والسلفي لقب جد له ، نسبة إلى سلفة ، وهو لفظ فارسي معناه ثلاث شفاه ، لأن إحدى شفتيه كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين ، وقد تلقى دراسته الأولى بموطنه أصبهان ، ثم حج وسمع بالحرمين ، وطوف بالبلاد في طلب الحديث ، فزار بغداد ودمشق وصور ، وانتهى به المطاف إلى الاسكندرية في سنة ٥١١ هـ ، وظل مقيماً بها إلى أن توفي سنة ٥٧٦ هـ ، ودفن كما يقول ابن خلكان « في وعلة » ، وهي مقبرة داخل السور عند الباب الأخضر ، وقد بنى له العادل بن السلار وزير الخليفة الفاطمي الظاهر مدرسة بالاسكندرية ، وهي إحدى مدرستين بنيتا في الاسكندرية قبل عصر صلاح الدين (انظر : جمال الدين الشيال : أول أستاذ لأول مدرسة في الاسكندرية الإسلامية ، مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد ١١ ، ديسمبر ١٩٥٧ ، ص ١ - ٢٩) ، وللحافظ السلفي كتاب قيم عنوانه « معجم السفر » ترجم فيه لعدد كبير من العلماء الذين اتصلوا به أثناء مقامه بالاسكندرية ، وتوجد منه صورة شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٣٩٣٢ ، ونسخة مصورة أخرى . بمكتبة بلدية الاسكندرية . ولاستيفاء ترجمة الحافظ السلفي راجع : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ٨٧ - ٩٠) و (ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٨٧ ، ١٢٧) و (السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٤ ، ص ٤٣) و (السيوطي : طبقات الحفاظ ، ج ٢ ، ص ٣٩) و (السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ص ١٦٥) و (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٥٥) و (الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ٤) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٠٧) و (المقرئ : اتعاظ الخنفا ، مخطوطة طوب قهو سراي ، ص ١٤٣ ب) و (الشيال : الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، ص ٢١٨ - ٢١٩ و ٢٢٢) .

(١) هذا هو النص الثالث الذي يشير فيه المؤلف إلى أنه يروي عن مشاهدة أو مشاركة .

(٢) م : « يقول » .

(٣) هذا اللفظ غير موجود في (م) .

- أعزُّ الله أنصاره - بقتل شاب نشأ كان يقال له السهروردي ، قيل عنه إنه كان معاندا للشرائع مبطلا ، وكان قد قبض عليه ولذَّه المذكور لما بلغه من خبره ، وعرف السلطان به ، فأمره بقتله ، وصلبه ^(١) أياما ، فقتله .

وكان - قدس الله روحه - حسن الظن بالله ، كثير الاعتماد عليه ، عظيم الإنابة إليه ، ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه ^(٢) :

وذلك أن الفرنج - خذلهم الله - كانوا نازلين ببيت نوبة ، وهو موضع قريب من القدس الشريف - حرسها الله تعالى - يكون بينهما بعض مرحلة ؛ وكان السلطان بالقدس ، وقد أقام يَزَكَا ^(٣) على العدو محيطا به ، وقد سير إليهم الجواسيس والخبرين ، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته ، وتركيب القتال ^(٤) عليه ، واشتد خوف ^(٥) المسلمين بسبب ذلك ، فاستحضر الأمراء ، وعرفهم ماقد دهم / المسلمين من الشدة ، وشاورهم في الإقامة بالقدس ، فأتوا بمجاملة باطنها غير ظاهرها ، وأصر الجميع على أنه لا مصلحة في إقامته بنفسه ، فإنها مخاطرة بالإسلام ، وذكروا أنهم يقيمون هم ، ويخرج هو ^(٦) - رحمه الله - بطائفة من العسكر يكون حول العدو كما كان الحال بعكا ، ويكون هو ومن معه بصدد منع ميرتهم والتضييق عليهم ، ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدفع عنه ، وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصر على أن يقيم هو بنفسه ، علما منه أنه إن لم يقيم ما يقيم أحد ، فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم ، جاء من عندهم من أخبر أنهم لا يقيمون إلا أن يقيم أخوه

٦ أ

(١) م : « فطلبه أياما » .

(٢) هذا هو النص الرابع الذي يشير منه المؤلف إلى أنه يروي عن مشاهدة أو مشاركة .

(٣) اليزك لفظ فارسي معناه : طلائع الجيش : انظر : (Dozy : supp. Dict. Arab.) .

(٤) م : « القنابل » وهي قراءة عجيبة .

(٥) م : « واشتدت مخافة » .

(٦) م : « أنهم يقصلونهم ويخرج هو » وهو نص غير مفهوم .

الملك العادل أو أحد أولاده ، حتى يكون هو الحاكم عليهم والذي يأتمرون بأمره ،
فعلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الإقامة ، وضاق صدره ، وتقسم فكره ،
واشتدت فكرته .

ولقد جسلت في خدمته في تلك الليلة - وكانت ليلة الجمعة - من أول
الليل إلى أن قارب الصبح ، وكان الزمان شتاءً ، وليس معنا ثالث إلا الله تعالى ،
ونحن نقسم أقساماً ، ونرتب على كل قسم مقتضاه ، حتى أخذني الإشفاق عليه
والخوف على مزاجه / ، فإنه كان يغلب عليه اليأس ، فشفعتُ إليه حتى يأخذ
مضجعه لعله ينام ساعةً ، فقال - رحمه الله - : « لعلك جاعك النوم » ، ثم نهض .
فما وصلتُ إلى بيتي ، وأخذتُ لبعض شأني إلا وأذن المؤذن ، وطلع
الصبح ، وكنتُ أصلي معه الصبح في معظم الوقت ، فدخلتُ عليه وهو يمرُّ الماء
على أطرافه ، فقال :

- « ما أخذني النوم أصلاً » .

فقلتُ :

- « قد علمتُ » .

فقال :

« من أين ؟ »

فقلتُ :

« لأنني مائتٌ ، وما بقي وقتٌ للنوم » .

ثم اشغلنا بالصلاة ، وجلسنا على ما كنا عليه ، فقلتُ له :

- « قد وقع لي واقعٌ ، وأظنه مفيداً إن شاء الله تعالى » .

فقال :

- « وما هو ؟ » .

فقلتُ له :

- « الإخلاص إلى الله تعالى ، والإجابة إليه ، والاعتماد في كشف هذه الغمة عليه » .

فقال :

- « وكيف نصنع ؟ » .

فقلتُ :

- « اليوم الجمعة ، يغتسل المولى عند الرواح ، ويصلي على العادة بالأقصى ، موضع مسرى النبي - ﷺ - ، ويقدم المولى التصديق بشيء خفية على يد مَنْ يثق به ، ويصلي المولى ركعتين بين الأذان والإقامة ، ويدعو الله في سجوده فقد ورد فيه حديث صحيح وتقول / في باطنك : « إلهي ، قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاص إليك ، والاعتصام بحبلك ، والاعتماد على فضلك ، أنت حسبي ونعم الوكيل » ، فإن الله تعالى أكرم من أن يخيب قصدك .

٧ أ

ففعل ذلك كله ، وصليتُ إلى جانبه على العادة ، وصلى الركعتين بين الأذان والإقامة ، ورأيتُه ساجداً ، ودموعه تتقاطر على شيبته ، وعلى سجاداته ، ولا أسمع ما يقول ، فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعةً من عز الدين جُرديك - وكان على اليزك - يخبر فيها أن الفرنج مغبطون ، وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء ، ووقفوا إلى قائم الظهيرة ، ثم عادوا إلى خيامهم .

وفي بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك .

ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا ، فذهبت الفرنسية إلى أنهم لابد لهم من محاصرة القدس ، وذهب الانكثار ^(١) وأتباعه إلى أنه لا يخاطر بدين النصرانية ويرميهم في هذا الجبل مع عدم المياه ، فإن السلطان كان قد أفسد جميع ما حول القدس من المياه ، وأنهم خرجوا للمشورة ، / ومن عادتهم

٧ ب

(١) المقصود به الملك ريتشارد قلب الأسد ، ملك إنجلترا .

أنهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل ^(١) ، وأنهم قد نصّوا على عشرة أنفس منهم وحكّموهم ، فبأى شيء أشاروا به لا يخالفونهم ^(٢) .
ولما كانت بكرة الاثنين ، جاء البشير يخبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرملة .

فهذا ما شاهدته من آثار استنابته ^(٣) وإخلاده إلى الله تعالى ، رحمه الله .

ذكر عدله

رحمة الله عليه

روى أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال :

« الوالى العادل ظلّ الله فى أرضه ورحمه ، فمن نصحه فى نفسه فى نفسه أو فى عباد الله أظله الله تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، ومن خانته فى نفسه أو فى عباد الله خذله الله يوم القيامة ، يرفع للوالى العادل فى كل يوم عمل ستين صديقاً كلهم عاهد مجتهد لنفسه » .

ولقد كان - رحمه الله - عادلاً ، رؤوفاً ، رحيماً ، ناصراً للضعيف على القوى .

وكان يجلس للعدل فى كل يوم اثنين والخميس فى مجلس ^(٣) عام ، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد ، من كبير وصغير ، وعجوز هرمة ، وشيخ كبير ، / وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً ^(٤) .

(١) هذه إشارة طريفة إلى تقليد من تقاليد الصليبيين فى حروبهم .

(٢) م : « استنابته » ولا يستقيم بها المعنى .

(٣) هذا اللفظ ساقط من الأصل ، وقد أضيف عن (م) ليستقيم به المعنى .

(٤) هذا نص له قهقهة عند التأريخ لنظام القضاء على عصر صلاح الدين .

على أنه كان في جميع أزمائه قابلاً لما يعرض عليه من القصص ^(١) كاشفاً لما ينتهي إليه من المظالم ، وكان يجمع القصص ^(٢) في كل يوم ^(٣) ، ويفتح باب العدل ، ولم يردّ قاصداً للحوادث والحكومات ^(٤) ، ثم يجلس مع الكاتب ساعة ، إما في الليل أو النهار ، ويوقع على كل قصة بما يطلق ^(٥) الله على قلبه ، ^(٦) ولم يردّ قاصداً أبداً ولا متحلاً ولا طالب حاجة ، وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة ، رحمة الله عليه .

ولقد كان رؤوفاً بالرعية ، ناصراً للدين ، مواظباً على تلاوة القرآن العزيز ، عالماً بما فيه ، عاملاً به ، لا يعدوه أبداً ، رحمة الله عليه ^(٧) .

وما استغاث إليه أحدٌ إلا وقف وسمع قضيته ، وكشف ظلامته ، وأخذ ^(٨) قصته ؛ ولقد رأيتُه ^(٩) وقد استغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له : ابنُ زهير على تقى الدين - ابن أخيه - ، فأنفذ إليه ليحضره إلى مجلس الحكم ، فما خلّصه إلى أن أشهد عليه شاهدين معروفين مقبولي القول أنه وكل القاضي أبا القسم أمين الدين - قاضي حماة - في الخصمة والمنازعة ، فحضر الشاهدان ، وأقاما الشهادة عندي في مجلسه - رضى الله عنه - بعد دعوى الوكيل الوكالة الصحيحة ، وإنكار الخصم ، فلما ثبتت الوكالة أمرت أبا القسم بمساواة الخصم ، فساواه - وكان من خواص السلطان - رحمه الله - ، ثم جرت المحاكمة بينهما ، واتجهت اليمين على تقى الدين ، وانقضى المجلس على ذلك ، وقطعنا عن إحضاره دخول الليل ^(١٠) ، وكان تقى الدين من أعز / الناس عليه ، وأعظمهم عنده ، ولكنه لم يُخَابه في الحق .

٨ ب

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٢) هذه الجملة غير موجودة في الأصل ، وقد أضيفت عن (م) .

(٣) م : « بما يجريه الله » .

(٤) هذه الفقرة كلها غير موجودة في الأصل ، وقد أضيفت عن (م) .

(٥) م : واعتنى .

(٦) هذا هو النص الخامس الذي يشير فيه المؤلف إلى أنه يروى عن مشاهدة أو مشاركة .

(٧) هذه الفقرة كلها ساقطة من (م) وهذا دليل واضح قوى على أفضلية نسخة الأصل .

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على ^(١) عدله - رحمه الله - ^(٢) قضية جرت له مع إنسان تاجر يُدعى عمر الخلاطى ، وذلك أنى كنتُ ^(٣) يوماً فى مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل على شيخ حسن تاجر معروف ، يسمى « عمر الخلاطى » ، معه كتاب حكى يسأل فتّحه ، فسألته :

« مَنْ يَخْصُمُكَ ؟ » .

فقال :

« خصمى السلطان ، وهذا بساطُ الشرع ^(٣) ، وقد سمعنا أنك لا تحبى » .

فقلتُ :

« وفى أى قضية هو خصمك ؟ » .

فقال :

« إن سُنُقِرَ الخلاطى كان مملوكى ، ولم يزل على ملكى إلى أن مات ، وكان فى يده أموال عظيمة كلها لى ، ومات عنها ، واستولى عليها السلطان ، وأنا مطالبُ بها » .

فقلتُ له :

« يا شيخ ، وما أقعدك إلى هذه الغاية ؟ » .

فقال :

« الحقوق لا تبطل بالتأخير ، وهذا الكتاب الحكى ينطق بأنه لم يزل لى ملكى إلى أن مات » .

(١) هذه الكلمات الثلاث ساقطة من (م) .

(٢) هذا هو النص السادس الذى يشر فيه المؤلف إلى أنه يروى عن مشاهدة أو مشاركة .

(٣) م : « العدل » .

فأخذت الكتاب منه ، وتصفحت مضمونه ، فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطى ، وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش ، فى اليوم الفلانى ، من شهر كذا ، من سنة كذا ؛ وأنه لم يذل فى ملكه إلى أن شذ عن يده فى سنة كذا ، وما عرف / شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما ، وتم الشرط إلى آخره .

فتعجبت من هذه القضية ، وقلت للرجل :

« (١) لا يسعنى سماع الدعوى مع وجود الخصم (١) ، وأنا أعرفه وأعرفك ما عنده (٢) فى ذلك (٢) » .

فرضى الرجل بذلك ، واندفع ، فلما اتفق المثل بين يديه فى بقية ذلك اليوم عرفت القضية ، فاستبعد ذلك استبعادا عظيما ، وقال :

« كنت نظرت فى الكتاب ؟ »

فقلت :

« نظرت فيه ، ورأيت متصل الورود والقبول إلى دمشق ، وقد كتب عليه : كتاب حكى من دمشق ، وشهد به على يد قاضى دمشق شهود معروفون » .

فقال :

« مبارك ، نحضر الرجل ونحاكمه ، ونعمل فى القضية ما يقتضيه الشرع » .

ثم اتفق بعد ذلك جلوسه - رضى الله عنه - خلوة ، فقلت له :

(١) م : « لا ينبغي سماع هذا بلا وجود الخصم » .

(٢) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

- « هذا الخصم يتردد ، ولا بد وأن نسمع دعواه » .

فقال :

- « أقم عنى وكيلا يسمع الدعوى ، ثم يقيم الشهود شهادتهم ، وأخرُ فتح الكتاب إلى حين حضور الرجل عنده هاهنا » .

ففعلتُ ذلك ، ثم أحضر الرجل ، واستدناه حتى جلس بين يدى ، وكنتُ جانبه ، ثم انزل من طراحته حتى ساواه وقال :

- « إن كان لك دعوى فاذكرها » .

فحرّر الرجل الدعوى على معنى ماشرح أولاً ، فأجابه السلطان :

- « إن سنُقَر / هذا كان مملوكى ، ولم يزل على ملكى حتى أعتقته ، ٩ ب وتوفى وخلف ما خلفه لورثته » .

فقال الرجل :

- « لى بينة تشهد بما أدعيته » .

ثم سأل فتح كتابه ، ففتحتُه ، فوجدته كما شرحته ، فلما سمع السلطان التاريخ ، قال :

- « عندى ^(١) من يشهد أن هذا سنُقَر فى هذا التاريخ كان فى ملكى وفى يدى بمصر ، وأنى اشتريته مع ثمانية أنفس فى تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة ، وأنه لم يزل فى يدى وملكى إلى أن أعتقته » .

ثم استحضر جماعة عن أعيان الأمراء المجاهدين ، فشهدوا بذلك ، وحكوا القضية كما ذكرها وذكرها ، والتاريخ كما ادعاه ، فأبلس الرجل ، فقلتُ له :

- « يامولاي ، هذا الرجل مافعل ذلك إلا طلبا لمراحم السلطان ، وقد حضر بين يدى مولانا ، وما يحسن أن يرجع خائب القصد » فقال :

(١) هذا اللفظ ساقط من الأصل ، وقد أضيف عن (م) .

- « هذا باب آخر » .

وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة ، قد شذَّ عنى مقدارها .

فانظر إلى مافي طي هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة ، من التواضع ،
والانقياد إلى الحق ، وإرغام النفس ، والكرم في موضع المؤاخذة ، مع القدرة
التامة ، رحمه الله رحمة واسعة .

* * *

ذكر طرف من كرمه رحمه الله

١٠ أ

/ قال - ﷺ :-

« إذا عثر الكريم فإن الله آخذ بيده » .

وفي الكرم أحاديث .

وكرمه - قدس الله روحه - كان أظهر من أن يسطر ، وأشهر من أن يذكر ، لكن نُبِّه^(١) عليه جملة ، وذلك أنه ملك ما ملك ومات ، ولم يوجد في خزائنه من الفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصرية ، ومن الذهب إلا جرم واحد صوري^(٢) ، ما علمت وزنه .

وكان - رحمه الله - يهب الأقاليم . وفتح آمد ، وطلبها منه ابن قره أرسلان ، فأعطاه إياه .

ورأيته^(٣) قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف ، وكان قد

(١) م : « نبهت عليه » .

(٢) عن الجرم انظر مافات هنا (ص ٣٤ ، هامش ٥) وعن الدينار الصوري انظر : (ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشيال ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ، هامش ٧) ، ويضاف إلى ما هناك أن الأب لويس شيخو ذكر في (صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ١٤٩ ، هامش ٢) أن الدينار الصوري ضرب في مدينة صور أيام الدولة الفاطمية ، وكان الذهب يساوي نحو خمسة عشر فرنكا ذهبيا من النقود الحالية ، وقد كان الدينار الصوري أقل قيمة من الدينار المصري ، وعن دار الضرب في صور وعن الدينار الصوري ، وعن أنواع الدنانير المتداولة في مصر والشام في العصر الأموي راجع : (منصور بن بكرة الذهبي الكامل : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، مخطوطة فريدة بدار الكتب المصرية بالقاهرة) و

(Ehrenkreutz : Extracts from the technical monual on the Aaynbid mint in Cairo, B.S.O.A.S 1953, xv 3, P. 424-447)

(Ehrenkreutz : The Standard of Fineness of gold Coins Circulating in Egypt at the time of the Crusades journal of the american Oriental Society. vol. 74, No. 3 july Sept. 1954, P. 162-166)

(٣) هذا هو النص السابع الذي يشير فيه المؤلف إلى أنه يروى عن مشاهدة أو مشاركة .

عزم على التوجه إلى دمشق ، ولم يكن في الخزانة ما يعطى الوفود ، فلم أزل أخاطبه في معاناهم حتى باع قرية ^(١) من بيت المال ، وفضضنا ثمنها عليهم ، ولم يفضل منه درهم واحد .

وكان - رحمه الله - يعطى في وقت الضائقة كما يعطى في حال السعة ، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال ، حذراً أن يفاجئهم مُهِمٌ ، لعلمهم أنه متى علم به أخرجه .

وسمعت منه يوماً يقول في معرض حديث جرى :

١٠ ب - « يمكن أن يكون في الناس مَنْ ينظر إلى المال كمن / ينظر إلى التراب » .
فكانه أراد بذلك نفسه ، رحمه الله تعالى .

وكان يعطى فوق ما يؤمل الطالب ، وما سمعته قط يقول : « أعطينا لفلان » وكان يعطى الكثير ، ويبسط وجهه للمُعْطَى ^(٢) بسط من لم يُعْطِه شيئاً .

وكان - رحمه الله - يعطى ، ويكرم أكثر مما يعطى ، وكان قد عرفه الناس ، فكانوا يستزيدونه في كل وقت ، وما سمعته قط يقول : « قد زدْتُ مراراً ، فكم أزيد ؟ » .

وأكثر الرسائل كانت تكون في ذلك على لسانى ويدي ^(٣) ، وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون ، ولا أخجل منه من كثير ما أطلبه لهم ، لعلمى بعدم مؤاخذته في ذلك ، وما خدمه قطُّ أحد إلا وأغناه عن سؤال غيره .

(١) م : « أشياء » .

(٢) م : « للمطاء » .

(٣) هذا هو النص الثامن الذى يشير فيه المؤلف إلى أنه يروى عن مشاركة أو مشاهدة .

وأما تعداد عطاياها وتعداد صنوفها فلا يطمع فيه أصلاً حقيقة ، ولقد سمعت ^(١) من صاحب ديوانه يقول لى - وقد تجارينا عطاياها - فقال : « حصرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكا لا غير ، فكان عشرة آلاف فرس » . ومن شاهد عطاياها ^(٢) يستقل هذا القدر .

اللهم إنك ألهمته الكرم ، وأنت أكرم منه ، فتكرّم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين .

* * *

(١) هذا هو النص التاسع الذى يشرح فيه المؤلف إلى أنه يروى عن مشاركة أو مشاهدة أو سماع .

(٢) م : « مواهبه » .

/ (١) ذكر شجاعته

قدّس الله روحه

روى عن النبي - ﷺ - أنه قال :

« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الشَّجَاعَةَ وَلَوْ عَلَى قَتْلِ حَيَّةٍ » .

ولقد كان - رحمه الله تعالى - من عظماء الشجعان ، قوى النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ، لا يهوله أمر ، ولقد رأيتُه (٢) - رحمه الله - مرابطاً في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج ، وتُجُدُّهم تتواصل ، وعساكرهم تتواتر ، وهو لا يزداد إلا قوة نفس وصبر ، ولقد وصل في ليلةٍ واحدةٍ منهم نيف وسبعون مركباً على عكا ، وأنا أَعِدُّها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وهو لا يزداد إلا قوة نفس ، ولقد كان - رحمه الله - يعطى دستوراً في أوائل الشتاء ، ويقي في شُرْذمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة .

وقد سألتُ باليان بن بارزان (٣) ، وهو من كبار ملوك الساحل - وهو جالس بين يديه رحمه الله يوم انعقاد الصلح - عن عدتهم ، فقال الترجمان عنه ، إنه يقول :

« كُنْتُ أَنَا وَصَاحِبُ صَيْدَا - وَكَانَ أَيْضًا مِنْ مَلُوكِهِمْ وَعَقْلَائِهِمْ - قَاصِدِينَ عَسَكْرَنَا مِنْ صُور ، فَلَمَّا أَشْرَفْنَا عَلَيْهِ تَحَازَرْنَاهُ ، فَحَزَرَهُ هُوَ بِخَمْسِمِائَةِ أَلْفٍ ،

(١) كان من المفروض أن يبدأ هذا العنوان بصفحة (١١ أ) ولكن أوراق المخطوطة مضطربة الترتيب فما في تلك الصفحة هناك لا يتسق مع ما قبله في صفحته (١٠ ب) ، وإنما يتسق مع هذا العنوان في صفحة (١٢ أ) .

(٢) هذا هو النص العاشر الذي يشير فيه المؤلف إلى أنه يروى عن مشاركة أو مشاهدة .

(٣) هو بليان الثاني الأبليني (Balian II of Ibelin) صاحب الرملة ، والاسم عند ابن الأثير : (باليان ابن برزان) ، راجع أيضاً (ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشهاب ، ج ٢ ، ص ٢١١ وما بعدها) .

وحزرتهم أنا بستمائة ألف أو قال عكس / ذلك ، فقلت : فكم هلك ١٢ ب
منهم ؟ فقال : أما بالقتل فقريب من مائة ألف ، وأما بالموت والغرق فلا نعلم ،
وما رجع من هذا العالم إلا الأقل .

وكان لا بد له من أن يطوف حول العدو في كل يوم مرة أو مرتين إذا
كنا قريباً منهم .

وكان - رحمه الله تعالى - إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي
واحد وعلى يده جنيب ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى اليسرة ، ويرتب
الأطلاب ، ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها ، وكان يشارف العدو
ويجاوره ، رحمه الله .

ولقد قرىء عليه جزء ^(١) من الحديث بين الصفين ، وذلك أنى قلت له :
- « قد سُمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ، ولم يُنقل أنه سُمع بين
الصفين ، فإن رأى المولى أن يُؤثر عنه ذلك كان حسناً » .

فأذن في ذلك ، فأحضر جزء ^(٢) وهناك أحضر مَنْ له به سماع ، فقرأ
عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين ، نمشى تارة ، ونقف أخرى .

وما رأيته استكثر العدو أصلاً ، ولا استعظم أمرهم قط ، وكان مع ذلك
في حال الفكر والتدبير ، يذكر بين يديه الأقسام كلها ، ويرتب على كل قسم
مقتضاه من غير حدة ولا غضب يعتريه رحمه الله .

ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف / الأكبر بمرج عكا حتى القلب ١٣ أ
ورجاله ، ووقع الكؤوس ^(٣) والعلم وهو - رضى الله عنه - ثابت القدم في نفر

(١) م : « جزءان »

(٢) م : « جزء واحد من له به سماع » .

(٣) الكؤوس - ويقال أيضاً الكوسات - غرفها (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٩ ، -

يسير ، قد ^(١) انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردهم ، ويخجلهم حتى يرجعوا ^(٢) ، ولم يزل كذلك حتى نُصِر ^(٣) عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم ، وقُتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ، ولم يزل رحمه الله - مصابراً لهم ، وهم في العدة الوافرة إلى أن ظهر له ضعف المسلمين ، فصالح وهو مسئول من جانبهم ، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ، ولكنهم كانوا يتوقعون النجد ، ونحن لا نتوقعها ، وكانت المصلحة في الصلح ، وظهر ذلك لما أبدت الأقضية والأقدار ما كان في مكنونها .

وكان - رحمه الله - يمرض ويصح ، وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط ، وتترأى الناران ، ونسمع منهم صوت الناقوس ، ويسمعون منا صوت الأذان ، إلى أن انقضت الواقعة على أحسن حال وأيسره ، قدس الله روحه ، ونور ضريحه .

* * *

(= ٤٣) بأنها صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ، ومن يتولى ذلك يسمى الكوسى ، ويشبه أن يكون المقصود بها موسيقى الجيش أو (الطبلخاناه) كما كانت تسمى في مصطلح العصور الوسطى - ، ولى (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٩ ، ص ٦) جملة توضيح هذا المعنى وتؤكد ، قال : (وعقد للوزير فخر الدولة على ديار بكر ، وخلع عليه الخلع ، وأعطى الكوسات ، وأذن له في ضربها أوقات الصلوات الخمس بديار بكر ، والصلوات الثلاث : الفجر والمغرب والعشاء في المعسكر السلطاني) .

(١) م : « حتى » .

(٢) الأصل : « يرجعون » وهو خطأ واضح .

(٣) هذا اللفظ ساقط من الأصل ، وقد أضيف عن (م) ليستقيم به المعنى .

ذكر اهتمامه بأمر الجهاد

/ قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . ١٣ ب
ونصوص الجهاد فيها كثرة ^(١) .

ولقد كان - رحمه الله - شديد المواظبة عليه ، عظيم الاهتمام به ، ولو حلف
حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينارا ولا درهما إلا في الجهاد أو في
الإرفاد ، لصدق وبر في يمينه .

ولقد كان الجهاد وحيه ^(٢) والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه
استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آله ، ولا اهتمام
إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد
في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنته وسائر ملاذه ^(٣) وقنع من الدنيا
بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمينا ويسرة ^(٤) ، ولقد وقعت عليه الخيمة
في ليلة ريحة ^(٥) على مرج عكا ، فلو لم يكن في البرج ولا قتلته ^(٦) ،
ولا يزيد ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماما .

(١) م : « كثرة » .

(٢) م : « كان حبه للجهاد » .

(٣) م : « بلاده » .

(٤) م : « يمينة وميسرة » .

(٥) كذا في الأصل ، وفي (م) : « ريحة » .

(٦) م : « لقتلته » .

وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد أو ^(١) يذكر شيئا من أخبار الجهاد ، ولقد ألف له كتب عدة في الجهاد ^(٢) ، وأنا ممن جمع / له فيه كتابا ^(٣) ، جمعت فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى فيه ، وشرحت غريبها ؛ وكان - رحمه الله - كثيرا ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل .

ولأحكين عنه ما سمعته منه :

وذلك أنه كان قد أخذ كوكب في ذى القعدة سنة أربع وثمانين وخمسائة ^(٤) ، وأعطى العساكر دستورا ، وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر ، وكان مقدمه أخاه الملك العادل - رحمه الله - فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد في القدس الشريف - حرسه الله تعالى - وسرنا في خدمته ؛ ولما صلى العيد في القدس وقع له أنه مضى معهم ^(٥) إلى عسقلان ، ويودعهم بعسقلان ، ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا ، ويرتب أحوالها ، فأشاروا عليه أن لا يفعل ، فإن العساكر إذا فارقتنا تبقى في عدة يسيرة ، والفرنج كلهم بصور وهذه مخاطرة عظيمة ، فلم يلتفت - رحمه الله - وودع أخاه والعسكر بعسقلان .

ثم سرنا في خدمته على ^(٦) الساحل طالبين عكا ، وكان الزمان شتاء ١٤ ب عظيما والبحر هائجا هيجانا شديدا ^(٧) ، وموجه كالجبال كما قال / الله تعالى ، وكنت حديث عهد ^(٨) برؤية البحر فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لى أننى

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٢) هذه إشارة إلى كتاب آخر للمؤلف ابن شداد .

(٣) هذا اللفظ غير موجود في الأصل ، وقد أضيف عن (م) للايضاح .

(٤) م : « أن يمضى إلى » .

(٥) م : « إلى » .

(٦) م : « وكان الزمان شتاء ، والبحر هائجا شديدا » .

(٧) هذا اللفظ ساقط من الأصل ، وقد أضيف عن (م) لاستقيم المعنى .

لو قال لي قادرٌ ^(١) إن جزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا ، لما كنتُ أفعل ، واستسختفت ^(٢) رأى من ركب البحر رجاءً لكسب ^(٣) دينار أو درهم ، واستحسنْتُ رأى مَنْ لا يقبل شهادة راكب بحر .

هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه ^(٤) ، فبينما أنا في ذلك إذ التفّت إلّٰى رحمه الله وقال :

- « أما أحكى لك شيئاً ؟ قلت : بلى ، قال ^(٥) : في نفسي ، أنه متى يسّر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمتُ البلاد ، وأوصيتُ وودعتُ ، وركبت هذا البحر إلى جزائره ^(٥) ، أتبعهم ^(٦) فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت » .

فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان يخطر لي ، قلتُ له :
- « ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى ، ولا أقوى نيّة منه في نصرة دين الله » .

فقال : وكيف ؟

فقلتُ : أما الشجاعة فلأن مولانا ما يهوله أمرُ هذا البحر وهولُه ، وأما نصرة دين الله فهو أن المولى ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص في الأرض حتى تطهر جميع الأرض / منهم .

(١) هذا اللفظ ساقط من (م) .

(٢) م : « واستسختفت » .

(٣) هذا اللفظ ساقط من (م) .

(٤) هذه الكلمات الثلاث ساقطة من (م) .

(٥) م : « جزائره » .

(٦) م : « واتبعهم » .

واسأذنت في أن أحكى له ما كان يخطر لي ، فأذن ، فحكيت له ثم قلت :
ما هذه إلا نية جميلة ، ولكن المولى يُسير في البحر العساكر ، وهو سور الإسلام
ومنعته ، لا ينبغي له أن يخاطر بنفسه .

فقال : أنا أستفتيك : ما أشرف الميتات ^(١) ؟

فقلت : الموت في سبيل الله .

فقال : غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات .

فانظر إلى هذه الطوية ما أظهرها ، وإلى هذه النفس ما أشجعها
وأجسرها ^(٢) ، رحمة الله عليه .

اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك ، رجاء رحمتك فارحمه .

* * *

(١) م : « الميتين » .

(٢) م : « وأجراًها » .

ذكر

طرف من صبره واحتسابه
رحمة الله عليه

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبِرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنَ بَعِيدٍ لَّعَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ولقد رأيته - رحمه الله - بمرج عكا ، وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماويل ، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه ، بحيث لا يستطيع الجلوس ، وإنما يكون متكئا ^(١) على جانبه إذا كان في الخيمة ، وامتنع من مدّ الطعام بين يديه لعجزه / عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرّق على الناس ، وكان ١٥ ب مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريبا من العدو ، وقد رتبّ الناس ميمنة وميسرة وقلبا تعبئة القتال ، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر ^(٢) يطوف على الأطلاب ^(٣) ، ^(٤) ومن العصر إلى صلاة المغرب وهو صابر " على شدة الألم وقوة ضربان الدماويل ، وأنا أتعجب من ذلك ، فيقول : إذا ركبْتُ يزول عني ألمها حتى أنزل ، وهذه عناية ربانية .

(١) م : هـ وإنما كان متكئا .

(٢) كذلك الأصل ، وفي (م) : هـ المغرب .

(٣) جمع طلب ، وقد عرفها الدكتور زيادة في حواشيه على (السلوك) ج ١ ، ص ٢٤٨ ، هامش : ٢) بقوله : هـ وهو لفظ كردى معناه الأمير الذى يقود مائتى فارس في ميدان القتال ، ويطلق كذلك على قائد المائة أو السبعين ، وكان أول ما استعمل هذا اللفظ بمصر والشام أيام صلاح الدين ، ثم عدل مدلوله فأصبح يطلق على الكتيبة (Battailion) من الجيش ، انظر أيضا : (Dozy : Supp. Dict. Arab)

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشهاب ، ج ٢ ص ٥٩ ، هامش ٣ .

(٤) هذه الجملة ساقطة من (م) .

ولقد مرض - رحمه الله - ونحن على الخروبة ^(١) ، وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه ، فبلغ الفرنج ذلك ، فخرجوا طمعا في أن ينالوا من المسلمين شيئا ، وهي نوبة النهر ، فخرجوا في مرحلة إلى ^(٢) الآبار التي تحت التل ، فأمر هو - رحمه الله - بالثقل حتى تجهز للرحيل ، والتأخر إلى ^(٣) جهة الناصرة ؛ وكان عماد الدين - صاحب سنجار - ممرضاً أيضاً ، فأذن له حتى يتأخر مع الثقل ، وأقام هو ، ثم رحل العدو في اليوم الثاني يطلبنا ، فركب على مضض ، ورثب العسكر للقاء القوم تعبئة الحرب ، وجعل طرف / الميمنة الملك العادل ، وطرف الميسرة تقى الدين ، وجعل ولده الملك الظاهر في القلب والملك الأفضل ، ونزل هو وراء القوم بطلبه ، وأول ما نزل من التل أحضر بين يديه إفرنجي قد أسر من القوم ، فأمر بضرب عنقه فضرب عنقه بين يديه ، بعد عرض الإسلام عليه وإبائه عنه ، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو يستدير إلى ورائهم ، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم ، وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح ، ويتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس عليه ، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفاً .

ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ، ونزل هو قبالتهم على تل مطلق عليهم إلى أن دخل الليل ، ثم أمر العساكر المنصورة أن عادت إلى محال ^(٤) المصابرة ، وأن يبيتوا تحت السلاح ، وتأخر هو ، ونحن في خدمته ، إلى قمة الجبل ، فضربت له خيمة لطيفة ، وبث تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشأغله ، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى ، حتى لاح الصباح ، ثم ضرب البوق ، ١٦ ب وركب هو ، وركبت العساكر ، وأحدثت بالعدو / ، ورحل العدو عائداً إلى

(١) م : « الخروبة » .

(٢) هذا اللفظ ساقط من (م) .

(٣) م : « عن » .

(٤) م : « محل » .

خيامهم من الجانب الغربى من النهر وضايقه المسلمون فى ذلك اليوم مضايقة شنيعة .

وفى ذلك اليوم قُدم أولاده بين يديه احتساباً «^(١) الملك الظاهر والملك الأفضل والملك الظافر^(٢)» ، وجميع من حضر منهم ، ولم يزل يبعث مَنْ عنده حتى لم يبقَ عنده إلا أنا والطبيب ؛ وعارضُ الجيش ، والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير ، فيظن الرأى لها عن بُعد أن تحتها خَلْقاً عظيماً ،^(٣) وليس تحتها إلا واحد يُعَدُّ بخلق عظيم^(٤) ، ولم يزل العدو سائراً والقتل يعمل فيهم ، وكلما قُتل منهم شخص دفنوه ، وكلما جُرح منهم رجل حملوه ، حتى لا يبقى بعدهم من يعلم قتله وجرحه ، وهم سائرون ونحن نشاهدهم ، حتى اشتد بهم الأمر ، ونزلوا عند الجسر ؛ وكان الأفرنج متى ما نزلوا إلى الأرض أيس المسلمون من بلوغ غرضهم منهم ؛ لأنهم يجمعون فى حالة النزول حماية عظيمة^(٥) .

وبقى - رحمه الله - فى موضعه ، والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار ، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم ، وعدنا إلى منزلنا فى الليلة الماضية ،^(٦) فبتنا على ما بتنا / عليه إلى الصباح من مضايقة ١٧ أ العدو^(٧) ، ورحل العدو ، وسار على مضض من القتل والقتال ، حتى دنا إلى خيامه ، وخرج إليه منها مَنْ أنجده حتى وصلوا إلى خيامهم .

فانظر إلى هذا الصبر والاحتساب ، إلى أى غاية بلغ هذا الرجل ، اللهم إنك ألهمته الصبر والاحتساب ، ووفقته له ، فلا تحرمه ثوابه يا أرحم الراحمين .

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) ، راجع أيضاً : (ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشمال ، ج ٢ ص ٤٣٤) .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) ، راجع أيضاً : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٢) ، و (ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ، ص ٤٣٥) .

(٣) م : « يجمعون فى حالة النزول جماعة عظيمة » .

(٤) م : « وعاد العسكر فى الصباح إلى ما كان عليه بالأمس من مضايقة العدو » .

ولقد رأيته - رحمه الله تعالى - وقد جاءه خبر وفاة وليد له بالغ أو مراهق ^(١) يسمى إسماعيل ^(٢) ، فوقف على الكتاب ولم يعرف ، أحدًا ولم نعرف حتى سمعناه من غيره ، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه .

ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها ، وقد قال : « لاننام الليلة حتى نُصب لنا خمسة مناجيق ^(٣) » ، ورُتب لكل منجنيق قومًا يتولون نصبه ، وكنا طول الليل في خدمته - قدس الله روحه - في ألد فكاكة وأرغد عيشة ، والرسل تتواصل فتخبره بأن قد نُصب من المنجنيق الفلاني كذا ، ومن المنجنيق الفلاني كذا حتى أتى الصباح وقد فرغ منها ، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها عليها ، وكانت ١٧ ب من أطول الليالي وأشدّها برداً ومطراً . /

(١) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٢) ذكر (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٢٣ - ٤٢٥) أسماء أولاد صلاح الدين وليس من بينهم من اسمه إسماعيل .

(٣) المنجنيق - بفتح الميم وكسرها - أو المنجنوق ، أو المنجنيق ، (والجمع : مناجيق ومنجنيقات) لفظ أعجمي معرب ، فهو في اللاتينية (mangonellus)، وفي الفرنسية (mangonneau) وفي الإنجليزية (mangonel) وهو آلة من آلات الحصار في العصور الوسطى ، يقوم مقام المدفع الحالي ، وإن كانت قذائفه من الحجارة . وقد وصفه صاحب صبح الأعشى (ج ٢ ، ص ١٤٤) بأنه « آلة من خشب له دفتان قائمتان ، بينهما سهم طويل ، رأسه ثقل ، وذنبه خفيف ، تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه ، فما أصاب شيئاً إلا أهلكه » وقد ذكر (مرضى بن علي بن مرضى الطرطوسي) في مخطوطته (تبصرة أرباب الألباب .. الخ) التي ألفها خصيصاً لصلاح الدين أن المنجنيقات على عهده كانت ثلاثة أنواع : « فمنها العربي وهو أثقل مصنوعاتنا ، وأوثق معمولاتها ، ومنها التركي وهو أقلها كلفة وأحصرها مؤونة ، ومنها الفرنجي » ، ثم وصف هذه الأنواع جميعاً وصفاً دقيقاً مشفوعاً بالرسوم ، وقد نشر مقتطفات من هذه المخطوطة مع ترجمة فرنسية وتعليقات قيمة للأستاذ كلود كاهن . انظر :

(Clande Cahen : un Fraited, Armurerie Conpose, Pour Saladin. Evtrait du Bulletin d'Etudes Orientales, Damas, Tome XII, 1947-1948)

هذا ويوجد كذلك في (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩١ - ١٩٣) وصف ممتع =

ولقد رأيته وقد وصل إليه خبر وفاة تقي الدين عمر - ابن أخيه - ونحن في مقابلة الأفرنج جريدة على الرملة ^(١) ، وفي كل ليلة تقع الصبيحة فتقلع الخيام والناس تقف على ظهر إلى الصباح ونحن بالرملة ^(٢) والعدو يباذرون ، بيننا وبينها شوطٌ فرس لا غير ، فأحضر الملك العادل ، وعلم الدين سليمان ، بن جندر ^(٣) وسابق الدين بن الداية ^(٤) ، وعز الدين بن المقدم ، وأمر بالناس فطردوا من قريب من الخيمة ، بحيث لم يبق حولها أحدٌ زيادةً عن غلوةٍ سَنَمٍ ، ثم أظهر الكتاب ، ووقف عليه ، وبكى بكاءً شديداً حتى أبكنا ، من غير أن نعلم السبب ، ثم قال - رحمه الله - والعبرةُ تحقُّقه : توفي تقي الدين .

فاشتد بكاءه وبكاء الجماعة ، ثم عدتُ إلى نفسي فقلتُ : « استغفروا الله تعالى من هذه الحالة ، وانظروا أين أنتم ، وفيم أنتم ، وأعرضوا عما سواه » . فقال - رحمه الله - : نعم ، استغفر الله . وأخذ يكررها ، ثم قال : لا يعلم بهذا أحد .

واستدعى بشيء من الماورد فغسل عينيه ، ثم استحضر ^(١) الطعام ، وحضر الناس ، ولم يعلم بذلك أحد حتى عاد العدو إلى يافا ، وعدنا نحن إلى النظرون ، وهو مقر ثقلنا .

وكان - رحمه الله - / شديد الشوق والشغف بأولاده الصغار ، وهو ١٨ أ صابرٌ على مفارقتهم ، راضٍ ببعدهم عنه ، وكان صابراً على مرِّ العيش وخشونته ، مع القدرة التامة على غير ذلك ، احتساباً لله تعالى .
اللهم إنه ترك ذلك إتباعاً لمرضااتك ، فارضَ عنه وارحمه .

* * *

= للمنجنيق وطرق استعماله ، انظر أيضاً : (الجوالقي : العرب ، ص ٣٠٥ - ٣٠٧) و (نعمان ثابت : الجندية في الدولة العباسية ، ص ١٩٠ - ١٩٣) و (المقرئ : اتعاظ الخفا ، نشر الشيال ، ص ١١٩ ، هامش ٣) .

(١) هذه الجملة ساقطة من (م)

(٢) هذان اللفظان ساقطان من (م) ، راجع كذلك : (الروضتين ، ج ٢ ، ٢٢٢) و (ابن

واصل : مفرج الكروب ، نشر الشيال ، ج ٢ ، ص ٤٣٥) .

(٣) م : « أشخص » .

ذكر نُبَيْدٍ من حلمه وعَفْوِهِ

رحمه الله

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

ولقد كَانَ حليماً ^(١) متجاوزاً قَلِيلَ الْغَضَبِ .

ولقد كُنْتُ في خدمته بمرج عيون قبل خروج الأفرنج إلى عكا - يسرُّ اللهُ فتحها - . وكان من عادته أَنه يركب في وقت الركوب . ثم ينزل . فيمد الطعام ، ويأكل مع الناس ثم ينهض إلى خيمة خاص له ينام فيها ، ثم يستيقظ من منامه . ويصلي . ويجلس خلوة وأنا في خدمته . نقرأ شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه ؛ ولقد قرأ على كتاباً مختصراً لسليم ^(٢) الرازي يشتمل على الأربع الأربعة في الفقه .

فنزل يوماً على عادته ، ومُدَّ الطعام بين يديه ، ثم عزم على النهوض ، فقبل ١٨ ب له : إن وقت الصلاة قد قرب ، فعاد / إلى الجلوس . وقال : نصلي وننام . ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أدخل المكان إلا ممن لزم ، فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده ، وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين ، فقال له : أنا الآن ضجران ، أخرها ساعة .

فلم يفعل ، وقَدَّم القصة إلى قريب من وجهه الكريم بيده ، وفتحها بحيث يقرأها ، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه ، فقال : رجل مستحق . فقال : يوقع له المولى هاهي . فقال : ليست الدواة حاضرة الآن .

(١) هذا اللفظ ساقط من (م) .

(٢) لى (م) : « تصنيف الرازي » .

وكان - رحمه الله - جالساً في باب الحركة ^(١) بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها ، والدواة في صدرها ، والحركة كبيرة ، فقال له المخاطب . هذه الدواة في صدر الحركة .

وليس لهذا معنى إلا أمره إياه بإحضار الدواة لا غير ؛ فالتفت - رحمه الله - فرأى الدواة ، فقال : « والله لقد صدق » .

ثم امتد على يده اليسرى ، ومدَّ يده اليمنى فأحضرها ، ووقع له ، فقلتُ : « قال الله تعالى في نبيه - ﷺ - : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وما أرى المولى ، إلا قد شاركه في هذا الخلق ، فقال : ماضرنا شيء ، قضينا حاجته ، وحصل الثواب .

ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد / الناس وأفرادهم لقام وقعد ، ومن الذي ١٩ أ يقدر أن يخاطب أحداً هو تحت حكمه بمثل ذلك ، وهذا غاية الإحسان والحلم ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

ولقد كانت طراحته تُداس عند التراحم عليه لعرض القصص وهو لا يتأثر عنده لذلك .

ولقد نفرث يوماً بغلتي من الجمال وأنا راكب في خدمته ، فزحمت وركه حتى آلمته وهو يتسم - رحمه الله - .

ولقد دخلتُ بين يديه في يوم ريح مطير إلى القدس الشريف وهو كثير الوحل ، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أهلكته جميع ما كان عليه وهو يتسم ، وأردت التأخر عنه بسبب ذلك ، فما تركني .

(١) الحركة - والجمع خركاوات - لفظ فارسي ، شرحه (Dozy : Supp Diet. Arab) بأنه نوع من الخيمة يتكون من قطع من الخشب معقود بينها على شكل قبة ، وتغطيهما قطع من اللبد .

Cette espèce de tente, qui se compose de morceaux de bois réunis en forme de coupole, et sur lesquels on étend des pièces de feutre .

ولقد كان يسمع من المستغيثين إليه والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ،
ويلقى ذلك بالبشر والقبول ، وهذه حكاية يندر أن يُسطر مثلها :

وذلك أنه كان قد اتجه أحد ملك الإفرنج - خذلهم الله - إلى يافا ، فإن
العسكر كان قد رحل عنهم ، وبَعَدَ وتراجع إلى النطرون ، وهو مكان بينه وبين
يافا للعسكر مرحلتان للمجدّ وثلاث معتادة ، وجرد - رحمه الله - العسكر ،
١٩ ب ومضى / إلى قيسارية يلتقى نجدتهم ، عساه يبلغ منها غرضًا ، وعلم الإفرنج الذين
كانوا يافا ذلك ، وكان بها الانكثار ^(١) ، ومعه جماعة ، فجهز معظم مَنْ كان
عنده في الركب ^(٢) إلى قيسارية ، خشية على النجدة أن يتم عليها أمر ، وبقي
الانكثار في نفر يسير لعلمهم ببعده - رحمه الله - عنهم ، وبعد العسكر .

ولما وصل - رحمه الله - إلى قيسارية ورأى النجدة قد وصلت إلى البلد
واحتمت به ، وعلم أنه ما ينال منهم غرضه ، سرى من ليلته من أول الليل إلى
آخره ، حتى أتى يافا صباحًا ، والانكثار في سبعة عشر فارسًا وتقدير ثلاثمائة
راجل ، نازلا خارج البلد في خيمة له ، فصَبَّحه العسكر صباحًا ، فركب
الملعون ، وكان شجاعا بأسلا صاحب رأى في الحرب ، وثبت بين يدي العسكر ،
ولم يدخل البلد . فاستدار العسكر الإسلامي بهم إلا من جهة البلد ^(٣) ، وتعبى
العسكر تعبى القتال . وأمر السلطان العسكر بالحملة انتهاز الفرصة . فأجابه بعض
الأكراد الأمراء ^(٤) بكلام فيه خشونة ، حاصِلُه تعتب ، لعدم
التوفير في إقطاعه . فعطف - رحمه الله - عنان فرسه كالمغضب . لعلمه أنهم

(١) الانكثار ، أو الانكلتير - هكذا يسمى في المراجع العربية المعاصرة للحروب الصليبية والمقصود
هو الملك رتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا .

(٢) م : « المراكب » .

(٣) م : « البحر » .

(٤) هذا اللفظ ساقط من (م) .

لا يعلمون في ذلك اليوم ^(١) / ١١ أ شيئاً ^(٢) . وتركهم وانصرف راحعاً . وأمر
بخيّمته التي كانت منصوبة أن قُلت . وانفض الناس عن العدو ^(٣) متيقنين أن
السلطان في ذلك اليوم ربما صلب وقتل جماعة .

ولقد حكى لي ولدهُ الملك الظاهر - رحمه الله - أنه خاف منه في ذلك
اليوم حتى أنه لم يتجاسر أن يقع في عينه ، مع أنه حمل في ذلك اليوم وأوغل
حتى منعه - رحمه الله - ولم يزل السلطان - رحمه الله - سائراً حتى نزل بيازور ،
وهي مرحلة لطيفة ، فضربت له خيمة لطيفة هنالك ، ونزل بها ، ونزل العسكر
في منازلهم تحت صايوانات لطيفة كما جرت العادة في مثل ذلك الوقت ، وما
من الأمراء إلا من يرعد خيفة ، ومن يعتقد أنه مأخوذ مسخوط عليه ، قال :
ولم تحدثني نفسي بالدخول عليه خيفة منه حتى استدعاني .

قال : فدخلت عليه وقد وصله من دمشق المحروسة فأكهة كثيرة ، فقال :
أطلبوا الأمراء حتى يأكلوا شيئاً .

قال : فسرى عني ما كنت أجده ، وطلبت الأمراء فحضروا وهم خائفون ،
فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والأمن والسرور ، وانصرفوا
عنه على عزم الرحيل كأن لم يجر شيء أصلاً .

فانظر ١١ ب إلى هذا الحلم الذي لا يتأتى في مثل هذا الزمان ، ولا حكى
عمن تقدم من أمثاله ، رحمة الله عليه .

* * *

(١) النص غير متصل في الأصل من (١٩ ب - ٢٠ أ) ولكن بقيته توجد في ص (١١ أ) .

(٢) م : « وانفصوا متيقنين » .

(٣) هذه الفقرة كلها غير موجودة في (م) .

ذكر محافظته على أسباب المروءة قدس الله روحه

قال النبي - ﷺ : « بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ »

وكان - ﷺ - إذا صافحه الرجل لا يترك يده حتى يكون [الرجل هو التارك] الذي يبدأ بذلك .

ولقد كان السلطان كثير المروءة ، ندبى الوجه ، كثير الحياء ، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف ، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده ، وما يخاطبه في شيء إلا وينجزه .

وكان يكرم الوافد عليه وإن كان كافراً : ولقد وفد عليه البرنس - صاحب أنطاكية - فما أحس به إلا وهو واقف على باب خيمته بعد وقوع الصلح في شهر شوال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، عند منصرفه من القدس إلى دمشق ، عرض له في الطريق ، وطلب منه شيئاً ، فأعطاه العمق ، وهى بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل ، وهو سنة أربع وثمانين .

٢٠ أ ولقد رأيتُه وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرية ^(١) ، فاحترمه / وأكرمه ^(٢) ، وأكل معه الطعام ، ومع ذلك عرض عليه الإسلام ، فذكر له طرفاً من محاسنه ، وحثه عليه .

وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوى الأقدار ، وكان يوصينا بأن لا تغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده ، وينالهم من إحسانه .

(١) هذا اللفظ ساقط من الأصل ، وقد أضيف عن (م) .

(٢) بهذا اللفظ يعود النص في الأصل إلى الاتصال والاتساق في ص (٢٠ أ) .

ولقد مرُّ بنا سنة أربع وثمانين وخمسمائة رجلٌ جمع بين العلم والتصوف ، وكان من ذوى الأقدار ، وأبوه صاحب توريز - كان - فأعرض هو عن فن أبيه ، واشتغل هو والعمل ، وحجَّ ، ووصل زائراً لبيت الله المقدس ، ولما قضى لباتته منه ، ورأى آثار السلطان - رحمه الله - فيه ، وقع له زيارته ، فوصل إلينا فى المعسكر المنصور ، فما أحسستُ به إلا وقد دخل على فى الخيمة ، فلقيته ورحبتُ به ، وسألته عن سبب وصوله ، فأخبرنى بذلك ، وأنه يؤثر زيارة السلطان لما رأى له من الآثار الحميدة الجميلة ^(١) ، فعرفتُ السلطان - رحمه الله عليه - تلك الليلة ^(٢) وصول هذا الرجل ، فاستحضره ، وروى عنه حديثاً ^(٣) وشكره عن الإسلام ، وحثه على الخير ^(٤) ، وانصرفنا وانصرف معنا ، وبات عندى فى الخيمة ، فلما صلينا ^(٥) الصبح ، أخذ يودعنى ، فقُبِّحْتُ / له المسير بدون وداع السلطان ، فلم يلتفت ولم يَلُو على ذلك ، وقال : قضيتُ ٢٠ ب حاجتى منه ، ولا غرض لى فيما عدا رؤيته وزيارته ، وانصرف من ساعته . ومضى على ذلك ليالٍ ، فسأل السلطانُ عنه ، فأخبرته بفعله ، فظهر عليه آثار التعتب ، كيف لم أخبره برواحه ، وقال : كيف يطرقتنا مثل هذا الرجل ، وينصرف عنا من غير إحسان يمسه منا ؟ .

وشدَّد النكير على فى ذلك ، فما وجدتُ بداً من أن أكتب كتاباً إلى محبى الدين - قاضى دمشق - كلفته فيه السؤال عن حال الرجل . وإيصال رقعة كتبها إليه طى كتابى ، وأخبرته فيها بإنكار السلطان رَواحَه من غير اجتماعه به ، وحسنتُ له فيها العود ، وكان بينى وبينه صداقة تقتضى مثل ذلك وما أحسست به إلا وقد عاد إلى ^(٦) فكتبت رقعة وأعلمته بذلك ، فكتب إلى يقول : تحضره معك ، ففعلتُ ذلك ^(٧) ، فرحب به ، وانبسط معه ، واستوحش له ، وأمسكه

(١) هذا اللفظ أضيف عن (م) .

(٢) م : « السلطان بذلك فى ليلة وصول » .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٤) م : « صليت » .

(٥) هذه الجملة ساقطة من (م) .

أَيَّامًا ، ثم خلع عليه خلعة حسنة ، وأعطاه مركوبًا لائقًا ، وثيابًا كثيرة ، يحملها
 ٢١ أ إلى أهل بيته ^(١) وأتباعه وجيرانه ^(٢) ونفقة يرتفق بها ^(٣) ، وانصرف / عنه وهو
 أشكر الناس وأخلصهم دعاء لأيامه .

ولقد رأيتُه وقد مثل بين يديه أسير أفرنجي وقد هابه ^(٤) ، بحيث ظهرت
 عليه أماراتُ الخوف والجزع ، فقال له الترجمان ^(٥) : من أى شيء تخاف ؟
 فأجربى الله على لسانه أن قال : كنتُ أخاف قبل أن أرى هذا الوجه ، فبعد
 رؤيتي له وحضورى بين يديه ، أيقنتُ أنى ما أرى إلا الخير فرقُّ له ، ومنَّ عليه ،
 وأطلقه .

ولقد كنتُ راكبًا فى خدمته فى بعض الأيام قبالة الأفرنج وقد وصل بعض
 اليزكيَّة ^(٦) ، ومعه امرأة شديدة التحرق ^(٧) ، كثيرة البكاء ، متواترة الدق على
 صدرها ، فقال اليزكى : إن هذه خرجت من عند الفرنج ، وسألت الحضور
 بين يديك ، وقد أتينا بها . فأمر الترجمان أن يسألها عن قضيتها ^(٨) ، فقالت :
 إن اللصوص المسلمين دخلوا البارحة إلى خيمتى ، وسرقوا ابنتى ، وبثُّ البارحة
 أستغيث إلى بكرة النهار ، ^(٩) فقيل لى : الملك هو رحيم ^(١٠) ، ونحن نخرجك إليه
 تطلبين ابنتك ، فأخرجونى ، وما أعرف ابنتى إلا منك .

فرقُّ لها ، ودمعت عينه ، وحركته مروءته ، وأمر من ذهب إلى سوق

(١) م : « بنه » .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٣) م : « وقد أصابه كرب » وهذا مثال واضح على سقم نسخة (م) .

(٤) م : « فقال للترجمان » .

(٥) اليزك لفظ فارسى معناه : طلائع الجيش : انظر : (Dozy : Supp. Dict. Arab) .

(٦) م : التخوف .

(٧) م : قصتها .

(٨) م : « فقال لى المملوك السلطان هو أرحم » .

العسكر ، يسأل عن الصغيرة : مَنْ اشتراها ، ويدفع له ثمنها ، ويحضرها / وكان ٢١ ب
قد عرف قضيتها من بكرة يومه ، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة
على كتفه ، فما كان إلا أن وقع نظرها عليها ، فخرت إلى الأرض تمرر وجهها
في التراب ، والناس سيكون على ما نالها ، وترفع طرفها إلى السماء ، ولا تعلم
ما تقول ، فسُئِلت إبتئها إليها ، وحُملت حتى أعيدت إلى عسكرهم .

وكان - رحمه الله - لا يرى الإساءة إلى من صحبه وإن أفرط في الخيانة ،
ولقد قلب ^(١) في خزائنه كيسان من الذهب المصرى بكيسين من الفلوس ، فما
عمل بالنواب شيئا سوى أن صرفهم من عملهم ، لا غير .

ولقد دخل عليه البرنس أرناط ^(٢) - صاحب الكرك - مع ملك الأفرنج
بالساحل لما أسرها في وقعة حطين في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ،
والواقعة مشهورة تجيء مشروحة في موضعها - إن شاء الله تعالى - وكان قد
أمر بإحضارهما ، وكان هذا أرناط اللعين كافرا لعينا عظيما جبارا شديدا ، وكان
قد اجتازت به قافلة من مصر - حرسها الله تعالى - حين كان بين المسلمين
وبينهم هدنة - فغدرها وأخذها ، ونكل بهم ، وعذبهم ، وأسكنهم المطامير
والحبوس الحرجة وأذكروه حديث الهدنة ، فقال : قولوا لمحمدكم يخلصكم .

فلما بلغه - رحمه الله - ذلك عنه ، نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه ؛
فلما مكن الله منه في ذلك اليوم ، قوى عزمه على قتله - وفاء بنذره - / ٢٢ أ
فأحضره مع الملك ، فشكا الملك العطش ، فأحضر له قدحا من شراب ، فشرب
منه ، ثم ناوله أرناط ، فقال السلطان للترجمان :

قل للملك : أنت الذى سقيته ، وأما أنا فما أسقيه من شرابى ولا أطعمه
من طعامى .

(١) كذا في الأصل ، وفى (م) « أبدل » .

(٢) هكذا ترسمه المراجع العربية ، وهو : (Le Prince Arnould Seigneur de Carac. Renaud de

chatillon).

فقصّد - رحمه الله - أن من أكل من طعامي فالمروءة تقتضى أن لا أؤذيه .

ثم ضرب عنقه بيده وفاءً بنذره - وأخذ عكا ، وأخرج الأسرى كلهم من ضيق الأسر ، وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير ، وأعطى كلا منهم نفقة توصله إلى بلده وأهله .

هكذا بلغنى على ألسنة جماعة ، فإننى لم أحضر هذه الواقعة .

وكان حسن العشرة ، لطيف الأخلاق ، طيب الفاكهة ، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفاً بسيرهم وأحوالهم ، حافظاً لأنساب خيلهم ، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها ، بحيث كان يستفيد المحاضرة منه ما لا يسمع من غيره . وكان حسن الخلق يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه ، وتقلبات أحواله .

وكان طاهر المجلس ، لا يذكر بين يديه أحد إلا بالخير ، وطاهر^(١) ٢٢ ب السمع ، فلا يجب أن يسمع / عن أحد إلا الخير ، وطاهر اللسان ، فما رأيته ولع بشتم قط^(٢) وطاهر القلم ، فما كتب بقلمه إيذاء مسلم قط^(٣) .

وكان حسن العهد والوفاء ، فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترّحم على مخلفيه ، وجبر قلبه ، وأعطاه خبز مخلفه^(٣) ؛ وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه وسلّمه إليه ، وإلا أبقى له من الخبز ما يكفى حاجته ، وسلّمه إلى من يكفله ويعتنى بتربيته .

وكان ما يرى شيخاً إلا ويرقُّ له ويعطيه ويحسن إليه ، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله إلى مقار رحمة ومحال رضوانه .

(١) م : أحد إلا بخير السمع .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٣) م : « وأعطاه وحرر مصابه » ولا يستقيم بها المعنى .

فهذه نبذة من محاسن أخلاقه ومكارم شيمه ، واقتصرنا عليها خوفاً
الإطالة والإسآم ، وما سطرث إلا ما شاهدته ، أو أخبرني الثقة به وحققته ؛ وهذا
بعض ما اطلعت عليه في زمان خدمتي له ، وهو يسيرٌ مما اطلع عليه غيري ممن
طالت صحبته ، وقدمت ^(١) خدمته ، ولكن هذا القدر يكفي الأريب في
الاستدلال على طهارة تلك الأخلاق والخلال .

وحيث نجز هذا القسم نشرع الآن في القسم الثاني ، وهو قسم تقلبات
الأحوال / به ووقائعه وفتوحاته ، قدس الله روحه .

أ ٢٣

(١) م : « وتقدمت » .

القسم الثاني

تقلبات أحواله ووقائعه وفتوحاته في تواريقها
قدس الله روحه ، ونور بنور رحمته ضريحه

ذكر حركته إلى مصر في الدفعة الأولى

صحبة عمه أسد الدين

وكان سبب ذلك أن شاور^(١) - وزير المصريين - كان قد خرج عليه إنسان يقال له الضرغام ، وكان يروم منصبه ومكانه ، فجمع له جموعاً كثيرة لم يكن له بها قبْل ، وغلب عليه ، وأخرجه من القاهرة ، وقتل ولده ، واستولى على المكان ، وولى الوزارة .

وكانت عادة المصريين أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب ، وعجز صاحب المنصب عن دفعه ، وعرفوا عجزه ، وقَعُوا للقاهر منهم ، ورثبوه ومكَّنوه ، فإن قوتهم إنما كانت بعسكر وزيرهم ، وهو ملقَّب عندهم بالسلطان ، وما كانوا يروُن المكاشفة ، وأغراضهم مستتبة^(٢) وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال^(٣) .

/ فلما قهر شاور وأخرج من القاهرة ، اشتد في طلب الشام قاصداً خدمة ٢٣ ب نور الدين بن زنكى ، مستصرخاً به مستنصراً على أعدائه بعسكره ، فتقدم نور الدين إلى أسد الدين شيركوه بالخروج إلى محروسة مصر^(٤) قضاءً لحق الوافد المستصرخ ، وجساً^(٥) للبلاد وتطلعا على أحوالها ، وذلك في شهور سنة ثمان

(١) اسمه بالكامل : « أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شاس السعدى » انظر ترجمته في (ابن خلكان : الوفيات) .

(٢) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٣) هذا كلام ابن شداد ، نبقى عليه مراعاة لأمانة النشر ، تاركين الرد عليه لمن يعلم شيئا من

تاريخ المصريين وعاداتهم .

(٤) م : « مصر المحروسة » .

(٥) م : « وحفظا » .

وخمسين وخمسمائة ، وتأهب أسد الدين شيركوه وسار إلى مصر ، فاستصحبه معه - رحمه الله - عن كراهية منه لذلك ، لمكان افتقاره إليه ، وجعله مقدم عسكريه ، وصاحب رأيه ، وساروا حتى وصلوا إلى محروسة مصر ، وشاور معهم ، في الثاني من جمادى الآخرة سنة ثمان المذكورة .

وكان لوصولهم إلى مصر موقع عظيم ، وخافه أهل مصر ، ونصّر شاور على خصمه ، وأعادته إلى منصبه ومرتبته ، وقرّر قواعده ، واستقر أمره وشاهد البلاد وعرف أحوالها ، وعاد منها وقد غرس في قلبه الطمع في البلاد ، وعلم أنها بلاد بغير رجال ، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال .

٢٤ أ وكان ابتداء رحيله ^(١) عنها / متوجّهاً إلى الشام في السابع من ذى الحجة سنة ثمان المذكورة ، وكان لا يفصل أمراً ، ولا يقرّر حالاً إلا بمشورته ورأيه ، لما لاح له منه من آثار الإقبال والسعادة والفكرة الصحيحة ، واقتران النصر بحركاته وسكناته ، فأقام بالشام مدبراً لأمره ، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية ، محدثاً بذلك نفسه ، مقررّاً لقواعد ذلك مع الملك العادل نور الدين - رحمه الله - إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

ذكر

عوده إلى مصر في الدفعة الثانية

وسبب ذلك

وهي المعروفة بوقعة البابين ^(٢)

ولم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ذلك ، وداخله الخوف على البلاد من الأتراك ، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد .

(١) م : « رحلته » .

(٢) البابين : قرية كانت تقع جنوبي مدينة المنيا .

وأنه لابد له من قصدها ، فكاتب الأفرنج ، وقرّر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه فيها ^(١) . تمكينًا كليًا ، ويعينونه على استئصال أعدائه ، بحيث يستقر قلبه فيها ، وبلغ ذلك أسد الدين والملك العادل نور الدين / ، فاشتد خوفهم ٢٤ ب على مصر أن يملكها ^(٢) الكفار ، فيستولوا على البلاد كلها ، فتجهز أسد الدين ، وأنفذ معه الملك العادل نور الدين العساكر ، وألزم السلطان - رحمه الله - بالمسير معه ، على كراهية منه لذلك .

وكان توجههم في أثناء ربيع الأول من شهور ^(٣) سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، وكان وصولهم إلى البلاد المصرية مقارنًا لوصول الأفرنج إليها . واتفق شاور مع الأفرنج على أسد الدين ، والمصريون بأسرهم ، وجرت بينهم حروب كثيرة ووقعات شديدة وانفصل الأفرنج عن الديار المصرية ، وانفصل أسد الدين .

وكان سبب عود الأفرنج أن نور الدين جرّد العساكر إلى بلاد الأفرنج ، وأخذ المنيطرة ^(٤) ، وعلم الأفرنج ذلك فخافوا على بلادهم وعادوا . وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب مواجهة الأفرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد وعائنه من الأهوال ؛ وما عاد حتى صالح الأفرنج على أن ينصرفوا كلهم عن مصر .

وعاد إلى الشام في بقية السنة وقد انضم إلى قوة الطمع / في البلاد شدة ٢٥ أ الخوف عليها من الفرنج ، لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذي عرفها ، فأقام في الشام على مضض وقلبه مقلقل ، والقضاء يجره إلى شيء قد قُدّر لغيره ، وهو لا يشعر بذلك .

(١) م : « ويمكنهم » .

(٢) م : « ملكها » .

(٣) م : « في اثني عشر ربيع الأول سنة ... إلخ » .

(٤) المنيطرة : حصن بالشام قريب من طرابلس . « ياقوت ٤ - ٦٧٣ ط ليزج » .

وفي أثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد مسير أسد الدين في رجب ، وخرب قلعة أكاف بالبرية .

وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخوه قطب الدين وزين الدين - رحمهم الله - بحماة للغزاة ، وساروا إلى بلاد الفرنج ، فحربوا هونين في شوال منها .

وفي ذى القعدة منها كان عود أسد الدين من مصر ، وفيه مات قرا أرسلان بديار بكر .

ذكر

عودهم إلى مصر في الدفعة الثالثة وهي التي ملكوها فيها
وجرى ماجرى وذلك في شهر سنة أربع وستين وخمسمائة

وكان سبب ذلك أن الافرنج - خذلهم الله - جمعوا راجلهم وفارسهم ، وخرجوا يريدون الديار المصرية ، ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين من الصلح والقواعد ، طمعاً في البلاد .

فلما بلغ ذلك نور الدين وأسد الدين لم يسعهما الصبر دون أن سارعا إلى قصد البلاد .

٢٥ ب أما / نور الدين فبالمال والرجال ، ولم يسر بنفسه خوفاً على البلاد من الفرنج ، ولأنه قد حدث نظر إلى جانب الموصل بسبب وفاة زين الدين على بن بكتكين - رحمه الله - ، فإنه توفي في ذى الحجة سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، وسلم ما كان في يده من الحصون إلى قطب الدين أتابك ماعدا إربل - فإنها كانت له من أتابك زنكي - رحمه الله - فحدث لنور الدين إلى ذلك الجانب طمع بهذا السبب ، فسار العسكر .

وأما أسد الدين فبنفسه ^(١) وماله وأهله ورجاله ؛ ولقد قال لى السلطان - قدس الله روحه - : « كنتُ أكره الناس للخروج فى هذه الدفعة ^(٢) ، وما خرجتُ مع عمى باختيارى » ؛ وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى : « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » .

وكان شاور لما أحسَّ بخروج الافرنج إلى مصر على تلك القاعدة أنفذ إلى أسد الدين يستصرخه ويستنجده ، فخرج مسرعًا ؛ وكان وصولهم إلى محروسة مصر فى أثناء ربيع الأول من سنة أربع وستين وخمسمائة .

وفى هذه السنة سنة أربع وستين وخمسمائة ملك نور الدين قلعة جعبر / فى الحرم ، ابتاعها من صاحبها ابن مالك بسروج وباب بُزاعة والملوحة بعد ٢٦ أ قبضه .

وفى هذا الشهر مات ياروق الذى تنسب الياروقية إليه .

ولما علم الافرنج وصول أسد الدين إلى مصر عن اتفاق بينه وبين أهلها رحلوا راجعين ، وعلى أعقابهم ناكصين ، وأقام أسد الدين بها ، يتردد إليه شاور فى الأحيان ؛ وكان وعدهم بمال فى مقابلة ما خسروه من النفقة ، فلم يوصل إليهم شيئًا ، وعلقت مغاليل أسد الدين فى البلاد ، وعلموا أن الافرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد ، وأن ترددهم إليها فى كل وقت لا يفيد ، وأن شاور يلعب بهم تارة ، وبالافرنج تارة أخرى ، ^(٣) وملاكها قد كانوا على البدعة المشهورة عنهم ^(٣) ، وعلموا أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور ، فأجمعوا أمرهم على قبضه إذا خرج إليهم ، وكانوا هم يترددون إلى خدمته دون أسد الدين ، وهو يخرج فى بعض الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به .

(١) م : « فبنفسه وملكه » .

(٢) م : « الواقعة » .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .

وكان [شاور] يركب على قاعدة وزرائهم - بالطبل والبوق والعلم -
 ٢٦ ب فلم يتجاسر على قبضه من الجماعة إلا السلطان بنفسه : وذلك أنه لما سار /
 إليهم تلقاه راكبًا ، وسار إلى جانبه ، وأخذ بتلابيبه ، وأمر العسكر أن خذوا
 على أصحابه ، ففروا ونهبهم العسكر ، وقُبِضَ على شاور ، وأنزل إلى خيمة مفردة .
 وفي الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول : لا بد من
 رأسه جريا على عادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة مَنْ قَوَّى مِنْهُم على صاحبه ،
 فُجِزَتْ رَقَبَتُهُ ، وأنفذ رأسه إليهم .

وأنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة ، فلبسها وسار ودخل القصر ، وترتب
 وزيرًا ، وذلك في سابع عشر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة . ودام
 أمرًا ناهيًا ، والسلطان - رحمه الله - مباشرًا الأمور ، مقررًا لها ، وزمام الأمر
 والنهى مفوض إليه لمكان كفايته ودرايته ، وحُسن تأتية ^(١) وسياسته إلى الثاني
 والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

ذكر وفاة أسد الدين

رحمه الله

ومصير الأمر إلى السلطان

٢٧ أ / وذلك أن أسد الدين كان كثير الأكل ، شديد المواظبة على أكل اللحوم
 الغليظة ، وتتواتر عليه الثَّخْمُ والخوانيق ^(٢) ، وينجو منها بعد معاناة ^(٣) شدة

(١) هكذا في الأصل ، وفي (م) : « رأيه » .

(٢) الخناق أن يحدث في المبلع ضيق ، يقال له حوانيق ، وهو مخنوق . (الحوارزمي : مفاتيح

العلوم ، ٩٧) .

(٣) (م) : « مقاساة » .

عظيمة ، فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم ، فقتله في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة في السنة المذكورة . وفُوض الأمر بعده إلى السلطان ، واستقرت القواعد ، واستتبت الأحوال على أحسن نظام ؛ وبذل المال وملك الرجال ، وهانت عنده الدنيا فملكها ، وشكر نعمة الله عليه ، فتاب عن الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجد والاجتهاد ، وما عاد عنه ، ولا ازداد إلا جدًا ، إلى أن توفاه الله إلى رحمته .

ولقد سمعتُ منه يقول : « لما يسّر الله لي الديار المصرية علمتُ أنه أراد فتح الساحل ، لأنه أوقع ذلك في نفسي » . ومن حين استتب له الأمر ما زال يشن الغارات على الأفرنج إلى الكرك والشوبك وبلادهما ، وغشى الناس من سحائب الأفضال والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام .

هذا كله وهو وزير متابع للقوم ، لكنه / مقو لمذهب السنة ، غارس في ٢٧ ب أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين ، والناس يهرعون إليه من كل صوب ، ويفدون عليه من كل جانب ، وهو لا يجيب قاصدًا ، ولا يعدم وافدًا ^(١) إلى سنة خمس وستين وخمسمائة ^(٢) .

ولما عرف نور الدين استقرار أمر السلطان بمصر ، أخذ حمص من نواب أسد الدين ، وذلك في رجب من سنة أربع وستين وخمسمائة .

ذكر قصد الأفرنج دمياط

حرسها الله تعالى

ولما على الأفرنج ماجرى على المسلمين وعساكرهم ، وماتم للسلطان من استقامة الأمر في الديار المصرية علموا أنه ^(٣) يملك بلادهم ويخرب ديارهم ،

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٢) م : « خافوا أن » .

ويقلع آثارهم ، لِمَا حدث له من القوة والملك ؛ فاجتمع الافرنج والروم جميعاً ، وحذّثوا أنفسهم بقصد الديار المصرية ، والاستيلاء عليها ومُلْكُهَا ، ورأوا قَصْدَ دمياط ، ثمكّن القاصد لها من البرّ والبحر ، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مَعْرَسُ قَدَمٍ ^(١) يَأوون إليه ^(٢) فاستصحبوا المنجنقات والدبابات ^(٣) ، والجروح ^(٤) ، وآلات الحصار ، وغير ذلك :

(١) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٢) جاء في (اللسان) : « الدبابة » آلة تتخذ من جلود وخشب ، يدخل فيها الرجال ويقربونها من الحصن لينقبوه ، وتقهم ما يرمون به من فوقهم ، سميت بذلك لأنها تدفع فتدب ، ومن حديث عمر : « قال : كيف تصنعون بالحصون ؟ قال : تتخذ دبابات يدخل فيها الرجال » .

وقد قرن (مرضى بن على) بينها وبين الأبراج والستائر ، ووصفها جميعاً ووصف طرق صنعها في كتابه سالف الذكر . انظر (C. bahen op, bit p. 18-19)

كذلك وصفها (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩٢) بقوله : « هي آلة سائرة تتخذ من الخشب التخين المتلرز ، وتغلف باللبود والجلود المنقعة في الخل لدفع النار ، وتركب على عجل مستدير ، وتحرك فتنجر ، وربما جعلت برجا من الخشب ، ودبر فيها هذا التدبير ، وقد يدفعها الرجال فتندفع على البكر » ، وقد وصف (العماد الأصفهاني : الفتح القسي) إحدى دبابات الافرنج بأنها كانت دبابة عظيمة هائلة ، ولها أربع طباق ، وهي خشب ورصاص وحديد ونحاس ، وسيصف المؤلف ابن شداد فيما يلي هنا إحدى دبابات الافرنج وصفاً تفصيلياً شاملاً : انظر كذلك : (نعمان ثابت : الجندية في الدولة العباسية) (Dozy : Supp. Dict. Arab) و (ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشيال ، ج ١ ، ص ١٨٠ - ١٨١) .

(٣) الجرخ (Jarkh) مأخوذة عن الفارسية (تشرح Tcharkh) - والجمع جروح ، وهو نوع من القوس الرامي الذي ترمى عنه النشاب أو النفط ، هكذا تصفه النصوص ، وهكذا وصفه

(Dozy : Supp. Dict. Arab) بأنه

(Unearbalet avec laquelle on)

(lançait, Soit des flèches Soit le naphte)

وقد ذكر (مرضى بن على : تبصرة أرباب الألباب ، ص ٦ - ٨) أربعة أنواع للقوس الرامي الذي يشبه المنجنق ، وهي : قوس الزبار ، والقوس العقار ، والجرخ ، وقوس الرجل ، ويقال للذي يرمى عن قوسه السهام أو النفط « الجرخي » ويقابله بالفرنسية (Arbalétrier) والجمع « الجرخية » . انظر أيضا .

(C. cahen UnExtrait-d'Armure riec et. p. 152)

هذا وقد عقد (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٦٠) فصلاً في صفة القسي والنشاب أضاف فيه معلومات قيمة عن الشعوب التي تؤثر استعمال الجرخ ، وعن المفاضلة بين الجرخ والقوس =

ولما سمع الأفرنج بالشام ^(١) ذلك ، اشتد أمرهم ، فسرقوا حصن عكا من المسلمين ، وأسروا صاحبها - / وكان مملوكا لنور الدين يسمى ختلخ ^(٢) العلم ٢٨ أ دار ، وذلك في ربيع الآخر منها . ^(٣) وفي رجب منها توفي العمادى صاحب نور الدين وأمير حاجبه ، وكان صاحب بعلبك وتدمر ^(٤) .

ولما رأى نور الدين ظهور أمر الأفرنج ، وبلغه نزولهم على دمياط ، قصد شغل قلوبهم ، فنزل على الكرك محاصرا لها في شعبان من هذه السنة ، فقصدته أفرنج الساحل ، فرحل عنها ، وقصد لقاءهم ، فلم يقفوا له ^(٥) .

ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية بحلب ، وكانت وفاته في شهر رمضان سنة خمس وستين وخمسمائة ^(٦) فاشتغل قلبه ، لأنه كان صاحب أمره ، فعاد يطلب الشام ، فبلغه خبر الزلزلة بحلب ^(٧) التي أخرجت كثيرا من البلاد ^(٨) وكانت في ثاني عشر شوال من السنة المذكورة وهو بعثرا ^(٩) فسار يطلب حلب ، فبلغه خبر موت قطب الدين أخيه بالموصل ، وكانت وفاته في ثاني وعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة ، وبلغه الخبر وهو بتل باشر فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل .

= العقاد ، وأين يستعمل كل منهما ، لأن قوس الجرخ يصنع من القرن ، والعقاد يصنع من الخشب ، قال : « والمغاربة والفرنج يعانون قسي الجرخ ، وهي أكثر نفعها من داخل السور ولـى مراكب البحر ، والقسي الجروح القرن تصلح للقلاع ، والعقاقير جميعها خشب ، ما تصلح إلا في البحر ، لأن هواء البحر يضر بالقرن ويفسده والعقاقير الخشب ما تتغير فيه ، وقليل أن تخطىء سهام الجروح إذا كان الرامي بها عارفا حاذقا » .

(١) م : « أفرنج الشام » .

(٢) م : « ختلخ » .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٤) م : « فلم يقف لهم على أثر » .

(٥) هذا اللفظ غير موجود في (م) .

(٦) حدثت هذه الزلزلة في ثاني عشر شوال . انظر أخبارها بالتفصيل في : (ابن الأثير : الكامل ،

ج ١١ ، ص ١٣٢ - ١٣٣) و (الروضتين : ج ١ ، ص ١٨٤) .

(٧) هذه الجملة ساقطة من م .

(٨) وعشرا موضع بحوران من أعمال دمشق (باقوت : معجم البلدان) .

ولما علم السلطان شدة قصد العدو دمياط أنفذ إلى البلاد ، وأودعه من
 ٢٨ ب الرجال وأبطال / الفرسان والميرة والآلات السلاح ^(١) ما أمن معه عليه ، وعد
 المقيمين فيه بإمدادهم بالعساكر والآلات وإزعاج ^(٢) العدو عنهم إن نزل عليهم
^(٣) وبالغ في العطايا والهبات ، وكان وزيراً متحكماً لا يُردُّ أمره في شيء ^(٤) ثم
 نزل الأفرنج عليها في التاريخ المتقدم المذكور ، واشتد زحفهم عليها وقتلهم لها ،
 وهو يشنُّ الغارات عليهم من خارج ، والعساكر تقاتلهم من داخل ،
 ونصر ^(٥) الله للمسلمين يؤذيهم ، وحسن قصده في نصره دين الله يسعدهم
 وينجدهم ^(٦) ، حتى بان لهم ^(٧) الخسران وظهر على الكفر الإيمان ، ورأوا أنهم
 ينجون برؤوسهم ، ويسلمون بنفوسهم ، فرحلوا خائبين خاسرين ، فحُرِّقَتْ
 مناجيقهم ونُهبت آلاتهم ^(٨) ، وقُتل منهم خلقٌ عظيم ، ^(٩) وسلم البلد ^(١٠) بحمد الله
 تعالى عن قصدهم ، وظهر بتوفيق الله فلَّ حدهم ، واستقرت قواعد السلطان .

(١) م : « وآلات السلاح » .

(٢) م : « وأبعاد » .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٤) النص في (م) : « ونصر الله المسلمين وأيدهم ، وحسن قصدهم في نصر دين الله وأسعدهم
 وأنجدهم » .

(٥) م : « للأفرنج » .

(٦) هذا اللفظ ساقط من (م) .

(٧) م : « كثير » .

(٨) انظر تفاصيل أخبار نزول الفرنج على دمياط وحصارهم لها في (ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر
 الشيال ، ج ١ ص ١٧٩ وما بعدها) و (جمال الدين الشيال ومحمد سعيد العريان : قصة الكفاح بين العرب
 والاستعمار ، الفصل الأول) .

ذكر^(١) طلبه والده

ثم أنفذ في طلب والده ليكمل السرور به ويتم الحبور ، ويجمع القصة
مشاكلة ماجرى^(٢) للنبي يوسف - صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر
الأنبياء أجمعين - ، فوصل والده نجم الدين إليه - رحمه الله تعالى - في أثناء جمادى
الآخرة من سنة خمس / وستين وخمسمائة وسلك معه من الأدب ما كان عادته ،
أ ٢٩ وألبسه الأمر كله ، فأبى أن يلبسه ، وقال : « يا ولدى ما اختارك الله لهذا الأمر
إلا وأنت كفؤ له ، فلا ينبغي أن تغير موقع السعادة » . فحكّمه في الخزائن
بأسرها^(٣) وكان - رحمه الله - كريما يطلق ولا يرد^(٤) ؛ ولا يزل السلطان
وزيرًا محكما حتى مات العاضد أبو محمد عبد الله ، وبه ختم أمر المصريين .
وأما نور الدين - رحمه الله - فإنه أخذ الرقة في المحرم سنة ست وستين ، وسار
منها إلى نصيبين ، فأخذها في بقية الشهر ، وأخذ سنجار في ربيع الآخر منها .
ثم قصد الموصل ، وقصد أن لا يقاتلها ، فعبر بعسكره من مخاضبة بلد
بكر ، وسار حتى خيم قبالة الموصل على تل يقال له الحصن ، وراسل ابن أخيه
سيف^(٥) الدين غازي - صاحب الموصل - ، وعرفه صحة قصده ، فصالحه ،
ودخل الموصل في ثالث عشر جمادى الأولى ، وقرّر صاحبها فيها ، وزوجه ابنته ،
وأعطى عماد الدين أخاه^(٦) سنجار في جمادى الآخرة ، وخرج من الموصل
قاصدا نحو الشام ، فدخل حلب في شعبان من هذه السنة .

(١) هذا العنوان غير موجود في الأصل ، وقد أضيف عن (م) .

(٢) م : « وتجرى القصة مشاكلة لما جرى » .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٤) م : « عز الدين » .

(٥) م : « ابن أخيه » ، والنص على هذا الوجه يقصد به أن عماد الدين هو ابن أخى نور الدين ،

أما نص الأصل بالمقصود به أن عماد الدين هو أخ لسيف الدين غازي .

ذكر / موت العاضد

٢٩ ب

وكان موته في يوم الاثنين العاشر من المحرم من شهور سنة سبع وستين وخمسمائة ، واستقر الملكُ للسلطان ، وكان خَطَبَ لبنى العباس في أواخر أمر العاضد وهو حي ، وكانت الخطبة في ابتدائها للمستضيء بأمر الله ، واستمرت القواعد على الاستقامة ، وهو كلما استولى على خزانة مال ^(١) وهبها ، وكلما فُتح له خزائن ملك أنهبها ، ولا يُبقى لنفسه شيئاً ، وشرع في التأهب للغزاة ، وقصد بلاد العدو وتعبية الأمر لذلك ، وتقرير قواعده .

وأما نور الدين فإنه عزم على الغزاة ، واستدعى صاحب الموصل ابن أخيه ، فوصل بالعساكر إلى خدمته ، وكانت غزوة ^(٢) عرقاً وأخذها نور الدين ومعه ابن أخيه في المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة .

ذكر أول غزوة غزاها من الديار المصرية

٣٠ أ / ولم يزل على بسط العدل ونشر الإحسان وإفاضه الإنعام ^(٣) على الناس إلى سنة ثمان وستين وخمسمائة ، فعند ذلك خرج بالعساكر يريد بلاد الكرك ^(٤) والشوبك وإنما بدأ بها لأنها كانت أقرب إليه ، وكانت في الطريق تمنع مَنْ يقصد الديار المصرية ، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يُعبرها بلاد العدو ، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض ، وتسهل على السابلة ، فخرج قاصداً لها ^(٤) في أثناء سنة ثمان وستين وخمسمائة ^(٤)

(١) م : « خزانة من المال » .

(٢) م : « غزاة » .

(٣) م : « وإقامة الإحسان » .

(٤) هذه الجملة ساقطة من (م) .

فحاصرها ، وجرى بينه وبين الافرنج وقعات ، وعاد عنها ولم يظفر منها بشيء
في تلك الدفعة ^(١) ، وحصل ثواب القصد .

وأما نور الدين فإنه فتح مَرَعَش في ذى القعدة من هذه السنة ، وأخذ
بهسنا ^(٢) في ذى الحجة منها .

ذكر وفاة والده نجم الدين

ولما عاد السلطان من غزاته بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة أبيه نجم الدين ،
وشق عليه ذلك حيث لم يحضر وفاته ، وكان سبب وفاته وقوعه من الفرس ،
وكان - رحمه الله - شديد الركض ، ولما بلعب الكرة ، بحيث من رآه يلعب
بها يقول : « ما يموت إلا من وقوعه عن ظهر الفرس » . / وكانت ٣٠ ب
وفاته ^(٣) - رحمه الله - بمصر ^(٤) في شهر سنة ثمان وستين وخمسمائة ^(٥) .

ذكر فتح اليمن ^(٥)

^(٦) ولما كانت سنة تسع وستين ^(٧) رأى قوة عسكره وكثرة عدد أخوته
وقوة بأسهم ، وكان بلغه أن باليمن إنسانا استولى عليها وملك حصونها ، وهو
يخطب لنفسه ، يُسمى بعبد النبي بن مهدي ^(٨) ، ويزعم أن ينتشر ملكه إلى

(١) م : « الواقعة » .

(٢) م : « بها » .

(٣) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

(٤) م : « سنة تسع وستين » وهو خطأ واضح ، وكانت وفاة نجم الدين يوم الاثنين ١٨ ذى
الحجة سنة ٥٦٨ هـ .

(٥) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٦) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٧) المهديون أسرة حكمت ريد بين سنتي (٥٥٤ - ٥٦٩ = ١١٥٩ - ١١٧٣) ، وحكم
من هذه الأسرة ثلاثة فقط هم : علي بن مهدي ، ومهدي بن علي ، وعبد النبي بن علي . انظر :

(St, Lane - Poole : Mohammadan Dynasties P. 96)

الأرض كلها ، واستتب أمره ، فرأى أن يسير إليها أخاه الأكبر شمس الدولة الملك المعظم توراشاه ، وكان كريماً أريجياً حسن الأخلاق ، سمعت منه - رحمه الله - الثناء على كرمه ومحاسن ^(١) أخلاقه وترجيحه إياه على نفسه .

وكان توجهه إليها في أثناء رجب سنة تسع وستين ، فمضى إليها ، وفتح الله على يديه ، وقتل الخارجى الذى كان بها ، واستولى على معظمها ، وأعطى وأغنى خلقاً كثيراً .

ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكى - رحمه الله -

وكانت وفاته بسبب خوانيق اعترته ، عجز الأطباء عن علاجها ، وتوفى يوم الأربعاء حادى عشر ^(٢) شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة ، وذلك ٣١ أ / في / قلعة دمشق ، وقام مقامه ولده الملك الصالح إسماعيل .

ولقد حكى لى السلطان قال : « كان بلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا ^(٣) بالديار المصرية ، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن يكشف ويخالف ويشق عصاه ، ويلقى عسكره بمصاف يردّه ^(٤) إذا تحقق قصده ، وكنت وحدى أخالفهم ، وأقول : لا يجوز أن يُقال شيء من ذلك ، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته » .

(١) م : « وحسن » .

(٢) م : « فى الحادى والعشرين من شوال » وهو خطأ واضح ، وما بالمتن هو الصحيح ، راجع : (مفرج الكروب ، نشر الشمال ، ج ١ ، ص ٢٦٣) .

(٣) م : « أنه يقصدنا » .

(٤) م : « بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نردّه » .

ذكر منافقة الكنز بأسوان

وذلك في شهور سنة سبعين وخمسمائة^(١)

والكنز^(٢) إنسان مقدّم من المصريين كان قد انتزع إلى أسوان فأقام بها ، ولم يزل يدبر أمره ؛ ويجمع السودان عليه ، ويخيّل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة المصرية ، وكان في قلوب القوم من مهاواة المصريين ما يستصغر هذه الأفعال عنده ، فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر من السودان وقصد قوص وأعمالها .
وانتهى خبره إلى السلطان ، فجرد له عسكريا عظيما شاكين في السلاح / من الذين ذاقوا حلاوة^(٣) ملك الديار^(٣) المصرية ، وخافوا على قوت ذلك ٣١ ب

(١) م : « تسع وستين » وهو خطأ واضح .

(٢) الكنوز في الأصل بطن من القبيلة العربية (ربيعة) ، استقروا حول مدينة أسوان وفي بلاد النوبة ، ثم اختلطوا مع النوبيين وتزوجوا منهم ، و« كنز الدولة » لقب منحه لأول مرة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله لحاكم النوبة في عهده أبو المكارم هبة الله بن الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي عندما ظفر بالثائر أبي ركة الفار إلى بلاده وأرسله إلى الحاكم ، وكان آخر من لقب منهم بهذا اللقب هو كنز الدولة هذا المعاصر لصلاح الدين ؛ (قال المقرئ : البيان والإعراب ، ص ٥٠) : « ولم تزل الإمارة معهم ، وكلهم يعرفون بكنز الدولة ، حتى كان آخرهم كنز الدولة ، فقتله الملك العادل أبو بكر بن أيوب في صفر سنة ٥٧٠ عندما خالف على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وجمع لحربه ، وقتل أخا أبي الهيجا السمين ، ودعا للأمير داود بن العاضد ، وكان قتله على مدينة طود بعد حروب شديدة » ؛ وبنو كنز أو الكنوز هم سلالة هؤلاء العرب بعد اختلاطهم مع النوبيين ، وكانت لهم السيطرة التامة على الصعيد في العصر المملوكي ، ولا زالت قبيلة الكنوز تعيش حتى اليوم في المنطقة الواقعة بين أسوان وكروسكو . انظر كذلك : (المقرئ : اتعاظ الخنفا ، مخطوطة سراي ، ص ٦٠ ب) و (ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشيال ، ج ١ ، ص ٢٢٩ ، ج ٢ ، ص ١٦ - ١٧) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩) .

(Casanova : Les Derniers Fatimides)

(Trimingham : Islam in the Sudan P. 68).

(٣) هذان اللفظان غير موجودين في (م) راجع أيضاً (مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٧) .

منهم ، وقدم عليهم أخاه الملك العادل سيف الدين ، وسار بهم حتى أتوا القوم
فلقيهم بمصاف فكسرهم ، وقتل منهم خلقا عظيما ، واستأصل شأفتهم ، وأحمد
نايرتهم ، وذلك في السابع من صفر سنة سبعين ؛ واستقرت قواعد الملك ،
واستتمت أموره ، والله الحمد والمنة .

ذكر

قصد الافرنج ثغر الاسكندرية

- حرسها الله تعالى -

وذلك أن الافرنج - خذلهم الله تعالى - لما علموا تغيرات الأحوال بالديار
المصرية ، وتقلبات الدول بها داخلهم الطمع في البلاد ، وجردوا عساكرهم في
البحر ، وكانوا في ستائة قطعة مابين شينى ^(١) وطراذه ^(٢) وبطوسة ^(٣) وغير

(١) الشينى أو الشانى أو الشينية أو الشونة - والجمع شوانى - السفينة الحربية الكبيرة ، وهى
أهم القطع الكبيرة التى كان يتكون منها الأسطول فى الدول الإسلامية ، وقال (الزيدى : تاج العروس)
بأنها من أصل مصرى ، وذكر (ابن ماقى : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠) إن الشينى كانت تسير بمائة
وأربعين مجدافا ، وفيها المقاتلة والجداфон ، وفى (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٣) نص
يحدد حمولة الشينى فى العادة بمائة وخمسين جنديا .

(٢) الطريدة - ويقال الطراد أو الطراذة أو التطريدة - والجمع طرائد ، (قال ابن ماقى : قوانين
الدواوين ، ص ٣٣٩) عند التعريف بها : « هى سفينة يرسم حمل الخيل ، وأكثر مايجمل فيها أربعون
فرسا ، وقال (صاحب تاج العروس) : « الطراد - ككتان - سفينة صغيرة سريعة السير والجرى ،
والعامة تقول تطريدة » ، وقال : (Dozy : Supp. Dict. Arab) هى نوع من المراكب الحربية أكثر شبها
بالبرميل المائل من السفينة ، وكانت تستعمل فى حمل الخيول والفرسان ، وأكثر مايجمل فيها أربعون فرسا ،
وفى (مفرج الكروب لابن واصل ، المخطوطة حوادث سنة ٦٦٠ هـ) ماثبت أن الطريدة كانت تستعمل
أحيانا لركوب الناس ، فقد ذكر أن يبرس أرسل فى تلك السنة سفارة إلى ملك التار بركة خان عن
طريق البحر المتوسط والامبراطورية البيزنطية ، « وركبهم فى الطرايد ، وأعطاهم زوادة شهور كثيرة » ،
وقد استعمل الأوروبيون فى العصور الوسطى هذا النوع من السفن ، واشتقوا اسمه من العربية فسموه فى
الاسبانية « Tarida » وفى الإيطالية « Tartana » وفى الفرنسية « Tartane » وفى الانجليزية « Tartan » انظر
أيضا : Kirderman : Schiffim Arabischen P. 56-29 والشيال معجم السفن العربية ، مخطوطة لم تنشر
بعد و (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٢ - ١٣) .

(٣) البطوسة أو البطسة ، ويقال أحيانا بَطُشَة وبُطُشَة ، وقد تحرف إلى بَسَطَة أو بُسَطَة =

ذلك ؛ وكانوا في ثلاثين ألفاً على ما ذكر ، ونازلوا الثغر المحروس ، وذلك في أثناء شهر صفر في السابع منه من هذه السنة وهي سنة سبعين ، فأمدّه السلطان بالعساكر المنصورة ، وتحرك ، وأدخل الله في قلوبهم / من الخوف والرعب ما لا يمكنهم الصبر معه ، وعادوا خائبيين خاسرين بعد أن ضايقوا الثغر ، وزحفوا عليه ثلاثة أيام ، وقاتلوه قتالاً شديداً ، وعصمه الله منهم ^(١) .

ولما أحسّوا بحركة السلطان نحوهم مالبثوا أن خلّفوا مناجيتهم ورائهم وآلتهم ، فخرج أهل البلد إلى نهبها وإحراقها ، ^(٢) وكان من أعظم النعم من الله تعالى على المسلمين وأمانة كل سعادة ونجاح ، والله الحمد والمنة ^(٣) .
وأما ^(٤) نور الدين - رحمه الله - فإنه خلّف ولده الملك الصالح إسماعيل

= والجمع بطسات وبطس وبطشات وبطش . ذكر صاحب (محيط المحيط) أنها مأخوذة عن الإسبانية ، ومعناها السفينة الكبيرة ، ويفهم من نصوص المراجع العربية في العصور الوسطى أنها كانت تستخدم أصلاً للحرب ، وقد تستخدم لنقل التجارة ، وقال (علي مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٤ ، ص ٨٢) : « ومن أسماء المراكب أيضاً البطسة ، وجمعها بطس ، يقال : جهز الفرنج بطسا متعددة ، وجعلوا على سوارى البطس أبراجاً ، ووجدوا بطسة فيها ثلاثمائة من الفرنج ، وبطسة كبيرة تشتمل على ميرة وذخيرة » ، ويفهم من هذه النصوص أيضاً أن البطسة كانت تحمل في العادة ما بين ٣٠٠ و ٧٠٠ مقاتل ، وقد أشار (ابن واصل : مفرج الكروب) عند حديثه عن حصار عكا في سنة ٥٨٧ هـ إلى بطسة كبيرة ، قال : « وكان السلطان قد أمر بتعبية بطشة عظيمة هائلة ببيروت ، مشحونة بالآلات والأسلحة والمير والرجال والمقاتلة لتدخل إلى عكا ، وكانت عدة المقاتلة بها ستائة وخمسين رجلاً ... الخ » . انظر المراجع المشار إليها في الحاشيتين السابقتين ، وراجع أيضاً : (صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، نشر لويس شيخو ، ص ٣١ ، هامش ٣) .

(١) للامام بأخبار هذه الحملة وتفاصيلها راجع : (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٥ - ١٥٦) و (ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشيال ، ج ٢ ، ص ١١ - ١٦) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٨٧) و (المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٥ - ٥٧) و (الشيال : الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ٢٢١) .

(Comb. med. Hist. Volv pp. 184-207) (Runcimar : History), (Lane-Poole : Saladin. P. 127, of the Crusades. Vol. I, P. 403)

(٢) م : « وكان أمراً عظيماً ومن أعظم النعم على المسلمين ، وأمانة كل سعادة » .
(٣) قبل هذا اللفظ في نسخة (م) عنوان نصه : « ذكر خروج السلطان إلى الشام وأحذه دمشق » ، وقد ذكر في غير مكانه ، وسيأتي هذا العنوان هنا في المتن بعد قليل في موضعه الصحيح

وكان بدمشق ؛ وكان بقلعة حلب ابنُ الداية شمسُ الدين علي وشاذبخت ^(١) ؛ وكان عليُّ قد حدث نفسه بأُمور ، فسار الملكُ الصالحُ من دمشق إلى حلب ، فوصل ظاهرها ثاني المحرم ومعه سابقُ الدين ، فخرج بدر الدين حسن للقاءه ، فقبض عليه سابق الدين ؛ ولما دخل الملكُ الصالحُ القلعةَ قبض على شمس الدين وأخيه حسن ، وأودع الثلاثةَ السجن ؛ وفي ذلك اليوم قُتل ابنُ الخشاب أبو الفضل لفتنة جرت بحلب ، ذكروا أنه قُتل قبل إمساك أولاد الداية بيوم ، لأنهم تولوا ذلك ^(٢) .

ذكر خروج السلطان

٣٢ ب - رحمة الله عليه - إلى الشام / ، وأخذه لدمشق المحروسة

ولما تحقَّق السلطان وفاة نور الدين ، وكون ولده طفلاً لا ينهض بأعباء الملك ، ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد ، تجهَّز للخروج إلى الشام ، إذ هو أصل بلاد الإسلام ، فتجهَّز بجمع كثير من العساكر ، وخلف في الديار المصرية مَنْ يستقل بحفظها وحراستها ، ونظَّم أمورها وسياستها ، وخرج هو سائراً مع جمع من أهله وأقاربه ، وهو يكتب أهل البلاد وأمراءها ، واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح ، واختلفت تدابيرهم ، وخاف بعضهم من بعض ، وقبض البعض على جماعة منهم ، وكان ذلك سبب خوف الباقين من فعل ذلك ، وسبباً لتنفير قلوب الناس عن الصبي ؛ فاقترضى ^(٣) الحال أن كاتب شمسُ الدين بن المقدم السلطان ، ووصل [السلطان] البلاد مطالباً بالملك الصالح ، ليكون هو الذي يتولى أمره ويربِّ حاله ، ويقوم له ما اعوجَّج من أمره ، فوصل محروسة

(١) ورد في (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٠٨) أن شاذبخت كان دزداراً لقلعة

حلب .

(٢) هذه الجملة غير موحودة في الأصل ، وقد أضيفت عن (م) .

(٣) م : « فاستقر » .

دمشق ، ولم يشق عليه عصا ، ودخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة ، وتسلم قلعتها .

وكان أول دخوله إلى دار أبيه / ، واجتمع الناس إليه وفرحوا به ^(١) ، ٣٣ أ وأنفق في ذلك اليوم في الناس مالا طائلا ، وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين ، وأظهروا الفرح به ، وصعد القلعة ، واستقر قدمه في ملكها ، فلم يلبث أن سار في ^(٢) طلب حلب ، فنازل حمصا ، وأخذ مدينتها في جمادى الأولى سنة سبعين ، ولم يشتغل بقلعتها ، وسار حتى أتى حلب ، ونازلها في يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى من السنة المذكورة ، وهي الدفعة الأولى .

ذكر تسيير سيف الدين أخاه عز الدين إلى لقائه

ولما أحس سيف الدين - صاحب الموصل - بما جرى ، علم أن الرجل قد استفحل أمره ، وعظم شأنه ، وعلت كلمته ، وخاف أنه إن غفل عنه استحوذ على البلاد ، واستقر قدمه في الملك ، وتعدى الأمر إليه ، فجهز عسكرا وافرا وجيشا عظيما ، وقدم عليه أخاه عز الدين مسعودا ، وساروا يريدون لقاء السلطان وضرب المصاف معه وردّه عن البلاد .

ولما بلغ السلطان ذلك رحل عن حلب مستهل رجب من السنة المذكورة عائدا إلى حماة ، وسار إلى / حمص فاشتغل بأخذ قلعتها ، فأخذها ، ثم وصل ٣٣ ب عز الدين إلى محروسة حلب ، وانضم إليه من كان بها من العسكر وخرجوا بجمع عظيم .

(١) م : « ولي جوابه » .

(٢) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

ولما عرف هو بمسيرهم سار حتى وافاهم في قرون حماة ، وراسلهم وراسلوه ، واجتهد أن يصلحوه ، فما صالحوه ورأوا أن المصاف ربما نالوا به الغرض الأكبر ، والمقصود الأوفر ، والقضاء يجزُّ إلى أمور ، وهم بها لا يشعرون .
وقام المصاف بين العسكرين فقضى الله أن انكسروا ^(١) بين يديه ، وأسر جماعة منهم ، ومن عليهم وأطلقهم وذلك ^(٢) عند قرون حماة ^(٣) في تاسع عشر رمضان سنة سبعين وخمسمائة .

ثم سار عقيب انكسارهم ، ونزل على حلب ، وهي الدفعة الثانية ، وصالحوه على أن أخذ المعرة وكفر طاب وأخذ بارين ، وذلك في أواخر سنة سبعين وخمسمائة .

ذكر مسير سيف الدين بنفسه

ولما وقعت هذه الواقعة كان سيف الدين على سينجار يحاصر أخاه عماد الدين ويقصد أخذها منه ، ودخوله في طاعته ، وكان قد أظهر أخوه الانتماء إلى السلطان ، واعتصم بذلك ، واشتد سيف / الدين في حصار المكان وضربه بالمنجنيق حتى انهدم من سورته ثلث كثيرة . وأشرف على الأخذ ، فبلغه وقوع هذه الواقعة فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتد أمره ^(٢) ويقوى جأشه ^(٣) ، فراسله إلى الصلح فصالحه .

أ ٣٤

ثم سار من وقته إلى نصيبين ، واهتم بجمع العساكر والإنفاق فيها ، وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة ، ونحيم على جانب الفرات الشامي ، وراسل

(١) م : « بقضاء الله فانكسروا » .

(٢) هذه الكلمات الثلاث غير موجودة في (م) .

(٣) هذان اللفظان غير موجودين في (م) .

كُمُشْتِكِينَ وَالْمَلِكُ الصَّالِحُ حَتَّى تَسْتَقِرَّ قَاعِدَةٌ يَصِلُ عَلَيْهَا إِلَيْهِمْ ، وَوَصَلَ كُمُشْتَيْنِ إِلَيْهِ ، وَجَرَتْ مَرَاجِعَاتٌ كَثِيرَةٌ عَزَمَ فِيهَا عَلَى الْعُودِ مَرَارًا حَتَّى اسْتَقَرَّ اجْتِمَاعُهُ بِالْمَلِكِ الصَّالِحِ ، وَسَمَّحُوا بِهِ ، وَسَارَ وَوَصَلَ مُحْرُوسَةً حَلَبَ ، وَخَرَجَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ إِلَى لِقَائِهِ بِنَفْسِهِ ، فَالْتَقَاهُ قَرِيبَ الْقَلْعَةِ ، وَاعْتَنَقَهُ وَضَمَّهُ إِلَيْهِ وَبَكَى ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالْعُودِ إِلَى الْقَلْعَةِ فَعَادَ إِلَيْهَا ، وَسَارَ هُوَ حَتَّى نَزَلَ بَعِينَ الْمُبَارَكَةِ ، وَأَقَامَ بِهَا مَدَّةً ، وَعَسَكُرُ حَلَبَ يُخْرِجُ إِلَى خِدْمَتِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ .

وَصَعِدَ الْقَلْعَةَ جَرِيدَةً ، وَأَكَلَ فِيهَا خَبْزًا وَنَزَلَ ، وَسَارَ رَاحِلًا إِلَى تَلِ السُّلْطَانِ وَمَعَهُ الدِّيَارِبُكْرِيَّةُ وَجَمْعٌ كَثِيرٌ ، وَالسُّلْطَانُ قَدْ أَنْفَذَ فِي طَلَبِ الْعَسَاكِرِ مِنْ مِصْرَ ، وَهُوَ يَتَرَقَّبُ وَصُولَهَا / ، وَهَؤُلَاءِ يَتَأَخَّرُونَ فِي أُمُورِهِمْ وَتَدَايِيرِهِمْ ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٣٤ ب أَنِ فِي التَّأَخِيرِ تَدْيِيرًا ، حَتَّى وَصَلَ عَسَاكِرُ مِصْرَ ، فَسَارَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - حَتَّى أَتَى قُرُونَ حِمَاةَ ، فَبَلَغَهُمْ أَنَّهُ قَدْ قَارَبَ عَسَاكِرَهُ ، فَأَخْرَجُوا الْيَزْكَ ، وَجَهَّزُوا مَنْ كَشَفَ الْأَخْبَارَ ، فَوَجَدُوهُ قَدْ وَصَلَ جَرِيدَةً إِلَى جَبَابِ (١) التُّرْكَانِ ، وَتَفَرَّقَ عَسَاكِرُهُ يَسْقَى ، فَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ نَصْرَتَهُمْ لَقَصَدُوهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ ، وَلَكِنْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، فَصَبَرُوا عَلَيْهِ حَتَّى سَقَى خَيْلَهُ هُوَ وَعَسَاكِرُهُ ، وَاجْتَمَعُوا ، وَتَعَبُوا تَعَبِيَّةَ الْقِتَالِ .

وَأَصْبَحَ الْقَوْمُ عَلَى مِصَافٍ ، وَذَلِكَ فِي بَكْرَةِ الْخَمِيسِ الْعَاشِرِ مِنْ شَوَالِ سَنَةِ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، فَالْتَقَى الْعَسَاكِرَانِ وَتَصَادَمَا ، وَجَرَى قِتَالٌ عَظِيمٌ ، انْكَسَرَتْ مِيسِرَةُ السُّلْطَانِ بَابَنَ زَيْنِ الدِّينِ مَظْفَرَ الدِّينِ ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي مِيمَنَةِ سَيْفِ الدِّينِ وَحَمَلَ السُّلْطَانُ بِنَفْسِهِ فَانْكَسَرَ الْقَوْمُ ، وَأَسْرَ مِنْهُمْ جَمْعًا عَظِيمًا مِنْ كِبَارِ الْأُمَرَاءِ ، مِنْهُمْ فَخْرُ الدِّينِ عَبْدِ الْمَسِيحِ فَمِنْ عَلَيْهِمْ وَأَطْلَقَهُمْ .

وَعَادَ سَيْفُ الدِّينِ إِلَى حَلَبِ الْمُحْرُوسَةِ ، فَأَخَذَ مِنْهَا خِزَانَتَهُ ، وَسَارَ حَتَّى عَبَرَ الْفَرَاتَ ، وَعَادَ إِلَى بِلَادِهِ .

(١) م : « جناب » .

أ ٣٥

وأمسك هو - رحمه الله - / عن تتبع العسكر ، ونزل في بقية ذلك اليوم في خيم القوم ، فإنهم كانوا قد أبقوا الثقل على ما كان عليه ، والمطابخ قد عملت ، ففرق الاصطبلات ، ووهب الخزائن وأعطى خيمة سيف الدين عز الدين فروخشاه ، وسار إلى محروسه منيغ فتسلمها في بقية الشهر المذكور .

وسار حتى نزل على قلعة أعزاز يحاصرها ، وذلك رابع ذى القعدة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، وعليها وثب الإسماعيلية ^(١) عليه - رحمه الله - فنجاه الله من كيدهم ، وظفر بهم ، ولم يفل ذلك عزمه ، وأقام عليها حتى أخذها ، وذلك في رابع عشر ذى الحجة من السنة المذكورة وسار حتى نزل على حلب المحروسة في سادس عشر منه ، فأقام مدة ، ثم سار عنها ، فأخرجوا إليه ابنة نور الدين صغيرة ، وسألت منه أعزاز فوهبها إياها .

وفي بقية الشهر أيضا وصل شمس الدولة ^(٢) أخوه من اليمن إلى محروسة ^(٣) دمشق وأقام بها مدة ، ثم عاد إلى الديار المصرية ، وتوفي باسكندرية يوم الخميس ^(٣) مستهل صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة ^(٣) .

ب ٣٥

ثم / إن السلطان عاد إلى الديار المصرية لتفقد أحوالها ، وتقرير قواعدها ، وكان مسيره إليها في ربيع الأول من شهور سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ^(٣) ، واستخلف أخاه شمس الدولة بدمشق ، فأقام - رحمه الله - بها يقرر قواعدها ، ويسد خللها .

وأراح العسكر ، ثم تأهب للغزاة ، وخرج يطلب الساحل حتى وافى الافرنج على الرملة ، وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة .

(١) للامام بهذا الموضوع راجع : (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٤) و

(B. Lewis : Saladin and the Assassins. B. &O.A.&. 1953 XV 12)

(٢) ذكر أخباره بالتفصيل في (ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشيال ، ج ١ و ٢ ، الصفحات

المذكورة في الفهرس) .

(٣) هذا اللفظ غير موجود في (م) .

ذكر كسرة الرملة

وكان مقدّم الافرنج البرنس أرناط ، وكان قد بيع بحلب ، فإنه كان أسيرا بها في زمن نور الدين .

وجرى خلل في ذلك اليوم على المسلمين ، ولقد حكى السلطان صورة الكسرة في ذلك اليوم ، وذلك أن المسلمين كانوا قد تعبوا تعباً الحرب ^(١) ، ولما قرب العدو رأى بعض الجماعة أن تعبر الميمنة إلى جهة اليسرة ، والميسرة إلى جهة القلب ^(٢) ، ليكونوا حالة اللقاء وراء ظهورهم تل يعرف بأرض الرملة ، فبينما اشتغلوا بهذه التعبئة / هجمهم الافرنج ، وقدر الله كسرتهم ، ^{أ ٣٦} فانكسروا كسرة عظيمة ، ولم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه ، فطلبوا جهة الديار المصرية ، وظلوا في الطرق ، وتبددوا ، وأسروا منهم جماعة ، منهم الفقيه عيسى ؛ وكان وهناً عظيماً جبره الله بوقعة حطين المشهورة ، والله الحمد .

وأما الملك الصالح فإنه تخبط أمره ، وقبض على كُششَتَيْن صاحب دولته ، وطلب منه تسليم حارم إليه ، فلم يفعل ، فقتله .

ولما سمع الافرنج بقتله نزلوا على حارم طمعاً فيها ، وذلك في جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين ، وقابل عسكرُ الملك الصالح العساكرَ الافرنجية .

ولما رأى أهل القلعة خطرهما من جانب الافرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الأخير من شهر رمضان من السنة المذكورة .

ولما علم الافرنج ذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم ، ^(٣) وذلك في تاسع عشر شهر رمضان من السنة المذكورة ^(٣) ثم عاد الملك الصالح إلى محروسة حلب .

(١) م : القتال .

(٢) م : الميمنة .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .

ولم يزل أصحابه على اختلاف ، يميل بعضهم إلى جانب السلطان حتى
 ٣٦ ب بلغه عصيان قليج غرس الدين ^(١) تبل / خالد ، فأخرج إليه العسكر ، وذلك
 في عاشر المحرم سنة ست وسبعين وخمسمائة .

ثم بلغه وفاة ابن عمه سيف الدين غازي - صاحب الموصل - وكانت
 وفاته في ثالث صفر من سنة ست وسبعين ، وولى مكانه أخوه عز الدين
 مسعود ^(٢) . وسبق تاريخ وفاة شمس الدولة رحمه الله ^(٣) .

ذكر عود السلطان - رحمه الله - إلى الشام

ولما عاد السلطان بعد الكسرة إلى الديار المصرية ، وأقام بها ريثما لم الناس
 شعئهم ، وعلم تخطيط الشام ، عزم على العود إليه ، وكان عوده للغزاة ، فوصله
 رسل ^(٤) قليج أرسلان يلتمسون من السلطان الموافقة ، ويستغيث إليه من
 الأرمن ، فاشتعل نحو بلاد ابن لاون ^(٥) لنصرة قليج أرسلان عليه ، ونزل بقرا
 حصار ، فأخذ عسكر حلب في خدمته ، لأنه قد اشترط في الصلح ، فاجتمعوا
 على النهر الأزرق بين بهسنى ^(٦) وحصن منصور ، وعبر منه إلى النهر
 الأسود ^(٧) ، وطرق بلاد ابن لاون ، وأخذ منهم حصنا وأخر به ، وبذلوا له
 أسارى واتمسوا منه الصلح ، وعاد عنهم .

(١) م : « عصيان عز الدين قليج » .

(٢) بعد هذا اللفظ في (م) : « في الخامس منه » .

(٣) النص في (م) : « وكانت وفاة شمس الدين بالاسكندرية » .

(٤) م : « رسول » .

(٥) هوليون الثاني صاحب أرمينية (Leo II Roupenian of Armenia) انظر :

Runciman. O. P. Cit. vol, 2. P. 430

(٦) م : « بهنسة » .

(٧) عرف (ياقوت : معجم البلدان) النهر الأزرق بأنه هر الثغر بين بهسنا وحصن منصور في
 طرف بلاد الروم من جهة حلب ، ثم قال : ونهر الأسود نهر قريب من الذي قبله في طرف بلاد مصيصة
 وطرشوس .

ثم راسله قليج أرسلان في صلح الشرقيين / بأسرهم ، واستقر الصلح ، ٣٧ أ
وحلف السلطان في عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين ، ودخل في الصلح
قليج أرسلان والمواصلة والدياربكرية ^(١) ، وكان ذلك على نهر شنجة ، وهو
نهر يرمى إلى الفرات . وسار السلطان نحو دمشق المحروسة .

ذكر وفاة الملك الصالح ^(٢)

^(٣) ولما دخل جمادى الآخرة من ^(٤) سنة سبع وسبعين مرض الملك الصالح
بالقَوَلنج ^(٥) ، وكان أول مرضه في تاسع رجب سنة سبع وسبعين .
وفي ثالث وعشرين ^(٦) منه غلق باب القلعة لشدة مرضه ، واستدعى
الأمراء واحدا واحدا ، واستحلفوا ^(٧) لعز الدين صاحب الموصل .
وفي خامس وعشرين منه توفى - رحمه الله - ، وكان لموته وقع عظيم
في قلوب الناس .

ذكر وصول عز الدين إلى حلب

ولما توفى سارعوا إلى إعلام عز الدين مسعود بن قطب الدين بذلك ،
وإعلامه بما جرى له من الوصية إليه ، وتحليف الناس له ، فسارع سائرا إلى حلب
مبادرا ، خوفا من السلطان .

(١) م : « وديار بكر » .

(٢) يوجد في م تنمة لهذا العنوان نصها « ووصول عز الدين إلى حلب » وقد أفردت هذه الجملة
لتكون عنوانا مستقلا في متن الأصل بعد سطور قليلة .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٤) مرض وصفه (الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص : ٩٨) بأنه اعتقال الطبيعة لانسداد المعى

المسمى قولون .

(٥) م : ثالث عشر

(٦) م : « وحلفوا » .

٣٧ ب وكان / أول قادم من أمرائه إلى حلب مظفر الدين بن زين الدين ،
وصاحب سرؤج ، ووصل معهما مَنْ حَلَفَ جميع الأمراء له ، وكان وصولهم
في ثالث شعبان من السنة المذكورة .

وفي العشرين منه وصل عز الدين إلى حلب ، وصعد القلعة ، واستولى
على خزائنها وذخائرها ، وتزوج أم الملك الصالح خامس شوال من السنة
المذكورة .

ذكر مقايضة عز الدين أخاه عماد الدين زنكى بالبلاط

ثم أقام عز الدين بقلعة حلب إلى سادس عشر شوال من السنة المذكورة ،
وعلم أنه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته إلى ملازمة الشام لأجل
السلطان ، وألحَّ عليه الأمراء في طلب الزيادات ، ورأوا أنفسهم أنهم قد اختاروه ،
وضاق عطنه ، وكان صاحب أمره مجاهد الدين قايماز - وكان ضيق العطن لم
يعتد بمقاساة أمراء الشام - ، فرحل من قلعة حلب ^(١) في سادس عشر شوال
طالباً للرقّة ، وخلفه ولده ومظفر الدين بن زين الدين بها ، وسار حتى أتى الرقة .

٣٨ أ ولقيه أخوه عماد الدين عن / قرار بينهما ، واستقرَّ مقايضة حلب
بسنجار ، وحلف عز الدين لأخيه عماد الدين على ذلك في حادي وعشرين
شوال ، وسار من جانب عماد الدين مَنْ تسلّم حلب ، ومن جانب عز الدين
مَنْ تسلّم سنجار .

وفي ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين إلى قلعة حلب .

(١) هذه الجملة ساقطة من (م)

ذكر عود السلطان من مصر

وأما السلطان فإنه لما وقع الصلح على يد قليج أرسلان صعد إلى الديار المصرية - حرسها الله تعالى - .

واستخلف ابن أخيه عز الدين فروخشاه ^(١) واليا ، ولما بلغ السلطان - قدس الله روحه - وفاة الملك الصالح عزم على العود إلى الشام خوفا على البلاد من الافرنج ، وبلغه أيضا وفاة فروخشاه ^(١) ^(٢) في يوم الجمعة مستهل رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة ^(٢) فاشتد عزمه .

وكان وصوله إلى محروسة دمشق في سابع عشر صفر سنة ثمان وسبعين ، ثم أنشأ التأهب لغزاة بيروت ، فإنه عبر على الافرنج في عوده من مصر مكابرة من غير صلح ، فقصد / بيروت ونازلها ، ولم ينل منها غرضا ، واجتمع الافرنج ٣٨ ب فرحلوه عنها ، ودخل إلى دمشق .

وبلغه أن رسل الموصل وصلوا إلى الافرنج يحثونهم على قتال المسلمين ، فعلم أنها نكثوا اليمين ، وأنشأ العزم على قصدهم لجمع كلمة العساكر الإسلامية على عدو الله ، فأخذ في التأهب لذلك ، فلما بلغ ذلك عماد الدين سير إلى الموصل يشعروهم بالخبر ، ويستحث العساكر .

وسار السلطان حتى نزل على حلب في ثامن عشر جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين ، وأقام ثلاثة أيام ورحل في الحادى والعشرين منه يطلب الفزاة ^(٣) ، واستقر الحال بينه وبين مظفر الدين ، وكان صاحب حران ، وكان قد استوحش

(١) م : « فخرشاه » ، وما بالمتن هو الصحيح ، راجع (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ،

ص ١٥١)

(٢) هذه الفقرة كلها ساقطة من (م) .

(٣) م : « الفزاة »

من جانب الموصل ، وخاف من مجاهد الدين ، فالتجأ إلى السلطان ، وعبر إليه إلى قاطع الفرات ، وقوى عزمه على البلاد ، وسهل أمرها عنده ، فعبر الفرات ، وأخذ ^(١) الرها ، والرقّة ، ونصيبين ، وسروج ، ثم شحن على الخابور وأقطعه .

ذكر نزوله على الموصل

أ ٣٩

/ وكان نزوله عليها في هذه الدفعة ^(٢) ثم يوم الخميس حادى عشر شهر رجب سنة ثمان وسبعين ، وكنتُ - إذ ذاك - بالموصل فسيّرت رسولا إلى بغداد قبيل نزوله عليها بأيام قلائل ^(٣) ، فسرتُ ^(٤) مسرعا في الدجلة ، وأتيتُ بغداد في يومين وساعتين من اليوم الثالث ، مستنجدا بهم ، فلم يحصل منهم سوى الإنفاذ إلى شيخ الشيوخ ، وكان في صحبته رسولا ^(٥) من جانبهم ، يأمرونه بالحديث معه ، ويلطف الحال معه ، وسير إلى بهلوان رسولا من الموصل يستنجد ^(٦) ، فلم يحصل منه سوى تشرط كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان .

ثم أقام السلطان على الموصل أياما ، وعلم أنه بلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالمحاصرة على هذا الوجه ، ورأى أن طريق أخذه أخذ قلاعه ، وما حوله من البلاد ، وإضعافه بطول الزمان ، فرحل عنها ، ونزل على سنجار في سادس عشر شعبان سنة ثمان وسبعين وخمسمائة .

(١) النص في (م) : « عنده ، ودخل الرها » .

(٢) م : « الوقعة » .

(٣) م : « مقبلا بأيام قلائل » ولا معنى لها .

(٤) هذا نص له أهميته عند الترجمة للمؤلف ابن شداد ، فهو يشير إلى أنه بعث رسولا إلى بغداد

فسار إليها من الموصل في شهر رجب سنة ٥٧٨ هـ .

(٥) م : « رسول » ، والمقصود أنه كان في صحبة صلاح الدين وقتذاك ، راجع (ابن واصل .

مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٢٢)

(٦) م : « يستنجلوه »

ذكر أخذه سنجار

وأقام يحاصر سنجار ، وكان فيها شرف الدين بن قطب الدين وجماعة ، واشتد عليه الأمر ، حتى كان ثانی شهر رمضان سنة ثمان وسبعين فأخذها عنوة ، وخرج شرف الدين وجماعته / محترمين محفوظين إلى محروسة الموصل ، ٣٩ ب وأعطاهما ابن أخيه تقي الدين ، ورحل عنها إلى نصيبين .

ذكر قصة شاه أرمن

صاحب خلّاط

وذلك أن أصحاب الموصل أنفذوا إليه واستنجدوا به ، وطرحوا أنفسهم عليه ، فخرج من خلّاط لنصرتهم ، ونزل بحرّزم ^(١) ، وسير إلى عز الدين صاحب الموصل أعلمه ، فخرج إليه ، وذلك في خامس عشرين ^(٢) شوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، فسار حتى اجتمع به وصاحب ماردين ، ووصل جماعة من عسكر حلب ، كل ذلك للقاء السلطان .

وأرسل شاه أرمن بكتمر إلى السلطان يخاطبه في الصلح بتوسط شيخ الشيوخ ، فلم ينتظم بينهم حال ، ورحل السلطان إلى عسكر شاه أرمن ، فلما سمع شاه أرمن بوصول السلطان ولى راجعا إلى بلاده ، وعاد عز الدين إلى بلاده ، وتفرقوا ، وسار السلطان يطلب بلد آمد ، فنزل عليها وقتلها وأخذها في ثمانية أيام ، وذلك في أوائل المحرم ^(٣) سنة تسع وسبعين ، وأعطاهما نور الدين بن قرا أرسلان .

(١) ضبط هذا اللفظ بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفها بأنها بلدة في واد ذات نهر جار وبساتين بين ماردين ودينيسر من أعمال الجزيرة ، وأكثر أهلها أرمن نصارى .

(٢) م « الخامس عشر من شوال »

(٣) م « أول محرم »

ومن على ابن بيسان بجميع ما كان فيها من الأموال وغيرها ، ثم سار يطلب الشام لقصد حلب

٤٠ أ

وفي هذه المدة خرج عماد الدين وخرَّب قلعة / أعزاز في تاسع جمادى الآخرة من سنة ثمان وسبعين ، وخرَّب حصن كفرلاثا ، وأخذها من بكمش ، فإنه كان قد صار مع السلطان في ثاني عشر ^(١) جمادى الأولى من السنة المذكورة . وقاتل تل باشر ، وكان صاحبها ^(٢) - دلدريم الياروق - ^(٣) قد صار مع السلطان ، فلم يقدر عليها ، وجرت غارات من الأفرنج في البلاد ، بحكم اختلاف العساكر ، ودفعهم الله تعالى ، وتسلم الكزرين ، ثم عاد إلى حلب المحروسة .

ذكر عود السلطان إلى الشام

ولما عاد إلى الشام بدأ بتل خالد ، فنزل عليها ، وقاتلها ، وأخذها في ثاني عشر المحرم ^(٤) سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، ثم سار طالبا حلب ، فنزل عليها في سادس عشر محرم ^(٥) سنة تسع وسبعين وخمسمائة وكان أول نزوله بالميدان الأخضر ، ^(٦) وسير المقاتلة يقاتلون ، فيياسطون عسكر حلب بيانقوسا وباب الجنان غدوة وعشية ، وفي يوم نزوله جرح أخوه تاج الملوك ، رحمه الله ^(٧) .

(١) م . « الثاني والعشرين من جمادى » .

(٢) هذا الاسم غير موجود في الأصل ، وقد أضيف عن (م)

(٣) م : « الثاني والعشرين من محرم » .

(٤) م . « السادس والعشرين »

(٥) هذه العبارة ساقطة من (م)

ذكر أخذه حلب

قدس الله روحه

ولما نزل على حلب استدعى العساكر من الجوانب ، واجتمع خلق / ٤٠ ب
عظيم ، وقاتلها قتالا شديدا ، وتحقق عماد الدين أنه ليس له به قبل ، وكان قد
ضرس من اقتراح الأمراء عليه ، وجههم فأشار إلى حسام الدين طمان أن يسفر
له مع السلطان في إعادة بلاده ، وتسليم حلب إليه ، واستقرت القاعدة ، ولم
يشعر أحد من الرعية ولا من العسكر حتى تم الأمر ، وانحكمت ^(١) القاعدة ،
واستفاض ذلك ، واستعلم العسكر منه ذلك ، فأعلمهم ، وأذن لهم في تدبير
أنفسهم ، فأنفذوا عنهم وعن الرعية عز الدين جُرديك [النورى] ، وزين الدين
بلك الياروق ^(٢) ، ففعلوا عنده إلى الليل واستحلفوه على العسكر وعلى أهل
البلد ، وذلك في سابع عشر من صفر سنة تسع وسبعين .

وخرجت العساكر إلى خدمته إلى الميدان الأخضر ومقدمو حلب ، وخلع
عليهم وطيب قلوبهم ، وأقام عماد الدين بالقلعة يقضى أشغاله ، ونقل أقمشته
وخزائنه ، والسلطان مقيم بالميدان الأخضر إلى يوم الخميس ثالث وعشرين صفر .
وفيه توفى أخوه تاج الملوك ^(٣) ، من الجرح الذى كان أصابه ^(٤) وشق
/ عليه أمر موته ، وجلس للعزاء .

٤١ أ

(١) م « واستحكمت »

(٢) هذان اللفطان ساقطان من (م) .

(٣) كان تاج الملوك بورى أصغر أخوة صلاح الدين جيهما ، وكان يشر بمستقبل طيب ، فقد
كان شجاعا وشاعرا ، وتذكر المراجع أن له ديوان شعر (ولكنه غير موجود) . انظر أخباره وترجمته
بالتفصيل عند (ابن خلكان : الوفيات) و (الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ١٣ ب - ١٤ ب)
و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٢ و ٤٤) و (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٤٣ -
١٤٦) و (جمال الدين الشيال : شاعر من البيت الأول ، مقال بمجلة الثقافة ، العدد ١٣ ، ٢٤ يونيو
١٩٤١) و بورى كلمة تركية معناها الذهب

(٤) م « أخوه من جرح كان أصابه »

وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين إلى خدمته ، وعزاه وسار معه بالميدان الأخضر ، وتقررت بينهما قواعد ، وأنزله السلطان عنده في الخيمة ، وقدم له مقدمة سنية وخيلا جميلة ، وخلع على جماعة من أصحابه .

وسار عماد الدين من يومه إلى قرا حصار سائرا إلى سنجار ، ^(١) وأقام السلطان بالخيم بعد سير عماد الدين غير مكترث بأمرها ، ولا مستعظم لشأنها إلى يوم الاثنين سابع عشرين صفر ، ثم في ذلك اليوم ^(٢) صعد [السلطان] قلعة حلب مسرورا منصورا ، وعمل له حسام الدين طمان دعوة سنية ، وكان قد تخلف لأخذ ما تخلف لعماد الدين من قماش وغيره .

ذكر أخذه حارم ^(٢)

وكان قد أنفذ إلى حارم من يتسلمها ، ودافعهم الوالى وأنفذ الأجناد الذين بها يستحلفونه ^(٣) فوصل خبرهم يوم الثلاثاء ثامن عشرين صفر ^(٤) ، فحلف لهم ، وسار من وقته إلى حارم فوصلها في تاسع وعشرين صفر ، وتسلمها ، ٤١ ب وبات بها ليلتين ، وقرر / قواعدها ، وولى فيها إبراهيم بن شروة ، وعاد إلى حلب ، ودخلها في ثالث ربيع الأول سنة تسع وسبعين .

ثم أعطى العساكر دستورا ، وسار كل منهم إلى بلاده ، وأقام يقرر قواعد حلب ويدبر أمورها .

(١) هذه العبارة ساقطة من (م)

(٢) هذا العنوان غير موجود في (م)

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م)

ذكر غزاة عين جالوت

ولم يقم في حلب إلا إلى يوم السبت ثاني وعشرين^(١) ربيع الآخر سنة تسع وسبعين ، وأنشأ عزمًا على الغزاة ، فخرج في ذلك اليوم إلى الوضيحي^(٢) مبرزًا نحو دمشق ، واستنهض العساكر ، فخرجوا يتبعونه^(٣) ، ثم رحل في رابع وعشرين منه إلى حماة فوصلها ، ثم رحل في بقية يومه^(٤) ، ولم يزل يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جمادى الأولى سنة تسع وسبعين ، فأقام بها متأهبًا إلى سابع وعشرين منه ، ثم برز في ذلك اليوم ، ونزل على جسر الخشب ، وتبعته العساكر مبرزة ، فأقام بها تسعة أيام ، ثم رحل في ثامن جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وسار حتى أتى الفؤار^(٥) ، وتعبى فيه للحرب ، وسار حتى نزل الصير ، فبات فيه ، وأصبح / على المخاض ، وعير وسار حتى أتى بيسان ، فوجد أهلها قد نزحوا^(٦) عنها ، وتركوا ما كان من ثقل الأقمشة والفلال والأمتعة بها ، فنهبا العسكر ، وغنموا ، وأحرقوا ما لم يمكن أخذه . وسار حتى أتى الجالوت ، وهى قرية عامرة ، وعندها عين جارية ، فخيم بها .

وكان قد قدم عز الدين جُرديك^(٧) وجماعة من المماليك النورية ،

(١) م : « إلى الثاني والعشرين من ربيع الآخر » .

(٢) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٣) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٤) م : « الفؤاد » .

(٥) م : « ترخوا » .

(٦) جرديك ، ويرسم أحيانا « جورديك » كان من ممالك نور الدين ، ولهذا يلقب بالنورى ، وكان واحدا من القواد الذين رافقوا أسد الدين شيركوه في حملته الأخيرة على مصر ، وكان مشاركا لصالح الدين عند القبض على شاور ، راجع أخباره في (ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشيال ، ج ٢) .

وجاؤلى - مملوك أسد الدين - حتى يكشفوا خبر الافرنج ، فاتفق أنهم صادفوا
عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للافرنج ، فوقع أصحابنا عليهم ، وقتلوا
منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا منهم زهاء مائة نفر ، وعادوا ولم يُفقد من المسلمين
سوى شخص واحد يدعى « بهرام الشاوش »^(١) ، فوصل إليه في بقية يوم
الکسرة ، وهو الخميس^(٢) العاشر من جمادى الآخرة من سنة تسع
وسبعين^(٣) ، فاستبشر المسلمون بالنصر والظفر .

ولما كان السبت حادى عشر وصل الخبر إليه أن الافرنج قد اجتمعوا في
صفورية ، فرحلوا إلى الفولة وهي قرية معروفة ، وكان غرضه المصاف ، فلما
٤٢ ب سمع بذلك تعبى للقاء ، ورُتب الاطلاق^(٤) ميمنة ، ، وميسرة / وقلبا ، وسار
لللقاء العدو .

وسار الافرنج طالبين المسلمين ، ووقعت العين في العين ، وأخرج السلطان
الجاليش^(٥) خمسمائة رجل معروفة فواقعوا الافرنج ، وجرى قتال عظيم ، وقُتل
من العدو جماعة وجُرح جماعة^(٥) ، وهم ينضم بعضهم إلى بعض ، يحمى

(١) الشاوش أو الشاوش أو الجاوش أو الجاوش : لفظ تركى ، وجمعه جاويشيه ،
كان معناه في مصطلح العصر الأيوى جندى مهمته النداء أو استنفار الجند . انظر : (العماد : الفتح القسى ،
ص ٢٤٢) و (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٩٥) ، أما في العصر المملوكى فقد كان
النظام يقضى بأن يسر أربعة من جنود الحلقة الشجعان أمام السلطان في مواكبه للنداء وتنبه المارة ،
والجاوش أو الشاوش جندى من رتبة بسيطة أو ساع يكلفه مخدومه بحمل الرسائل وتبليغها ، ولا زال
هذا اللفظ يستعمل بهذا المعنى الأخير حتى اليوم في بلاد المغرب . راجع أيضا (Dozy : Supp. Dict. Arab)
(٢) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

(٣) جمع طلب ، وهو لفظ كردى معناه الأمير الذى يقود مائتى فارس في ميدان القتال ، ويطلق
أيضا على قائد المائة أو السبعين ، وكان أول استعمال هذا اللفظ بمصر والشام أيام صلاح الدين ، ثم عدل
مدلوله فأصبح يطلق على الكتيبة (Bataillon) من الجيش انظر أيضا (Dozy : Supp. Dict. Arab) .

(٤) الجاليش في الأصل معناها الراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر ، ثم أطلق اللفظ على مقدمة
القلب في الجيش أو على الطليعة منه . انظر تعليقات الدكتور ريادة في (السلوك ، ج ١ ، ص ٦٢٨ و ٦٩٢)
(٥) هذان اللفظان ساقطان من (م)

راجلهم فارسهم ، ولم يخرجوا إلى المصاف ، ولم يزالوا سائرين حتى أتوا العيين ، ونزلوا عليها ، ونزل السلطان حولهم ، والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا إلى المصاف ، وهم لا يخرجون لخوفهم من المسلمين ، فإنهم كانوا في كثرة عظيمة .

ولما رأى أنهم لا يخرجون ^(١) رأى الانتزاح عنهم لعلهم يرحلون ، فيضرب معهم مصافا ، فرحل نحو الطور ، وذلك في سابع عشر جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين ^(٢) ، فنزل تحت الجبل مترقبا رحيلهم ، ليأخذ منهم فرصة .

وأصبح الافرنج في ثامن عشره راحلين ، راجعين على أعقابهم ، ناكسين ، فرحل - رحمه الله - نحوهم ، وجرى من رمى النشاب ^(٣) واستنهاضهم للمصاف أمورا عظيمة ، فلم يخرجوا ، ولم يزل المسلمون حولهم حتى نزلوا الفولة المقدم ذكرها راجعين إلى بلادهم .

فلما رأى المسلمون ذلك اجتمعوا على / السلطان ، وأشاروا بالعود لفراغ أزوادهم ^(٤) ، وكان قد نال منهم بالقتل والأسر ، وتخریب عفرىلا ^(٥) وقلعة بيسان ، وزرعين ، وهى من حصونهم المذكورة ، وخرب عليهم قوى عرايا عدة ، فعاد منصورا مظفرا مسرورا ، فسار حتى نزل الفوار ، وأعطى الناس دستورا من أثر المسير ، ثم سار هو حتى أتى دمشق ، فدخلها فرحا مسرورا في يوم الخميس رابع وعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

(١) م : « لم يخرجوا » .

(٢) النص في (م) : « في السابع عشر من هذا الشهر » .

(٣) النشاب : النبل أو السهام ، واحده نشابة ؛ والناشبة والنشابة قوم يرمون بالنشاب (اللسان) ، وقد ذكر (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٦٠) أنواع النشاب وما يمتاز به كل نوع على الآخر ، قال : « وأما النشاب فيجب أن تكون صحيحة الاعتدال والاستدارة والقتل والثقل والخفة ، وطوله وقصره على حسب مقادير الرامى ، والمرش : المربع أو المثلث ، والجناح الأيمن أخف من الأيسر ، والمثلث المرش أسرع ، والمربع أعدل وأصح ، لكن فيه بقاء ، ورش الذنب لاخير فيه فإن اضطر إليه فليخلط مع غيره ... إلخ » .

(٤) م : « زادهم » .

(٥) م : « وخربت عفرى بلا » .

فانظر إلى هذه المهمة التي لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب ولا الظفر بها ،
بل كان غرضه الاستعانة بالبلاد على الجهاد ، فالله يحسن جزاءه في الآخرة ، كما
وفقه للأعمال المرضية في الدنيا .

ذكر غزاة أنشأها إلى الكرك

ثم إنه أقام بدمشق إلى ثالث رجب سنة تسع وسبعين ، وخرج مبرزا ^(١) نحو
الكرك ، وكان قد سير إلى الملك العادل وهو بمصر يتقدم إليه بالاجتماع به على
الكرك ، فبلغه خبر حركته من مصر ، فخرج للقاءه ، وسار حتى أتى الكرك
٤٣ ب / ، ووافاه الملك العادل عليها ، وقد خرج معه خلق عظيم من تاجر وغير تاجر ،
وذلك في رابع شعبان من السنة المذكورة .

فلما اجتمعا على الكرك - وكان قد بلغ الفرنج - خذلهم الله - ^(٢) خبر
خروجه ، فساروا براجلهم وفارسهم نحو الكرك للدفع عنه ، ولما انتهى ذلك
إليه سير الملك المظفر تقى الدين إلى مصر ، وذلك في خامس عشر شهر
شعبان ^(٢) من السنة المذكورة ^(٢) .

وفي صبيحة ^(٢) السادس عشر منه نزلت الافرنج على الكرك ، وتزحزح
السلطان عنه بعد أن كان قاتله قتالا عظيما ، وعليه قتل شرف الدين بزغش
النورى شهيدا - ^(٢) رحمه الله - في ثامن عشرين رجب ^(٢) .

(١) م : د مرارا ،

(٢) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

ذكر إعطائه أخاه الملك العادل حلباً

ثم رحل السلطان مستصبحاً أخاه الملك العادل معه إلى دمشق ،
ليأسه ^(١) عن الكرك بعد نزول الافرنج عليها ، فدخل دمشق في رابع عشرين
شعبان من سنة تسع وسبعين ، وأعطى أخاه الملك العادل حلباً بعد مقامه
بدمشق ^(٢) إلى ثاني شهر رمضان ، فسار في ذلك اليوم نحو حلب ، فوصلها
وصعد / القلعة في يوم الجمعة ثاني عشرين ^(٣) من شهر رمضان ، وكان بها ولد
السلطان الملك الظاهر ، ومعه سيف الدين يازكج يدبر أمره ، وابن العميد في
البلد .

وكان الملك الظاهر من أحب أولاده إلى قلبه ، لما قد خصه الله به من
الشهامة والفطنة والعقل وحسن السميت والشغف بالملك ، وظهور ذلك
عليه ^(٤) ؛ وكان أبر الناس بوالده ، وأطوعهم له ، ولكن أخذ منه حلب
لمصلحة رآها ، فخرج من حلب لما دخلها الملك العادل هو ويازكج سائرين
إلى خدمة السلطان ، فدخل ^(٥) دمشق يوم الاثنين ثامن عشرين ^(٦) شوال سنة
تسع وسبعين ، فأقام في خدمة والده لا يُظهر له إلا الطاعة والانقياد مع انكسار
في باطنه لا يخفى عن نظر والده .

وفي ذلك الشهر وَرَدْنَا على السلطان رسلاً من جانب الموصل ، وكان
قد توسلنا إلى الخليفة الناصر لدين الله في إنفاذ شيخ الشيوخ صدر الدين ^(٧)
رسولاً وشفيعاً إلى السلطان ، فسيره معنا ^(٨) من بغداد ، وكان غزير المروءة

(١) م : « لإياسه » .

(٢) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٣) م : « كله » .

(٤) م : « فدفع » .

(٥) م : « الثامن عشر من شوال » .

(٦) م : « بدر الدين » .

(٧) هذا نص له أهميته عند الترجمة لحياة المؤلف ، فهو هنا يشير إلى أنه عاد من سفارته إلى الموصل

وبغداد فوصل إلى حلب في شوال سنة ٥٧٩ هـ

٤٤ ب عظيم الحرمه فى دولة الخليفة ، وفى سائر البلاد ، وكانت مكائته / عند السلطان بحيث يتردد إليه إذا كان عنده فى معظم الأيام .

ذكر وصولنا إلى خدمته رسلا

وكان الشيخ قد وصل إلى محروسة الموصل رسولا ، وسار منها بعد أن سار فى صحبته ^(١) القاضى محبى الدين بن كمال الدين ، وكان بينهما صحبة من الصبا ، وكنت مع القوم ، وسرنا حتى أتينا دمشق ، وخرج السلطان إلى لقاء الشيخ ونحن فى خدمته ، فلقينه عن بعد .

وكان دخولنا ^(٢) إلى دمشق يوم السبت حادى عشر ذى القعدة سنة تسع وسبعين ، ولقينا من السلطان كل جميل فيما يرجع إلى الإكرام والاحترام ، وأقمنا أياما نراجع فى فصل حال ، فلم يتفق صلح فى تلك الدفعة ، وخرجنا راجعين إلى الموصل ، وخرج السلطان إلى وداع الشيخ إلى القصير ، واجتهدوا فى ذلك اليوم أن ينقضى شغل فلم يتفق .

وكان الوقوف من جانب محبى الدين ، فإن السلطان اشترط أن يكون ٤٥ أ صاحبا لإربل والجزيرة على خيرتهما فى الانتماء إليه أو إلى الموصل ، / فقال محبى الدين : « لا بد من ذكرهما فى النسخة » ، فوقف الحال .

وكان مسيرنا يوم الخميس سابع ذى الحجة سنة تسع وسبعين ، وفى تلك الدفعة عرض على السلطان مواضع البها الدمشقى بمصر - على لسان الشيخ - ، فاعتذرت ^(٣) ولم أفعل خوفا من أن يحال توقف الحال على ، ومن تلك الدفعة ثبت فى نفسه الشريفة منى أمر لم أعرفه إلا بعد خدمتى له .

(١) م : « وكان الشيخ قد وصل إلى الموصل ، وسار منها فى صحبة القاضى محبى الدين .. الخ » .

(٢) وفى هذا النص يشير المؤلف إلى أنه وصل إلى دمشق فى الحادى عشر من ذى القعدة من سنة

٥٧٩ هـ ، ثم عاد منها إلى الموصل .

(٣) لهذا النص أهميته ، ففيه يذكر المؤلف التاريخ الذى بدأ فيه صلاح الدين بعرض عليه لأول

مرة أن يعمل فى خدمته .

وأقام السلطان - رحمه الله - بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب ، فوصله رسول سينجر شاه - صاحب الجزيرة - فاستحلفه لنفسه ، وانتمى إليه ^(١) ، ورسول إربل ، وحلف لهم ، وسارا .

ووصل إليه أخوه الملك العادل يوم الاثنين ^(٢) رابع ذى الحجة ، فأقام عنده ، وعيّد ، وتوجه وعاد ^(٣) إلى حلب المحروسة .

ذكر غزاة أخرى إلى الكرك

^(٤) وسير السلطان - قدس الله روحه - إلى العساكر يطلبها ^(٥) فوصل إليه ابن قرا أرسلان نور الدين إلى حلب في يوم الخميس ^(٦) ثامن عشر من صفر سنة ثمانين وخمسمائة ، فأكرمه الملك العادل إكراما عظيما ، وأصعده إلى القلعة ، وبأسطه ، ورحل معه طالبا دمشق وذلك في سادس / وعشرين منه ؛ وكان ٤٥ ب السلطان قد مرض أياما ثم شفاه الله .

ولما بلغه وصول ابن قرا أرسلان خرج إلى لقائه ، وكان السلطان يكارم الناس مكارمة عظيمة ، فالتقاه على عبر ^(٦) الجسر بالبقاع ، وذلك في تاسع ربيع الأول سنة ثمانين ، ثم عاد إلى دمشق ، وخلف نور الدين واصلا مع أخيه الملك العادل ، فتأهب للغزاة ، وخرج مبرزا إلى جسر الخشب في منتصف ربيع الأول .

(١) م : « في الانتهاء إليه » .

(٢) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٣) « إذا اللفظ ساقط من (م) » .

(٤) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٥) هذه الألفاظ ساقطة من (م) .

(٦) م : « عين » .

وفي الرابع والعشرين منه وصل الملك العادل ومعه ابن قرا أرسلان إلى دمشق ، فأقاما بها أياما ، ثم رحلا يلتحقان بالسلطان ^(١) ولما كان ثاني ربيع الآخر من السنة المذكورة رحل الملك الناصر ^(٢) من رأس الماء طالبا للكرّك ، فأقام قريبا منها أياما ينتظر وصول الملك المظفر من مصر إلى تاسع عشر ربيع الآخر ، فوصل تقى الدين ^(٣) إلى خدمته واجتمع به ^(٤) ، ومعه بيت الملك العادل وخزائنه ، فسيّرهم إلى الملك العادل ، وتقدم إليه وإلى بقية العساكر بالوصول / إليه إلى الكرك ، فتتابعت العساكر إلى خدمته حتى أهدقوا بالكرّك ، وذلك في رابع عشر ^(٥) جمادى الأولى سنة ثمانين ، وركب المناجيق على المكان ، وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية أيضا مع ابن قرا أرسلان .

ولما بلغ الافرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم إلى الذب عن الكرك ، وكان على المسلمين منه ضررٌ عظيم ، فإنه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمة الغفيرة ، فاهتم السلطان بأمره ليكون الطريق سابلة إلى مصر ^(٦) ويسر الله ذلك ، والمئة ^(٧) .

ولما بلغ السلطان ^(٨) - قدس الله روحه - خبر ^(٩) خروج الافرنج تعبى للقائهم ^(١٠) ، وأمر العساكر أن خرجت إلى ظاهر الكرك ، وسيّر الثقل نحو البلاد ، وبقي العسكر جريدة ، ثم سار السلطان يقصد العدو .

وكان الافرنج قد نزلوا بموضع يقال له الواله ، وسار حتى نزل بالبلقا ^(١١)

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٢) هذه الألفاظ ساقطة من (م) .

(٣) م : « رابع جمادى الأولى » .

(٤) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٥) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٦) م : « تعباً للقاء » .

(٧) هذا اللفظ غير موجود في (م) .

على قرية يقال لها حُسبان ، قبالة الافرنج في طريقهم ^(١) ، ورحل منها إلى موضع يقال له : ماء عين ، والافرنج مقيمون بالواله إلى / سادس وعشرين من جمادى ٤٦ ب الأولى ، ثم رحلوا قاصدين الكرك ، فسار بعض العسكر وراءهم ، فقاتلوهم إلى آخر النهار .

ولما رأى - قدس الله روحه - تصميم الافرنج على الكرك أمر العسكر أن دخل الساحل لخلوه عن العساكر ، فهجموا نابلس ونهبوها ، وغنموا مافيها ، ولم يبق فيها إلا حصنها ، وأخذوا جينين ، والتحقوا بالسلطان برأس الماء ، وقد نهبوا وأسروا وأحرقوا وأخربوا ؛ واتفق دخول السلطان إلى دمشق يوم السبت سابع جمادى الآخرة سنة ثمانين ، ومعه الملك العادل ونور الدين ابن قرا أرسلان فرحا مسرورا ، وأكرمه واحترمه وأحسن إليه .

وفي هذا الشهر وصل رسل الخليفة ومعهم ^(٢) الخلع فلبسها السلطان ، وألبس أخاه الملك العادل وابن أسد الدين خلعاً جاءت لهم .

وفي رابع عشر من هذا الشهر خلع السلطان خلعة الخليفة على نور الدين ابن قرا أرسلان ، وأعطاه دستورا ، وأعطى العساكر ^(٣) دستورا ، وسار ابن قرا أرسلان في تاسع عشر جمادى الآخرة طالبا بلاده ^(٤) ٢٢

وفي ذلك التاريخ وصلت / رسل ابن زين الدين مستصرخا إلى السلطان ٤٧ أ يخبر أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على اربل ^(٤) مع مجاهد الدين قايماز ، وأنهم نهبوا وأحرقوا ، وأنه نصر عليهم وكسرهم .

(١) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٢) م : « رسول الخليفة ومعه » .

(٣) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٤) هذا اللفظان ساقطان من (م) .

ذكر خروج السلطان إلى جهة الموصل

الدفعة الثانية (١)

ولما سمع السلطان ذلك رحل من دمشق يطلب البلاد ، وتقدم إلى العساكر فتبعته ، وسار حتى أتى حرّان على طريق البيرة ، والتقاء مظفر الدين بالبيرة في ثاني عشر محرم سنة إحدى وثمانين وخمسمائة .

(٢) وكان قد وصل إلى السلطان عز الدين بن عبد السلام رسولا ، فلقيه بحماسة يعتذر مما جرى ، وأعطاه دستورا بعد أن أكرمه ، وسار من غير غرض (٣) وتقدم السلطان إلى سيف الدين المشطوب أن يسير في مقدمة العسكر إلى رأس العين ، ووصل السلطان حرّان ثاني وعشرين من صفر .

ذكر قبض مظفر الدين وإطلاقه (٣)

وفي سادس وعشرين من صفر من سنة إحدى وثمانين . قبض السلطان ٤٧ ب / على مظفر الدين بن زين الدين لشيء كان قد جرى منه ، وحديث كان بلغه عنه رسوله ، ولم يقف عليه ، وأنكره ، فأخذ منه قلعة حرّان والرّها ، ثم أقام في الاعتقال تأديبا إلى مستهل ربيع الأول ، ثم خلع عليه وطيب قلبه ، وأعاد عليه قلعة حرّان وبلادها التي كانت بيده ، وأعادته إلى قانونه في الإكرام والاحترام ، ولم يتخلف له سوى قلعة الرّها ، ووعد به .

ثم رحل السلطان من حرّان ثاني ربيع الأول إلى رأس العين ، ووصله في ذلك رسول قليج أرسلان يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على

(١) م د في الرقعة .

(٢) هذه الفقرة كلها ساقطة من (م) .

(٣) هذان العنوانان غير موجود في (م) .

قصد السلطان إن لم يعد عن الموصل وماردين ، وأنهم على عزم ضرب المصاف معه إن أصرَّ على ذلك ، فرحل السلطان يطلب دنيسر ، فوصله يوم السبت ^(١) ثامن ربيع الأول عماد الدين بن قرا أرسلان ومعه عسكر نور الدين - صاحب ماردين - فالتقاهم السلطان واحترمهم ، ثم رحل السلطان - رحمة الله عليه - من دنيسر يوم / الثلاثاء ^(٢) حادى عشر نحو الموصل وسار حتى نزل موضعا ٤٨ أ يعرف بالاسماعيليات ^(٣) قريب الموصل بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جريدة تحاصر الموصل ، فبلغ عماد الدين بن قرا أرسلان موت أخيه نور الدين ، فطلب من السلطان دستورا ، طمعا في ملك أخيه ، فأعطاه دستورا .

ذكر موت شاه أرمن

صاحب خلاط

ولما كان ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة توفى شاه أرمن ^(٤) صاحب خلاط ، وولى بعد غلام له يدعى بكتمر ^(٥) ، وهو الذى كان وصل رسولا إلى خدمة السلطان بسنجار ، فعدل ، وأحسن إلى أهل خلاط ، وكان متصوفاً في طريقته ، فأطاعه الناس ومالوا إليه .

ولما ملك خلاط امتدت نحوه الأطماع لموت شاه أرمن ، فسار نحو بهلوان ابن الدكر ^(٦) ، فلما بلغه ذلك سیر إلى خدمة السلطان مَنْ يقرّر معه تسليم

(١) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٢) كذا في الأصل ، وهى عند (ابن واصل مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٦٦) : « الإسماعيليات » .

(٣) هو ناصر الدين سكرمان الثانى إبراهيم . انظر : (زامباور : معجم الأنساب ، ص ٣٤٨) .

(٤) م : « غلامه بكتمر » .

(٥) هو أتابك محمد بن محمد بن الدين محمد بن الدكر

٤٨ ب خلاط إليه واندراجة / في جملة ، وأعطاه ما يرضيه ، فطمع السلطان في خلاط ، وارتحل عن الموصل متوجها نحوها ، وسير إليها ^(١) الفقيه عيسى - رحمه الله - وغرس الدين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها ، فوصلت الرسل وبهلولان قد قارب البلاد جدا ، فخوف بهلولان من السلطان ^(٢) وأشعره أنه إن قصده سلم البلاد إلى السلطان ^(٣) فطلب بهلولان إصلاحه ، وزوجه بنت له ، وولاه ، وأعاد البلاد إليه ، واعتذر إلى رسل السلطان ، وعادوا من غير زبدة . وكان السلطان قد نزل على ميفارقين ، يحاصرها ^(٤) .

ذكر أخذه ميفارقين ^(٥)

^(٥) ثم نزل على ميفارقين بعد عوده من الموصل وقتلها قتالا ^(٦) عظيما ، ونصب عليها مجانيق ، وكان بها إنسان يقال له الأسد ، وما قصر في حفظها ، لكن الأقدار لا تُغالب ، فملكها السلطان عن صلح ^(٧) في تاسع وعشرين من جمادى ^(٨) الأولى سنة إحدى وثمانين ^(٩) .

/ ذكر عود السلطان إلى الموصل ^(١٠)

٤٩ أ

ولما آيس من أمر خلاط عاد إلى الموصل ، فنزل بعيدا عنها ، وهي الدفعة ^(١١) الثالثة ، بموضع يقال له كفر زمار ، وكان الحر شديدًا ، فأقام مدة .

(١) م : « وسير إلى بكتمر الفقيه .. الخ » .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٣) م : « فحاصرها » .

(٤) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٥) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٦) هذه الألفاظ ساقطة من (م) .

(٧) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٨) م : « الوقعة » .

وفي هذه المنزلة أتاه سنجر شاه من الجزيرة ، واجتمع به ، وأعادته إلى بلده ، ومرض - رحمه الله - بكفر زمار مرضا شديداً خاف من غائلته ، فرحل طالبا حرّان وهو مريض ، وكان يتجلّد ولم يركب في محفة ، فوصل حرّان شديد المرض ، وبلغ إلى غاية الضعف ، وأيس منه ، ورجف بموته ^(١) وكان رحيله من كفر زمار في مستهل شوال سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ^(٢) فوصل إليه أخوه الملك العادل من حلب ومعه أطباؤها ^(٣) .

ذكر صلح المواصله معه

وكان سبب ذلك أن عز الدين أتاهك - صاحب الموصل - سيّرني إلى الخليفة يستنجد به ^(٣) ، فلم يحصل منه زبدة ^(٤) وسيّر إلى العجم / فلم يحصل ^{(٤٩) ب} منهم زبدة ^(٤) ، فلما وصلت من بغداد وأديت ^(٥) جواب الرسالة أيس من نجدة ، فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة ، وعلموا رقة قلبه وسرعة انقياده في ذلك الوقت ، فندبوني لهذا الأمر وبهاء الدين الربيب ، وفوض إلى أمر النسخة التي يحلف بها ، وقالوا : امضيا ما يصل إليه جهدكما وطاقتكما ^(٦) ، فسرنا حتى أتينا العسكر ، والناس كلهم آيسون من السلطان .

وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة من السنة المذكورة ^(٧) فاحترمنا

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٢) م : « أطباؤه » .

(٣) م : « يستنجد به » .

(٤) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٥) م : « ورددت » .

(٦) الأصل : « امضيا ما يصل جهدكم وطاقتكم » وما هنا صيغة (م) وهي أكثر اتساقا مع السياق .

(٧) هذه الكلمات الثلاث ناقصة من (م)

احتراما عظيما ، وجلس لنا ، وكان أول جلوسه من مرضه ، وحلف في يوم عرفة ، وأخذنا منه بين النهرين ، وكان أخذها من سنجر شاه ، أعطائها المواصله ، وحلفته ^(١) يمينا تامة ، وحلفت أخاه الملك العادل ، ومات - قدس الله روحه - وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه ، وسرنا عنه وهو بحران وقد تماثل ووصله خبر موت بن أسد الدين - صاحب حمص - وكانت وفاته يوم عرفة ^(٢) من السنة المذكورة ونحن في المعسكر ^(٣) وجلس الملك العادل للعزاء .

٥٠ أ وفي تلك / الأيام كانت وقعة التركمان والأكراد ، وقتل بينهم خلق عظيم .
وفي هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان بن الدكر ، وكانت وفاته في سلخ ذى الحجة .

ذكر عوده - رحمة الله عليه - إلى الشام

ولما وجد السلطان نشاطا من مرضه رحل يطلب جهة حلب ، وكان وصوله إليها يوم الأحد ^(٣) رابع عشر المحرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ، وكان يوما مشهودا لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه ، فأقام بها أربعة أيام ، ثم رحل ^(٤) في ثامن عشرة ^(٤) نحو دمشق ، ولقيه أسد الدين شيركوه بن محمد شيركوه بتل السلطان ، ومعه أخته ، وقد صحبه خدمة عظيمة ^(٥) وقرب زائدة ^(٥) ، ومن عليه بجمص ، وأقام أياما يعتبر تركة أبيه ، ثم سار يطلب جهة دمشق ، وكان دخوله إليها في ثلثي ربيع الأول ، وكان يوما لم ير مثله فرحا وسرورا .

(١) لهذا النص أهميته فهو يشير إلى سفارة المؤلف عن صاحب الموصل إلى صلاح الدين في أوائل ذى الحجة سنة ٥٨٠ هـ .

(٢) هذه الفقرة ساقطة من (م) .

(٣) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٤) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

(٥) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

ووقعت في هذا الشهر وقعات كثيرة بين التركان ^(١) والأكراد بأرض نصيبين وغيرها ، وقُتل من الفتيين خلق / عظيم ، وبلغ السلطان أن معين الدين . ٥٠ ب ابن معين الدين قد عصا بالراوندان ، فكتب إلى عسكر حلب أن حاصروه ^(٢) ، وكان نزولهم عليه في العشر الأول من سنة اثنتين وثمانين ، وأعطاه برج الرصاص لينزل في بقية ذلك الشهر ^(٣) .

وفي ثامن ^(٤) جمادى الأولى من سنة اثنتين وثمانين وصل معين الدين من الراوندان وقد سلمها إلى علم الدين سليمان ، ثم مضى إلى خدمة السلطان . وفي سابع عشر جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وصل الملك الأفضل إلى دمشق ، ولم يكن قد رأى قبل ذلك الشام .

ذكر مسير الملك العادل إلى مصر وعُود ^(٥) الملك الظاهر إلى محروسة حلب

وذلك أن السلطان - قدس الله روحه - رأى رواح ^(٥) الملك العادل إلى مصر ، فإنه كان آنس بأحوالها من الملك المظفر ^(٦) ، فما زال يفاوضه في ذلك ^(٦) ، وهو على حرّان مريض وحصل ذلك في نفس الملك العادل ، فإنه يحب الديار المصرية .

(١) م : د الترك .

(٢) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٣) م : د تالي .

(٤) م : د ووصول .

(٥) م : د ذهاب .

(٦) م : د ليزيل تفاويضها بذلك ، ولا معنى لها .

٥١ أ / إلى دمشق ، فخرج من حلب جريدة ^(١) ليلة السبت ^(٢) رابع وعشرين ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ، وسار حتى وصل محروسة ^(٣) دمشق ، فأقام بها في خدمة السلطان ، يجرى ^(٤) بينهما أحاديث ومراجعات في قواعد تقرر إلى جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، واستقرت القاعدة على عود الملك العادل إلى مصر ، وتسلم حلب منه ، فسير الصنيعة لإحضار أهله من حلب المحروسة .

ذكر عود الملك الظاهر إلى محروسة حلب ^(٥)

وكان الملك الظاهر ، والملك العزيز - رحمهما الله ^(٦) - بدمشق في خدمة والدهما ، فلما استقرت القاعدة على عود الملك العادل إلى مصر استقرت على أن يكون أتابك الملك العزيز ، ويسلمه والده إليه يرى أمره ، ويسلم الملك العادل حلب إلى الملك الظاهر .

ولقد قال لى الملك العادل : « إنه لما استقرت هذه القاعدة اجتمعت بخدمة الملك العزيز والملك الظاهر وجلست بينهما قلتُ للملك العزيز : اعلم ^(٧)

(١) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٢) م : « أتى دمشق » .

(٣) م : « فجرت » .

(٤) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٥) م : « وكان الملك الظاهر - أيده الله - والملك العزيز بدمشق ... الخ » وما هنا صيغة الأصل ، وقول المؤلف فيها تعقيباً على ذكر الملكين الظاهر والعزيز : « رحمهما الله » يعنى أنه ألف كتابه بعد سنة ٦١٣ هـ . وهى السنة التى تولى فيها الملك الظاهر

(٦) هذا اللفظ غير موجود في (م) .

يامولاي ، أن السلطان قد أمرني أن / أسير في خدمتك إلى مصر ، وأنا أعلم ٥١ ب
أن المفسدين كثير ، وغداً فما يخلو ^(١) ممن يقول عني ما لا يجوز ، ويخوفك
مني ، فإن كان لك عزم ^(٢) تسمع ، فقل لي حتى لا أجيء . فقال : لا أسمع ،
وكيف يكون ذلك ؟ .

ثم التفتُ وقلتُ للملك الظاهر : أنا أعرف أن أخاك ربما سمع في أقوال
المفسدين ، وأنا فمالي إلا أنت ، ^(٣) وقد قنعت منك بمنيج ^(٤) ، متى ضاق
صدرى من جانبه . فقال : مبارك ، وذكر كل خير .

ثم إن السلطان الملك الظاهر - رحمه الله - سيره والده إلى ^(٥) محروسة
حلب ، وأعادها عليه ، وكان - قدس الله روحه - يعلم ^(٦) أن حلباً هي أصل
الملك وجراثومته وقاعدته ، ولهذا دأبت في طلبها ذلك الدأب .

ولما حصلت أعرض عما سواها من بلاد المشرق ، وقنع منهم بالطاعة
والمعونة على الجهاد ، فسلمها إليه ، علماً منه بمحذاقته وحزمه وحفظة
وتأنيهِ ^(٧) . وعلو همته ، فسار إليها حتى أتى العين المباركة ، وسير في خدمته
شحنة ^(٨) حسام الدين بشارة ، ووالياً عيسى بن بلاشوا ، فنزل في يوم الجمعة
بعين / المباركة ، وخرج الناس إلى لقائه في بكرة السبت ^(٩) تاسع جمادى ٥٢ أ
الآخر من سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ^(١٠) .

(١) م : « لا يخلو » و « يملونك » .

(٢) م : « أذن » .

(٣) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٤) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٥) م : « وثباته » .

(٦) م : « الشحنة » ، وجاء في (اللسان) : « وشحن البلد بالخيول ملاءه ، وبالبلد شحنة من
الخيول أى رابطة » ، قال ابن برى : وقول العامة في الشحنة أنه الأمير غلط ، غير أن هذا الغلط هو ما كان
يستعمله الناس دائماً ، ويتردد في كتب التاريخ العربية في العصور الوسطى ، فالشحنة - ويقال الشحنة
رياسة الشرطة أو محافظ المدينة أو الأمير المشرف على حراستها ويجمع اللفظ على شحن وشحنى .

(٧) هذا التاريخ ساقط من (م)

وصعد القلعة المحروسة ضحوة نهاره ، وفرح الناس به فرحاً شديداً ، ومدّ على الناس من جناح عدله ، وأفاض عليهم وأهل فضله .

وأما الملك العزيز والملك العادل فإن السلطان قرّر حالهما ، وكتب إلى الملك المظفر يخبره بمسير الملك العزيز ولده وهو صحبة عمه الملك العادل ، ويأمره بالوصول إلى الشام ، وشق ذلك على الملك المظفر حتى أظهره للناس ، وعزم على المسير إلى ديار الغرب ^(١) ، إلى برقة ، فقُبِّح ذلك عليه جماعة من أكابر الدولة ، وعرفوه أن عمه السلطان يخرج من يده في الحال ، والله أعلم بما يكون منه بعد ذلك ، فأراه الله ^(٢) الحق بعين البصيرة وأجاب بالسمع والطاعة ، وسلم البلاد ، ورحل واصل إلى خدمة السلطان ، فسار السلطان إلى لقائه فلقاه بمرج الصفر ^(٣) ، وفرح بوصوله فرحاً شديداً ، وذلك في ثالث عشر شعبان سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ^(٤) ، وأعطاه حماة ، وسار إليها .

٥٢ ب وكان قد عُقد بين الملك / الظاهر وبعض بنات الملك العادل عقد نكاح ، فتم ذلك ، ودخل بها يوم الأربعاء سادس عشر شهر رمضان ^(٥) .

ودخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدين بن أسد الدين في شوال من السنة المذكورة المباركة .

(١) توجد تفاصيل هامة جداً عن مشروع الملك المظفر تقي الدين عمر للخروج إلى المغرب وتكوين ملك له فيه في المراجع التاريخية المعاصرة الأخرى . انظر : (ابن الأثير الكامل : ج ١١ ، ص ١٩٧) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٠) و (ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٨٠ - ١٨٢) .

(٢) م : فرأى الحق .

(٣) هذه الكلمات الثلاث ساقطة من (م) .

(٤) م : في الثالث والعشرين من شعبان .

(٥) م : في السادس والعشرين من شهر رمضان .

ذكر غزاة أنشأها إلى الكرك

ولما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة عزم على قصد الكرك ، فسير إلى محروسة حلب مَنْ يستحضر العسكر ، وبرز من دمشق في منتصف المحرم ، فسار حتى نزل بأرض منتظرا لاجتماع العساكر المصرية والشامية ، وأمر العساكر المتواصلة إليه بشن الغارات على مافي طريقهم من البلاد الساحلية ، ففعلوا ذلك ، وأقام بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامي إلى الشام ، وأمنوا غائلة العدو . ووصل قفل محروسة مصر الشتوى ، ووصل معه بيت الملك المظفر ، وما كان له بالديار المصرية .

وتأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالها بالأفرنج بأرض انطاكية ^(١) بلاد ابن لاون ، وذلك أنه كان قد مات ، ووصى لابن أخيه - الملعون - بالملك ، وكان الملك المظفر بحماة ، وبلغ السلطان الخبر / فأمرهم بالدخول إلى بلاد العدو ^{٥٣ أ} وإخماد ثائرتة ^(٢) ، وكان وصول تقي الدين إلى محروسة حلب في سابع عشر المحرم سنة ثلاث وثمانين ، فنزل في دار عفيف الدين بن زريق ، فأقام بها إلى ثالث صفر ، وانتقل إلى دار طلحمان ^(٣) .

وفي تاسع صفر سار الملك المظفر بعسكر حلب إلى محروسة حارم ، فأقام بها ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل ، فعاد السلطان إلى الشام ^(٤) وكان وصول السلطان - رحمه الله - إلى السواد في خامس عشر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين ^(٥) .

وفي يوم الخميس سابع عشر نزل بعشرا ، ولقيه ولده الملك الأفضل ، ومظفر الدين [بن زين الدين] وجميع العساكر .

(١) م : بأرض الأرمن من بلاد ابن لاون .

(٢) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .

وكان قد تقدم إلى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبي مع الأفرنج ؛ ليتفرغ البال مع العدو في جانب واحد ، فصالحهم الملك المظفر في العشر الآخر من ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وتوجه إلى حماة يطلب خدمة السلطان للغزاة التي عزم عليها ، فسار ومن اجتمع به من العساكر الشرقية في خدمته .
 ٥٣ ب وهم : عسكر الموصل مقدمهم مسعود بن الزعفراني ، وعسكر / ماردين ؛
 ١ إلى أن أتوا عشرا في العشر الأوسط من ربيع الآخر من السنة المذكورة ، فلقبهم السلطان واحترمهم وأكرمهم ^(١) .

وفي منتصف ربيع الآخر من سنة ثلاث وثمانين عرض السلطان العسكر لأمر قد عزم عليه على تل يعرف بتل تسيل ، وتقدم إلى أرباب الميمنة بحفظ موضعهم ، وإلى أصحاب الميسرة بذلك ، وإلى أصحاب القلب بمثله - قدس الله روحه - فما كان أحرصه على نصر الإسلام .

ذكر وقعة حطين المباركة على المؤمنين

^(٢) وكانت في يوم السبت رابع وعشرين من ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ^(٢) وذلك أن السلطان رأى أن نعمة الله عليه باستقرار قدمه في الملك وتمكين الله إياه في البلاد ، وانقياد الناس لطاعته ، ولزومهم قوانين خدمته ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد في إقامة قانون الجهاد ، فسير إلى سائر العساكر واستحضرها ، واجتمعوا إليه بعشرا في التاريخ المذكور ، وعرضهم / ورثهم ، واندفع قاصدا نحو بلاد العدو المخدول في وسط
 ٥٤ أ نهار الجمعة سابع عشر [من] ربيع الآخر من السنة المذكورة ، وكان أبدا يقصد

(١) النص في (م) : « فلقبهم السلطان في العشر الأوسط من ربيع الآخر فأكرمهم وأكرمهم » .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

بوقعاته الجُمع [لا] سيما أوقات صلاة الجمعة ، تبركا بدعاء الخطباء على المنابر ،
 فرمما كانت أقرب إلى الإجابة .

فسار في ذلك الوقت على تعبئة الحرب ، وكان بلغه أن العدو المخذول لما
 بلغهم أن السلطان قد جمع العساكر اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بأرض
 عكا ، فقصدوا نحو المصاف معهم ، فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند
 قرية تسمى الصنبرة ^(١) . ورحل من هناك . ونزل غربي طبرية على سطح الجبل
 بتعبئة الحرب منتظرا أن الافرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركوا من
 منزلتهم .

وكان نزوله في هذه المنزلة يوم الأربعاء الحادى والعشرين من ربيع الآخر
 المذكور ، فلما رأهم لا يتحركون نزل جريدة على طبرية ، وترك الأطلاب ^(٢)
 بحالها قبالة وجهة العدو ، ونازل طبرية ، وزحف عليها فهجمها ، وأخذها في
 ساعة من نهار ، وامتدت الأيدي إليها بالنهب والأسر والحريق والقتل / واحتمت ٥٤ ب
 القلعة وحدها .

ولما بلغ العدو ماجرى على طبرية لم يأخذهم الصبر دون إجابة الحمية ،
 فرحلوا من وقتهم وساعتهم ، وقصدوا طبرية للدفع عنها ، فأخبرت الطلائع
 الإسلامية الأمراء بحركة الافرنج ، فسيروا إلى السلطان من عرفة ذلك ، فترك
 على طبرية من يحفظ قلعتها ، ولحق العسكر هو ومن معه ، فالتقى العسكران
 على سطح جبل طبرية الغربى منها ، وذلك في أواخر الخميس الثانى والعشرين
 من ربيع الآخر المذكور .

وحال الليل بين الفئتين فتبايتا على مصاف شاكين في السلاح إلى صبيحة
 الجمعة فى ثالث وعشرين ، فركب العسكران وتصادما ، وعملت الجاليشية ^(٣)

(١) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها موضع بالأردن مقابل لعقبة
 فيق ، بينه وبين طبرية ثلاثة أميال .

(٢) انظر ماقات هنا ص ٧٧ ، هامش ٤ .

(٣) راجع ماقات هنا ص ١٠٨ ، هامش ٤ .

وتحركت الأطلاب ، والتحم القتال ، واشتد الأمر ، وذلك بأرض قرية تسمى اللوبيا ، وضاق الخناق بالقوم ، هذا وهم سائرون كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، وقد أيقنوا بالويل والثبور ، وأحست أنفسهم أنهم في غد زوار القبور .

و لم يزل الحرب يلتحم ، والفارس مع قرنه يصطدم ، حتى لم يبق إلا الظفر ، ووقوع الوبال على من كفر ، فحال بينهما الليل وظلامه ، وجرت ه ه أ في ذلك / اليوم من الوقائع العظيمة ، والوقائع الجسيمة ، ما لم يُحكَّ عمن تقدم ، وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة وقد أقعده التعب عن النهوض ، وشغله النصب عن الحبو فضلا عن الركوض .

حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه فطلب كل من الفريقين مقامه ، وعلمت كل طائفة أن المكسورة منها مدحورة الجنس معدومة النفس ، وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن ، ومن بين أيديهم بلاد القوم ، وأن لا ينجيهم إلا الله تعالى .

وكان الله قد قدر نصر المؤمنين فيسره ، وأجراه على وفق ما قدره ، فحملت الأطلاب الإسلامية من الجوانب ، وحمل القلب ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين ، « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » .

وكان القومص ^(١) ذكى القوم والمعهم ^(٢) ، فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه ، ولم يشغله ظن محاسنة جنسه عن نفسه ، فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده ، وأخذ طريقه نحو صور ، وتبعه جماعة من المسلمين ، فنجا ه ه ب وحده ، وأمن الإسلام كيده ، واحتاط أهل الإسلام بأهل الكفر / والطغيان

(١) القومص تعريب حرى للفظة اللاتينية (Comes) أى الأمير ، ومعناها الأصل في اللاتينية « الرفيق » ، لأنه كان في بادئ الأمر يرافق الملك في حروبه وتنقلاته ، ثم سمي بالأمير راجع تفصيلات أكثر في تعليقاتنا على (ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشبال ، ج ١ ، ص ٧٣ ، هامش ١) .

(٢) م : « وأطغامهم » .

من كل جانب ، وأطلقوا عليهم السهام ، وعاملوهم بالصفاح ، فانهزمت منهم طائفة ، فتبعها أبطال المسلمين ، فلم ينجُ منهم واحد ، واعتصمت الطائفة الأخرى بتلّ يقال له تل حِطّين ^(١) ، وهى قرية عنده وعندها قبر شعيب عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء فضايقتهم المسلمون على التل ، وأشعلوا حولهم النيران ، وقتلهم العطش ، وضاق بهم الأمر ، حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل ، فأسر مقدموهم ، وقتل الباقون وأسروا وكان فيمن سلم وأسر من مقدميهم الملك جفرى ، والبرنس أرناط ، وأخو الملك ، والبرنس - وهو صاحب الشوبك - وابن الهنفرى ، وابن صاحبة طبرية ، ومقدم الداوية ، وصاحب جبيل ، ومقدم الاستبار .

وأما الباقون من المقدمين فإنهم قتلوا ، وأما الأدوان فإنهم انقسموا إلى قتل وأسير ، ولم يسلم منهم إلا من أسر ، وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفاً على نفسه ، ولقد حكى لى من أثق به أنه لقي بحوران شخصاً واحداً معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيراً يجرحهم ^(٢) وحده / لخدلان وقع عليهم . ٥٦ أ
فأما الذين بقوا من مقدميهم فنذكر حديثهم .

أما القومص الذى هرب فإنه وصل إلى طرابلس ، فأصابته ذاب الجنب فأهلكه الله بها .

وأما مقدمو الاستبار ^(٣) والداوية فإن السلطان اختار قتلهم ، فقتلوا عن بكرة أبيهم .

(١) راجع تفاصيل هذه المعركة فى (جمال الدين الشيال ومحمد سعيد العريان : قصة الكفاح بين العرب والاستعمار) .

(٢) م : « أخذهم » .

(٣) هذه هى التسمية العربية لطائفة الفرسان المستباليين ، وهو تحريف ظاهر للفظ الانجليزى (Hospitallers) أو الفرنسى (Hospitallers) ، وكان يطلق فى عصر الحروب الصليبية على طائفة من الفرسان الدينيين ، وقد أسس هذه الطائفة (Blessed gerard) ، فى سنة ١٠٩٩ م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، وكانت الدار التى يسكنها هؤلاء الرهبان (Hospice) موجودة قبل ذلك فى بيت المقدس ، وتتخذ مأوى للحجاج والمرضى من المسيحيين ، وتشبه هذه الطائفة فى كثير طائفة فرسان المعبد (Fempliers) التى عرفها العرب باسم « الداوية » ، وقد لعب فرسان هاتين الطائفتين دوراً خطيراً فى الحروب الصليبية . انظر : (King : Knights Hospitallers. P.1-33) .

وأما البرنس أرناط فكان السلطان قد نذر أنه إن ظفر به قتله ، وذلك أنه كان عبر به بالشوَبِك قَفْلٌ ^(١) من الديار المصرية في حالة الصلح ، فنزلوا عنده بالأمان ، فغدر بهم وقتلهم ، فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين ، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي - ﷺ - ، وبلغ ذلك السلطان ، فحملة الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله .

ولما فتح الله تعالى عليه بالنصر والظفر ، جلس السلطان في دهليز الخيمة ، فإنها لم تكن تُصبت ، والناس يتقربون إليه بالأسرى وبمن وجدوه من المقدمين .

وُصبت الخيمة ، وجلس فرحاً مسروراً شاكراً لما أنعم الله به عليه ، ثم ٥٦ ب استحضر الملك جفري / وأخاه والبرنس أرناط ، وناول الملك جفري شربة من جَلَّاب ^(٢) بثلج ، فشرب منها وكان على أشد حال من العطش ، ثم ناول بعضها البرنس أرناط ، فقال السلطان للترجمان :

قل للملك : أنت الذي تسقيه وإلا أنا ماسقيته ^(٣) .

وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمِنَ ، فقصد بذلك ، الجرى على مكارم الأخلاق ^(٤) .

ثم أمرهم بمسيرهم إلى موضع عُيِّن لنزولهم ، فمضوا وأكلوا شيباً ، ثم عاد فاستحضرهم ولم يبقَ عنده أحد سوى بعض الخدم ، واستحضرهم وأقعد الملك في الدهليز ، واستحضر البرنس أرناط ، وواقفه على ما قال .

(١) م : قافلة .

(٢) ذكر في (اللسان) و (الجواليقي : المعرب ، ص ١٠٦) و (الملك المظفر يوسف بن رسول : المعتمد في الأدوية ، ص ٧١) أن الجلاب هو ماء الورد ، فارسي معرب ؛ وفي (Dozy : Supp. Dict) Arab) أنه الماء ينقع فيه الزبيب . (L'eau dans laquelle on a laiss'tromper les raisins secs)

(٣) م : أنت الذي سقيته وأما أنا فما سقيته .

(٤) م : أمِنَ بذلك جرياً على مكارم الأخلاق

وقال له : ها أنا أستنصر ^(١) لمحمد عليه الصلاة والسلام . ثم عرض عليه الإسلام ، فلم يفعل .

ثم سأل النَمَجَاة ^(٢) وضربه بها ، فحلَّ كتفه ، وتمم عليه مَنْ حضر ، وعجل الله بروحه إلى النار ، فأخذ ورُمى على باب الخيمة .

فلما رآه الملكُ وقد نُخرج به على تلك الصورة لم يشك في أنه يثنى به فاستحضره [السلطان] وطُيب قلبه ، وقال : لم تُجرِ عادةُ الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فإنه تجاوز حدّه ، فجرى ما جرى .

وبات الناس في تلك الليلة على / أتم سرور ، وأكمل حبور ، ترتفع أصواتهم ٥٧ أ
بالحمد لله والشكر له ، والتكبير والتهليل حتى طلع الصبحُ في يوم الأحد .

٣) ذكر أخذ قلعة طبرية

ولما كان يوم الأحد الخامس والعشرين من ربيع الآخر نزل - قدس الله روحه - على طبرية وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها ، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء ^(٣) .

(١) م : انتصر .

(٢) النَمَجَاة - بالهاء - خنجر مقوس يشبه السيف القصير ، وهو معرب اللفظ الفارسي « نيمجه » ، ويقال أيضًا : « نَمَجَا » و « نَمَجَه » و « نَمَشَا » و « نَمَشَه » راجع : (Dozy : Supp. Dict. Arab) .

(٣) هذا العنوان وهذه الفقرة غير موجودين في (م) وإنما الكلام هناك متصل في جملة قصيرة نصها : وتسلم قدس - الله روحه - في بقية ذلك اليوم قلعة طبرية وأقام بها إلى يوم الثلاثاء .

ذكر أخذ عكا ^(١)

ثم رحل - قدس الله روحه - طالباً عكا ، وكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر ، وقاتلها بكرة الخميس مستهل جمادى الأولى ، سنة ثلاث وثمانين فأخذها ، واستنقذ من كان فيها من الأسارى ، وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر ، واستولى على مافيها من الأموال والذخائر والبضائع والتجائر ، فإنها كانت مظنة التجار ، وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة ، وأخذوا نابلس وحيفاً وقيسارية وصفورية والناصرية ، وكان ذلك لخلو الرجال بالقتل والأسر .

٥٧ ب ولما / استقرت قواعد عكا ، واقتسم الغانمون أموالها وأسراها سار [السلطان] يطلب تبين .

ذكر أخذ تبين ^(٢)

فنزل عليها يوم الأحد حادى عشر جمادى الأولى ، وهى قلعة منيعة ، فنصب عليها المناجيق ، وضيق عليها بالزحف والخنق ، وكان بها رجال أبطال شديدون في دينهم ، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة ، ونصره الله عليهم ، وتسلمها يوم الأحد ^(٣) ثامن عشر [من] الشهر المذكور ^(٣) عنوة ، وأسر من بقى بها بعد القتل ، ثم رحل منها إلى مدينة صيدا فنزل عليها ، ومن الغد تسلمها وهو يوم الأربعاء العشرين من جمادى المذكور .

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٣) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

ذكر أخذ بيروت ^(١)

ثم أقام عليها بحيث قرر قاعدتها ، وسار [السلطان حتى] أتى بيروت ،
فنازلها يوم الخميس ^(٢) الثاني والعشرين من جمادى الأولى ^(٣) من سنة ثلاث
وثمانين ، فركب عليها القتال والزحف . وضيق عليهم الأمر حتى أخذها يوم
الخميس ^(٤) التاسع والعشرين من جمادى الأولى ^(٥) ، وتسلم / أصحابه جُبَيْلاً ٥٨ أ
وهو على بيروت .

ولما فرغ باله من هذا الجانب رأى قصد عسقلان ، ولم ير الاشتغال بصور
بعد أن نزل عليها ومارسها في هذا الوقت ، لأن العسكر كان قد تفرق في
الساحل ، وذهب كل إنسان يأخذ لنفسه شيئاً ، وكانوا قد ضرسوا من القتال
وملازمة الحرب ، وكان قد اجتمع في صور كل أفرنجي بقي في الساحل ، فرأى
قصد عسقلان ، لأن أمرها كان أيسر .

ذكر أخذ عسقلان ^(٦)

ونازلها يوم الأحد السادس عشر ^(٧) من جمادى الآخرة سنة ثلاث
وثمانين ، وتسلم في طريقه مواضع كثيرة ، كالرملة ، وبينى والدارون ، وأقام
عليها المنجنوقات ، وقاتلها قتالا شديداً ، وتسلمها يوم السبت سلخ جمادى الآخرة
من هذه السنة ، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبرين والنطرون
بغير قتال .

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

(٣) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٤) م : ه ونازلها في السادس والعشرين .. الخ .

وكان بين فتوح عسقلان وأخذ الافرنج لها من المسلمين خمسة وثلاثون سنة ، فإن العدو ملكها في سبعة وعشرين من جمادى الآخر سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

/ ذكر فتح القدس المبارك الشريف

٥٨ ب

حرسها الله تعالى

ولما تسلم عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجدد والاجتهاد في قصده ، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد قضاء لبانتها من النهب والغارة ، فسار نحوه معتمداً على الله ، مفوضاً أمره إلى الله تعالى منتهزاً فرصة فتح باب الخير الذي حُتَّ على انتهازه إذا فتح ، بقوله عليه السلام ^(١) : « من فُتِحَ له بابٌ خير فلينتهزه ، فإنه لا يعلم متى يُغلق دونه » ^(٢) .

وكان نزوله عليه يوم الأحد ^(٣) الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين المباركة ، فنزل بالجانب الغربي ، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيالة والرجالة ، ولقد تحازر أهل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفاً ماعدا النساء والصبيان .

ثم انتقل - رحمه الله - لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالى ، وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب ، ^(٤) ونصب عليه المجانيقات ، وضايقه بالزحف

(١) النص في (م) : « الذى حث عليه ﷺ بقوله .. الخ » .

(٢) نص الحديث في (م) : « من فتح باب خير فلينتهزه ، فإنه لا يدري متى يغلق دونه » .

(٣) م : « وكان نزوله عليها في الخامس عشر ... الخ » .

(٤) هذه الجملة ساقطة من (م) .

والقتال وكثرة الرماة ، حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادى جهنم في قرية شمالية .

ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا يندفع عنهم ، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل / وكان قد ألقى في قلوبهم مما جرى على ٥٩ أ أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر ، وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون ، وبالسيف الذي قُتل به إخوانهم مقتولون ، فاستكانوا وأخذوا إلى طلب الأمان ، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين .

وكان تسلمه - قدس الله روحه - له في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ، وليلته كانت المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد ، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يسر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الإسرائ بنبيهم - ﷺ - إليه ، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى ، وكان فتوحاً عظيماً شهدته من أهل العلم خلق عظيم ، ومن أرباب الخرق والخرق ؛ وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسر الله على يده من فتوح الساحل ، وشاع قصده القدسي قصده العلماء من مصر ومن الشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور ، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير ، وتخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه / ، وحُطَّ الصليب ^(١) الذي كان على قبة ٥٩ ب الصخرة ، وكان شكلاً عظيماً ، ونصر الله الإسلام نصر عزيز مقتدر .

وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم : عن كل رجل عشرة

(١) هو المعروف بصليب الصليبيات ، وقد وصفه العماد (في الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٨) بقوله : « وهم يزعمون أنه من الخشب التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ، وقد غلفوه بالذهب الأحمر ، وكللوه بالدر والجوهر الخ » ، وتذكر المراجع أن هذا الصليب نقل إلى جزيرة قبرص بعد إجلاء الصليبيين عن الشام ، ثم استولى عليه المسلمون عند فتحهم لهذه الجزيرة سنة ١٤٢٦ م ، على أنه بقي بتلك الجزيرة ، (Ziada : mamlouk Conquest of Cyprus p. 102)

دننير ، وعن كل امرأة خمسة دننير ^(١) صورية ، وعن كل صغير ذكر أو أنثى دينارًا واحدًا ، فمن أحضر القطيعة ، سلّم بنفسه ، وإلا أخذ أسيرًا . وفرج الله عمن كان أسيرى من المسلمين ، وكانوا خلقًا عظيمًا ، زهاء ثلاثة آلاف أسير .

وأقام - عليه رحمة الله - يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والعلماء ، وإيصال مَنْ دَفَع قطيعته منهم إلى مأمنه وهو صور .

ولقد بلغنى [أنه] - رحمة الله عليه - رحل عنه ولم يبق معه من ذلك المال ^(٢) شيء ، وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار ، وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

ذكر قصده صور

يسر الله فتحها

ولما ثبت قدم السلطان بملك القدس والساحل قويت نفسه على قصد صور ، وعلم أنه إن أخر أمرها ربما اشتد ، فرحل سائرًا إليها حتى أتى عكا ، فنزل عليها ، ونظر في أحوالها ، ثم رحل متوجهًا / إلى صور يوم الجمعة خامس شهر رمضان ، وسار حتى أشرف عليها ، ونزل قريبًا منها ينتظر وصول آلات القتال .

(١) ذكر الأب لويس شيخو (صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ١٤٩ ، هامش ٢) أن الدينار الصورى ضرب في صور في أيام الدولة الفاطمية ، وكان الذهب يساوى نحو خمسة عشر فرنكًا ذهبيًا من النقود الحالية ، وقد كان الدينار الصورى أقل قيمة من الدينار المصرى ، وعن دار الضرب في صور ، وعن الدينار الصورى ، وعن أنواع الدنانير المتداولة في مصر والشام في العصر الأيوبي راجع : (منصور بن بكرة الذهبى الكامل : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، مخطوطة بدار الكتب المصرية) .

(Ehrenkrentz : Extracts from the technical manual on the Ayyuhid mint in Cairo B. & O. A. & 1953. XV3. 424-447), (Ehrenkrentz : The Standard of Fineness of gold Coins Circulating in Egypt at the time of the Crusades. Journal of the American oriental Society. Vol 74. No. 3 ju ly-Sept 1954 P.P. 162-166).

(٢) م : د الملك .

ذكر وصول ولده الظاهر إليه ^(١)

وكان لما تحرر عزمه على قصد صور سير إلى ولده الملك الظاهر يستحضره ، فإنه كان قد تركه بمحروسة حلب ليسد ذلك الجانب ، لاشتغاله هو بأمر الساحل ، فقدم عليه في ثامن عشر شهر رمضان على تلك المنزلة ، وسر بوصوله سرورًا عظيمًا .

ذكر نزوله على صور ^(١)

ولما تكاملت عنده آلات القتال من المناجيق والدبابات والستائر وغير ذلك ، نزل عليها في ثاني وعشرين من شهر رمضان ^(٢) ، وضايقها وقاتلها قتالا عظيمًا ، واستدعى أسطول مصر ، وكان يحاصرها من البحر ، والعسكر من البر . وكان قد خلف أخاه الملك العادل في القدس يقرر قواعده ، فاستدعاه ، فوصل إليه في خامس شوال ، وسير من حاصر هونين ، فسلمت بأمان ^(٣) في ثالث وعشرين من شوال سنة ثلاث وثمانين ^(٤) .

ذكر كسرة الأسطول ^(٤)

/ وذلك أنه قدم على الأسطول إنسانا يقال له « الفارس بدران » ، وكان ٦٠ ب

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) (م) : « في الثامن والعشرين » .

(٣) هذه الألفاظ غير موجودة في (م) .

(٤) أسطول وقد يرسم في المراجع العربية : اصطول أو صطول --- والجمع : أساطيل كلمة يونانية الأصل (Ostio os) ، وتطبق في المراجع العربية على السفن الحربية مجتمعة أو على السفينة الواحدة ، ويقال للجندى الذى يحمل في الأسطول : « أسطولى » . انظر : (الخفاجى : شفاء الغليل ، ص ٣٨ و ١١٩) و (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٤ ، ص ٨٢) و (الشيال : معجم السفن العربية Rindermann Schiff in arabischen : و (ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٣٨) .

ناهضًا جلدًا في البحر ، وكان رئيس البحرين ^(١) يقال له : « عبد المحسن » ، وكان قد أكد عليهم الوصية في أخذ حذرهم وتيقظهم ، لئلا تُنتهز منهم فرصة ، فخالقوه وغفلوا عن أنفسهم في الليل ، فخرج أسطول الكفار من صور وكبسهم ^(٢) ، وأخذوا المقدمين ، وأخذوا منهم خمسة قطع ، وقتلوا خلقًا عظيمًا من الأسطول الإسلامي ، وذلك في سابع وعشرين شوال .

فلما علم السلطان ماتم على المسلمين ضاق عطنه ، وكان قد هجم الشتاء ، وتراكت الأمطار ، وامتنع الناس من القتال من شدة المطر ، فجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل ، فأشاروا عليه بالرحيل ليأخذ العسكر جزءًا من الراحة ، ويستعدوا لهذا الأمر استعدادًا جديدًا ، فرأى ذلك رأيًا ، فرحل عنها بعد أن رمى المنجنقات وسيورها ، وأحرق ما لا يمكن نقله .

وكان رحيله يوم الأحد ^(٣) ثاني ذى القعدة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ففرق العساكر ، وأعطاهما دستورًا ، وسار كل قوم إلى بلادهم ، وأقام هو مع جماعة من خواصه / بعكا حتى دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة . ٦١ أ

ذكر نزوله على كوكب

ولما دخلت عليه هذه السنة المباركة رأى الاشتغال بهذه الحصون الباقية التي مما يضعف قلوب مَنْ في صور وينهى أمرها به ، فاشتغل بذلك ، ونزل على كوكب في أوائل المحرم سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

وكان سبب بدايته بكوكب أنه كان قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن تدخل إليهم قوة أو جماعة ، فخرج الافرنج ليلا ، وأخذوا غرتهم ، وكبسوهم

(١) م : « البحرين » .

(٢) م : « وكبسوهم » .

(٣) التاريخ غم مثبت في (م) .

بعقربلا ، وقتلوا مقدمهم ، وكان من الأمراء ، يعرف بسيف الدين أخى الجاولى ، وأخذوا أسلحتهم ، فسار - رحمه الله - من عكا ، ونزل عليها بمن كان قد بقي معه من خواصه بعكا ، فإنه كان قد أعطى العساكر دستوراً ، وعاد أخوه الملك العادل إلى مصر ، وعاد ولده الملك الظاهر إلى محروسة حلب ، ولقى في طريقه شدة من الثلج والبرد ، فحملت السلطان مع ذلك - رحمة الله عليه - الحمية على النزول عليها ، وأقام يقاتلها مدة .

وفى تلك المنزلة وصلت / إلى خدمته ، فإني كنت قد حججت سنة ثلاث ٦١ ب وثمانين وخمسمائة ^(١) وكانت وقعة ابن المقدم ، وجرح يوم عرفة على عرفة ، لخلف جرى بينه وبين أمير الحاج كمشتكين على ضرب الكوس والدبدبة ، فإن أمير الحاج نهاه عن ذلك ، فلم ينته ابن المقدم ، وكان من أكبر أمراء الشام ، وكان كثير الخير كثير الغزاة فقدّر الله أنه جرح يوم عرفة بعرفة ، ثم حُمل إلى منى مجروحاً ، ومات بمنى يوم الخميس ، يوم عيد الله الأكبر ، وصلى عليه في مسجد الخيف في بقية ذلك اليوم ، ودُفن بالمعلا ، وهذا من أتم السعادات ، وبلغ ذلك السلطان فشق عليه .

ثم اتفق لى العود من الحج على الشام لقصد القدس وزيارته ، والجمع بين زيارة النبي - ﷺ - وزيارة أبيه إبراهيم - عليهما السلام - ، فوصلت إلى دمشق ثم خرجت إلى القدس ، فبلغه خبر وصولي ، فظن أني وصلت من جانب الموصل في حديث ، فاستحضرني عنده ، وبالغ في الإكرام والاحترام .

ولما ودعته ذاهباً إلى القدس خرج إلى بعض خواصه وأبلغني تقدمه إليّ بأن أعود أمثل ^(٢) في خدمته عند العود من القدس / ، فظننت أنه يوصيني بهم ٦٢ أ إلى الموصل المحروسة ، وانصرفت إلى القدس الشريف - حرسه الله تعالى - يوم

(١) ينص المؤلف هنا على أنه حج لى سنة ٥٨٣ هـ .

(٢) م . أمثل .

رحيله عن كوكب ، ورحل لأنه علم أن هذا الحصن لا يؤخذ إلا بجمع العساكر عليه ، وكان حصناً قوياً وفيه رجال شداد من بقايا السيف ، وميرة عظيمة ، فرحل إلى دمشق ، وكان دخوله إليها في سادس ربيع الأول سنة أربع وثمانين .
وفي ذلك اليوم اتفق دخولي إلى محروسة دمشق عائداً من القدس ^(١) الشريف فأقام - رحمة الله عليه - في دمشق خمسة أيام ، فكان له عنها ستة عشر شهراً .

وفي اليوم الخامس بلغه خبر الافرنج أنهم قصدوا جببلا واغتالوها ، فخرج منزعجاً ^(٢) ساعة بلوغ الخبر ، وكان قد سیر إلى العساكر يستدعيها من سائر الجوانب ، وسار يطلب جببلا ، فلما عرف الافرنج بخروجه كفوا عن ذلك .
وكان بلغه وصول عماد الدين زنكي ، وعسكر الموصل ومظفر الدين بن زين الدين إلى حلب قاصدين الخدمة للغزاة ، فسار نحو حصن الأكراد في طلب الساحل فوقاني .

/ ذكر دخوله الساحل الأعلى

٦٢ ب

وأخذه اللاذقية وجبلة وغيرها

ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل على تل قبالة حصن الأكراد ، ثم سیر إلى الملك الظاهر ولده والملك المظفر بأن يجتمعا وينزلا بتيزين قبالة أنطاكية لحفظ ذلك الجانب ^(٣) فسارا حتى نزلا بتيزين في هذا التاريخ ^(٤) ، وسارت عساكر

(١) يحدد المؤلف هنا تاريخ سفره إلى القدس وتاريخ عودته منها .

(٢) م : « مسرعاً » .

(٣) هذه الجملة ماقطة من (م) .

الشرق حتى اجتمعت بخدمة السلطان في هذه المنزلة ، ووصلت إليه ^(١) في هذه
المنزلة ، فإنه كان قد سَير إلى دمشق يقول : تلحقنا نحو حمص ، فخرجت ^(٢)
على عزم السير إلى الموصل متجهزاً لذلك ^(٣) فوصلت إليه امتثالاً لأمره ^(٤) ، فلما
حضرته عنده فرح بي وأكرمني .

وكنْتُ قد جمعتُ له كتاباً في الجهاد ^(٥) بدمشق مدة مقامي فيها ، يجمع
أحكامه وآدابه ، فقدَّمته بين يديه فأعجبه ، وكان يلزم مطالعته ؛ ومازلتُ أطلب
دستوراً في كل وقت وهو يدافعني عن ذلك ، ويستدعيني للحضور في خدمته
في كل وقت ، ويبلغني على ألسنة الحاضرين ثناءه [على] / وذكره إياي بالجميل ؛ ٦٣ أ
فأقام في منزلته ربيعاً الآخر جميعه ، وصعد في أثناؤه إلى حصن الأكراد وحاصرها -
يوماً يجسها به ^(٦) ، فما رأى الوقت يحتمل حصاره .

واجتمعت العساكر من الجوانب ، وأغار على بلد طرابلس في هذا الشهر
دفعتين ، ودخل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر ، وتقوية العساكر
بالغنائم ، ثم نادى في الناس في أواخر الشهر : إنا داخلون إلى الساحل وهو قليل
الأزواد ، والعدو يحيط بنا في بلاده من سائر الجوانب ، فاحملوا زاد شهر .

ثم سَير إلَيَّ مع الفقيه عيسى ، وكشف إلَيَّ أنه ليس في عزمه أن يمكنني من
العود إلى بلادى ، وكان الله قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيته وحب الجهاد ، فأحببته
إلى ذلك ، وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين ^(٧) - وهو يوم
دخوله الساحل - ، وجميع ما حكيتُه قبل إنما هو روايتي عمن أثق به ممن شاهدته .

ومن هذا التاريخ ما أسطر إلا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق به خبراً يقارب
العيان ، والله الموفق .

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٢) هذه إشارة هامة إلى كتاب آخر صنفه المؤلف خصيصاً لصالح الدين .

(٣) م . هـ وحاصرها يوم محبته بها .

(٤) هذا نص هام يحدد المؤلف فيه بدء اتصاله بخدمة صلاح الدين .

/ ذكر دخوله - رحمة الله عليه - إلى الساحل ^(١)

ولما كان يوم الجمعة رابع عشر جمادى الأولى رحل - رحمة الله عليه - إلى تعبئة لقاء العدو ، ورُتّب الأطلاب ، وسارت الميمنة أولاً ، ومقدمها عماد الدين زنكى ، والقلبُ في الوسط ، والميسرة في الأخير ، ومقدمها مظفر الدين ابن زين الدين ؛ وسار الثقل في وسط العسكر حتى أتى المنزل ، فبتنا تلك الليلة في بلد العدو ثم رحل في صبيحة السبت ^(٢) ونزل على العزيمة فلم يقاتلها ، ولم يعرض لها ^(٣) ، ولكن أقام عليها بقية يوم السبت ورحل عنها يوم الأحد ^(٤) .

ذكر فتح أنطرسوس ^(٥)

وكان وصوله - رحمة الله عليه - إلى أنطرسوس ضاحى نهار الأحد سادس جمادى الأولى سنة أربع وثمانون ، فوقف قبالتها ينظر إليها ، وكان في عزمه الاجتياز ، فإنه كان له عمل بجيلة ، فاستهان بأمرها ، فعزم على قتالها ، فسيّر مَنْ رَدَّ الميمنة ، وأمرها بالنزول على جانب البحر وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر ، ونزل هو في موضعه ، / وصارت العساكر محدقة بها من البحر إلى البحر ، وهى مدينة راکبة على البحر ، ولها برزخان ^(٦) كالقلعتين حصينان ^(٧) وكان رأس الميمنة عماد الدين صاحب سنجار ، ورأس الميسرة مظفر الدين بن زين الدين ^(٨) وركب - رحمة الله عليه - وقارب البلد ، وأمر

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) هذه الكلمات غير موجودة في (م) .

(٣) هذه العبارة غير موجودة في (م) .

(٤) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٥) م : « مرجان » .

(٦) هذه الحملة ساقطة من (م) .

الناس بالزحف والقتال ، فلبسوا لأمة ^(١) الحرب ^(٢) واشتد عليها الحرب ^(٣) والقتال والزحف ، وضايقهم وباغتهم فما استتب نُصِبُ الخيم حتى صعد الناس السور وأخذها بالسيف ، وغنم العسكرُ جميع مَنْ بها وما بها ، وخرج الناس والأسرى بأيديهم وأموالهم ، وترك الغلمان نُصِبَ الخيم ، واشتغلوا بالنهب والكسب ، ووفى بقوله ^(٤) - رحمه الله - فإنه كان قد عرض عليه الغداء ، فقال ^(٥) : نتغدى بانطرسوس إن شاء الله تعالى .

وعاد إلى خيمته فرحاً مسروراً ، وحضرنا عنده للهناء بما جرى ومُدَّ الطعام ، وحضر الناس ، وأكلوا على عادتهم ، ورتب على البرجين الباقيين الحصار ، فسَلَّم أحدهما إلى مظفر الدين ، فما زال يحاصره حتى أخربه ^(٦) وأخذ من كان فيه ، وأمر السلطان بإخرا ب سور البلد ، وقسَّمه على الأمراء ، وشرعوا في / خرابه وأخذ في محاصرته البرج الآخر ^(٧) ، وكان حصناً منيعاً مبنياً ٦٤ ب بالحجر النحيت ، وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة ^(٨) والمقاتلة فيه ، وخندقه يدور فيه الماء ، وفيه جروح ^(٩) كثيرة تخرج الناس عن بعد ^(١٠) ، وليس له قدر يخرج عليه مسلم ، فرأى السلطان تأخير أمره والاشتغال بما هو أهم منه ، فاشتد في خراب السور حتى أتى عليه ، وخرَّب البيعة ، وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج إليها من أقطار بلادهم ، وأمر بوضع النار في البلد ، فأحرق جميعه حتى كانت

(١) اللأمة : الدرع ، وقيل : السلاح ، وقبل : الدرع الحصينة ، سمت لأمة لأحكامها ووحدة حلقاتها ، وقيل : السلاح كله ، ولأمة الحرب : أداته ، وجمعها لأم ولؤم ، واستلأم الرجل : لبس اللأمة ، أى إذا لبس ما عنده من هذه رمح وببضة ومعفر وسيف ونبل : انظر : (اللسان) و (ابن هذيل الأندلسي : حلية الفرسان وشعار الشجعان ، نشر محمد عبد الغنى حسن ، ص ٢٣٨) .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٣) م : « أخرج » .

(٤) م . « وأخذوا يحاصرون الآخر » .

(٥) م . « من المدالة والطارقة والمقاتلة » .

(٦) انظر ما فات هنا ص ١٣٧ ، هامش ٣ .

(٧) م « وفيه خروج كثيرة تخرج الناس منها عن بعد » ويخيل إلى أنه تصرف سيء من الناشر لفهم

تعج^(١) النار في أدره^(٢) وبيوته ، والأصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير ، فأقام عليها يخربها إلى رابع عشر جمادى الأولى ، وسار يريد جبلة ، وكان عرض له ولده الملك الظاهر في أثناء طريق جبلة ، فإنه طلبه وأمره أن يحضر معه جميع العساكر التي كانت بتيزين^(٣) ،^(٤) فحضرهم في خدمته^(٥) .

ذكر فتوح جبلة

٦٥ أ^٥ وكان وصوله - قدس الله روحه - إليها في ثامن عشر / في يوم الجمعة^(٦) ، وما استتم نزول العسكر حتى أخذ^(٧) البلد ، وكان فيه مسلمون مقيمون فيه ، وقاض يحكم بينهم^(٨) ، وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع ؛ وبقيت القلعة ممتنعة^(٩) ونزل العسكر محققا بالبلد وقد دخله المسلمون ، واشتغل بقتال القلعة فقوتلوا^(١٠) قتالا يقيم عذرا لمن كان فيها ، وسلمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر جمادى الأولى ، وأقام عليها إلى ثالث وعشرين الشهر المذكور ، وسار عنها يطلب اللاذقية .

(١) م : « كان تتأجج » .

(٢) م : « أرزه » .

(٣) م : « بتيزين » .

(٤) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٥) مكان هذه الجملة في (م) : « ووصل إلى جبلة في الثامن عشر » .

(٦) م : « أتى » .

(٧) هذا نص له أهميته يدل على المسلمين في المدن الخاضعة للصليبيين كان يحكم بينهم فاض منهم

(٨) مكان هذه الجملة في (م) « فاشتعل بقتالها فقاتل »

ذكر فتوح اللاذقية^(١)

وكان نزولنا عليها يوم الخميس رابع وعشرين جمادى الأولى سنة أربع وثمانين ، وهى بلد مليح خفيف على القلب ، غير مستور ، وله ميناء مشهور ، وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد ، فنزل - رحمة الله عليه - محققا بالبلد ، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهما إلا من ناحية البلد ، واشتد القتال ، وعظم الزحف ، وارتفعت الأصوات ، وقوى الضجيج إلى آخر النهار^(٢) ، وأخذ البلد دون القلعتين ، وغنم الناس منه / ٦٥ ب غنيمة عظيمة ؛ فإنه كان بلد التجار ، وفرق بين الناس الليل وهجومه .

وأصبح يوم الجمعة مقاتلا مجتهدا فى أخذ النقوب ، وأخذت النقوب يوم الجمعة^(٣) من شمالى القلاع ، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله - على ما حكى لى من ذرعه - ستين ذراعا ، وعرضه أربعة أذرع ، واشتد الزحف عليهم حتى صعد الناس الجبل ، وقاربوا السور ، وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بحجارة^(٤) باليد ، فلما رأى عدو الله ماحل به من الصغار والبوار استغاثوا بطلب الأمان عشية الجمعة خامس عشر من الشهر ، وطلبوا قاضى جبلة فدخل إليهم ؛ ليقرر لهم قاعدة الأمان ، فأجيبوا إلى ذلك .

وكان - رحمه الله - متى طلب منه الأمان لا ييخل به^(٥) ، فعاد الناس عنهم إلى خيامهم وقد أخذ منهم التعب ، فباتوا إلى صبيحة السبت . ودخل قاضى جبلة إليهم ، واستقر الحال معهم على أنهم يطلقون بنفوسهم وذرائعهم ونسائهم^(٦) وأموالهم - خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب -

(١) هذا العنوان غير موجود فى (م) .

(٢) م : « اليوم المذكور » .

(٣) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٤) م : « بالحجارة » .

(٥) م : « لا ييخل به رفقا » .

(٦) هذا اللفظ ساقط من (م) .

٦٦ أ وأطلق لهم دواب يركبونها إلى مأمنهم ^(١) وأجيبوا إلى / ذلك ^(٢) ، ورقى عليها العَلَمُ الإسلامي المنصور في بقية السبت المذكور المبارك ^(٣) ، وأقمنا عليها إلى ^(٤) يوم الأحد ^(٥) السابع والعشرين .

ذكر فتوح صهيون

ورحل عن اللاذقية ظهيرة الأحد المذكور طالبًا صهيون ^(٦) المحروسة ، كان النزول عليها يوم الثلاثاء تاسع عشرين جمادى المذكورة ، واستدار العسكر بها من سائر نواحيها بكرة الأربعاء ^(٧) ، ونصب عليها ستة مناجيق ، وهي قلعة حصينة منيعة وهي في طرف جبل ، خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة ، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد ، مقدار طوله ستون ذراعاً ولا يبلغ ^(٨) ، وهو نقر في صخر ، ولها ثلاثة أسوار ، سور دون رُبُضِها ، وسور دون القلعة ^(٩) ، وسور القلعة ، وكان على قتلها ^(١٠) عَلمٌ طويل منصوب ، فحين أقبل العسكر الإسلامي شاهدهته وقد وقع ، فاستبشر المسلمون بذلك ، وعلم ^(١١) أنه النصر والفتح ، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب ، فضرِبها / ولده الملك الظاهر - صاحب حلب ^(١٢) وكان قد لحقه قبيل جَبَلَة بجحفله وعسكره وحضر فتوحها ، وكان نصب على صهيون منجنيقا قبالة قرنيه من سورها قاطع الوادي ^(١٣) ، وكان صائب الحجر ، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة عظيمة يمكن الصاعد في السور من الترقى إليه منها .

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٢) م : « بقية ذلك اليوم » .

(٣) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٤) النص في (م) : « واستدارت العساكرها من سائر نواحيها في التاسع والعشرين » .

(٥) م : « أو أكثر » .

(٦) م : « القلعة » .

(٧) م : « وعلموا » .

(٨) النص في (م) : « فضرِبها بمنجنيق الملك الظاهر صاحب حلب ، وكان نصب منجنيقا قريبا

من سورها فقطع الوادي » .

ولما كان بكرة الجمعة ثانی جمادی الآخرة عزم السلطان ^(١) - رحمة الله عليه - على الزحف ، وركب ^(٢) وتقدم ، وأمر المنجنیقات أن تتواتر ^(٣) بالضرب ، وارتفعت الأصوات ، وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل ، وما كان إلا ساعة حتى رقی المسلمون على أسوار الرّیض ، واشتد الزحف ، وعظم الأمر ، وهجم المسلمون الرّیض .

ولقد كنتُ أشاهد الناس وهم يأخذون القدور ، وقد استوى فيها الطعام فیاكلونها وهم یقاتلون القلعة ، وانضم من كان فی الریض إلى القلعة و[حملوا] ما أمكنهم أن یحملوه من أموالهم ، ونهب الباقي ، واستدار المقاتلة حول أسوار القلعة ، ولما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان ، ووصل خبرهم إلى السلطان ، فبذل لهم الأمان ، وأنعم عليهم ، أن یسلموا / بأنفسهم وأموالهم ، ویؤخذ من الرجل منهم عشرة دنانیر ، وعن المرأة خمسة دنانیر ، وعن الصغیر دیناران ، وسلمت القلعة - والله الحمد - وأقام السلطان علیها حتى تسلم عدة قلاع ، كالعیذو ، وبلاطنس ^(٣) وغيرهما من القلاع والحصون وتسلمها النواب ، ^(٤) فإنها كانت تتعلق بصهیون ^(٥) .

ذكر فتح بكّاس

ثم رحل - رحمة الله عليه - وصرنا حتى أتينا ^(٥) سادس جمادی الأخرى ^(٥) بكّاس ، وهی قلعة حصينة على جانب العاصی ، ولها نهر ینخرج من

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٢) م : « تتوالى » .

(٣) م . « كالعیذ ، وفیحه ، وبلاطیس »

(٤) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٥) هذا التاريخ عبر موجود فی الأصل ، وقد أصیف عن (م) .

تحتها ، وكان النزول بذلك المنزل على شاطئ العاصي ، وصعد السلطان جريدة إلى القلعة ، وهي على جبل يطل على العاصي ، فأحرق بها من كل جانب ، وقاتلها قتالا شديدا بالمنجنقات والزحف المضايق إلى يوم الجمعة ^(١) أيضا تاسع جمادى الآخرة ، ويسر الله فتحها عنوة ، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم ، وغنم جميع ما كان فيها ، وكان لها قلعة تسمى الشُّعْر قرية منها يعبر إلى منها بجسر ، ٦٧ ب وهي في / غاية المنعة ليس إليها طريق ، فسلطت عليها المنجنقات من الجوانب ، ورأوا أنهم لا ناصر لهم ، فطلبوا الأمان ، وذلك في يوم الثلاثاء ثالث عشر ، وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان مَنْ بأنطاكية ، فأذن في ذلك .

وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني على قلعتها ^(٢) يوم الجمعة سادس عشر .

ثم عاد السلطان إلى الثقل ، وسير ولده الملك الظاهر إلى قلعة سرمانية يوم السبت سابع عشرة ^(٣) ، فقاتلها قتالا شديدا ، وضايقها مضايقة عظيمة ، وتسلمها يوم الجمعة ثالث وعشرين الشهر المذكور ، فاتفقت فتوحات الساحل من جبلة إلى سرمانية في أيام الجمع ، وهي علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين وسعادة السلطان حيث يسر لنا له الفتوح في اليوم الذي تضاعف فيه ثواب الحسنات ، وهذا من نواذر الفتوحات في الجمع المتوالية ، ولم يتفق مثلها في تاريخ .

ذكر فتح برزية

٦٨ أ / ثم سير السلطان جريدة إلى قلعة برزية ، وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الافرنج والمسلمين ، يحيط بها أودية من سائر جوانبها ، وذرع علوها كان خمسمائة ذراع

(١) هذان اللفطان ساقطان من (م) .

(٢) م : « عليها » .

(٣) التاريخ ساقط من (م) .

ونيفا وسبعين ذراعا ، ثم جدد عزمه على حصارها بعد رؤيتها ، واستدعى الثقل ، فكان وصول ^(١) الثقل وبقية العسكر يوم السبت رابع عشرين جمادى الآخرة ، ونزل الثقل تحت جبلها .

وفي بكرة الأحد خامس عشرين منه صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنوقات وآلات الحصار إلى الجبل ، فأحرق بالقلعة عليها من سائر نواحيها ، وركب القتال من كل جانب ، وضرب أسوارها بالمنجنوقات المتواترة الضرب ليلا ونهارا . ^(٢) وقاتلها حتى كان يوم الثلاثاء ^(٣) سابع وعشرين منه ، فقسم العسكر ثلاثة أقسام ، ورتب كل قسم يقاتل شطرا من النهار ، ثم يستريح ويتسلم القتال للقسم الآخر بحيث لا يفتر القتال عنها أصلا .

وكان صاحب النوبة / الأولى عماد الدين - صاحب سنجار - فقاتلها ٦٨ ب قتالا شديدا حتى استوفى نوبته ، وضرر الناس من القتال ، وتراجعوا عنه . وتسلم النوبة الثانية السلطان بنفسه ، وركب وتحرك خطوات عدة ، وصاح في الناس ، فحملوا عليها حملة الرجل الواحد ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وقصدوا السور من كل جانب ، فلم يكن إلا بعض ساعة وقد رقى الناس على الأسوار ، وهجموا القلعة ، وأخذت عنوة ، واستغاثوا : « الأمان » ، وقد تمكنت الأيدي منهم « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » ونهب جميع مافيها ، وأسر جميع من كان فيها ، وكان قد آوى إليها خلق عظيم ، وكانت من قلاعهم المذكورة ، وكان يوما عظيما .

وعاد الناس إلى خيامهم غانمين بحمد الله تعالى ، وعاد السلطان إلى الثقل فرحا مسرورا ، وأحضر بين يديه صاحب القلعة ، وكان رجلا كبيرا منهم ، وكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفسا ، فمن عليهم السلطان ورق لهم / ، وأنفذهم إلى صاحب أنطاكية ، استمالة له ، فإنهم كانوا يتعلقون به ومن أهله .

٦٩ أ

(١) م : نزول .

(٢) هذه الحملة ساقطة من (م) .

ذكر فتح دَرْبَسَاك

ثم سار - قدس الله روحه - ^(١) حتى أتى جسر الحديد ، وأقام عليه أياما ، وسار حتى نزل على دَرْبَسَاك يوم الجمعة ثامن شهر رجب ^(٢) سنة أربع وثمانين ، وهى قلعة منيعة قريبة من أنطاكية - يسّر الله فتحها - فنزل عليها وقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيات ، وضايقها مضايقة عظيمة ، وأخذ النقب تحت برج منها . وتمكن النقب منها حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة ، ووقف في الثغرة رجال يحمونها عمن يصعد فيها ، ولقد شاهدتهم وكلما قُتل منهم رجل قام غيره مقامه ، وهم قيام عوض الجدار مكشفين ^(٣) ، فاشتد بهم الأمر حتى طلبوا الأمان ، واشترطوا مراجعة أنطاكية ، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لا غير ، ورقى عليها العلم الإسلامى يوم الجمعة أيضا ثانى عشرين رجب ٦٩٠ ب وأعطاهما عَلم الدين سليمان / بن جندر ، وسار عنها بكرة السبت ثالث عشرين منه .

ذكر فتح بَغْرَاس

وهى قلعة منيعة أقرب إلى أنطاكية من دَرْبَسَاك ، وكانت كثيرة العدة والرجال ، فنزل العسكر فى مرج لها ، وأحرق العسكر بها جريدة مع أنا احتجنا فى تلك المنزلة إلى يَزَك يحفظ من جانب أنطاكية ، لئلا يخرج منها من يهاجم العسكر ، فضرب يَزَك الإسلام على باب أنطاكية بحيث لا يشذ عنه مَنْ يخرج منها ، وأنا ممن كان فى اليَزَك فى بعض الأيام لرؤية البلد وزيارة حبيب النجار

(١) م : ثم رحل حتى أتى .

(٢) م : ثامن عشر رجب .

(٣) م : وهم قيام فى عرض الحدار مكشوفون . راجع أيضا : (ابن واصل : مفرح الكروب ،

ج ٢ ، ص ٢٦٨) .

المدفون فيها ، ولم يزل يقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الأمان على استئذان أنطاكية ، ورقى العلم السلطاني ^(١) عليها في ثانی شعبان من شهور سنة أربع وثمانين .

وفي بقية ذلك اليوم عاد - رحمه الله - إلى الخيم الأكبر ، وراسله أهل أنطاكية في طلب الصلح ، فصالحهم لشدة ضجر العسكر وقوة قلق عماد الدين - صاحب سنجار - في طلب الدستور ، وعُقد الصلح بيننا وبين أنطاكية من بلاد الأفرنج / لا غير على أن يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم ، وكان ٧٠ أ إلى سبعة أشهر ، فإن جاءهم مَنْ ينصرهم وإلا سلّموا البلد إلى السلطان .

ورحل يطلب دمشق ، فسأله ولده الملك الظاهر - صاحب حلب - أن يجتاز به ، فأجابه ، وسار حتى أتى حلب حادى عشر شعبان ، وأقام بقلعتها ثلاثة أيام ، وولّده يقوم بالضيافة حق القيام ، ولم يبق من العسكر إلا مَنْ ناله من نعمته منال وأكثر حتى أشفق عليه والده ^(٢) .

وسار من حلب رابع عشر شعبان يريد دمشق ، فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين ، وأصعده إلى قلعة حماه ، واصطنع له طعاما حسنا ، وأحضر له سماع الصوفية ، وبات فيها ليلة واحدة ، وأعطاه جَبَلَة واللاذقية .

وسار - رحمه الله عليه - على طريق بعلبك حتى أتى بعلبك ، وأقام بمرجها يوما ، ودخل إلى حمامها ، وسار منها حتى ^(٣) أتى محروسة دمشق قبل دخول رمضان بأيام يسيرة فأقام بها حتى ^(٣) دخل رمضان ، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد / مهما أمكنه . وكان قد بقى له من القلاع القريبة من حوران التي ٧٠ ب يخاف عليها من جانبها صَفَد وكوكب ، فرأى أن يشغل الزمان ^(٤) بفتح المكانين في الصوم .

(١) م : « الإسلامى » .

(٢) م : « وأكثر ظنى أنه أشفق عليه والده » .

(٣) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٤) م : « الوقت » .

ذكر فتح صفد

ثم سار في أوائل رمضان من محروسة دمشق يريد صفد ، ولم يلتفت إلى مفارقة الأهل والأولاد والوطن في هذا الشهر الذي يسافر الإنسان أين كان فيجتمع في هذا الشهر بأهله ؛ « اللهم إنه احتمل ذلك ابتغاء مرضاتك فآته أجراً عظيماً » .

فسار حتى أتى صفد في أثناء شهر رمضان المبارك ، وهي قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها ، فأحرق العسكر بها ، ونصب عليها المناجيق ، ^(١) وفي أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب صاحبها ، وخلصوه بها من الأسر ، وكان قد أسر في وقعة حطين المباركة ^(٢) ، وكانت الأمطار شديدة ، والوحوول عظيمة ، ولم يمنعه ذلك عن جده .

ولقد كنتُ عنده في خدمته ليلةً وقد عيّن مواضع خمسة مناجيق ، حتى تنصب / فقال في تلك الليلة : ما ننام حتى تُنصب الخمسة . ٧١ أ

وسلم كل منجنيق إلى قوم ، ورسله تتواتر إليهم يخبرونه ويعرفهم كيف يصنعون حتى أظللنا الصبحُ ونحن في خدمته - رحمة الله عليه - وقد فرغت المنجنيقات ، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها ^(٣) فيها ، فرويْتُ له الحديث المشهور في الصباح ، وبشرته بمقتضاه ، وهو قوله ﷺ : « عيان لا تمسهما النار : عيْنٌ باتت تحرس في سبيل الله ، وعيْنٌ بكث من خشية الله » .

ولم يزل القتال على صفد متواصلاً بالنوب مع الصوم حتى سلمت بالأمان في رابع عشر شوال من السنة المذكورة .

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٢) كذا في الأصل وعند ابن واصل ، ولعلها « جنازيرها » ، فقد ذكر دوزي أن جَنْزِير مأخوذة من « زنجير » الفارسية ، ومعناه السلسلة .

ذكر فتح كوكب

ثم سار يريد كوكب ، فنزل على سطح الجبل ، وجرد العسكر ، وأحرق بالقلعة ، وضايقها بالكلية ، بحيث اتخذ له موضعاً يتجاوزه نشاب العدو ، وبنى له حائطا من حجر وطين يستتر وراءه ^(١) والنشاب يتجاوزه ^(٢) ولا يقدر أحد يقف على باب خيمته إلا أن يكون ملبسا ، وكانت الأمطار متواترة / ، والوحول ٧١ ب [عظيمة] ، ^(٣) بحيث يمنع الماشي والراكب إلا بمشقة عظيمة ^(٤) وعانى شدائد وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الأمطار ، وكون العدو متسلطا عليهم بعلو مكانه ، وجرح وقتل جماعة ، ولم يزل راكبا مركب الجدد حتى تمكن النقب من سورها .

ولما أحس العدو المخدول ^(٥) بالنقب وقد تمكن من السور علم أنه مأخوذ ^(٦) فطلب الأمان ، فأجابهم إلى ذلك وأمنهم وتسلمها في منتصف ذى القعدة ، ونزل إلى الغور إلى الثقل ، وكان قد نزل الثقل من شدة الوحل والريح في سطح الجبل ، فأقام بقية الشهر يراجع أخوه الملك العادل في أشغال تخصه حتى هل هلال ذى الحجة ، وأعطى الجماعة دستورا ، وسار مع أخيه الملك العادل يريد القدس الشريف يريد زيارته ووداع أخيه ، فإنه كان عائدا إلى مصر ، فوصلا إليه يوم الجمعة ثامن ذى الحجة وصليا الجمعة في قبة الصخرة الشريفة ، وصليا صلاة العيد الأعظم بها أيضا يوم الأحد ، ^(٧) وعاد إلى خيمه ، وعاد بقية / يومه وسار يوم الاثنين حادى عشر ذى الحجة ^(٨) طالباً عسقلان لينظر في ٧٢ أ أحوالها ويودع أخاه ، فأقام بها أياما يلم شعشها ، ويصلح أحوالها ، فودع أخاه الملك العادل ، وأعطاه الكرك ، وأخذ منه عسقلان ، وعاد يطلب عكا على طريق الساحل ، يمر على البلاد يتفقد أحوالها ، ويودعها الرجال والعدد حتى أتى عكا ، فأقام بها معظم المحرم سنة خمس وثمانين وخمسمائة يصلح أحوالها ، ورثب بها بهاء الدين قراقوش واليا ، وأمره بعمارة السور والإطنا ب فيه ومعه حسام الدين

(١) هذا اللفظان ساقطان من (م) .

(٢) هذه العبارة ساقطة من (م) .

بشارة^(١) وسار يريد دمشق بعد وصول طائفة من عسكر مصر أودعهم في عكا بصدد حفظها^(٢) ، وسار حتى دخل محروسة دمشق مستهل صفر سنة خمس وثمانين وخمسمائة .

ذكر توجهه إلى شقيف أرنون وهي السفرة المتصلة بواقعة عكا

٧٢ ب وأقام بمحروسة دمشق حتى دخل في ربيع الأول / سنة خمس وثمانين ،
ثلاثة أيام .

ووصله في أثناء ربيع الأول رسول الخليفة الناصر لدين الله يأمره بالخطبة لولده ولّي العهد ، فخطب له .

وحرر عزمه على قصد شقيف أرنون ، وهو موضع حصن قريب من بانياس ، وكان تبريزه^(٢) بعد صلاة الجمعة في الثالث من ربيع^(٢) ، فسار حتى نزل في مرج فلوس وأصبح يوم^(٣) السبت راحلا حتى أتى مرج برغوث فنزل به ينتظر العساكر ، وأقام به والعساكر تتابع إلى^(٣) حادى عشر ، ورحل حتى أتى بانياس ، ثم رحل منها حتى أتى مرج عيون فخيم به ، وهو قريب من شقيف أرنون ، بحيث يركب كل يوم يشارفه ويعود ، والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب وأوب ، وكان وصوله بمرج عيون في سابع عشر ربيع الأول المذكور ، فأقمنا أياما نشرف كل يوم على الشقيف ، والعساكر الإسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العدد والعُدَد ، وصاحب الشقيف يرى ما يتيقن معه عدم السلام ، فرأى

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٢) م : الثالث ، .

(٣) هذه العبارة ساقطة من (م) .

أن إصلاح حاله معه قد تعين طريقاً إلى سلامته فنزل بنفسه ، وما أحسنا به إلا / وهو قائم على باب خيمة والسلطان ، فأذن له ، فدخل واحترمه وأكرمه ، ٧٣ أ وكان من كبار الفرنجية وعقلائها ^(١) ، وكان يعرف العربية وعنده إطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث ^(٢) ، وبلغنى أنه كان عنده مسلم يقرأ له ، ويفهمه ، وكان عنده تآنى ، فحضر بين يدي السلطان ، وأكل معه الطعام ، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه ، وأنه تحت طاعته ، وأنه يسلم المكان إليه من غير تعب ، واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق ، فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الافرنج ، وإقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله ، وأن يُمكن من الإقامة بموضعه ، وهو يتردد إلى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذى كان فيه حتى يتمكن من تخلص أهله وجماعته من صور ^(٣) ويأخذ مغل هذه السنة ^(٤) فأجيب إلى ذلك كله ، وأقام يتردد إلى خدمة السلطان فى كل وقت ، ويناظرنا فى دينه وناظره فى بطلانه ؛ وكان حسن المحاورة ومتأدباً فى كلامه .

وفى أثناء ربيع الأول وصل / الخبر بتسليم الشَّوَبِك ، وكان قد أقام السلطان ٧٣ ب عليه جمعاً عظيماً يحاصرونه مدة سنة حتى فرغت أزوادهم ، وسلموه بالأمان .

ذكر اجتماع الافرنج لقصد عكا

وكان السلطان اشترط على نفسه حين تسلم عسقلان أنه إن أمر الملك بتسليمها أطلقه ، فأمرهم بتسليمها ، وسلموها ، فطالبه الملك بإطلاقه فأطلقه

(١) هو أرناط صاحب صيدا Reynold garnier, Lord of Sidon and Beaufort وعن سياسته لعقد هذه الهدنة راجع : (ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشيال ، ج ٢ ، ص ٢٨٢) .

و(Runciman : History of the Crusades, Vol. 2.P. 469-470)

(٢) هذا شاهد له أهميته ، لأنه يدل على أن بعض أمراء الصليبيين فى الشام بدأوا يتعلمون اللغة العربية ويتأثرون بالثقافة الإسلامية .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .

وفاء بالشرط ، ونحن على حصن الأكراد من انطرسوس ، واشترط عليه أن لا يُشهر في وجهه سيفاً أبداً ، ويكون غلامه ومملوكه وطليقه أبداً ، فنكث - لعنه الله - وجمع الجموع ، وأتى صور يطلب الدخول إليها ، فخيم على بابها يراجع المركيس الذى كان بها فى ذلك ، والمركيس اللعين كان بصور وكان رجلاً عظيماً ذا رأى وبأس شديد فى دينه ، وصرامة عظيمة فقال : إننى نائب الملوك الذين وراء البحر ، وما أذنوا لى فى تسليمها إليك .

٧٤ أ وطالت المراجعة ، واستقرت القاعدة بينهما على أن يتفقوا جميعاً / على المسلمين ، وتجتمع العساكر التى بصور وغيرها من الافرنجية على المسلمين ، وعسكروا على باب صور .

ذكر الواقعة التى استشهد فيها أليك الأخرس

وذلك أنه لما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة بلغ السلطان من جانب اليزك أن الافرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا ، وهى ^(١) الأرض التى نحن عليها ، فركب السلطان ، وصاح الجاوش بالناس ، فركب العسكر يريدون نحو اليزك ، فوصل العسكر وقد انفصلت الواقعة ، وذلك أن الافرنج عبر منهم جماعة الجسر ، فنهض لهم اليزك الإسلامى ، وكانوا فى قوة وعدة ، فقاتلوهم قتالاً شديداً ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وجرحوا أضعاف ما قتلوا ، ورموا فى النهر جماعة ، فغرقوا ، ونصر الله الإسلام وأهله ، ولم يقتل من المسلمين إلا مملوك السلطان يعرف بأليك الأخرس ، فإنه استشهد فى ذلك اليوم ، وكان شجاعاً بطلاً بأسلاً مجرباً للحرب ، فارساً ، ٧٤ ب تقنطر به فرسه / ، فلجأ إلى صخرة ، فقاتل بالنشاب حتى فنى ، ثم بالسيف

(١) م : « وبقيت الأرض » .

حتى قتل جماعة ، ثم تكاثروا عليه فقتلوه ، وَوَجَدَ السلطان عليه لمكان شجاعته ، وعاد السلطان - رحمه الله - من الوقعة إلى خيم كانت [قد] ضربت له قريب المكان جريدة .

ذكر وقعة ثانية

استشهد فيها جمع من رَجَالِ المسلمين

وأقام في تلك الخيم إلى يوم الأربعاء تاسع عشر جمادى الأولى المذكور ، وركب يتشوف على القوم - على عادته - فتبع العسكر خلق عظيم من الرَجَالِ والغزاة والسوقة ، وحرص على ردهم ، فلم يفعلوا ، ولقد أمر مَنْ ضَرَبَهُمْ فلم يفعلوا ، وخاف عليهم ، فإن المكان كان حرجاً ليس للراجل فيه ملجأ ، ثم هجم الرجالة إلى الجسر ، وناوشوا العدو ، وعبر منهم جماعة إليهم ، وجرى بينهم قتال شديد ، واجتمع لهم من الافرنج خلق عظيم وهم لا يشعرون ، وكشفوهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين ؛ فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان / ، فإنه كان بعيداً منهم ، ولم يكن معه عسكر ، فإنه لم يخرج بتعبية قتال ، ٧٥ أ وإنما ركب مستشرفاً عليهم على العادة من كل يوم .

ولما بان له الوقعة ، وظهر له غبارها بعث إليهم من كان معه ليردوهم ، فوجدوا الأمر قد فرط ، والافرنج قد تكاثروا حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان ، وظفروا بالرجالة ظفرة عظيمة ، وجرى بينهم وبين السرية قتال شديد ، وأسروا جماعة من الرجالة ، وقتلوا جماعة ، وعد من كان قتل من الرجالة في ذلك اليوم ، فكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفراً .

وقتل أيضاً من الافرنج عدة عظيمة ، وغرق أيضاً منهم عدة ، وكان ممن قُتل منهم مقدّم الألمانى ، فإنه قتل في ذلك اليوم وكان عندهم عظيماً محترماً .

واستشهد من المعروفين من المسلمين ابن البصار ^(١) ، وكان شابا حسنا شجاعا ، واحتسبه والده في سبيل الله ، ولم تقطر من عينه عليه دمعَةٌ - على ما ذكر جماعةٌ لازموه - ، وهذه الواقعة لم يتفق للافرنج مثلها في هذه الوقائع ٧٥ ب التي حضرتها وشاهدتها ، ولم ينالوا من المسلمين / مثل هذه العدة في هذه المدة .

ذكر مسيره إلى عكا جريدة وسبب ذلك

ولما رأى السلطان - رحمه الله - ما حلَّ بالمسلمين في تلك الواقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم ، وقرر معهم أنه يهجم على الافرنج ، ويعبر الجسر ، يقاتلهم ويستأصل شأفتهم ، وكان الافرنج قد رحلوا من صور ، ونزلوا قريب الجسر ، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ ، فلما صمَّ العزم على ذلك أصبح في يوم الخميس سابع عشرين جمادى الأولى على ذلك وركب وسار ، وتبعه الناس والمقاتلة والعساكر ، ولما وصل أواخر الناس إلى أوائلهم وجدوا اليزك عائدا ، وخيامهم قد قلعت ، فسئلوا عن سبب ذلك ، فذكروا أن الافرنج رحلوا راجعين إلى صور ملتجئين إلى سورها ، معتصمين بقربها ، وذلك أنهم لما بلغهم ذلك عادوا ^(٢) خائبين ، فوقع الغنى عن اليزك وعادوا ^(٣) ، ولما رأى السلطان ذلك منهم رأى أن يسير إلى عكا ليلحظ ما بُنى من سورها ، ويحث على الباقي ، ^(٤) ويعود ، فراح على تبنين ولم يرجع على مرج عيون ^(٥) فمضى إلى عكا ، ورثب أحوالها ، وأمر بتتمة / عمارة سورها وإتقانه ، وإحكامه ، وأمرهم بالاحتياط والاحتراز ، وعاد إلى العسكر المنصور إلى مرج عيون ، وأقام بمرج عيون منتظرا مهلة صاحب الشقيف ، لعنه الله .

(١) كذا في الأصل ، وهو عند (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٨٦) الأمير غازي بن سعد الدين بن النصار .

(٢) هذه العبارة ساقطة من (م)

ذكر وقعة أخرى

ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغه أن جماعة من رجالة العدو يتسبطون ويصلون إلى جبل تبنين يحتطبون ، وفي قلبه من رجالة المسلمين وما جرى عليهم أمر عظيم ، فرأى أن يقرر قاعدة كمين يرتبه لهم ، ويأخذهم فيه ، وبلغه أنه يخرج وراءهم أيضا خيل تحفظهم ، فعمل كميناً يصلح للقاء الجميع ، ثم أنفذ إلى عسكر تبنين وتقدم إليهم أن يخرجوا في نفر يسير غائرين على تلك الرجالة ، وأن خيل العدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهة عيّنهم ، وأن يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادى الآخرة ، وأرسل إلى عسكر عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكر العدو حتى أن تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم ، وركب هو وجحفله سحر يوم الاثنين شاكين في السلاح متجردين ، ليس معهم خيمة إلى الجهة التي / عيّنهم لهزيمة عسكر تبنين ، وسار حتى قطع ٧٦ ب تبنين ورثب العسكر ثمانية أطلاب ، واستخرج من كل طُلب^(١) عشرين فارساً من الشجعان الجياد الخيل ، وأمرهم أن يترأوا للعدو حتى يظهروا إليهم ويناوشوهم وينهزموا بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين ، ففعلوا ذلك ، وظهر لهم من الافرنج معظم عسكرهم ، يقدمهم الملك - لعنه الله - وكان قد بلغهم الخبر فتعبوا تعبئة القتال ، وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد ، والتزمت السرية القتال ، وأنفوا عن الانهزام بين أيديهم ، وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان ولقائهم العدو الكثير بذلك الجمع اليسير ، واتصل الحرب بينهم إلى أواخر نهار الاثنين ، ولم يرجع منهم أحد إلى العسكر ليخبرهم بما جرى .

واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الأمر وقد هجم الليل ، فبعث إليهم بعوثاً كثيرة حين علم ضيق الوقت عن المصاف ، وفوات الأمر .

(١) انظر ماغات هنا ص ٧٧ ، هامش ٢ .

ولما بصر الافرنج بأوائل المدد قد لحق السرية عادوا منهزمين ناكسين على أعقابهم بعد أن جرت مقتلة عظيمة من الجانبين ، وكانت القتلى من الافرنج على ما ذكر من حضر - فإني لم أكن حاضرها - زهاء عشرة أنفس ، ومن المسلمين ستة أنفر : / اثنان من اليزك ، وأربعة من العرب ، منهم الأمير زامل ، وكان شابا تاما حسن الشباب ، مقدّم عشيرته ؛ وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه ، ففداه ابن عمه بفرسه ، فتقنطرت به أيضا فرسه ، وأسر هو وثلاثة من أهله .

ولما بصر الافرنج بالمدد للعسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ ، وجرح خلق كثير من الطائفتين ، وخيل كثيرة . ومن نوادر هذه الواقعة أن مملوكا كان من ممالك السلطان يقال له : أيك أثخن بالجراح حتى وقع بين القتلى ، وجراحاته تشخب دما ، وبات ليلته أجمع على تلك الحالة إلى صبيحة يوم الثلاثاء ، فتفقده أصحابه فلم يجدوه فعرفوا السلطان فقّده ، فأنفذ من يكشف خبره ، فوجدوه بين القتلى على مثل هذه الحالة ، فحملوه ونقلوه إلى الخيم على تلك الحال ، وعافاه الله ، وعاد السلطان إلى الخيم يوم الأربعاء عاشر الشهر منصورا ، فرحا مسرورا .

ذكر أخذ صاحب الشقيف

وسبب ذلك

ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل ما فعله من المهلة غيلة ، ٧٧ ب لا أنه صادق في ذلك ، وإنما قصد به تدفيع الزمان ، وظهرت لذلك / مخائل كثيرة من الحرص في تحصيل الميرة واتقان الأبواب وغير ذلك ، فرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكان ويكون بمراى منه ، يمنع من دخول نجدة وميرة إليه وأظهر أن سبب ذلك شدة حمو الزمان ، والفرار من وخم المرج ، وكان انتقاله إلى سطح الجبل ليلة الجمعة ثاني عشر جمادى الآخرة ، وقد مضى من الليل ربه ، فما أصبح صاحب الشقيف إلا والخيمة مضروبة ، وبقي بعض

العسكر بالمرج على حاله ، فلما رأى صاحب الشقيف قرب العسكر منه ، وعلم أنه قد بقى من المدة بقية جمادى الآخرة حدثته نفسه أنه ينزل إلى خدمة السلطان ويستعطفه ، ويستزيده فى المدة ، وتخايل له بما رأى من أخلاق السلطان ولطافتها أن ذلك يتم ، فنزل إلى الخدمة ، وعرض المكان ، وقال : المدة لم يبق منها إلا اليسير ، وأى فرق بين التسليم اليوم أو غداً ^(١) ، ومن المصلحة أن يبعث السلطان من يتسلم المكان ^(٢) ، وأظهر أنه بقى من أهله جماعة بصور ، وأنهم على الخروج منها فى هذه الأيام .

وأقام فى الخدمة ذلك اليوم إلى الليل ، وعاد صاعداً إلى القلعة ولم يُظهر له / السلطان شيئاً ، وأجراه على قاعدته ^(٣) ومقتضى مدته ، ثم عاد ونزل بعد ٧٨ أ أيام وقد قرب انتهاء المدة والفراغ منها ، وطلب الخلوة بالسلطان ، وسأل منه أن يمهله تمام السنة تسعة أشهر ، فأحسن السلطانُ منه بالغدر ، فمأطله وما آيسه ، وقال :

« نفكر فى ذلك ، ونجمع الجماعة ونأخذ رأيهم ، وما ينفصل الحال عليه نعرفك » وضرب له خيمة قريبة من خيمته ، وأقام عليه حرساً لا يشعر بهم وهو على غاية من الإكرام والاحترام له والمراجعة والمراسلة بينهم فى ذلك الفن مستمرة حتى انقضت الأيام ، وطولب بتسليم المكان ، فكشف له أنك أضمرت الغدر ، وجددت فى المكان عمائر ، وحملت إليه ذخائر ، فأنكر ذلك ، واستقرت القاعدة على أن ينفذ من عنده ثقته ، وينفذ السلطان ثقته ليتسلم المكان ، وينظر هل تجدد فيه شىء من البناء أم لا ، فمضوا إليه فلم يلتفت أصحابه المقيمون فيه إليهم ، ووجدوه قد جدد باباً للصور لم يكن ، فأقيم الحرس الشديد عليه ، وأظهر ذلك ومنع من الدخول إلى الخدمة ، وقيل له : قد انقضت المدة ولا بد

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٢) م : « عادته وتقضى مدته » .

٧٨ ب من التسليم ، وهو يغلط عن ذلك ويدافع عن الجواب عنه ^(١) ثم عاد وأنفذ إليهم صاحبه / يأمرهم بالتسليم ، فأظهروا له العصيان عليه ، وقالوا : نحن نواب المسيح لا نوابك ، فاحتيط على الحصن ، وأقيم عليه من خارجه يرك يحفظ الداخل إليه والخارج منه ^(١) .

ولما كان الأحد ثامن عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وثمانين وفيه اعترف هو بانتهاء المدة ^(١) فإنه كان عنده مجاهدة فيما مضى ، قال ^(١) : « أنا أمضى وأسلم المكان » ^(١) فأركب بغلة وسار ^(١) .

وسار معه جمع كثير من الأمراء والأجناد حتى أتى الشقيف ، وأمرهم بالتسليم فأبوا ، وطلب منهم قسيساً ، فخرج إليه ، وحذّثه بلسانه ثم عاد ، واشتد إمتناعهم بعد عود القسيس إليهم ، فظن أنه أكّد الوصية على القسيس في الامتناع ، وأقام ذلك اليوم والحديث يتردد ، فلم يلتفتوا وأعيد إلى الخيم المنصور ، وسير من ليلته إلى بانياس وأحيط عليه في قلعتها وأحرق العسكر بالشقيف مقاتلين ومحاصرين ، وأقام صاحب الشقيف بانياس إلى سادس رجب ، واشتد حنق السلطان على صاحب الشقيف بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره ، ولم يعملوا فيها شيئاً ، فأحضر إلى الخيم ، وهُدّد ليلة وصوله بأمر عزيمة ، فلم يفعل .

٧٩ أ وأصبح السلطان صبيحة الأربعاء ثامن رجب ورقى / إلى سنام الجبل بخيمه ، وهو موضع أشرف على الشقيف من المكان الذى كان فيه أولاً وأبعد عن الوحش ، وكان قد تغيّر مزاجه .

ثم بلغنا بعد ذلك أن الافرنج بصور ومن كان مع الملك قد ساروا نحو

(١) هذه الفقرات كلها ساقطة من (م) .

النواقر يريدون جهة عكا ، وأن بعضهم نزل بالاسكندونة ، وجرى بينهم وبين رجاله المسلمين مناوشة ، وقتل منهم المسلمون نفراً يسيراً وأقاموا هناك .

ذكر وقعة عكا - يسر الله فتحها - وسبب ذلك

ولما بلغ السلطان حركة الافرنج إلى تلك الجهة عظم عليه ، ولم ير المسارعة خوفاً من أن يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف لا قصد المكان ، فأقام مستكشفاً للحال إلى ' يوم الأحد ' (١) ثانی عشر رجب ، فوصل قاصداً وأخبر (٢) أن الافرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصة ووصل أوائلهم إلى الزيب (٣) ، فعظم ذلك عنده وكتب إلى سائر أرباب الأطراف يتقدم إلى (٤) العساكر الإسلامية بالمسير إلى المنجم المحروس . وعاد فجدد الكتب والحث . وتقدم إلى الثقل أن سار الليل .

وأصبح هو صبيحة الاثنين (٥) ثالث / عشر سائراً إلى عكا على طريق ٧٩ ب طبرية ، إذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر إلا هو ، وسير جماعة على طريق تبين يستشرفون (٦) العدو ، ويواصلون بأخباره ، وسرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار ، فنزل بها ساعة ، ثم رحل ، وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له : المنية صباح الثلاثاء (٧) الرابع عشر رجب (٨) ، وفيه بلغنا نزول الافرنج على عكا يوم الاثنين ثالث عشر ، وسير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة على سوء صنيعه .

(١) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٢) م : « آخر » .

(٣) الأصل : « الزيت » ، وقد صححت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفها بأنها قرية كبيرة على ساحل بحر الشام قريب عكا ، وقد ذكر .

(Dussaud : Topographie Historique de la Syrie Antique et médiévale P. 17)

بأنها قرية على الشاطئ بين عكا وصور .

(٤) م : « يتقدمون بالعساكر » .

(٥) الكلمتان ساقطتان من (م) .

(٦) م : « يستعلمون » .

وسار هو جريدة من المنية حتى اجتمع ببقية العسكر الذى كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية ، فإنه كان واعدهم إليه وتقدم إلى الثقل أن يلحقه إلى مرج صفورية ، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة ، وبعث بعض العسكر ، ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها ، ولم يزل يبعث إليها بعثا بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير وعدد وافر ، ورثب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا ، وسار من الخروبة ، وكان قد نزل عليها يوم الأربعاء خامس عشر الشهر ، فسار منها حتى أتى تلا يقال له تل كيسان فى أوائل مرج عكا ، فنزل عليه ^(١) وأمر الناس أن ينزلوا به على هذه التعبية ، وكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو ، وآخر الميمنة مقارب تل العياضية ، فاحتاط العسكر الإسلامى المنصور بالعدو المخدول ، وأخذ عليهم الطرق من الجوانب ، وتلاحقت العساكر الإسلامية ، واجتمعت ، ورتب اليّزك الدائم والجاليش فى كل يوم مع العدو ، وحصر العدو فى خيامه من كل جانب ، بحيث لا يقدر أن يخرج منها واحد إلا ويُجرح أو يُقتل .

٨٠ أ وكان معسكر العدو المخدول على / شطر من عكا ، ونخيمة ملكهم على تل المصلين قريبا من باب البلد ، وكان عدد راکبهم ألفى فارس ، وعدد راجلهم ثلاثين ألفا ، وما رأيت من أنقصهم عن ذلك ، ورأيت من حرزهم بزيادة على ذلك ، ومددهم من البحر لا ينقطع ، وجرى بينهم وبين اليّزك مقاتلات عظيمة متواتره ، والمسلمون يتهافتون على قتالهم ، والسلطان يمنهم من ذلك إلى وقته ، والبعوث من عسكر المسلمين تتواصل ، والملوك والأمراء من الأقطار تتتابع ، فأول من وصل الأمير الأجل ^(٢) الكبير مظفر الدين بن زين الدين ، ثم قدم بعده الملك المظفر تقى الدين صاحب حماة ^(٣) فى جحفله ، وتتابع العساكر الإسلامية ^(٣) .

(١) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٢) هذا اللفظ ساقط من (م) .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .

وفي أثناء هذه الحال توفي حسام الدين سنقر الأخلاطى ^(١) بإسهال شديد ^(٢) ، وأسف المسلمون عليه أسفا شديدا ، فإنه كان شجاعا دينيا - رحمه الله - يوم الاثنين سابع عشرى رجب على تل بمرج عكا مشرف على العياضية . ثم إن الأفرنج لما تكاثروا واستفحل أمرهم ، واستداروا بهكا بحيث منعوا بحيث منعوا من الدخول والخروج منها ، وذلك في يوم الخميس سلخ رجب .

ولما رأى السلطان - قدس الله روحه - ذلك عظم لديه ، وضاق صدره ، وثارته همته العالية في فتح ^(٣) الطريق إلى عكا لتستمر السابلة إليها / بالميرة ٨٠ ب والنجدة وغير ذلك ، فأحضر أمراءه وأصحاب الرأي من دولته ، وشاورهم في مضايقة القوم ، وانفصل الحال على أنه يضايقهم مضايقة شديدة بحيث ينفصل أمرهم بالكلية ، وانفتح ^(٤) الباب والطريق إلى عكا ، فباكرهم صبيحة الجمعة مستهل شعبان سنة خمس وثمانين ، وسار مع العسكر وقد رتبته للقتال : ميمنة وميسرة وقلبا ، وضايقهم مضايقة شديدة .

وكانت الحملة بعد صلاة الجمعة اغتناما لدعاء خطباء المسلمين على منابرهم ^(٥) ، وجرت حملات عظيمة وقلبات كثيرة ^(٦) وانتشر عسكر العدو إلى أن ملك التلول ، وكانت ميسرة عسكرهم إلى النهر الحلو آخذة إلى البحر ، وميمنتهم قبالة القلعة الوسطى التى لعكا ^(٧) ، واتصل الحرب إلى أن حال بين الفئتين هجوم الليل ، وبات الناس على حالهم من الجانبين ، شاكين في ^(٨) السلاح ، تحرس كل طائفة نفسها من الطائفة الأخرى ^(٩) إلى أن أصبح صباح السبت ثانى شعبان ^(١٠) .

(١) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٢) م : « وفتح الطريق » .

(٣) م : « ويفتح » .

(٤) م : « الخطباء على المنابر » .

(٥) هذه الفقرة كلها ساقطة من (م) .

(٦) م . « شاكى السلاح » .

(٧) هذه الجملة ساقطة من (م) .

ذكر فتح الطريق إلى عكا

ولما كانت صبيحة السبت أصبح الناس على القتال ، وأنفذ السلطان طائفةً من شجعان المسلمين إلى البحر من شمالي عكا ، ولم يكن هنا للعدو خيم ، لكن عسكره كان قد امتدَّ جريدة ^(١) شمالي عكا ^(٢) / إلى البحر ، فحمل ^(٣) شجعان المسلمين على عسكر الفرنج الواقف على شمالي عكا فانكسروا بين أيديهم كسرةً عظيمة ، وقتلوا منهم جمعا كثيرا ، وانكف السالمون منهم إلى خيامهم ، وهجم المسلمون خلفهم إلى أوائل خيامهم ^(٤) ووقف اليزك الإسلامي مانعا من أن يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل إليه داخل ^(٥) ، وانفتح الطريق إلى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك إلى باب قراقوش - الذي جدده - ، وصار الطريق مهيعًا يمر فيه السوق ومعه الحوائج ، ويمر به الرجل الواحد والمرأة ، واليزك بين الطريق وبين العدو .

ودخل السلطان - رحمه الله - في ذلك اليوم إلى عكا ، ورقى على السور ، ونظر إلى عسكر العدو من تحت السور ، وفرح المسلمون بنصر الله ^(٦) ، وخرج العسكر الذي كان بها في خدمة السلطان ؛ واستدار العسكر الإسلامي حول العسكر ^(٧) الأفرنجي ، وأحذقوا به من كل جانب .

ولما استقرَّ ذلك تراجع الناس عن القتال ، وذلك بعد صلاة ^(٨) الظهر ، لسقى الدواب ، وأخذ الراحة ، وكان نزولهم على أنهم إذا أخذوا حظًا من الراحة عادوا إلى القتال لمناجزة العدو بالكلية لما أخذهم منهم من الطمع ^(٩) وضاق

(١) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٢) م : « فحملوا عليهم » .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٤) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٥) هذه الكلمة ساقطة من (م) .

(٦) م : « لمناجزة القوم وضاق الوقت » .

الوقت في ذلك اليوم ، وأخذ الضجر والتعب من الناس ، فلم يرجعوا إلى القتال في / ذلك اليوم ، وبات الناس على أنهم يصبحونهم بكرة الأحد إلى القتال ، ٨١ ب رجاء المناجزة بالكلية ، واحتوى ^(١) العدو في خيامه بحيث لم يظهر منهم أحد .

ولما كانت بكرة الأحد ثالث شعبان تعبى الناس للقتال ، وأحدقوا بالعدو ، وعزموا على مهاجمة القوم ، وعلى أن يترجل الأمراء ومعظم العسكر ، ويقاتلوا العدو في خيامه ، فلما تهيأوا لذلك رأى بعض الأمراء تأخير ذلك إلى بكرة الاثنين رابع شعبان ، وأن يدخل الراجل كله إلى داخل عكا ، ويخرجوا مع العسكر المقيم بالبلد من أبواب البلد على العدو من ورائه ، وتركب العساكر الإسلامية من خارج من سائر الجوانب ، ويحملوا حملة الرجل الواحد ، والسلطان يعانى ^(٢) هذه الأمور بنفسه ويصافحها ^(٣) بذاته ، لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات ، وهو من شدة حرصه ووفور همته كالوالدة الشكلى .

ولقد أخبرنى بعض أطبائه أنه بقى من يوم الجمعة إلى يوم الأحد المذكور لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً - لفرط اهتمامه - ، وفعلوا ما كان عزموا عليه ، واشتدت منعة العدو ، وحصى نفسه في خيامه ، ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفائس ، وتمطر سماء حربها الرؤوس من كل رئيس ومترائس ، حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان .

٨٢ أ

ذكر / تأخر الناس إلى تل العياضية

ولما كان يوم الجمعة ثامن شعبان ^(٤) عزم العدو على الخروج بجمعهم ، فخرج راجلهم وفارسهم ، وامتدوا على التلول ، وساروا الهويينا غير مفرطين في

(١) م : « واختفى العدو في خيامهم » .

(٢) م : « يرال » .

(٣) م : « ويكافحها » .

(٤) م : « ولما كان الثامن عزم .. الخ » .

نفوسهم ، ولا خارجين من راجلهم ، والرجالة حولهم كالسور المبنى ، يتلو بعضهم بعضا ، حتى قاربوا خيام اليزك .

ولما رأى المسلمون ذلك وإقدام العدو عليهم تداعت ^(١) الشجعان ، وتنازلت الكمأة إلى الأقران ، وصاح السلطان - قدس الله روحه - بالعساكر الإسلامية :

- « يا للإسلام ... » .

فركب الناس بأجمعهم ، ووافق راجلهم فارسهم وشائبهم شيخهم ، وحملوا حملة الرجل الواحد على العدو المخدول ، فعاد ناكصاً على عقبيه ، والسيف يعمل فيهم ، والسالمة منهم جريح ، والعاطب طريق ، مشتدون هزيمة ، يعثر ^(٢) جريحهم بقتيلهم ، ولا تلوى الجماعة منهم على قبيلهم ^(٣) ، حتى لحق بخيامهم من سلم منهم ، وانكفوا عن القتال أياما ، وكان قصاراهم ^(٤) أن يحفظوا نفوسهم ، ويحرسوا رؤوسهم .

واستمر ^(٥) فتح طريق عكا ، والمسلمون يترددون إليها .

وكنث ممن دخل ، ورقى على السور ، ورمى العدو بما يسر الله تعالى من فوق السور .

ودام القتال بين الفئتين متصلاً الليل مع النهار حتى كان الحادى عشر من شعبان .

٨٢ ب ورأى / السلطان توسيع الدائرة عليهم ، لعلهم يخرجون إلى مصارعهم ،

(١) م : « عليها شدوا وتنازعت الشجعان » .

(٢) م : « يعبر » .

(٣) م : « قتلهم » .

(٤) م : « وكان رأيهم » .

(٥) م : « واستقر » .

فنقل الثقل إلى تل العياضية وهو تل قبالة تل المصلين ، مشرف على عكا وخيام العدو .

وفي هذه المنزلة توفي حسام الدين طمان ، وكان من شجعان المسلمين - رحمه الله - ^(١) ودُفن في سطح ^(٢) هذا التل ، وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان ، وقد مضى من الليل هزيع ، رحمه الله .

ذكر وقعة جرت للعرب مع العدو

وكان سبب ذلك أنه بلغنا أن جمعاً من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه ، فأكمن السلطان لهم جماعة من العرب ، وقصد العرب لحقتهم على خيلهم وأمنه عليهم ، فخرجوا ولم يشعروا بهم ، فهجموا عليهم ، وقتلوا منهم خلقاً عظيماً ، وأسروا جماعة ، وأحضروا رؤوساً عدة بين يديه ، فخلع عليهم ، وأحسن إليهم وكان ذلك في يوم السبت سادس عشر شعبان .

وفي عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيم قُتل فيه جمع عظيم من الطائفتين ، فطال الأمر بين الفتتين ، وما يخلو يوم عن جرح وقتل / وسبى ونهب ، وأنس البعض بالبعض بحيث أن كانت الطائفتان تتحدثان وتتركان القتال ، وربما غنى البعض ورقص البعض ، لطول المعاشرة ، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة .

(١) م : وكان من الشجعان .

(٢) م : سطح .

نادرة في هذه الواقعة ^(١)

وذلك أنه كان الرجال يوما من الطائفتين قد سعموا من القتال فقالوا ^(٢) : « إلى كم يتقاتل الكبار ، وليس للصغار حظ ، نريد أن يصطرع ^(٣) صبيان : صبي منا وصبي منكم » ^(٤) .

فأخرج الصبيين من البلد إلى صبيين من الافرنج ، واشتد الحرب بين الصبيان ^(٥) ، فوثب أحد الصبيين المسلمين إلى أحد الصبيين الكافرين فاحتضنه وضرب به الأرض ، وقبضه أسيرًا ^(٦) ، واشتد به ليأخذه ^(٧) فاشتراه منه بعض الافرنج بدينارين ، وقالوا : « هو أسيرك حقًا » فأخذ الدينارين وأطلقه ، وهذه من نواذر القتال ^(٧) .

ووصل للفرنج مركب فيه خيلٌ ، فهرب منها فرسٌ ووقع في البحر ، ولا زال يسبح وهم حوله يردونه حتى دخل مينا عكا ، وأخذه المسلمون .

ذكر المصاف الأعظم على عكا

يسر الله فتحها

وذلك أنه لما كان يوم الأربعاء الحادى عشرين من شعبان تحركت عساكر

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) م : « فقالوا لي كم تقاتل .. إلخ » والمعنى مختلف تمامًا .

(٣) م : « يصارع » .

(٤) م : « صبيان منا ومنكم » .

(٥) م : « بينهم » .

(٦) هذه الألفاظ ساقطة من (م) .

(٧) م : « هذه نادرة غريبة » .

الافرنج حركة لم يكن لهم مثلها عادة ، فارسهم وراجلهم ، وكبيرهم وصغيرهم واصطفوا خارج خيمهم : قلبا وميمنة وميسرة ، وفي القلب / ، الملك وبين ٨٣ ب يديه الأنجيل محمولاً مستوراً بثوب أطلس مغطى ، يمسك أربعة أنفس أربعة أطرافه ، يسرون بين يدي الملك .

وامتدت الميمنة في مقابلة الميسرة التي لعسكر الإسلام من أولها إلى آخرها ، وامتدت ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا إلى آخرها ، وملكوا رؤوس التلال ، وكان طرف ميمنتهم إلى النهر ، وطرف ميسرتهم إلى البحر .

وأما العسكر الإسلامي المنصور فإن السلطان ^(١) لما بصر بالقوم ^(٢) أمر الجاويش أن ينادى في الناس :

« يا للإسلام ، وعساكر موحدين »

فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة ، وامتدت الميمنة إلى البحر ^(٣) كل قوم يركبون ويقفون بين يدي خيامهم ^(٤) ، والميسرة إلى النهر كذلك أيضا . وكان - رحمه الله - قد أنزل الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلبا ، تعبئة الحرب ، حتى إذا وقعت نصيحة لا يحتاجون إلى تجديد ترتيب ، وكان هو في القلب ، وفي ميمنة القلب ولده الملك الأفضل ، ^(٥) ثم ولده الملك الظافر - عز نصره ^(٦) ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين بن البلكرى ^(٧) ، ثم

(١) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٤) م : « البلكرى » ، وعد ابن واصل : « البلكرى » و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٤) :

« البلكرى »

٨٤ أ عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن - ؛ ثم حسام الدين بن لاجين - صاحب نابلس - ؛ ثم الطواشي قايماز النجمي ، وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة ، وكان في / طرفها الملك المظفر تقي الدين بحفله وعسكره ، وهو يطل على البحر .

وأما أوائل الميسرة : فكان مما يلي القلب سيف الدين علي بن أحمد المشطوب^(١) ، من كبار ملوك الأكراد ومقدميهم^(٢) والأمير مجلي ، وجماعة المهرانية والهكارية ، ومجاهد الدين يرتقش^(٣) - مقدم عسكر سنجار - ، وجماعة من المماليك ؛ ثم مظفر الدين بن زين الدين بحفلة وعسكره .

وأواخر الميسرة : كبار المماليك الأسدية ، كسيف الدين يازكج ، ورسلان بُغا ، وجماعة الأسدية والذين يُضرب بهم المثل . وفي مقدّم القلب الفقيه عيسى وجمعه . هذا والسلطان يطوف على الأطلاب بنفسه يحثّهم على القتال ، ويدعوهم إلى النزال ، ويرغبهم في نصرة دين الله .

ولم يزل القوم يتقدمون ، والمسلمون يقدمون ، حتى علا النهار ، ومضى منه مقدار أربع ساعات ، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين ، فأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجرى بينهم قليات كثيرة ، وتكاثروا على الملك المظفر - وكان في طرف الميمنة على البحر - ، فتراجع عنهم شيئاً ، إطماعاً لهم ، لعلهم يبعدون عن أصحابهم ، فينال منهم غرضاً ، فلما رآه السلطان قد تأخر^(٣) ظنّ به ضعفاً ، فأمدّه بأطلاب عدة من القلب حتى قوى جانبه ، ٨٤ ب وتراجعت ميسرة / العدو ، واجتمعت على تل مشرف على البحر .

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٢) م : « يرتقش » .

(٣) م : « فلما رأى السلطان ذلك ظن ... إلخ » .

ولما رأى الذين فى مقابلة القلب ضعف القلب من خرج منه من الأطلاب
دأخلهم الطمع ، وتحركوا نحو ميمنة القلب ، وحملوا حملة الرجل الواحد ،
راجلهم وفارسهم ، ولقد رأيتُ الرجالَ تسير سير الخيالة ولا يسبقونها ، وهم
يسوقون خبيبا ^(١) .

وجاءت الحملة على الديار بكريه - كما يشاء الله تعالى - وكان بهم غرة
عن الحرب ، فتحركوا بين يدى العدو وانكسروا كسرة عظيمة ، وسرى الأمر
حتى انكسر معظم الميمنة ، واتبع العدو المنهزمين إلى العياضية ، فإنهم استداروا
حول التل ، وصعد طائفة من العدو إلى خيم ^(٢) السلطان ، فقتلوا طست در ^(٣)
كان هناك .

وفى ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكبس ، وابن رواحة رحمهما الله .
وأما الميسرة ، فإنها ثبتت فإن الحملة لم تصادفها .

وأما السلطان فأخذ يطوف [على] الأطلاب فينهضهم ، ويعددهم الوعود
الجميلة ، ويحثهم على الجهاد ، وينادى فيهم : « ياللاسلام » ، ولم يبق معه
إلا خمسة أنفس ، وهو يطوف على الأطلاب ، ويتجاوز ^(٤) الصفوف ، وأوى
إلى تحت التل الذى كان عليه الخيام .

وأما المنهزمون من العسكر فإنه بلغت هزيمتهم إلى القحوانة ، قاطع جسر

(١) م : « الخيالة وهم يسبقون حيناً » ، وهى قراءة خاطئة تشبه المعنى .

(٢) م : « خيمة » .

(٣) الطشت لفظ عامى ، وصوابه الطشت ، وهو معروف عن اللفظ الفارسى « تست » ، والطشت
دار : أحد الغلمان المشرفين على الطشت خاناه ، وهى كما عرفها (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ،
ص ١٠ - ١١) « بيت الطشت ، سميت بذلك لأن فيها يكون الطشت الذى تغسل فيه الأيدي ، والطشت
الذى يغسل فيه القماش السلطاني ... وفيه ما يلبسه السلطان من الكلوة والأقبية وسائر الثياب ، والسيف
والخف والسرمرور .. إلخ » انظر كذلك (نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٤٦٩) و (محيط المحيط) .

(٤) م : « ويحرق » .

٨٥ أ طبرية ، وأمّ منهم قومٌ إلى محروسة دمشق ، فأما المتبعون لهم فإنهم اتبعوهم /
[إلى] العياضية ، فلما رأوهم قد صعدوا الجبل رجعوا عنهم ، وجاءوا عائدين
إلى عسكرهم ، فلقبهم جماعة من الغلمان والخرنيدية والساسة منهزمين على بغال
الحمل ثم جاءوهم فقتلوا جماعة ، وقتل منهم جماعة ، فإن السوق كان فيه خلق
عظيم ، ولهم سلاح .

وأما الذين صعدوا [إلى] الخيام السلطانية فإنهم لم يلتمسوا فيها شيئاً
أصلاً سوى أنهم قتلوا مَنْ ذكرناه ، وهم ثلاثة نفر ، ثم رأوا ميسرة الإسلام
ثابتة فعلموا أن الكسرة لم تتم ^(١) ، فعادوا منحدرين من التل يطلبون
عسكرهم .

وأما السلطان - رحمة الله عليه - فإنه كان واقفاً تحت التل ومعه نفرٌ
يسير ، وهو يجمع الناس ليعودوا إلى الحملة على العدو ، فلما رأى الافرنج نازلين
من التل أرادوا لقاءهم ، فأمرهم بالصبر إلى أن ولّوا ظهورهم ، واشتدوا يطلبون
أصحابهم ، فصاح في الناس ، وحملوا عليهم ، وطرحوا منهم جماعة ، فاشتد الطمع
فيهم ، وتكاثر الناس وراءهم حتى لحقوا أصحابهم ، والطرده وراءهم ، فلما رأوهم
منهزمين والمسلمون وراءهم في عدد كثير ظنوا أن مَنْ حمل منهم قد قُتل ، وأنهم
إنما نجا منهم هذا النفر فقط ، وأن الهزيمة قد عادت عليهم ، فاشتدوا في الهرب
والهزيمة ، وتحركت الميسرة عليهم .

٨٥ ب وعاد الملك المظفر بجمعه / من الميمنة ، وتحايت الرجال وتداعت ، وتراجع
الناس من كل جانب وكذب الله الشيطان ، ونصر الإيمان ، وظلّ الناس في قتل
وطرح ، وضرب وجرح ، إلى أن اتصل المنهزمون المسلمون إلى عسكر العدو ،
فهجم المسلمون عليهم في الخيام ، فخرج منهم أطلاب كانوا أعدوها - خشية من

(١) م : لا تتم .

[مثل] هذا الأمر - مستريحة ، فردوا المسلمين ، وكان التعب قد أخذ من الناس ، والخوف والعرق قد أجمعهم ، فرجع الناس عنهم بعد صلاة العصر ، يخوضون في القتلى ودمائهم إلى خيامهم ، فرحين مسرورين .

وعاد السلطان في ذلك اليوم إلى خيمته فرحاً مسروراً ، وجلسوا في خيمته يتذكرون ^(١) مَنْ فَقَدَ مِنْهُمْ وكان مقدار مَنْ فَقَدَ من الغلمان والمجهولين مائة وخمسين نفرًا ، ومن المعروفين استشهد في ذلك اليوم ظهير الدين - أخو الفقيه عيسى - ولقد رأيته وهو جالسٌ يضحك ، والناس يعزونه وهو يقول : « هذا يوم الهناء لا يوم العزاء » ؛ وكان هو قد وقع عن فرسه وأركبه ، وقُتل عليه جماعة من أقاربه . وقُتل في ذلك اليوم الأمير مجلى . هذا الذى قُتل من المسلمين .

وأما من العدو المخذول فحُزِرَ قتلهم بسبعة آلاف / نفر ، ورأيتهم وقد حملوا إلى شاطئ النهر ليلقوا فيه ، فحزرتهم بدون سبعة آلاف .

ولما تمَّ على المسلمين من الهزيمة ماتمَّ ، ورأى الغلمان خلو الخيام عمن يعترض عليهم ، فإنَّ العسكر انقسم إلى قسمين منهزمين ومقاتلين ، فلم يبق في الخيم أحدٌ ^(٢) ورأوا الكسرة قد وقعت وظنوا أنها تمَّ ^(٣) ، وأن العدو ينهب جميع ما في الخمر ، فوضعوا أيديهم في الخيام ، ونهبوا جميع ما كان فيها ، وذهب من الناس أموال عظيمة وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعاً .

ولما عاد السلطان إلى الخيم ، ورأى ماقد تمَّ على الناس من نهب الأموال والهزيمة سارع في الكتب والرسل في ردِّ المنهزمين ، وتتبع من شدَّ من العسكر ، والرسل تتتابع في هذا المعنى حتى بلغت عقبة فيق ^(٣) فردوهم وأخبروهم بالكسرة للمسلمين ^(٣) ، فعادوا .

(١) م : « يتذكرون » .

(٢) م : « أحد ورائنا ، فظنوا أن الكسرة تم » .

(٣) م : « وأخذوهم بالكسرة إلى عسكر المسلمين » ، راجع أيضاً : (ابن واصل ، مفرج الكروب ،

ج ٢ ص ٣٠٠) .

وأمر بجميع الأقمشة من أكف الغلمان ، وجمع الأقمشة في خيمته ^(١) حتى جلاّلات الخيل والمخالي - بين يديه في خيمته ، وهو جالسٌ ، ونحن حوله ، وهو يتقدم إلى كل مَنْ عرف شيئا وحلف عليه يُسلم إليه ، وهو يلتقي هذه الأحوال بقلب صلب ، وصدر رحب ، ووجه مبسوط ، ورأى مستقيم غير مختبط ، واحتساب لله تعالى ، وقوة عزم في نصرة دين الله .

٨٦ ب / وأما العدو المخدول فإنه عاد إلى خيمه وقد قتلت شجعانهم ، وطُرحت مقدموهم ، وفُقدت ملوكهم ، فأمر السلطان أن يخرج من عكا عجل يسحبون [عليه] القتلى منهم إلى طرف النهر ليلقوا فيه .

ولقد حكى لي بعضُ مَنْ ولى أمر العَجَل أنه أخذ خيطا ، وكان كلما أخذ قتيلا عقد عقدةً ، فبلغ عددُ قتلى الميسرة إلى أربعة آلاف ومائة وكسر ^(٢) ، وبقي قتلى الميمنة وقاتلى القلب لم يعدُّهم فإنه ولى أمرهم غيره ، وبقي من العدو بعد ذلك مَنْ حمى نفسه ، وأقاموا في مخيمهم لم يكثرثوا بحفاظ المسلمين وعساكرهم ، وشدَّت ^(٣) من عساكر المسلمين خلقٌ كثير بسبب الهزيمة ، فإنه مارجع منها إلا رجل معروف يخاف على نفسه ، والباقون هربوا في حال سبيلهم . وأخذ السلطان - رحمه الله - في جمع الأموال المنهوبة وإعادتها إلى أصحابها ، وأقام المنادية ^(٤) في العساكر ، وقرَن النداء بالوعيد والتهديد ، وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه ، واجتمع من الأقمشة عدد كثير في خيمته ، حتى إن الجالس في أحد الطرفين لا يرى الجالس في الطرف الآخر ، وأقام من ينادى على من ضاع منه [شيء] ، فحضر الخلق وصار مَنْ عرف شيئا وأعطى / علامته حلف

(١) م : « وأمر بجمع الأقمشة من أكف الغلمان إلى خيمته » .

(٢) م : « وكسر » .

(٣) م : « وتشتت » .

(٤) م : « المناداة » .

عليه وأخذه من الجبل ^(١) والمخللة إلى الهميان والجوهرة ، ولقى من ذلك مشقة عظيمة ، ولا يرى ذلك إلا نعمة من الله تعالى يشكر عليها ويسابق بيد القبول إليها ، ولقد حضرت يوم تفرقة الأقمشة على أربابها ، فرأيت سوقاً للعدل قائمة لم يُر في الدنيا أعظم منها ، وكان ذلك في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان . وعند انقضاء هذه الواقعة وسكون نائرتها أمر السلطان بالثقل ، حتى تراجع إلى موقع يقال له الخروبة ، خشيةً على العسكر من أرايح ^(٢) القتلى وآثار الواقعة من الوحش ، وهو موضع قريب من مكان الواقعة ، إلا أنه أبعد عنها في المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل ، وضربت له خيمة عند الثقل ، وأمر اليزك أن يكون مقيماً في المكان الذي كان نازلاً فيه ، وذلك في يوم الخميس تاسع عشرين شعبان . واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سلخ الشهر ، ثم أمرهم بالإصغاء إلى كلامه ، وكنث من جملة الحاضرين ، ثم قال : بسم الله والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، اعلّموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلدنا ، وقد وطىء أرض الإسلام ، وقد لاحت ^(٣) لوايح النصره عليه إن شاء الله تعالى ، وقد / بقى في هذا الجمع اليسير ؛ ولا بد من الاهتمام بقلعه ، والله قد ٨٧ ب أوجب علينا ذلك ، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا بحدة ننتظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل ، وهذا العدو إن بقى وطال أمره إلى أن يفتح البحر جاءه مددٌ عظيم ، والرأى كل الرأى عندي مناجزتهم ، فليخبرنا كل منكم ما عنده في ذلك . وكان ذلك في ثالث عشر تشرين من الشهور الشمسية ، فامتخضت الآراء ، وجرى تجاذب في أطراف الكلام ، وانفصلت آراؤهم على أن المصلحة تأخير العسكر إلى الخروبة ، وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح ، وترجع نفوسهم إليهم ، فقد أخذ منهم التعب ، واستولى على

(١) م : د الجبل .

(٢) م : د روائح .

(٣) الأصل : د لاح ، والتصحيح عن (م) .

نفوسهم الضجر وتكليفهم أمراً على خلاف ما تحمله القوى لا تؤمن غائلته ،
والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل ^(١) ، والخيل قد ضجرت
من عرك اللجم ، وسأمت نفوسها ذلك ، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع
نفوسها إليها ، ويصل الملك العادل ، ويشاركنا في الرأي والعمل ، ونستعيد من
شد من العساكر ، وتجمع الرجالة ليقفوا في مقابلة الرجالة وكان بالسلطان -
رحمه الله - التياث مزاجي ، قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه ، وما عاناه من
التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الأيام ، فوقع به ما قالوه ورآه مصلحة ،
وكان انتقال العسكر إلى الثقل يوم / الاثنين ثالث رمضان وانتقال السلطان -
رحمة الله عليه - تلك الليلة ، وأقام يصلح مزاجه ، ويجمع العساكر ، ويبتظر
أخاه الملك العادل إلى يوم الاثنين عاشر رمضان .

ذكر وصول خبر ملك الألمان

لعمد الله

ولما دخل رمضان من شهور سنة خمس وثمانين وخمسة واصل من جانب
حلب المحروسة كتب من ولده الملك الظاهر ، يخبر فيها أنه قد صبح أن ملك
الألمان خرج إلى القسطنطينية في عدة عظيمة ، قيل : مائتا ألف ، وقيل : مائتان
وستون ألفاً ، يريد البلاد الإسلامية ، واشتد ذلك على السلطان - قدس الله
روحه - وعظم عليه ، ورأى استنفار الناس ^(٢) للجهاد ، وإعلام خليفة الوقت
بهذه الحادثة ، فاستندبنى ^(٣) لذلك ، وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار ،
وصاحب الجزيرة ، وصاحب الموصل ، وصاحب إربل ، واستدعائهم إلى الجهاد

(١) م : « الجبل » .

(٢) م : « استسبار » .

(٣) م : « فاستدعاني » .

بأنفسهم وعساكرهم وأمرني بالسير إلى محروسة بغداد لإعلام خليفة الزمان بذلك ، وتحريك عزمه على المعاونة . وكان الخليفة إذ ذاك الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله ، وكان مسيرى في ذلك المعنى في حادى عشر رمضان ، ويسر الله تعالى الوصول إلى الجماعة وإبلاغ الرسالة إليهم ، فأجابوا / بنفوسهم . وسار عماد الدين زنكى - صاحب سنجار - بعسكره ٨٨ ب وجمعه في تلك السنة - وسار ابن أخيه سنجر شاه - صاحب الجزيرة - يجر عسكره وسيّر صاحب الموصل عز الدين ^(١) ابنه علاء الدين خرم شاه بمعظم عسكره ^(٢) وسار صاحب إربل بنفسه وعسكره ^(٣) وحضرت الديوان العزيز ببغداد وأنهى الحال كما رسم ، ووعد كل جميل ، وعدت إلى خدمته - رحمة الله عليه - وكان وصولي إليه في يوم الخميس خامس ربيع الأول من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة وكنث ^(٤) قد سبقت العساكر ، فعرفت باجابتهم بالسمع والطاعة ، وتأهبهم ^(٥) بالسير ، فسّر بذلك ، وفرح فرحاً شديداً .

ذكر وقعة الرمل الذى على جانب نهر عكا

ولما كان صفر من تلك السنة خرج السلطان - قدس الله روحه - يتصيد ، مطمئن النفس ببعد المنزلة عن العدو ، فأوغل في الصيد ، وبلغ ذلك العدو ، فأخذوا غرة العسكر ، واجتمعوا وخرجوا يريدون الهجوم على العسكر الإسلامى ، فأحس بهم الملك العادل - قدس الله روحه - فصاح بالناس ،

(١) هذا الاسم ساقط من (م) .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٣) الأصل : « وكان » ، والتصويب عن (م) .

(٤) م : « وباهتمامهم » .

أ ٨٩ وركبت العساكر من كل جانب ، وحمل على القوم ، وجرت مقتلة عظيمة ، قُتل فيها منهم خلق عظيم وجرح جمع عظيم ^(١) ، ولم يُقتل من معروفى المسلمين إلا مملوك / للسلطان ، استشهد فى ذلك اليوم يدعى أرعشا ^(٢) ، وكان رجلاً صالحاً - رحمه الله - وبلغ الخبر السلطان - رحمه الله - فعاد منزعجاً ، فوجد الحرب قد انفصل وعاد كل فريق إلى حربه ، وعاد العدو خائباً خاسراً ، والله الحمد والمنة ^(٣) وهذه الواقعة لم أحضرها فإني كنت مسافراً ^(٤) ، وما مضى من الوقعات شاهدت منها ما يشاهده مثلى ، وعرفت ^(٥) الباقي مثل ما يعرفه الحاضر فى هذه الأمور ^(٦) .

ذكر وفاة الفقيه عيسى

رحمه الله

وهى مما بلغنى ولم أكن حاضرها ، وذلك أنه مرض مرضاً كان يتعاهده وهو ضيق ^(٥) النفس ، وعرض له إسهال فأضعفه ، ولم يقطع صلاة ^(٦) ولم يغب ذهنه عنه إلى أن مات - ^(٧) على ما بلغنى ممن حضره ^(٧) - وكان رحمه الله كريماً ، شجاعاً حسن المقصد ^(٨) كثير الغرام بقضاء حوائج المسلمين توفى - رحمه الله تعالى - طلوع فجر الثلاثاء تاسع ذى القعدة من شهر سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، رحمه الله .

-
- (١) النص فى م : « قتل وجرح بينهما منهم خلق عظيم » .
 (٢) م : « أرغش » .
 (٣) هذه الجملة ساقطة من (م) .
 (٤) النص فى م : « وعرفت الباقي معرفة خاصة فى هذه الأمور » .
 (٥) م : « وضعيف النفس » .
 (٦) م : « فلم تقطع صلواته » .
 (٧) هذه الجملة ساقطة من (م) .
 (٨) هذا اللفظ ساقط من الأصل ، وقد أضيف عن (م) .

نادرة

ومن نوادر هذه الواقعة أن مملوكا كان للسلطان يدعى سراسنقر ^(١) ، وكان شجاعاً قد قُتل من أعداء الله خلقاً عظيماً ، وفتك فيهم ، فأخذوا في قلوبهم من نكايته فيهم ، ^(٢) فمكروا به ^(٣) ، وتجمعوا له ، وكمنوا له ، وخرج إليه بعضهم ، وتراءوا له ، فحمل عليهم حتى صار بينهم ، ووثبوا عليه من سائر جوانبه ، فأمسكوه / وأخذ واحدٌ بشعره ^(٤) وضرب الآخر رقبتَه بسيفه ، فإنه ٨٩ ب كان قتل له قريباً ^(٥) فوقعت الضربةُ في يد الماسك بشعره فقطعت يده ، وخلَّى عن شعره ، فاشتد هارباً حتى عاد إلى أصحابه ، وأعداء الله يشتدون عدوا خلفه ، فلم يلحقه منهم أحد ، وعاد سالماً ، والله الحمد ، ٥ وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم ، لم ينالوا خيراً ٥ .

ذكر تسليم الشقيف

سنة ست وثمانين وخمسمائة

ولما كان يوم الأحد خامس عشر ربيع الأول علم الفرنج المستحفظون بالشقيف أنه لا عاصم لهم من أمر الله ، وأنهم إن أخذوا عنوة ضُربت رقابهم فطلبوا الأمان ، وجرت مراجعات كثيرة في قاعدة الأمان ، وكانوا قد علموا من حال صاحبهم أنه قد عُدِّب أشد العذاب ، فاستقرت القاعدة على أن الشقيف يُسلم ، ويُطلق صاحبه وجميع من فيه من الفرنج ، ويُترك ما فيه من أنواع الأموال

(١) م : « قره سنقر » .

(٢) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٣) النص في م : « فأمسك واحد منهم يشعره » .

(٤) م : « أقرباء » .

والذخائر^(١) ، فُتْسَلِمَ في التاريخ المذكور . وكان الحديث قد جرى مرارا حتى استقرت القاعدة في التاريخ المتقدم^(٢) ، وعاد صاحب صيدا والفرنج الذين كانوا بالشقيف إلى صور ، ولما رأى السلطان - رحمة الله عليه - اهتمام الفرنج من أقطار بلادهم بالمكان ، وتصويب سهام^(٣) عزائمهم نحوه ، أغتنم الشتاء / وانقطاع البحر ، وحصل في عكا من المير والذخائر والعدد والرجال ما أمن معه عليها مع تقدير الله تعالى ، وتقدم إلى النواب بمحروسة مصر أن عمروا لها أسطولا^(٤) عظيما يحمل خلقا كثيرا ، وسار حتى دخل عكا مكايذة^(٥) للعدو ومراغمة له ، وأعطى العساكر دستورا في تلك السنة طول الشتاء ، ليستجمعوا ويستريحوا ، وأقام هو - رحمه الله - مع نفر يسير قبالة العدو ، وقد حال بين العسكرين شدة الوحول ، وتعذر عليهم بسبب ذلك وصول بعضهم إلى بعض .

طريقة

كان لما بلغ خبر العدو قصده عكا جمع الأمراء وأصحاب الرأي بمرج عيون ، وشاورهم فيما يصنع ، وكان رأيهم - رحمه الله - أنه قال : « المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول على البلد ، وإلا إن نزلوا جعلوا الرجالة سورا لهم وحفروا الخنادق ، وصعب علينا الوصول إليهم ، وخيف على البلد منهم » . وكانت إشارة الجماعة : « أنهم إذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعناهم في يوم واحد » . وكان الأمر كما قال السلطان - رحمه الله - والله لقد سمعتُ منه هذا القول ، وشاهدتُ الفعل كما قال رحمه الله ، وهذا يوافق معنى قوله ﷺ :

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٢) هذا اللفظ ساقط من (م) .

(٣) انظر ما فات هنا ص ٨٤ ، هامش ١ .

(٤) م : « مكابرة » .

« إن من أمتي لمحدثين ومكلمين وإن عمر لنهم » . ولم يزل السلطان - رحمه الله - مجدا في الإنفاذ إلى عكا / بالمير والعدد والأسلحة والرجال حتى انقضى ٩٠ ب الشتاء ، وانفتح البحر ، وحن زمان القتال ، فكتب إلى العساكر يستدعيها من الأطراف . ولما تواصل أوائل العسكر ، وقوى جيش الإسلام ، رحل السلطان - رحمه الله عليه - نحو العدو ، فنزل بتل كيسان ، وذلك في ثامن عشر ربيع الأول من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة ، ورثب العسكر قلبا وميمنة وميسرة ، وكان أول الميمنة ولده الملك الأفضل ، وأخذت العساكر في التواصل ، والنجد في التواتر ، فوصل رسول الخليفة .

ذكر وصول رسول الخليفة

ولما كان يوم الإثنين سادس عشر ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسمائة وصل رسول بغداد ، وهو شاب شريف ، وصل معه حملان من النفط ، وجماعة من النفطين الزرقاين ^(١) ، ووصل معه رقعة من الديوان العزيز النبوي - مجده الله تعالى يتضمن الإذن للسلطان - رحمه الله عليه - في أن يقترض عشرين ألف دينار من التجار ^(٢) ينفقها في الجهاد ، ويحيل بها على الديوان العزيز ، فقبل جميع ما وصل مع الرسول ، واستغنى ^(٣) عن الرقعة والتثقيب بها ، رحمه الله عليه . وفي ذلك اليوم بلغ السلطان - رحمه الله - أن

(١) الزرقاق - والجمع زرقاقون - هو الذي يرمى النفط من الزرقاة ، وهي أنبوبة خاصة يزرقي بها النفط (Dozy : Supp. Dict Arab) ، وجاء في النعماني : (الجندية في الدولة العباسية ، ص ١٥٤) أن النفط كان يرسل من أنابيب تجعل في السفن ، وتعرف في اليونانية باسم « سيفونية » ، وتسمى عند العرب بالزرقاقات ، تنبعث منها نار النفط بارعاد ودخان شديد فتحرق السفن .

(٢) أضيف هذان اللفظ عن (م)

(٣) م . « واستغنى » .

٩١ أ الفرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه ، فركب / إليهم ليشغلهم بالقتال عن البلد ، فركب وقاتلهم قتالا شديداً إلى أن فصل بين الطائفتين الليل ، وعاد كل فريق إلى أصحابه . ورأى السلطان - رحمة الله عليه - قوة العساكر الإسلامية ، ورأى بُعد المكان عن العدو ، فخاف أن يُهجم البلد ، فتمَّ عليه أمر ، فرأى الانتقال إلى تل العجول بالعسكر والثقل بالكلية . وكان الانتقال إليه في الخامس والعشرين من ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسمائة . وفي صبيحة هذا اليوم وصل من البلد عوام معه كتب^(١) تتضمن أنه قد طمَّ العدو بعض الخندق ، وقد قوى عزم العدو على منازلة البلد ومضايقته ، فجدد الكتب إلى العساكر بالحث على الوصول ، وعبأ العساكر تعبئة القتال ، وزحف إلى العدو ليشغله عن ذلك .

ذكر وصول الملك الظاهر ولده

رحمه الله

ولما كانت سحرة^(٢) ليلة الجمعة سابع عشر ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسمائة وصل ولده الملك الظاهر - رحمه الله - غياث الدين غازي - صاحب حلب - جريدة إلى خدمته - قدس الله روحه - معاجلة للبر ، وترك عسكره في المنزل ، وخدم والده ، وبلى شوقه منه ، وعاد إلى عسكره سحرة السبت ثامن عشرين منه^(٣) ، وسار بهم حتى وصل في ذلك اليوم بمحفلة ،
٩١ ب وقد أظهر الزينة ، ولبسوا / لأمة^(٤) الحرب ، ونشرت^(٥) الأعلام والبيارق ، وضربت الكوسات^(٦) ، ونعرت البوقات ، وعرض بين يدي والده - رحمه

(١) النص في م : « وصلت كتب تتضمن » .

(٢) م : « ولما كان سحر » .

(٣) م : « في الثامن والعشرين » .

(٤) انظر مافات هنا ص ٨٨ ، هامش ١ .

(٥) م : « وكثرت » .

(٦) انظر مافات هنا ص ٢٠ ، هامش ٣ .

الله عليه - وقد ركب إلى لقائه في المرج ، وسار بهم حتى وقف بهم على العدو ، وشاهدوا من جند الله ما أزعجهم وأقلقهم . وفي أواخر ذلك اليوم قدم مظفر الدين بن زين الدين جريدة أيضا ، مسارعة للخدمة ، ثم عاد إلى عسكره ، وقدم معه في يوم الأحد في لأمة الحرب ، فعرضهم السلطان - رحمة الله عليه - وسار بهم حتى وقف بهم على العدو ، وعادوا إلى منزلتهم . وكان - رحمه الله - ما يقدم عسكر إلا ويعرضهم ، ويسير بهم إلى العدو ، وينزل بهم في خيمته ، ويمد لهم الطعام ، وينعم عليهم بما تطيب به قلوبهم إذا كانوا أجنب ، ثم تُضرب خيامهم حيث يأمر ، وينزلون بها مكرمين .

لطيفة تدل على سعادة ولده الملك الظاهر رحمه الله وقدس روح والده

وذلك أن العدو كان قد اصطنع ثلاثة أبرجة ^(١) من خشب وحديد وألبسها الجلود المسقاة بالخل على ما ذكر بحيث لا تنفذ فيها النيران ، وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال نشاهدها من مواضعنا عالية على أسوار البلد ، وهي مركبة / على عجل ، يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر على ما قيل ، ويتسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق ، وكان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين وأودعها من الخوف على البلد ما لا يمكن شرحه ، وآيس الناس من البلد بالكلية ، وتقطعت قلوب المقاتلة فيه ، وكان قد فرغ عملها ، ولم يبق إلا جرّها إلى قريب السور . وكان السلطان قد أعمل فكره في إحراقها وإهلاكها ، وجمع الصناع من الزّرايين ^(٢) والنفاطين وباحثهم في الاجتهاد ^(٣) في إحراقها

(١) م . د أبراج

(٢) انظر ما فات هنا ص ١١٨ ، هامش ٢

(٣) م . د وحثهم على الاجتهاد

ووعدهم عليه بالأموال الطائلة والعطايا الجزيلة ، وضائق حيلهم عن ذلك ، وكان من جملة مَنْ حضر شاب نحاس دمشقى ، ذكر بين يديه - رحمه الله - أن له صناعة فى إحراقها ، وأنه إن مُكِّن من الدخول إلى عكا ، وحصل له الأدوية التى يعرفها أحرقها ، فحصل له جميع ما طلبه ، ودخل إلى عكا وطبخ الأدوية التى حصلها مع النفط فى قدور من النحاس ، حتى صار الجميع كأنه جمر نار . ولما كان يوم وصول ولده الملك الظاهر - رحمه الله - ولعله كان عقيب وصوله ، ضرب البرج الواحد بِقَدْرٍ ، فلم يكن إلا أن وقعت فيه واشتعل من ساعته ووقته ، وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذوائبه نحو السماء ، ٩٢ ب فاستغاث المسلمون بالتهليل / والتكبير وغلبهم ^(١) الفرح حتى كادت عقولهم أن تذهب ، وبينما الناس ينظرون ويتعجبون إذ رُمى البرج الثانى بالقدرة الثانية ، فما كان إلا أن وصلت إلهي واشتعلت كالنار قبلها ، فاشتد ضجيج الفتتين وارتفعت الأصوات إلى السماء ، وما كان إلا ساعة حتى ضرب الثالثة ، فالتهب وغشى الناس من السرور والفرح ما حرك ذوى الأحلام والنهى منهم حركة الشباب الرعناء ، وركب السلطان - قدس الله روحه - وركبت العساكر ميمنة وميسرة وقلبا ، وكان أواخر النهار ، وسار حتى أتى عسكر القوم ، وانتظر أن يخرجوا فيناجزهم ، عملاً بقوله ﷺ . من « فُتِحَ له بابٌ خير فلينتهزه » فلم يظهر العدو من خيامهم ، وحال بين الطائفتين الليل ، وعاد كل فريق إلى حربه ، ورأى الناس ذلك ببركة قدوم ولده الملك الظاهر - رحمه الله - واستبشر والده بغرته ، وعلم أن ذلك أثر ^(٢) صلاح سريره ، واستمر ركوب السلطان إلهم فى كل يوم ، وطلب نزالهم وقتلهم وهم لا يخرجون من خيامهم ، لعلمهم بيشائر النصر والظفر بهم ، والعساكر الإسلامية تتواتر وتتواصل .

(١) م : « وعلامم » .

(٢) م : « بين صلاح سريره » .

ذكر وصول عماد الدين زنكى

صاحب سنجار

ولما كان يوم الثلاثاء ثانی عشرين ربيع الآخر وصل عماد الدين زنكى ابن مودود / بن زنكى ، صاحب سنجار یجرُ عسكره ، ووصل بتجمل حسن وعسكر تام ، ولقيه السلطان - رحمة الله عليه ، بالاحترام والتعظيم وتب له العسكر فى لقائه ، فكان أول مَنْ لقيه من العسكر المنصور قضائه وكتابه ، ثم لقيه أولاده بعد ذلك ، ثم لقيه السلطان - قدس الله روحه - ثم سار به حتى أوقفه على العدو ، وعاد معه إلى خيمته ، وأنزله عنده ، وكان صنع له طعاما لائقاً بذلك اليوم ، فحضر هو وجميع أصحابه ، وقدم له من التحف واللطائف ما لا يقدر عليه غيره ، وكان قد أكرمه بحيث طرح له صراحةً مستقلة إلى جانبه ، وبسط له ثوبا أطلس عند دخوله ، وضربت خيمته على طرف الميسرة على جانب النهر .

ذكر وصول معز الدين سنجر شاه (٣)

صاحب الجزيرة

ولما كان يوم الأربعاء سابع جمادى الأولى سنة ست وصل سنجر شاه معز الدين ، وهو ابن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى ، وهو صاحب الجزيرة ، وصل فى عسكر حسن ، وزئى مستحسن ، فلقيه السلطان - قدس الله روحه - واحترمه وأكرمه ، وأنزله فى خيمته ، وأمر أن ضربت له خيمة إلى جانب عمه عماد الدين .

(١) هذا العنوان غير موجود فى (م)

ذكر وصول علاء الدين^(١)

ابن صاحب الموصل

٩٣ ب / وكان وصوله في تاسع جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وخمسمائة وهو علاء الدين خرمشاه^(٢) بن مسعود بن مودود بن زنكى ، وصل نائباً عن أبيه عز الدين مسعود - صاحب الموصل مقدماً على عسكره ، ففرح السلطان - رحمة الله عليه - بقدمه فرحاً شديداً ، وتلقاه عن بعد هو وأهله ، واستحسن أدبه ، واستنجه^(٢) وأنزله عنده في الخيمة ، وكرمه مكارمة عظيمة ، وقدم له تحفاً حسنة ، وأمر بضرب خيمته بين ولديه الملك الأفضل والملك الظاهر ، وما من أهله إلا من بسط له من ضيافته ومكارمته وجهاً وضيئاً .

ذكر وصول الأصطول^(١)

ودخوله إلى عكا

٩٤ أ ولما كان ظهيرة ذلك اليوم - وهو يوم وصول علاء الدين - ظهرت في البحر قلوب كثيرة ، وكان - رحمة الله عليه - في نظره وصول الأصطول من محروسة مصر ، فإنه كان قد أمر بتعميره ووصوله ، فعلم أنه هو ، وركب السلطان - رحمه الله - وركب الناس في خدمته ، وتعباً تعبئة القتال ، وقصد مضايقة العدو ليشغله عن قصد الأصطول ولما علم العدو وصول الأصطول استعد له ، وعمر له أصطولا لقتاله ومنعه من دخول عكا ، وخرج / أصطول العدو واشتد السلطان - رحمة الله عليه - في قتالهم من خارج ، وسار الناس على جانب

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) هذا اللفظ غير موجود في (م) .

البحر تقويةً للأصطول وإيناساً لرجاله ، والتقى الأصطولان في البحر والعسكران في البر ، واضطربت نار الحرب ، واستعرت وباع كل فريق روحه براحته الأخروية ، ورجع حياته الأبدية على حياته الدنيوية ، وجرى بين الأصطولين قتال شديد ، انقشع على نصرة الأصطول الإسلامي - والله الحمد - على عدو الله ، وأخذ منه شاني ^(١) وقتل مَنْ به ونهب جميع مافيه ، وظفر من العدو بمركب أيضاً كان واصلاً من قسطنطينية ، ودخل الأصطول المنصور إلى عكا ، وكان قد صحبه مراكب من الساحل فيها مير وذخائر ، وطابت قلوب أهل البلد بذلك ، وانشرحت صدورهم . فإن الضائقة كانت قد أخذت منهم واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد إلى أن فصل بينهما الليل ، وعاد كل فريق إلى خيمته ، وقد قُتل من عدو الله وجرح في ذلك اليوم خلق عظيم ، فإنهم قاتلوا في ثلاثة مواضع ، فإن أهل البلد اشتدوا في قتالهم ليشغلوهم عن الأصطول أيضاً ، والأصطولان يتقاتلان ، والعسكر من البر يقاتلهم ، وكان النصر بحمد الله للمسلمين في ذلك اليوم في الأماكن كلها .

٩٤ ب

ذكر / وصول زين الدين ^(٢)

صاحب إربل

وكان وصوله في العشر الأخير من جمادى الأولى ، وهو زين الدين بن يوسف زين الدين علي بن بُكْتِكِين ^(٣) - صاحب إربل - قدم بعسكر حسن ، وتجميل جميل ، فاحترمه السلطان - رحمه الله - وأكرمه ، وأنزله في خيمته . وأكثر من ضيافته ، وأمر بضرب خيمته عند أخيه مظفر الدين .

(١) م : « وأخذ من العدو الشواني » وللتعريف بلفظ « شاني » راجع ما فات هنا ، ص ٤٨ ،

هامش ٢ .

(٢) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٣) م : « وهو زين الدين يوسف بن علي بن بكتكين » .

ذكر خبر ملك الألمان

ثم تواصلت الأخبار بوصول ملك الألمان إلى بلاد قليج أرسلان ، وأنه انتهض للقاءه جمعٌ عظيم من التركمان ، وقصدوا منعه من عبور النهر ، وأنه أعجزهم لكثرة خلقه ، وعدم مقدّم لهم يجمع كلمتهم ، وكان قليج أرسلان يُظفر شقاه ، وهو في الباطن قد أضمر وفاقه ، ثم لما عبر إلى البلاد أظهر ما كان أضمره ، ووافقه وأعطاه رهائن معه على أنه ينفذ معه مَنْ يوصله إلى بلاد ابن لافون ، وأنفذ معه أدلةً يدلون به ، وعراهم في الطريق جوع عظيم ^(١) وأعوزهم الزاد ، وقلّ بهم الظهر ^(٢) حتى أنهم ألقوا بعض أقمشتهم ، ولقد بلغنا - والله أعلم - أنهم جمعوا عُدداً كثيرة من زرديات ونحوذ وآلات سلاح عجزوا عن حملها ، وجعلوها بيدرا ^(٣) واحداً ، وأضرموا فيها النار لتتلف ولا ينتفع / بها أحد ، وأنها بقيت بعد ذلك رابية ^(٤) من حديد ، وساروا على هذا الحال حتى وصلوا إلى بلد يقال له طرسوس ، فأقاموا على نهر ليعبروه ، وأن ملكهم الملعون عنّ له أنه سبّح فيه ، وكان مأؤه شديد البرودة ، وكان ذلك عقيب ماناله من التعب والنصب والمشقة والخوف ، وأنه عرض له بسبب ذلك مرضٌ عظيم اشتدّ به إلى أن قتله ، ولما رأى ما حلّ به أوصى إلى ابنه الذي كان في صحبته ولما مات أجمعوا ^(٥) آراءهم على أنهم سلقوه في خلّ ، وجمعوا عظامه في كيس ، حتى ^(٥) يحملوه إلى القدس الشريف ويدفنوه فيه ، وترتب ابنه مكانه على خُلف من أصحابه ، فإن ولده الأكبر كان قد خلفه في بلاده ، وكان جماعةً من أصحابه

(١) هاتان الجملتان ساقطتان من (م) .

(٢) م : « صدرا » ، والبيدر الجُرْن أو المخزن .

(٣) م : « فلا » .

(٤) الأصل : « أرجعوا » ، والتصحيح عن (م) .

(٥) م : « على أن » .

يميلون إليه ، واستقرّ قدمُ ولده الحاضر في مقدمة العسكر ولما أحسَّ ابن لافون بما جرى عليهم من الخلل وما حلَّ بهم من الجوع الموت والخوف والضعف بسبب موت ملكهم ما رأى أن يلقي نفسه بينهم ، فإنه لا يعلم كيف يكون الأمر ، وهم افرنج وهو أرمني ، فاعتصم هو عنه في بعض قلاع المنية .

صورة كتاب الكاغيكوس الأرمني (١)

ولقد وصل إلى السلطان - رحمه الله - كتاب من الكاغيكوس (٢) ، وهو مقدّم الأرمن ، وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات .

نسخة

هذه ترجمته :

/ « كتاب الداعي المخلص الكاغيكوس : مما أطلع به علوم مولانا ومالكننا ٩٥ ب السلطان الناصر جامع كلمة الإيمان ، رافع علم العدل والإحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أدام الله إقباله ، وضاعف جلاله ، وصان مهجته وكاله ، وبلغه نهاية آماله ، بعظمته وجلاله : من أمر ملك الألمان وما جرى له عند ظهوره ، وذلك : أنه أول ماخرج من دياره ، ودخل بلاد الهنكر غصبا ، وغضب ملك الهنكر بالإذعان والدخول تحت طاعته ، وأخذ من ماله ورجاله ما اختار ، ثم إنه دخل أرض مقدّم الروم ، وفتح البلاد ، ونهبها ، وأقام بها وأخلاها ، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه ، وأخذ رهائنه : ولده وأخاه وأربعين نفرا من خلصائه ، وأخذ منه خمسين قنطارا ذهبا وخمسين قنطارا فضة ، وثياب

(١) هذا العنوان غير موجود في الأصل ، وقد أضيف عن (م) .

(٢) م : « الكاغيكوس » .

أطلس مبلغا عظيما ، واغتصب المراكب ، وعاد بها إلى هذا الجانب ، وصحبته
 الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان ، وردَّ الرهائن ، وبقي سائرا
 ثلاثة أيام ، وتركهم الأوج يلقونه بالأغنام والأبقار والخيول والبضائع ، فتدخلهم
 الطمع ، وجمعوا من جميع البلاد ، ووقع القتال بين التركان وبينه ، وضايقوه ثلاثة
 ٩٦ أ وثلاثين / يوماً وهو سائر ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج أرسلان
 العساكر وقصده وضرب معه مصافا عظيما ، فظفر به ملك الألمان ، وكسره
 كسرة عظيمة ، وسار حتى أشرف على قونية ، فخرج إليه جموع عظيمة من
 المسلمين ، فردهم مكسورين ، وهجم قونية بالسيف ، وقتل منها عالما عظيما
 من المسلمين والفرس ، وأقام بها خمسة أيام ، فطلب قليج أرسلان منه الألمان ،
 فأمنه الملك ، واستقرَّ بينهم قاعدة أكيدة ، وأخذ منه الملك رهائن : وعشرين
 من أكابر دولته ، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ،
 ففعل ، وقبل منه . وقبل وصوله إلى هذه البلاد ^(١) نفذ كتابه ورسوله يشرح
 حاله وأين قصده ، وما لقيه في طريقه ، وأنه لابد مجتاز ^(٢) هذه الديار اختيارا
 أو كرها ، فاقتضى الحال إنفاذ المملوك حاتم ، وصحبته ما سأل ، ومعه من الخواص
 جماعة للقاء الملك في جواب كتابه . وكانت الوصية معهم أن يحرفوه ^(٣) على
 بلاد قليج أرسلان إن أمكن ، فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب ،
 وعرفوا الأحوال ، أوى الانحراف ، ثم كثر عليه العساكر والجموع ، ونزل على
 شط بعض الأنهار ، فأكل خبزاً ونام ساعة ، وانتبه ، فتاقت نفسه إلى الاستحمام
 ٩٦ ب في الماء / البارد ^(٤) ، فمكث أياما قلائل ومات . وأما لافون ^(٥) فكان سائرا
 يلقي الملك ، فلما جرى هذا المجرى ، هرب الرسل من العسكر ، وتقدموا إليه ،
 وأخبروه بالحال ، فدخل في بعض حصونه واحتوى هناك .

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٢) م : « أن يمروا به » .

(٣) النص في م : « الاستحمام في الماء البارد ، ففعل ذلك ، وخرج ، وكان من أمر الله أن تحرك

عليه مرض عظيم من الماء البارد فمكث أياما قلائل ومات » .

(٤) م : « ابن لافون » .

وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه إلى قصد هذه الديار نصب ولده الذى معه عوضه وتوطدت قواعده وبلغه هرب رسل ابن ولان فانقذ واستعطفهم وأحضرهم وقال : إن أبى كان شيخا ^(١) كبيرا وإنما قصد هذه الديار لأجل حج بيت المقدس ، وأنا الذى دبرت الملك وعانيت المشاق فى هذه الطريق فمن أطاعنى وإلا بدأت بقصد دياره .

واستعطف ابن لاون واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة فى الجملة هم فى عدد كثير .

ولقد عرض عسكريه فكان ^(٢) اثنين وأربعين ألف مجفجا ^(٣) وأما الرجال فلا يحصى ، عددهم ^(٤) وهم أجناس متفاوتة ، وخلق غريبة ، وهم على قصد عظيم وجد فى أمرهم وسياسة هائلة حتى أن من جنى منهم جناية فليس له جزاء إلا أنه يذبح مثل الشاة .

ولقد بلغهم عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد فى ضربه ، فاجتمعت القسوس للمحكم فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه ، وشفع إلى الملك منهم خلق عظيم . / فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه وقد حرموا الملاذ على أنفسهم حتى أن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجره وعزروه كل ذلك كان حزنا على البيت المقدس .

ولقد صبح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة ، وحرموها على أنفسهم ولم يلبسوا إلا الحديد ، حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك ، وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب فى حال عظيم طالع المملوك بالحال وما يتجدد بعد يطالع به إن شاء الله تعالى . هذا كتاب الكاغيكوس ومعنى هذا اللفظ الخليفة - واسمه بركرى كور ابن باسيل .

(١) الأصل : شجاعا ، والتصحيح (عن م)

(٢) م : اثنين وأربعين مجفجا ، وحاء فى (المعجم الوسيط) التجفاف آلة للحرب من

حديد وعوره يلبسه الفرس أو الإنسان ليقه فى الحرب ، والجمع تجافيف

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م)

ذكر مسير العساكر إلى أطراف البلاد التي في طريق ملك الألمان

ولما تحقق السلطان - قدس الله روحه - وصول ملك الألمان إلى بلاد
لافون وقربه من البلاد الإسلامية ، جمع أمراء دولته وأرباب الآراء ، وشاورهم
فيما يصنع ، فاتفق الرأي على أن العسكر يسير بعضه إلى البلاد المتاخمة لطريق
عسكر العدو الواصل ، وأن يقيم ^(١) هو - رحمه الله - ^(٢) على منازلة العدو بباقي
العسكر المنصور ، فكان أول من سار صاحب منبج ، وهو ناصر الدين بن تقي
الدين ، وعز الدين بن المقدم - صاحب كفر طاب وبغرين وغيرهما - ثم مجد
الدين - صاحب بعلبك ، ثم سابق الدين - صاحب شيزر - / ثم الياروقية ٩٧ ب
من جملة عسكر حلب ثم عسكر حماة ، وسار ولده الملك الأفضل لمرض عرض
له أيضاً ، ثم بدر الدين شيخنة دمشق ، لمرض عرض له أيضاً وسار ولده الملك
الظاهر إلى محروسة حلب لإيالة الطرق ، وكشف الأخبار ، وحفظ مايليه من
البلاد . وسار بعده الملك المظفر يحفظ مايليه من البلاد وتدير أمر العدو المجتاز .
وكان آخر من سافر في ليلة السبت التاسع من جمادى من شهور سنة ست وثمانين
 وخمسمائة ^(٣) . ولما سارت هذه العساكر خفت الميمنة ، فإن معظم من سار
منها ، فأمر - رحمة الله عليه - الملك العادل - رحمه الله - أن ينتقل إلى منزلة
تقي الدين في طرف الميمنة ؛ وكان عماد الدين زنكي في طرف اليسرة ، ووقع
في العسكر مرض عظيم ، فمرض مظفر الدين بن زين الدين - صاحب حران
- وشفي ، ومرض بعده الملك الظافر ولد السلطان - رحمة الله عليه - وشفي ،
ومرض خلق كثير من الأكابر وغيرهم ، إلا أن المرض كان سليماً بحمد الله تعالى ،
وكان المرض عند العدو أكثر وأعظم ، وكان مقروناً بموت ^(٣) عظيم . وأقام
السلطان - قدس الله روحه - مصابراً على ذلك مرابطاً للعدو .

(١) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

(٢) العبارة من قوله : « وكان آخر من سافر .. إلى خمسمائة : ساقطة من (م) .

(٣) (م) : « بموتان » .

ذكر تمام خبر ملك الألمان

/ وذلك أن ولده الذى أقام مقامه مرض مرضا عظيما ، أقام بسببه ٩٨ أ
بموضع ^(١) يسمى المينات ^(١) من بلاد ابن لافون وأقام معه خمسة وعشرون فارسا
وأربعون داويا ، وجهاز عكسره نحو أنطاكية حتى يقطعوا الطريق ، ورتبهم ثلاث
فرق لكثرتهم ، ثم إن الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بغراس يقدمها كُند عظيم
عندهم ، وأن عسكر بغراس مع قلته أخذ منهم مائتى رجل قهرا ونهبا ، وكتبوا
يخبرون عنهم بالضعف العظيم ^(٢) والمرض الشديد وقلة الخيل والظهر والعدد
والآلات ، ولما اتصل هذا الخبر بالنواب فى البلاد الشامية أنفذوا إليه عسكرا
يكشف أخبارهم فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة ، فأغاروا
عليهم غارة عظيمة ، وقتلوا وأسروا ، وكان مقدار ما أخذوه على مذكروه المخبرون
فى الكتب زهاء خمسمائة نفس ، ولقد حضرت أداء رسالة رسول ثان وصل
من كاغيكوس بين يدى السلطان - رحمة الله عليه - وهو يذكر خبرهم ،
ويقول : هم عدد كثير ، لكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة وأكثرهم ثقلهم على
حمير وخيل ضعيفة ، قال : « ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لأعتبرهم فعبر
منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم / طارقة ^(٣) ولا ربحا إلا النادر ، ٩٨ ب

(١) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٢) النص فى م : وكتب جزء منهم بالضعف العظيم .

(٣) الطارقة وتجمع على طوارق أو طارقيات . تختلف فى أصلها ، ويرى (دوزى فى ملحق
المعاجم العربية) أنها لا ترجع إلى أصل عربى ، بل هى مأخوذة عن الكلمة اللاتينية «targa» ، ومنها
اشتقت الكلمة الإيطالية «tarja» والفرنسية «targe» ، والأصل اللاتينى لها جميعا «targum» ويؤيد دوزى
رأيه هذا القائل بأن اللفظة ترجع إلى أصل أوربى بشواهد كثيرة منقولة عن المراجع العربية المعاصرة للحروب
الصليبية ، ومعظم هذه الشواهد يورد لفظ « الطوارق » عند وصفه للصليبيين الأوربيين وأسلحتهم ، فقد
جاء فى (العماد الأصفهاني . الفتح القسى ، ص ١٦٤) عند وصفه للقتال مع الأفرنج قوله : « وهم
(أى الأفرنج) لمواضعهم ملارمون وبالخنادق من البوائق محتشمون ، وبالطوارق من الطوارق =

= محتصمون .. ، وفي ص ٢٤٧ : « فراجع الفرنج واصطفوا على خنادقهم ووقفوا بقنطارياتهم وطوارقهم » ، وفي ص ٢٦٢ : « وتدرع (العدو) بأسواره وخنادقه ، وتستتر عن طوارق البلاء بستائره وطوارقه ، فلا يخرج منه إلى معاركه » ، وفي ص ٢٦٣ : « إلى أن انتقل القتال من السور إلى الدور ، ومن الطوارق إلى الطرق والسطوح .. الخ » .

أما عن معنى اللفظ فالرأى مختلف ، ولكننا بدراسة هذه النصوص نستطيع أن نقول : إن هذا المصطلح كان يطلق على نوعين من السلاح :

الأول : نوع من الترس يجمله الجندي لحماية نفسه أثناء القتال ، أو هو - كما عرفه دوزي - « ترس كبير يغطي معظم الجزء الأسفل من الجسم » ، ويؤيد هذا المعنى قول العماد فيما سلف : « ووقفوا بقنطارياتهم وطوارقهم » وقول ابن شداد في المتن هنا : « ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولارحما إلا النادر » ، وكان في القاهرة حارة تسمى « حارة الطوارق » أو « حارة صبيان الطوارق » ، قال (المقرئ : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٤) : « وهم من جملة طوائف العسكر ، كانوا معدين لحمل الطوارق » وبهذا المعنى أيضاً استعمل اللفظ في المغرب الإسلامي ، ففي كتاب الحلل مثلاً فقرة لابن اليسع يقول فيها أحد الموحدين : فصنعنا دائرة مربعة في البسط ، جعلنا فيها من جهاتها الأربع صفا من الرجال بأيديهم القنا الطوال والطوارق المانعة ، ووراءهم أصحاب الدرق والحرب صفا ثانياً .

والمعنى الثاني : آلة حربية مكونة من جملة من الألواح الخشبية تستخدم كمتراس يخفى الجنود الرماح والصخور خلفها (انظر دوزي) ويؤيد هذا المعنى قول العماد : « وهم بالخنادق من البوائق محتصمون ، وبالطوارق من الطوارق محتصمون » وقوله : « وتدرع بأسواره وخنادقه ، وتستتر عن طوارق البلاء بستائره وطوارقه » وقوله : « إلى أن انتقل القتال من السور إلى الدور ، ومن الطوارق إلى الطرق » ، فلفظ الطوارق في هذه النصوص يستعمل دائماً مقروناً بلفظ الستائر أو الخنادق ، فكأنه كان يؤدي عملها ، وليس أوضح في هذا المجال من قول (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩٢) عند وصفه لنوع من الدبابة أو البرج : « فتندفع وتجري على سهولة العجل التي ركبت عليها ، ويصعد الرجال في أعلاه ، وقد أديرت حوله الستائر والطوارق » .

وقد وصف مرضى بن علي الطوارق في كتابه (تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٢) الذي ألفه لصالح الدين وصفاً دقيقاً يقطع الشك باليقين ، قال عند ذكره لأنواع التراس : « ومنها الطوارق وهي التي يستعملها الفرنج والروم ، ويتباهى في حسن إذهابها ودهانها وتلوينها بأنواع الأصباغ وتصويرها وإتقانها ، وهي مستطالة ، وتكوينها إلى أن تستر الفارس والرجل ، وتبدأ مدورة ، ثم تجمع أولاً أولاً إلى أن ينتهي آخرها إلى نقطة محدودة كرؤوس المعاول » ، راجع كذلك :

Cahen : Un Araité d'Armurerie-etc. P. 155-156.

(ابن القلانسي : ديل تاريخ دمشق ، ص ١٧٩)

فسألتهم عن ذلك فقالوا أقمنا بمرج وِخِم أيا ما ، وقلّت أزوادنا وأحطابنا ، فوقدنا معظم عددنا ، ومات منا خلق عظيم ، واحتجنا إلى الخيل فذبجناها وأكلناها ، وأوقدنا الرماح والعدد لإعواز الخطب ؛ وأما الكُند الذى وصل إلى أنطاكية - يسّر الله فتحها - فى مقدمة العسكر فإنه مات ، وذكر أن ابن لافون لما أحسّ منهم بهذا الضعف طمع فيهم حتى إنه عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه ، وقلة جمعه الذى تخلف معه ، وأن البرنس - صاحب أنطاكية - لما أحسّ منهم بذلك سار إلى ملك الألمان لينقله ^(١) إلى أنطاكية ، طمعاً فى أن يموت عنده ، ويأخذ ماله ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض إلى أن وقعت وقعة العادل - رحمه الله - على طرف البحر .

ذكر الواقعة العادلية

ولما كان يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخر من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة ، علم عدو الله أن العساكر قد تفرقت فى أطراف العدو ، وأن الميمنة قد خفّت لأن معظم مَنْ سافر كان منها بحكم قرب بلادهم من طرق العدو ، وأجمعوا رأيهم ، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة ، ويهجمون على طرف الميمنة فجأة ، وتلاعبت بهم آمالهم التى أكذبها الله تعالى ، فخرجوا ظهيرة نهار الأربعاء / ، وامتدوا ميمنةً وميسرةً وقلباً ، وانبثوا فى الأرض ، وكانوا ٩٩ أ عددًا عظيمًا ، واستخفوا طرف الميمنة ، وكان فى طرفها مخيم الملك العادل - قدّس الله روحه - فلما بصر بهم الناس قد خرجوا فى تعبئة القتال صاح صائحهم ، وخرجوا من خيامهم كالأسود من آجامها ، وركب السلطان - قدّس الله روحه - ونادى مناديه : يا للإسلام ، وركبت الجيوش وطلبت الأطلاب ، وكان رحمة الله عليه أول راكب ، ولقد رأيته وقد ركب من خيمته وحوله

نفر يسير من خواصه ، والناس لم يستثم ركوبهم ، وهو كالفاقدة ولدها ، الثاكلة واحدها ، ثم ضرب الكوس ، فأجابته كوسات الأمراء من أماكنها ، وركب الناس . وأما الفرنج - لعنهم الله - فإنهم سارعوا في القصد إلى الميمنة حتى وصلوا قبل استتمام ركوب العساكر ، حتى وصلوا إلى مُخَيِّم الملك العادل ، ودخلوا في وطاقه ^(١) ، وامتدت أيديهم في السوق ، وأطراف الخيم ، بالنهب والغارة ، وقيل وصلوا إلى خيمة الخاص وأخذوا من شراب خاناته شيئاً .

أما الملك العادل فإنه لما علم بذلك ركب وخرج من خيمته ، واستركب من يليه من الميمنة ، كالطواشي قايماز النجمي ، ومن يجري مجراه من أسود ب ٩٩ الإسلام ، ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في الخيم ، ويشتغلوا / بالنهب ، وكان كما ظن - رحمه الله - فإنهم عاثت أيديهم في الخيام والأقمشة والفواكه والمطاعم ، فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس ، وحمل بنفسه ^(٢) يقدمه ولده الكبير شمس الدين ^(٣) ، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة ^(٢) من الطواشي قايماز وغيره ^(٣) ، واتصل الأمر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح إلى عسكر الموصل ، وهجموا على العدو هجمة الأسود على فرائسها ، وأمكنهم الله تعالى منهم ، ووقعت الكسرة ، فعادوا يشتدون نحو خيامهم هاربين ، على أعقابهم ناكسين ، وسيف الله فيهم يلتقط الأرواح من الأشباح ، ويفصل بين الأجساد والرعوس ، ويفرق بين الأبدان والنفوس . ولما بصر السلطان - رحمة الله عليه - بقصطل ^(٣) الحرب قد ارتفع مما يلي خيام أخيه - رحمه الله - ثارت في قلبه نار الإشفاق ، وحركت الأخوة حميته ، وأنهضت الرغبة في نصرة دين الله والخوف على أوليائه عزيمته ، وصاح صائحاً في الناس : « يا للإسلام وأبطال

(١) الوطاق : لفظ معرب ، وأصله بالتركية (أوتاق أو أوطاق أو أوتاغ) ومعناه الخيمة ، أو مجموعة الخيام ، أو المعسكر ، أو الفرقة . انظر : (Dozy : Supp. Dict. Arab) .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٣) م : « باصطلاء الحرب » .

الموحدين ، هذا عدو الله قد أمكن الله منه ، وقد داخله الطمع حتى غشى خيامكم بنفسه . فكان من المبادرين إلى إجابة دعوته جماعة من مماليكه وخاصته وحلقته ، ثم طُلب عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولد عز الدين ، ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبي ، وتتابع العساكر / وتجاوبت الأبطال ، ووقف هو - ١٠٠ أ رحمة الله عليه - في القلب خشية أن يستضعف العدو القلب بحكم ما أنفذ منه من العساكر فينال غرضاً ، وتواصلت العساكر واتصل الضرب ، وقامت سوق الحرب ، فلم يكن إلا ساعة ، حتى رأينا القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وامتدوا مطرحين من خيام الملك العادل - رحمه الله - إلى خيامهم ، أولهم في الخيم الإسلامية ، وآخرهم في خيم العدو ، صرعى على التلول والوهاد ، وشربت السيوف من دمائهم حتى رويت ، وأكلت أسد الوغى بأسنان الظفر بهم حتى شبت ، وأظهر الله سبحانه كلمته ، وحقق لعبيده نصرته . وكان مقدار ما امتد فيه القتلى فيما بين الخيمين فرسخاً ، وربما زاد على ذلك ولم ينبج من القوم إلا النادر . ولقد خضت في تلك الدماء بدابتي واجتهدت أن أعدهم فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفوقهم ، وشاهدت فيهم امرأتين مقتولتين ، وحكى لي من شاهد منهم أربع نسوة يقاتلن ، وأسر منهن اثنتان . وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير فإن السلطان - رحمه الله - كان أمر الناس أن لا يستبقوا أحداً ، هذا كله في الميمنة وبعض القلب .

وأما [في] الميسرة فما اتصل الصائح بهم إلا وقد نجز الأمر وقضى القضاء على / على العدو لبعد ما بين المسافتين . وكانت هذه الواقعة فيما بين الظهر ١٠٠ ب والعصر ، فإن العدو ظهر في قائم الظهيرة ، وانفصلت الحرب بعد صلاة العصر ، وانكسر القوم حتى دخلت معهم طائفة من المسلمين وراءهم إلى مخيمهم على ما قيل ، ^(١) ثم إنه - رحمه الله عليه - أمر الناس بالتراجع لما ظهر له وجه الريح ، حيث قُتل من العدو ما قتل من هذا الخلق العظيم ^(١) ، ولم يُفقد من

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) .

المسلمين أحد في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين . ولما أحسَّ جندُ الله بعكّا بما جرى بين المسلمين وبين عدو الله من الواقعة - فإنهم كانوا يشاهدون الوقعات من أعالي السور - خرجوا إلى مخيم العدو المتخذ من البلد ، وجرى بينهم مقتلة عظيمة ، وكانت النصره - والحمد لله - للمسلمين ، بحيث هجموا خيام العدو ، ونهبوا منها جمعا من النسوان والأقمشة ، حتى القدور وفيها الطعام ، ووصل كتابٌ من المدينة يخبر بذلك ، وكان يوما على الكافرين عسيرا . واختلف الناس في عدد القتلى منهم ، فذكر قوم أنهم ثمانية ألف ، ^(١) وقال آخرون : سبعة ألف ، ولم ينقصهم حازر بأقل من خمسة آلاف .

ولقد شاهدتُ منهم خمسة صفوف أولها في خيم العادل - رحمه الله - وآخرها في خيم العدو ، ولقد لقيتُ إنسانا عاقلا جنديا يسعى بين صفوف القتلى ^{١٠١ أ} ويعددهم ، فقلتُ له : كم عددت ؟ فقال / لى : إلى هاهنا أربعة آلاف ونيفا وستين قتيلًا ، وكان قد عدَّ صفين وهو في الصف الثالث ، لكن ما مضى من الصفوف كان أكثر عددا من الباقي ، وانجلى يوم الأربعاء المذكور بأحسن ما ينجلي عنه الإسلام . ولما كان يوم الخميس الحادى والعشرين من جمادى المذكور ورد في عصره نَجَابٌ له عن محروسة حلب خمسة أيام يتضمن كتابه أن جماعة عظيمة من العدو الشمالى خرجوا لنهب أطراف البلاد الإسلامية ، ونهض العسكر الإسلامى لمحروسة حلب إليهم ، وأخذ عليهم الطريق ، فلم ينجُ منهم أحد إلا من شاء الله ، وكان وقع هذا الخبر عقيب هذه الواقعة المباركة وقعا عظيما ، وضربت البشائر ، ولم يُرَ صبيحة ذلك العرس أحسن من هذه الصبيحة . وجاء في بقية ليلة ذلك اليوم من اليَزَك قايماز الحرَّانى ، وذكر أن العدو قد سأل من جانب السلطان - قدس الله روحه - مَنْ يصل إليهم ، ليسمع منهم حديثا في سؤال الصلح ، لضعف حلِّ بهم ، ولم يزل عدو الله من حينئذ مكسور الجناح مهاض الجانب حتى وصلهم كُنْدٌ يقال له : كُنْدَهري .

(١) هذه العبارة ساقطة من (م)

ذكر وصول الكُندهرى

وهذا المذكور من ملوكهم وأغنيائهم ^(١) ، وصل في البحر في مراكب عدة ، ومعه / من الأموال والذخائر والمير والأسلحة والرجال عدد عظيم ، فقوى ١٠١ ب بوصوله جأشهم ^(٢) ، واشتد أزهرهم ، وحدثهم نفوسهم بكبس ^(٣) العسكر الإسلامى المنصور ليلا ، وكثر ذلك الحديث على السنة المستأمنين والجواسيس ، فجمع السلطان - رحمة الله عليه - الأمراء وأرباب الرأى ، واستشارهم فيما يفعل ، فكان آخر الرأى أنهم يُوسَّعون الحلقة ، ويتأخرون عن العدو ، رجاء أن يخرج العدو ، ويبعد عن خيمه فيمكن الله منهم ، ووافقهم السلطان - رحمة الله عليه - على ذلك ، وأوقعه في قلبه ، فرحل إلى جبل الخروبة بالعساكر بأسرها ، وذلك في ^(٤) يوم الأربعاء ^(٥) السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وترك بقية من العسكر في تلك المنزلة كاليزك ، مقدار ألف فارس ، يتناوبون بحفظ النوبة ، هذا والكتب متواصلة من عكا ومنا إليها على أجنحة الطيور ، وأيدى السَّبَّاح ^(٦) ، والمراكب اللطاف ، تخرج ليلا ، وتدخل سرقة من العدو .

^(٧) عدنا إلى أخبار ملك الألمان ^(٨) ، هذا وأخبار العدو الواصل من الشمال متواصلة وقلة خيله وعدده ، وما قد عراهم من المرض والموت ، وأنهم قد اجتمعوا في أنطاكية ، وأنهم ينفقون في الرجالة ^(٩) ، وأن أصحابنا عسكر حلب يتخطفون حشاشتهم ^(١٠) وعلاقتهم ومن يخرج منهم .

(١) م : « وأغنيائهم » .

(٢) م : « عزيمهم » .

(٣) م : « بطلب » .

(٤) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٥) م : « السباح » وهو خطأ واضح

(٦) هذه الجملة غير موجودة في (م)

(٧) م : « وأنهم قد بقوا رجالة »

(٨) يبدو من سياق المتن هنا أن اللفظ معناه الذين يجمعون الحشائش لعلف الدواب

/ ذكر كتاب وصل من قسطنطينية
يسر الله فتحها

وكان بين السلطان - رحمة الله عليه - وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة ، وكان وصل منه رسول إلى الباب السطاني بمرج عيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة في جواب رسول كان أنفذه السلطان - رحمة الله عليه - إليه بعد تقرير القواعد وإقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية ، فمضى الرسول ، وأقام الخطبة ، ولقى باحترام عظيم وإكرام زائد ، وكان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر وجمعا ^(١) من المؤذنين والقراء ، وكان يوم دخولهم إلى قسطنطينية يوماً عظيماً من أيام الإسلام شاهده جمع كثير من التجار ، ورقى الخطيب المنبر ، واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها والتجار ، وأقام الدعوة الإسلامية العباسية ، ثم عاد ، فعاد معه هذا الرسول يخبرنا بانتظام الحال في ذلك ، فأقام مدة . ولقد شاهدته يبلغ الرسالة ، ومعه ترجمان يترجم عنه ، وهو شيخ أحسن ما يُفرض أن يكون من صور المشايخ ، وعليه زيهم الذي يختص بهم ، ومعه كتاب وتذكرة ، والكتاب مختوم بذهب ، ولما مات وصل إلى ملك القسطنطينية خير وفاته ، فأنفذ هذا الرسول في تمة ذلك ، ووصل معه / الكتاب في جواب ذلك وصورة ما قُسر من الكتاب الواصل منه ووصفه : أنه كتاب مدروج عرضاً ، وهو دون عرض كتاب بغداد ، مترجماً في ظاهره وباطنه بسطرين ، بينهما فرجة ، وُضع فيها الختم ، والختم في ذهب مطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع على ختمه صورة ملك ، وزن الذهب خمسة عشر ديناراً ، مضمون السطرين المكتوبين ما هذا صورته : « من إيساكْيوس الملك المؤمن بالمسيح الإله ، المتوج من الله المنصور العالي أبداً ، أقعقوس ^(٢) المدبر من الله

(١) الأصل « وجمع » ، والتصحيح عن (م) .

(٢) م : « أقعقوس » .

القاهر الذى لا يغلب ، ضابط الروم بذاته أنكليوس إلى النسيب سلطان مصر صلاح الدين . فهذا صورة ما كتب عليه من الترجمة باطنا وظاهراً وأما ما فُسِّر من الكتاب فهذا : المحبة والمودة ، وقد وصل خط نسبته الذى أنفذت إلى ملكى ، وقرأناه وعلمنا منه أن رسولنا توفى ، وحزنا حيث أنه توفى فى بلد غريب ، وما قُدِّر أن يتم كلما رسم له ملكى ، وأمره أن يتحدث مع نسبته ، ويقول فى حضرتك ، ولا بد لنسبتك أن تهتم بإنفاذ رسول إلى ملكى ^(١) ليعرف ملكى ما بعثت إليك ^(٢) مع رسول المتوفى . وأما القماش الذى خلقه ووجد بعد موته ^(٣) ينفذ إلى ملكى ^(٤) لنعطيه أولاده وأقاربه ، وما أظن أنه سمع نسبته أخباراً ردية ، وأنه قد سار فى بلادى الألمان / وما هو عجب فإن الأعداء ١٠٣ أ يرجفون بأشياء كذب ^(٥) على قدر أغراضهم ^(٦) ، ولو تشتهى أن تسمع الحق فإنهم قد تأذوا وتعابوا أكثر مما آذوا فلاحى بلادى ^(٧) ، وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرحل والرجال ، ومات منهم كثير ، وقتلوا ، وتلفوا ، وبالشدة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادى ، وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون إلى بلادك ، وإن وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كثرة ، ولا يقدرّون ينفعون جنسهم ، ولا يضرون نسبته ، وبعد ذلك كله العجب كيف قد نسيت الذى بينى وبينك ، وكيف ما عرفت للملكى شيئاً من المقاصد والمهمات ، ^(٨) ما ربح ملكى ^(٩) من محبتك إلا عداوة الفرنج وجنسهم ، ^(١٠) ولا بد لنسبتك كما قد كتبت للملكى فى كتابك الذى قد نفذت إلينا من إنفاذ رسول حتى يعرفنى جميع ما قد كتبت

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٢) م : « مكذوبة » .

(٣) مكان هذا اللفظ بياض بالأصل ، وقد أضيف عن (م) .

(٤) م : « أكثر مما أودى فلاحو بلادك » ، والفرق واضح بين الصين ، ونص الأصل أصح .

(٥) الأصل : « وكما يظهر للملكى تاريخ ملكى » والمعنى عامض ، وقد آثرنا عليه نص (م) فهو

أوضح .

(٦) هذه المقرة كلها ساقطة من (م) .

إليك في القديم من الحديث ، ويكون ذلك بأسرع ما يمكن ولا تحمل على قلبك من مجيء الأعداء الذين قد سمعت بهم ، فإن إدبارهم على قدر نيتهم وآرائهم . وكتب في أيام سنة ألف وواحد وخمسمائة ^(١) فوقف - رحمة الله عليه - على هذه الترجمة ، وأكرم الرسول ، وأحسن مثواه ، وكان شيخا حسن الخلق ، مهيبا ، عارفا بالعربية والرومية والفرنجية .

١٠٣ ب ثم إن الفرنج - لعنهم الله تعالى - اشتدوا في حصار / البلد ومضايقته ، لما حدث لهم من القوة بوصول الكندهرى ، فإنه أنفق ^(٢) على ما ذكر - والله أعلم - في عشرة آلاف مقاتل ، ووصلهم نجدة أخرى في البحر قويت بها قلوبهم ، ولزوا ^(٣) البلد بالقتال .

ذكر حريق ^(٤) المنجنقات التى للعدو المخذول ^(٥)

وذلك أن العدو لما أحس في نفسه بقوة ، بسبب توالى النجد عليهم ، اشتد طمعهم وسلطوا ^(٥) عليه المنجنقات من كل جانب ، وتناوبوا عليها بحيث لا يعطل رميها ليلا ولا نهاراً ، وذلك في أثناء رجب من سنة ست وثمانين وخمسمائة . ولما رأى أهل البلد ما نزل بهم من مضايقة العدو وتعلق طمعه بهم حركتهم النخوة الإسلامية ، وكان مقدموه حينئذ . أما والى البلد وحارسه فالأمير الكبير بهاء الدين قراقوش ، وأما مقدم العسكر فالأمير الاسفهلار الكبير حسام الدين أبو الهيحاء ، وكان رجلاً ذا كرم وشجاعة ، وقدمه ^(٦) في عشيرته ومضاء

(١) هذه الفقرة كلها ساقطة من (م) .

(٢) م : « وصل » .

(٣) م : « نازلوا » .

(٤) هذه الكلمات غير موجودة في (م) .

(٥) م : « وركبوا » .

(٦) م : « وتقدم » .

في عزيمته ، فاجتمع رأيهم على أنهم يخرجون إلى العدو ، فارسهم ورجالهم ،
 عن غرة وغفلة منهم ، ففعلوا ذلك ، وفتحت الأبواب ، وخرجوا دفعة واحدة
 من كل جانب ، ولم يشعر العدو إلا بالسيف فيهم حاكم عادل ، وسهم قضاء
 الله وقدره فيهم نافذ / خاذل ^(١) ، وهجم الإسلام على الكفر في منازلهم ، وأخذ ١٠٤ أ
 بناصية مناضله ، ورأس مقاتله ، ولما ولج المسلمون خيام العدو ذهلوا عن
 المنجنقات وحراستها ، وحفظها وسياستها ، فوصلت شهب الزراقين المقدوفة
 وجاءت عوائد الله في نصرة دينه المألوفة ، فلم تكن ساعة حتى اضطربت فيها
 النيران ، وتحرق منها بيدها ما شيد الأعداء في المدة الطويلة في أقرب آن ، وقتل
 من العدو في ذلك اليوم سبعون فارساً ، وأسر خلق عظيم ، وكان من جملة الأسرى
 رجل مذكور منهم ، ظفر به [واحد] من آحاد الناس ولم يعلم بمكانته ، فلما
 انفصل الحرب سأل الفرنج عنه هل هو حي أم لا ، فعرف الذي هو عنده عند
 سؤالهم أنه رجل كبير ، وخاف أن يغلب عليه ويرد إليهم بنوع مصانعة أو على
 وجه من الوجوه ، فسارع وقتله ، وبذل الفرنج فيه أموالاً كثيرة ، ولم يزالوا
 يشتدون في طلبه ويحرصون عليه حتى رُميت إليهم جثته ، فضربوا بنفوسهم
 الأرض ، وحثوا على وجوههم التراب ، ووقعت عليهم بسبب ذلك خدمة
 عظيمة ، وكنتموا أمره ، ولم يظهروا مَنْ كان ، واستصغر المسلمون بعد ذلك
 أمرهم ، وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون ويقتلون ويأسرون إلى ليلة
 شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وكان / الكندهرى قد أنفق على منجنيق
 كبير عظيم الشكل - على ما نقل الجواسيس والمستأمنون - ألفاً وخمسمائة دينار ،
 وأعدده ليقدمه إلى البلد ، ومنع من حريقه ذلك اليوم كونه بعيداً عن البلد ،
 ولم يقدم بعد إليه ، فلما كانت الليلة المباركة المذكورة خرج الزراقون والمقاتلة ،
 والله يحفظهم من كل جانب ، والله يكلأهم ، فساروا من تحت ستر الله حتى
 أتوا المنجنيق المذكور ، وأضرموا فيه النار ، فاحترق من ساعته ، ووقع الصياح
 من الطائفتين ، وذهل العدو ، فإنه كان بعيداً من البلد ، وخاف أن يكون قد
 أحيط به من الجوانب ، وكان نصراً من عند الله ، وأحرق بلهيه منجنيق لطيف
 إلى جانبه .

١٠٤ ب

ذكر الحيلة في إدخال بطسة بيروت إلى البلد

وذلك أنه - رحمة الله عليه - كان قد أعدَّ بيروت بُطْسةً ، وعمَّرها ، وأودعها أربع مائة غرارة من القمح ووضع فيها من الجبن والميرة والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة ، وكان الفرنج - خذلهم الله - قد أداروا مراكبهم حول عكا ، حراسة لها عن أن يدخلها مركب للمسلمين ، وكانت قد اشتدت حاجة مَنْ فيها إلى الطعام والميرة ، فركب في بطسة بيروت جماعة من المسلمين ، وتزويوا بزى الفرنج ، حتى حلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على سطح البطسة ، بحيث أ / ثرى من بعد ، وعلقوا الصلبان ، وجاءوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو ، فخرجوا إليهم ، واعترضوهم في الحراقات ^(١) ، وقالوا : « نراكم قاصدين البلد » ، واعتقدوا أنهم منهم فقالوا : « ولم تكونوا قد أخذتم البلد » ؟ فقالوا : « لا ، لم نكن نأخذ البلد بعد » ، فقالوا : « نحن نرد القلوع إلى العسكر ، ووراءنا بطسة أخرى في هوائنا ، فأنذروهم حتى لا يدخلوا البلد » وكان وراءهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين المعسكر ، فنظروا فرأوها ، فقصدوها لينذروها ، فاشتدت البطسة الإسلامية في السير ، واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد ، وسلمت ولله الحمد ، وكان فرحا عظيما ، فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد ، وكان ذلك في العشر الأخير من رجب ^(٢) من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة ^(٣) .

ذكر قصة العوام عيسى

رحمه الله

ومن نوادر هذه الواقعة ومحاسنها أن عواما مسلماً كان يقال له عيسى ^(٣) ، وكان يدخل ^(٤) إلى البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلا ، على غيرة من

(١) م : « الحراقات والشواي » .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٣) م : « وصل » .

العدو ، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو ، وكان ذات ليلة شدَّ على وسطه ثلاثة أكياس ، فيها ألف دينار وكُتِبَ للعسكر ، وعام في البحر / فجري عليه مَنْ أهلكه ، وأبطأ خبره عنا ، وكانت عادته أنه إذا دخل ١٠٥ ب البلد طار طيرٌ عرَّفنا بوصوله ، فأبطأ الطير ، فاستشعر الناسُ هلاكه ، ولما كان بعد أيام بينما الناس على طرف البحر في البلد ، وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً ، فاقتدوه فوجدوه عيسى العوام ، ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب ، وكان الذهب نفقة للمجاهدين ، فما رأى من أدنى الأمانة في حال حياته وقد أداها بعد وفاته إلا هذا الرجل ، وكان ذلك في العشر الأخير من رجب أيضاً .

ذكر حريق المنجنقات

وذلك أن العدو كان نصب على البلد منجنقات هائلة حاكمة على السور ، وأن حجاريتها تواترت حتى أثرت في السور أثراً بيناً ، وخيف من غائلته ، فأخذ سهمان من سهام الجرخ العظيم وأحرق نصلهما حتى بقيا كالشعلة من النار ، ثم رُميا في المنجنق الواحد ، فعلقا فيه ، واجتهد العدو في إطفاء النار فلم يقدرُوا على ذلك ، وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعلاً عظيماً ، واتصلت لهبته بالآخر فأحرقتة ، واشتد نارهما بحيث لم يقدر أحد أن يقرب مكانهما ليحتال في إطفائهما ، وكان يوماً عظيماً اشتد فيه فرح المسلمين وساءت عاقبة الكافرين .

وكان من حديثه أنه بعد أن استقر قدمه في أنطاكية - يسر الله فتحها

(١) نص العنوان في م . هـ ذكر تمام حديث ملك الألمان والحيلة التي عملها المركز . هـ وفي الأصل فصل بين العنواوين ، انظر مايلي بعد سطور قليلة

- وأخذها من صاحبها وحكم فيها ، وكان بين يديه فيها ينفذ أوامره فأخذها منه غيلة وخديعة ، وأودعها خزانته ، وسار عنها يوم الأربعاء خامس عشر رجب سنة ست وثمانين وخمسمائة متوجهاً نحو عكا ، في جيوشه وجموعه ، على طريق اللاذقية ، حتى أتى طرابلس - يسّر الله فتحها - ، وكان قد سار إليه من معسكر الفرنج يلتقيه المركيس - صاحب صور - ، وكان من أعظمهم حيلة وأشدّهم بأساً ، وهو الأصل في تهيج الجموع البحرية ^(١) .

ذكر الحيلة التي عملها المركيس في جمع الفرنج من وراء البحر

وذلك أنه صوّر القدس في ورقة عظيمة ، وصوّر فيه صورة القيامة ^(٢) التي لهم يحجون إليها ويعظمون شأنها ، وفيها قبر المسيح الذي دُفن فيه بعد صلبه بزعمهم ، وذلك القبر هو أصل حجهم ، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم ، فصوّر القبر وصوّر عليه فرسا عليه فارسٌ مسلم راكبٌ عليه ، وقد وطىء قبر المسيح وقد بال الفرس على القبر ، وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الأسواق والمجامع ، والقسوس يحملونها ، ورعوسهم ١٠٦ ب / مكشّفة ، وعليهم المسوحة ^(٣) ، وينادون بالويل والثبور ، وللصور عملٌ في قلوبهم ، فإنها أصل دينهم ، فهاج بذلك خلّائق لا يحصى عددهم إلا الله تعالى ، وكان من جملتهم ملك الألمان وجنوده ، فلقبهم المركيس ، لأنه أصل استدعائهم إلى هذه الواقعة ، فلما اتصل به قوى قلبه ، وبصره بالطرق ، وسلك به الساحل ، خوفاً من أنه إذا أتى على بلاد حلب المحروسة وحماة المحروسة ثار بهم المسلمون

(١) م : الجموع من وراء البحر .

(٢) م : القمامة .

(٣) م . المسوح .

من كل جانب ، وقامت عليهم كلمة الحق من كل صوب ، ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم ، فإن الملك المظفر - رحمه الله - قصدهم بعساكره ، وجمع لهم جموعا ، وهجم عليهم هجوماً عظيماً أخذ منه من أطراف عسكره ، وكان قد لحقهم بأوائل عسكره ، ولو لحقه الملك الظاهر بعساكره لقضى عليهم ، ولكن لكل أجل كتاب ، واختلف حرز الناس لهم ، ولقد وقفت على بعض كتب الخبيرين بالحرب ، وقد حرز فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد أن كانوا قد خرجوا على ما ذكر ^(١) بمائتي ألف ^(٢) ، فانظر إلى صنع الله مع أعدائه ... ولقد وقفت على بعض الكتب يذكر فيه أنهم لما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة ، وجدوا في أعقابهم نيفا وستين فرسا قد عطبت وانتزع لحمها ، ولم يبق فيها إلا العظام ، من شدة الجوع ^(٣) وضعف / الخيل ^(٤) ، ولم يزالوا سائرين وأيدي ١٠٧ أ المسلمين تتخطفهم من حولهم نهباً وقتلاً وأسرا ، حتى أتوا طرابلس - يسر الله فتحها - ووصل خبره ووصولهم بكرة الثلاثاء من شعبان سنة ست وثمانين .

هذا والسلطان - قدس الله روحه - ثابت الجأش ، راسخ القدم ، لا يدعه ذلك عن حراسة عكا والحماية لها ، ومراصدة العسكر النازل بها ، وشن الغارات عليهم ، والهجوم عليهم في كل وقت ، مفوضاً أمره إلى الله تعالى ، معتمداً عليه ، منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس ، مواصلاً بغيره من يفد إليه من الفقراء والفقهاء والمشايخ والأدباء ، ولقد كنت إذا بلغني هذا الخبر تأثرت حتى إذا دخلت إليه فأجد منه من قوة النفس ^(٥) وشدة البأس ما يشرح صدرى ، وأتيقن معه نصرة الإسلام وأهله .

ذكر وصول البطس من محروسة مصر

ولما كان العشر الأوسط من شعبان من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة

(١) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٢) م « الله »

كتب بهاء الدين قراقوس ، وهو والى البلد ، والمقدم على الأصطول وهو الحاجب لؤلؤ ، يذكران للسلطان ، رحمة الله عليه : « لم يبق بالبلد ميرة إلا قدر يكفى ١٠٧ ب البلد إلى ليلة النصف من شعبان لا غير » ، فأسرّها يوسف في نفسه / ولم يُيدها لخاص ولا عام ، خشية الشيوع والبلوغ إلى العدو ، ويضعف به قلوب المسلمين . وكان [السلطان] قد كتب إلى مصر بتهجير ثلاث بَطَس مشحونة بالأقوات والإدام والمير وجميع ما يحتاج إليه في الحصار ، بحيث يكفهم ذلك طول الشتاء ، وأقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية ولججت في البحر تتوخى النوتية بها الريح التى تحملها إلى عكا ، فطابت لهم الريح حتى ساروا ، ووصلوا إلى عكا ليلة النصف من شعبان المذكور ، وقد فنيت الأزواد ، ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم ، وخرج عليها أصطول العدو فقاتلها ، والعساكر الإسلامية تشاهد ذلك من الساحل ، والناس في تهليل وتكبير ، وقد كشف المسلمون رؤوسهم ، يتهلون إلى الله تعالى فى القضاء بتسليمها إلى البلد ، والسلطان - رحمة الله عليه - على الساحل كالوالدة الشكى يشاهد القتال ، ويدعو إلى ربه بنصره ، وقد علم من شدة القوم ما لم يعلمه غيره ، وفى قلبه ما فى قلبه والله يثبت ، ولم يزل القتال يعمل حول البَطَس من كل جانب ، والله يدفع عنها والريح تشتد ، والأصوات قد ارتفعت من الطائفتين ، والدعاء يخرق الحجب ، حتى وصلوا بحمد الله تعالى سالمين إلى ميناء البلد ، وتلقاهم أهل عكا تلقى الأمطار ١٠٩ أ عن جذب ، وامتاروا ما فيها ، وكانت ليلة بليال ، وكان دخولها ^(١) . / عصر يوم الإثنين رابع عشر شعبان المذكور من السنة المذكورة .

ذكر محاصرة برج الذبان ^(٢)

ولما كان الثانى والعشرون من شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة جهّز

(١) ورقة ١٠٨ - ١٠٨ ب ورقة دخيلة على النص هنا ، ومكانها الصحيح خلال ص ١٧٢ ب وقد أثبتناها هناك ، فيها يتصل النص ويتسق

(٢) م : « الذباب » .

العدو - لعنه الله - بُطَسًا متعددة لمحصرة برج الذُّبَّان ، وهو برج في وسط البحر ، مبنى على الصخر على باب ميناء عكا ^(١) ، يُحرس به الميناء ، ومتى عبره المركب أمن من غائلة العدو ، فأراد العدو أخذه ، ليقبى الميناء بحكمه ، ويمنع دخول شيء من البُطَس إليه ، فتقطع الميرة عن البلد ، فجعلوا على صواري البطس بُرجاً ، وملأوه حطباً ونفطاً ^(٢) ، على أنهم يُسيرون البطس ، فإذا قاربت برج الذبان ولاصقته ، أحرقوا البرج الذي على الصاري وألصقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه ، ويقتل مَنْ عليه من المقاتلة ويأخذوه ، وجعلوا في البُطسة وقوداً كثيراً حتى يلقي في البرج إذا اشتعلت النار فيه ، وعبوا بطسة ثانية وملأوها حطباً ووقوداً ، على أنهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البطس الإسلامية ، ثم يلهبونها ، فتحترق البطس الإسلامية ، وتهلك ما فيها من المير ، وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يصل إليهم نشاب ^(٣) ولا شيء من آلات السلاح ، حتى إذا أحرقوا ما أرادوا إحراقه دخلوا ذلك القبو فأمنوا ، فأحرقوا ما / أرادوا إحراقه ، وقدموا البطسة نحو البرج المذكور ، وكان طمعهم يشتد ١٠٩ ب حيث كان الهواء مُستعداً ^(٤) لهم ، فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا يحرقون بها بطس المسلمين ، والبرج الذي أرادوا يحرقون به مَنْ على البرج ، فأوقدوا النار ، وضربوا فيها النفط ، فانعكس الهواء عليهم كما يشاء الله تعالى وأراد ، واشتعلت البطسة والذي كان فيها بأسرها ، واجتهدوا في إطفائها فما قدروا ، وهلك مَنْ كان بها من المقاتلة إلا من شاء الله تعالى ، ثم احترقت البطسة التي كانت مُعدة لإحراق بطسنا ، ووثب أصحابنا عليها فأخذوها إليهم ، وأما البطسة التي فيها القبو ، فإنهم انزعجوا وخافوا ، وهموا بالرجوع ، واختلفوا واضطربوا اضطراباً

(١) هذا اللفظ ساقط من (م) .

(٢) هذا اللفظ ساقط من (م) .

(٣) انظر ما فات هنا ص ٦٣ ، هامش ١ .

(٤) م مصعداً .

عظيما ، فانقلبت وهلك جميع مَنْ كان فيها ؛ لأنهم كانوا في قبور لم يستطيعوا الخروج منها ، وكان ذلك من أعظم آيات الله تعالى ، وأندر العجائب في نصرة دين الله ، والله الحمد ، وكان يوما مشهودا .

ذكر وصول الألمان إلى عسكرهم المخدول

عدنا إلى حديث ملك الألمان : وذلك أنه أقام بطرابلس ، حتى استجم عسكره ، وأرسل إلى النازلين على عكا يخبرهم بقدومه إليهم ، وقد وجعوا من ذلك / لأن المركيس - صاحب صور - هو رب مشورته وصاحب دولته ، وكان الملك جفري - وهو ملك الساحل - بالمعسكر ، وهو الذي يرجع إليه في الأمور ، فعلم أن مع قدوم ملك الألمان لا ينقى له حكم . ولما كان العشر الأخير من شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة أزمع رأيهُ على المسير في البحر ؛ لعلمه أنه إن لم يركب في البحر نكب وأخذت عليه مضايق الطرق ، فأعدوا المراكب ، وأنفذت إليه من كل جانب ، ونزل فيها هو وعسكره ، وخيلهم وعدتهم ، وساروا يريدون المعسكر فلم تمض إلا ساعة من نهار حتى قامت عليهم ريح عاصف ، وثار عليهم الموج من كل مكان ، وأشرفوا على الهلاك ، وهلك منهم ثلاثة مراكب حمالة ^(١) ، وعاد الباقيون يرصدون هواء طيبا ، فأقاموا أياما حتى طابت لهم الريح ، وساروا حتى أتوا صور - يسّر الله فتحها - فأقام المركيس

(١) الحمالة - ج : حمالات ، هي كما عرفها (ابن ممتا : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠) و : (Dozy : Supp. Dict. Arab) نوع من السفن المخصصة لنقل مؤونة لجيش وأزواده والصناع والخدم الملحقين بالجيش والأسطول (Vaisseau de Transport) ، وفي (صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٢٢٠ - ٢٢١) ما يدل على أن « الحمالة » كانت تستعمل في حمل الخيل كذلك ، قال : « وفي سنة ثمان وعشرين وثمانمائة (١٤٢٥ م) عمّر السلطان في مصر أربع حمالات كبار برسم شيل الخيول والأثقال ، وتسع الناس الكثير .. الخ » وجاء في (خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٣٩ - ١٤٠) : ثم إن العمارة تكملت وهي خمس قراقرير وتسعة عشر عنابا وست حمالات برسم الخيول ... الخ » .

والألماني بها ، وأنفذوا بقية العساكر إلى المعسكر النازل على عكا ، وأقاما بصور إلى ليلة السادس من رمضان من السنة المذكورة . وسار الألماني وحده في البحر حتى وصل معسكرهم غروب الشمس من ذلك اليوم في نفر يسير ، هكذا أخبر الجواسيس والمستأمنون عنهم ، وكان لقدمه وقع عظيم عند الطائفتين ، فأقام أياما ، وأراد أن / يظهر لقدمه أثر ، فوبخ القوم على طول مقامهم ، وحسن ١١٠ ب في رأيه أن يضرب مصافا مع المسلمين ، فخوفوه من الإقدام على هذا الأمر وعاقبته ، فقال : « لا بد من الخروج على اليك لنذوق قتال القوم ، ونعرف مراسهم ، ونتبصر بأمرهم ، فليس الخبر كالعيان ، فخرج على اليك الإسلامي ، واتبعه معظم الفرنج راجلهم وفارسهم ، وخرجوا حتى قطعوا الوطاة ^(١) التي بين تلهم وتل العياضية وعلى تل العياضية خيام اليك ، وهي توبة الحلقة السلطانية المنصورة في ذلك اليوم ، فوقفوا في وجوههم ، وقتلوهم وأذاقوهم طعم الموت ، وعرف السلطان - رحمة الله عليه - ذلك ، فركب من خيمه بجحفله ، وسار حتى أتى تل كيسان ، فلما رأى العدو العساكر الإسلامية قد صوبت نحوه سهام قصدها ، وأتته من كل جانب كقطع الليل المدهم عاد ناكصاً على عقبه ، وقد قُتل منهم وجرح خلق عظيم والسيف يعمل في قفيهم ، وهم هاربون ، حتى وصل الخيم غروب الشمس من ذلك اليوم ، وهو لا يعتقد سلامة نفسه من شدة خوفه وفصل الليل بين الطائفتين وقد قُتل وجرح من العدو خلق عظيم ، وقتل من المسلمين في ذلك اليوم اثنان ، وجرح جماعة كثيرة ، وكانت الكرة على أعداء الله والله الحمد ، فلما عرف ملك الألمان - لعنه الله - ما جرى عليه وعلى / ١١١ أ أصحابه من اليك الذي هو شرذمة من المعسكر ، وهم جزء من كل ، رأى أن يرجع إلى قتال البلد ، ويشغل بمضايقته ، فاتخذ من الآلات العجيبة والصنائع الغريبة ما أهال الناظر إليه من شدة الخوف على البلد ، واستشعر أخذ البلد من تلك الآلات ، وخيف منها عليه ، فمما أحدثوه آلة عظيمة تسمى دبابة ^(٢) ،

(١) م « الوهاد »

(٢) انظر مافات هنا ص ٤٢ ، هامش ١ ، وهذا وصف نادر ودقيق للدبابة .

يدخل تحته من المقاتلة خلق عظيم ، ملبسة بصفائح الحديد ، ولها من تحتها عجل
تُحرك بها من داخل ، وفيها المقاتلة ، حتى ينطح بها السور ^(١) ، ولها رأس عظيم
برقبة شديدة من حديد ، وهي تسمى كَبْشًا ، ينطح بها السور ^(٢) بشدة
عظيمة ، لأنه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها ، وآلة أخرى ، وهي قبو
فيه رجال ، يُسحب كذلك إلا أن رأسها محدد ، على شكل السكة التي يحرك
بها ، ورأس الكبش مدور ، وهذا يهدم بثقله ، وتلك تهدم بمحدثها وثقلها ، وهي
تسمى سِتُّورًا ^(٣) . ومن الستائر والسلاليم الكبار الهائلة . وأعدوا في البحر
بطاسة هائلة ، وصنعوا فيها برجاً بخروطوم ، إذا أرادوا قلبه على السور انقلب
بالحركات . ويبقى طريقاً إلى المكان الذي ينقلب عليه ؛ فتمشى عليه المقاتلة ،
وعزموا على تقريه إلى برج الذبان ليأخذوه به .

/ ذكر حريق الكبش وغيره من الآلات

١١١ ب

وذلك أن العدو لما رأى أن آلاته قد تمت واستكملت ، شرع في الزحف
على البلد ومقاتلته من كل جانب ، وأهل البلد - وفقهم الله - كلما رأوا ذلك
اشتدت عزائمهم في نصرة دين الله تعالى ؛ وقويت قلوبهم على المصابرة . ولما
كان يوم الاثنين ثالث شهر رمضان من السنة المذكورة وهو الذي قامت فيه
عساكر الشام .

(١) الأصل و م : « الصور » .

(٢) الأصل : « بسورا » ، وما هنا عن م ، وهذا وصف نادر ودقيق لنوع من أنواع الأسلحة
المستعملة لهدم الأسوار إبان الحروب الصليبية ، وفي (المعجم الوسيط) : السور جملة السلاح ، ولبوس
من ستر يلبس في الحرب كالدرع .

١) ذكر قدوم الملك الظاهر رحمه الله

فقدم الملك الظاهر ولده - صاحب حلب المحروسة - بحفلة وعسكره وهو من كبار أولاده ومقدميهم ومُهديهم ، وهو يعتمد عليه في كثير من أموره ، قدم في عشية ذلك اليوم وحده مثابرة على خدمة والده ، ومعالجة في برّه ، ثم بكر وعاد حتى لقي عسكره ، وقدم معهم بكرة الثلاثاء يرتب أطلابه ويهذبها ، ففرح والده بمقدمه وسرّ به سروراً عظيماً ، رضاه عنه بما رتب وجمع من العساكر والجنحافل ، وقدم في ذلك اليوم سابق الدين - صاحب شيزر - ، وعز الدين ابن المقدم ، ومجد الدين - صاحب بعلبك - وخلق عظيم من عساكر المسلمين ، قدموا في أحسن زى ، وأجمل ترتيب ، وأكمل عدة ، في ذلك اليوم ^(١) وكان السلطان - رحمة الله عليه - قد التث مزاجه الكريم بحمى صفراوية / يسيرة ، ١١٢ أ فركب في ذلك اليوم ، وكان عيداً من وجوه متعددة ، وفي ذلك اليوم زحف العدو على البلد في خلق لا يحصى عددهم إلا الله تعالى ، فأهملوهم أهل البلد وشجعان المقاتلة الذين فيه ، وذوو الآراء المثقفة من مقدمى المسلمين فيه ، حتى نشبت مخالب أطماعهم في البلد ، وسحبوا آلاتهم المذكورة ، حتى قاربوا أن يلصقوها بالسور ، وتحصّن منهم في الخندق جماعة عظيمة ، وأطلقوا عليهم سهام الجروح ، وأحجار المناجيق ، وأقواس الرمي والنيران ، وصاحوا عليهم صيحة الرجل الواحد ، وفتحوا الأبواب ، وباعوا أنفسهم لخالقها وباريها ، ورضوا بالصفقة الموعود بها ، وهجموا على العدو من كل جانب ، وكبسوهم في الخنادق ، وأوقع الله الرعب في قلب العدو ، وأعطى ظهره للهزيمة ، وأخذوا مشتدين هارين على أعقابهم ناكسين ، يطلبون خيامهم ، والاحتفاء بأسوارهم ،

(١) هذه الفقرة كلها غير موجودة في م ، ومكانها هناك نص آخر هو : « في أحسن رى وأجمل ترتيب ، وأكمل عدة ، مع ولده صاحب حلب ، وسابق الدين صاحب شيزر ومجد الدين صاحب بعلبك » .

لكثرة ماشاهدوا وذاقوا من الجرح والقتل ، وبقي في الخندق خلق عظيم ، فوقع فيهم السيف ، وعجل الله بأرواحهم إلى النار ، ولما رأى المسلمون ما نزل بالعدو من الخذلان والهزيمة ، هجموا على كبشهم ، فألقوا فيه النار والنفط ، وتمكنوا ١١٢ ب من حريقه لهرب المقاتلة عنه ، وأحرق حريقاً شنيعاً ، وظهرت له / طيب نحو السماء ، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل ، والشكر للقوى الجليل ، وسرت نار الكبش بقوتها إلى الستور فاحترق ^(١) ، وعلق المسلمون في الكبش الكلاب الحديد المصنوعة في السلاسل فسحبوه ، وهو يشتعل ، حتى حصلوه عندهم في البلد ، وكان مركباً من آلات هائلة عظيمة ، وألقى الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام ، وبلغنا من البلد ^(٢) أنه وزن ما كان عليه من الحديد فكان مائة قنطار بالشامى ، والقنطار مائة رطل ، والرطل الشامى بالبغدادى أربعة أرطال وربع رطل ، ولقد أنفذ رأسه إلى السلطان - رحمة الله عليه - ومثل بين يديه ، وشاهدته وقلبه ، وشكله على مثال السفود الذى يكون بحجر المدار ، قيل . إنه يُنطح به فيهدم ما يلاقه ، وكان ذلك من أحسن أيام الإسلام ^(٣) ومما استدل به على سعادة ولده الملك الظاهر حيث اقترن بمجيئه نصر الإسلام وحريق تلك الآلة المهولة المخوفة ، واتفق له ذلك مرة أخرى في حريق الأبراج ، وقد سبق شرحها ، فالله تعالى يسعد بولده الإسلام ، ويجرى نصره بأيامه على أحسن نظام ^(٤) ووقع على العدو خذلان عظيم ، ورفعوا ماسلم من آلاتهم ، وسكنت حركاتهم التى ضيّعوا فيها نفقاتهم ، وتحيرت أبصار حيلهم ، واستبشر السلطان - رحمة الله عليه - بغرة ولده ، واستبرك بها حيث وجد / النصر مقروناً بقدومه مرة بعد أخرى ، وثانية بعد أولى .

(١) الأصل : « الستور فاحترقت » ، وما هنا نص (م) .

(٢) م : « اليك » .

(٣) هذه الفقرة كلها ساقطة من (م) .

ذكر حريق البطسة المعدة لأخذ برج الدُّبَّان ^(١)

ولما كان يوم الأربعاء خامس عشر رمضان المذكور خرج أصحابنا من الثغر المحروس في شوانٍ على بغتة من العدو المخدول ، وضربوها بقوارير نبط فاحترقت ، وارتفع لهيبها في البحر ارتفاعا عظيما ، واشتبكت الأصوات بالتهليل والتكبير ، وكفى الله شرَّها ، وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وحزن الألمان لذلك حزنا عظيما ، وغشيتهم كآبة شديدة ، ووقع عليهم خذلان عميم .

ذكر خروج البرنس إلى الغارة

على البلاد الشامية التي تليه ^(١)

ولما كان يوم الخميس سادس عشر رمضان المذكور من السنة المذكورة - سنة ست وثمانين وخمسمائة - وصل كتاب طائر في طيِّ كتاب ، وصل من محروسة حماة ، قد طار به الطائر من محروسة حلب ، يذكر فيه أن البرنس - صاحب أنطاكية - خرج بعسكره نحو القرايا ^(٢) الإسلامية لشن الغارة عليها ، فبصرت به العساكر ونواب الملك الظاهر - ولد السلطان - فكمنت الكمناء ^(٣) ، وخرجوا عليه ، فلم يشعر بهم إلا والسيف قد وقع فيهم فقتل من عكرهم خمسة وسبعون / نفرا ، وأسر منهم خلق عظيم ، واستعصم بنفسه في ١١٣ ب موضع يسمى سبيحا ^(٤) ، حتى اندفعوا وساروا إلى بلده ، يسر الله فتحها .

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) م : « القرى »

(٣) م . « فكمنت له الكمينات »

(٤) م « شبيجا » .

ذكر أخذ البطستين من العدو^(١)

وفي أثناء العشر الأوسط ألفت الريح بطستين وفيها رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة ، وغنم كثيرة ، قاصدين نحو العدو ، فغنمها المسلمون ، وكان العدو قد ظفر لنا ببركوس^(٢) ، فيه نفقة ورجال ، أراد الدخول إلى البلد ، فأخذوه ، ووقع الظفر بهاتين البطستين ماحيا لذلك وجابراً ، ولم تزل الأخبار بعد ذلك تتواصل على ألسنة الجواسيس والمستأمنين أن العدو المخذول قد عزم على الخروج إلى العسكر الإسلامي خروج مصاف ومفاقسة^(٣) ، والثالث مزاج السلطان - قدس الله روحه - بحمي صفراوية ، فاقتضى الحال تأخر العسكر إلى جبل لصيق بجبل شفرعم .

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) م : « برزوق » ، والبركوس (ج) براكيس : نوع من السفن التي كانت تستعمل في الحروب بين الشرق والغرب في مياه البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى ، وهي أصغر حجماً من البطسة ؛ وجاء في الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٧) : « فأخذوا لهم بركوساً ، وهو مركب صغير » ؛ وقد ذكره (ابن مباتي : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠) وإن كان الناشر الدكتور سوربال قد أخطأ في قراءته فجعله « مركوش » - فقال : إنه مركب « لطيف يستعمل لنقل الماء لخفته ، وسقاه مائة أردب » ؛ غير أن النصوص الكثيرة التي أوردها المؤلف في هذا الكتاب والتي أوردها العماد الأصفهاني في الفتح القسي تبين في وضوح أن البركوس كان يستعمل لركوب الجند والناس عامة ، ويفهم من هذه النصوص كذلك أن حمولة البركوس الواحد كانت حوالى خمسة وعشرين رجلاً ، قال العماد في ص ٢٣١ : « أخذ من الفرلج بركوسان فيهما نيف وخمسون نفراً ... وفي الخامس والعشرين منه أحد أيضاً بركوس فيه من الفرلج مقدمون ورعوس وهم نيف وعشرون ، منهم أربعة خيالة » ؛ وجاء في (محيط المحيط) : « البركوس ، والباركوس - ضرب من السفن بين البريق والفرقاطة ، معرب » ؛ وهو مأخوذ من الإيطالية « Barcoro » ، ويقابلها بالفرنسية « Barque » ، وبالإنجليزية « Bark » انظر أيضاً : (الشيال : معجم السفن العربية ، مخطوطة لم تنشر بعد) و (ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشيال ، ج ٢ ، ص ٣٣٧)

و (Kinderman Op.bit. P.5) .

(٣) م : « ومنافسة » .

ذكر انتقال العسكر إلى شفرعم^(١)

^(٢) ولما عزم السلطان - رحمة الله عليه - على التأخر بسبب ذلك الالتياث فعله^(٢) ، وكان انتقاله في عشية الاثنين تاسع عشر رمضان من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة ، فنزل على أعلى الجبل ، ونزل الناس على رعوس التلال للاستعداد للشتاء والاستراحة من الرحل^(٣) ، وفي ذلك الزمان^(٤) مرض زين الدين يوسف بن زين الدين - صاحب / إربل - مرضاً شديداً بمحمتين مختلفتي^(٥) ١١٤ أ الأوقات ، واستأذن في الرواح فلم يؤذن له ، فاستأذن في الانتقال إلى الناصرة فأذن له في ذلك .

ذكر وفاته ، رحمه الله^(٥)

وأقام بالناصرية أياماً عدة يمرض نفسه ، فاشتد به الأمر إلى ليلة الثلاثاء ثامن عشر رمضان من سنة ست وثمانين وخمسمائة ، ثم توفي - رحمه الله - وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده ، وحزن الناس عليه ، لمكان شبابه وغرته ، وأنعم السلطان على أخيه مظفر الدين ببلدة إربل ، واستنزله عن بلاده التي كانت في يده ، وهي حرّان والرّها ، وما يتبعهما من البلاد والأعمال ، وضمّ إليه بلد

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٣) م : « الرحل » .

(٤) م : « اليوم » .

(٥) هذا العنوان ساقط من (م) .

شهر زور أيضا ، وحلف ^(١) السلطان - رحمة الله عليه - على ذلك ، وقرر معه أنه إذا تسلم المواضع سلم ما كان معه من البلاد ، وهي الرها وحران وصميصات والموزر ، وأعمال جميع ذلك ^(٢) ، واستدعى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه ، ليكون نازلا مكانه ، جابرا لخلل غيبة مظفر الدين وأقام مظفر الدين ^(٣) كوكبوري بن زين الدين على - رحمه الله - بالمعسكر المنصور ^(٤) في نظرة قدوم تقي الدين ، ولما كان ضاحى نهار ثالث شوال قدم ، وقد أعاد صحبته معز الدين سنجر ^(٥) شاه - صاحب الجزيرة - وهو ابن سيف الدين ^(٦) .

ذكر قصة معز الدين

١١٤ ب / وهذا معز الدين هو سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى ، وهو صاحب الجزيرة إذ ذاك ، وكان من قصته أنه حضر الجهاد ، وقد ذرت تاريخ وصوله ، وأنه أخذ منه الضجر والسامة والقلق ، بحيث ترددت رسله ورقاعه إلى السلطان - رحمة الله عليه - في طلب الدستور ، والسلطان يعتذر إليه بأن رسل العدو متكررة في معنى الصلح ، فلا يجوز أن تنفض العساكر حتى نتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب ، وهو لا يألو جهدا في طلب الدستور إلى أن كان يوم عيد الفطر من سنة ست وثمانين وخمسمائة حضر سحرة ذلك اليوم في باب الخيمة السلطانية فاستأذن في الدخول ، فاعتذر إليه بالتياث كان قد عرى مزاج السلطان - رحمة الله عليه - فلم يقبل العذر ، وكرر الاستئذان ، فأذن له في الدخول ، فلما مثل بالخدمة استأذن في الرواح شفاها ، فذكر له السلطان العذر في ذلك ، وقال : « هذا وقت تقدم فيه العساكر وتجتمع ،

(١) هذه الفقرة كلها ساقطة من (م) .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

لا وقت تفرقها » فانكب على يده وقبلها كالمدود له ونهض من ساعته وسار ، وأمر أصحابه أن أكفوا القدور وفيها الطعام ، وقلعوا الخيم ، وتبعوه ، فلما بلغ السلطان - رحمة الله عليه - صنيعه أمر بإنشاء مكاتبة إليه يقول فيها : « إنك أنت قصدت الانتماء إلى ابتداء ، وراجعتني في ذلك مرارا ، وأظهرت الخيفة على نفسك وبلدك / من أهلك ، فقبلتك وآويتك ونصرتك ، فبسطت يدك في أموال ١١٥ أ الناس ودمائهم وأعراضهم ، فنفذت إليك ونهيتك عن ذلك مرارا ، فلم تنته ، فاتفق وقوع هذه الواقعة للإسلام فدعوناك ، فأتييت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس ، وأقمت هذه المدينة ، وقلقت هذا القلق ، وتحركت بهذه الحركة ، وانصرفت عن غير طيب نفس ، وغير فصل حال مع العدو ، فانظر لنفسك وأبصر من تنتمى إليه غيري ، واحفظ نفسك ممن يقصدك ، فما بقي لي إلى جانبك التفات » . وسلم الكتاب إلى نجاب ، فلحقه قريب من طبرية ، فقرأ الكتاب ولم يلتفت ، وسار على وجهه . وكان الملك المظفر تقي الدين قد استدعى إلى الغزاة بسبب حركة مظفر الدين - على ما سبق شرحه - فلقية في الطريق في موضع يسمى عقبة قتيق ، فرآه محثا ، ولم ير عليه إمارات حسنة ، وسأله عن حاله ، فأخبره بأمره ، وتعتب على السلطان كيف لم يخلع عليه ، ولم يأذن له في الرواح ، ففهم الملك المظفر انفصاله من غير دستور من السلطان ، وأنه على خلاف اختياره ، فقال له : « المصلحة لك أن ترجع إلى الخدمة وتلازم إلى أن يأذن لك ، فأنت صبي ولا تعلم غائلة هذا الأمر » فقال : « ما يمكنني الرجوع » . فقال : « ترجع من غير بد ، فليس في الرواح على هذا الوجه لك راحة أصلا » . فأصر على الرواح ، فغشن عليه وقال : « ترجع من غير اختيارك » . وكان تقي الدين - رحمة الله عليه - شديد / البأس ، مقداما على ١١٥ ب الأمور ، ليس في عينه من أحد شيء ، فلما علم أنه قابضه إن لم يرجع باختياره ، فرجع معه حتى أتى العسكر ، وخرج الملك العادل - ونحن في خدمته - إلى لقاء الملك المظفر ، فوجدناه معه ، فدخلا به على السلطان ، وسألاه الصفع

عنه ، ^(١) فعفا عنه ^(١) ، وطلب أن يقيم في جوار تقى الدين ، خشية على نفسه ، فأذن له في ذلك ، فأقام في جواره إلى حين ذهابه .

ذكر طلب عماد الدين الدستور

وذلك أن عماد الدين زنكى عم المذكور ألح في طلب الدستور ، وشكا هجوم الشتاء عليه مع عدم الاستعداد له ، والسلطان - رحمة الله عليه - يعتذر إليه بأن الرسل متواترة بيننا وبين العدو في الصلح ، وربما انتظم ، فينبغي أن يكون انتظامه بحضوركم ، فالرأى مشترك ، واستأذن في أن يحمل إليه خيم الشتاء فلم يفعل ، وأن يحمل إليه نفقة فلم يفعل ، وتكررت الرسل منه إلى السلطان - رحمة الله عليه - في المعنى ، والسلطان يكرر الاعتذار ، ولقد كنت بينهم في شيء من ذلك ، وكان عند عماد الدين من العزم على الرواح ما يجاوز كل وصف ، وعند السلطان - رحمة الله عليه - من مسكه إلى أن يفصل أمر بيننا وبين العدو ما لا يُحد ، وآل الأمر إلى أن كتب عماد الدين بخطه رقعة بطلب ١١٦ أ فيها الإذن في الرواح ، / ويلين فيها ويخشن ، فأخذها السلطان - رحمة الله عليه - وكتب في ظهرها بيده الكريمة .

« من ضاع مثلى من يدي - فليت شعري ما استفادا »

فوقف عماد الدين عليها ، وانقطعت مراجعته بالكلية . وتواصلت الأخبار بضعف العدو المخدول ووقع الغلاء في بلادهم وعسكرهم ، حتى إن الغرارة من القمح بلغت في أنطاكية ستا وتسعين ديناراً ^(٢) صورية ، ولا يزيدهم ذلك إلا صبراً وإصراراً وعناداً .

(١) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٢) انظر ما فات هنا ص ٨٢ ، هامش ٢ .

ذكر خروجهم إلى رأس الماء

ولما ضاق بهم الأمر ، وعظم عليهم الغلاء ، وخرج منهم خلق عظيم مستأمنين من شدة الجوع ، عزموا على الخروج إلينا ، وكان طمعهم بسبب مرض عرى السلطان - قدس الله روحه - فظنوا أنه لا يستطيع النهوض ، وكان خروجهم يوم الاثنين حادى عشر شوال سنة ست وثمانين وخمسمائة ، بخيلهم ورجلهم ، متحملين أزواداً وخيماً ، وكان خروجهم إلى الآبار التى استحدثها المسلمون تحت تل العجل لما كانوا نزولاً عليه ، وأخذوا معهم عقيق أربعة أيام - على ما قيل - فأخبر - رحمة الله عليه - بخروجهم على هذا الوجه ، فأمر اليزك أن ينزاح من بين أيديهم إلى تل كيسان ، وكان اليزك على تل العياضية ، وكان نزول العدو على الآبار بعد صلاة / العصر من اليوم المذكور ، وباتوا تلك ١١٦ ب الليلة ، واليزك حولهم جميع الليل ، فلما طلع الصبح جاء من اليزك من أخبره - رحمة الله عليه - بأنهم قد تحركوا للركوب ، وكان - رحمه الله - قد أمر الثقل فى أول الليل أن يسير إلى الناصرة والقيمون ، فرحل الثقل وبقي الناس ، وكنت من جملة من أقام فى خدمته ، وأمر العسكر أن يركب ميمنة وميسرة وقلباً تعبئة القتال وركب - رحمة الله عليه - وصاح الجاوش بالناس فركبوا ، وساروا حتى وقف على جبل من جبال الخروبة ، وسارت الميسرة حتى بلغ آخرها الجبل ، وسارت الميمنة حتى بلغ آخرها إلى النهر وقريب البحر ^(١) ، فكان فى الميمنة ولده الملك الأفضل - صاحب دمشق - وولده الملك الظاهر - صاحب حلب - ، وولده الملك الظافر - صاحب بصرى - ، وولد ^(٢) عز الدين - صاحب الموصل علاء الدين خرم شاه ثم الملك العادل أخوه فى طرفها ، ويليهِ

(١) النص فى م : « وابتدأت الميمنة بالمسير فسارت حتى بلغ آخرها الجبل ، وسارت الميسرة حتى بلغ آخرها النهر بقرب البحر ... » .

(٢) الأصل : « وولده عز الدين » والتصحيح عن (م)

قريب منه حسام الدين لاجين والطواشي قايماز النجمي ، وعز الدين جرديك النوري ، وحسام الدين بشارة - صاحب بانياس - ، وبدر الدين دلدرم - صاحب تل باشر - الياروقي ، وجمع كثير من الأمراء . وكان في الميسرة عماد الدين زنكي - صاحب سنجار - ، وابن أخيه معز الدين - صاحب الجزيرة - وفي طرفها الملك المظفر تقي الدين ابن أخيه . وكان عماد الدين زنكي غائباً بنفسه مع الثقل لمرض كان به ، وبقي عسكره . وكان في الميسرة سيف الدين ١١٧ أ على المشطوب وجميع المهرانية ، / والهكارية ، وخشترين ، وغيرهم من الأمراء الأكراد . وفي القلب الحلقة السلطانية . وتقدم السلطان - رحمة الله عليه - أن يخرج من كل عسكر جمع من الجاليش ^(١) ، وأن يدوروا حول العدو واليزك معهم ، وأخفى بعض الأطلاب وراء التلال ، عساهم يجدون غرة من العدو (ولم يزل عدو الله يسير والناس يقاتلونهم من كل جانب ، وهو سائر على شاطئ النهر من الجانب الشرقي ، حتى أتى رأس العين ، وداروا حوله حتى عبوه إلى الجانب الغربي ، ونزلوا والقتال يتلقف منهم الأبطال ، ويصرع منهم الرجال ، وكان نزولهم على تل هناك ، وضربوا خيامهم ممتدة منه إلى النهر ، وجرح منهم في ذلك اليوم خلق عظيم ، وقتل منهم أيضاً جماعة ، وكانوا إذا جرح منهم واحد حملوه ، وإذا قتل واحد منهم دفنوه ، وهم سائرون ، حتى لا يتبين قتيل ولا جريح ، وكان نزولهم يوم الثلاثاء المذكور بعد الظهر ، وتراجعت العساكر عنهم إلى مواطن المصابرة ومواقف الحراسة ، وتقدم السلطان - رحمة الله عليه - إلى الميسرة أن تستدير بهم بحيث يقع آخرها على البحر ، والميمنة تستدير بالنهر من الجانب الشرقي ، والجاليش يقاتلهم ويضربهم بالنشاب بحيث لا ينقطع النشاب عنهم أصلاً ، وبات الناس تلك الليلة على هذا المثال . وسار هو - رحمة الله عليه - ونحن في خدمته إلى رأس جبل الخروبة الذي كان نازلاً عليه في العام /

(١) انظر ما فات هنا ص ٦٢ ، هامش ٤ .

الماضى فنزل في خيمة لطيفة والناس حوله في خيم لطاف بمراى من العدو ، وأخبار العدو تتواصل إليه ساعة فساعة إلى الصبح . ولما كان الصبح في يوم الأربعاء ثالث عشر شوال وصل من أخبر أنهم تحركوا للركوب عند الصبح فركب - رحمة الله عليه - وذلك في صبيحة الأربعاء ثالث عشر شوال ، ورتب الأطلاب وسار حتى أتى أقرب جبال الخروبة إليهم بحيث يشاهد جميع أحوالهم . وكان - رحمه الله - ملتاث المزاج ، ضعيف القوة ، قوى القلب ، ثم بعث إلى العساكر وأمرها بالمقاتلة والمضايقة والحملة عليهم من كل جانب ، وأمر الأطلاب أن تحيط بهم بحيث أن لا تكون قرية أو بعيدة ، ليكون ردءاً للمقاتلة إلى أن تضاحى النهار ، وسار العدو على شاطئ النهر من الجانب الغربى يطلب جهة خيمه ، والقتال يشتد عليهم من كل جانب ، فاشتدوا في قتالهم من كل جانب إلا من جانب النهر ، والتحم القتال ، فصُرع منهم خلق عظيم ، وهم يدفنون قتلاهم ، ويحملون جرحاهم ، وقد جعلوا راجلهم سوراً لهم ، تضرب الناس بالزنبورك (١)

(١) الزنبورك - ج : زنبوركات - قد يعنى نوعاً من القسي التى ترمى عنها السهام ؛ وقد تعنى نوعاً من السهام ذاتها ؛ فمن النصوص التى تؤيد المعنى الأول ما ورد فى (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤) عند حديثه عن فتح صهيون سنة ٥٨٤ هـ إذ يقول : « ودام رشق السهام من قسي اليد ، والجرج ، والزنبورك ، والزبار » فهذه جميعاً أنواع معروفة من القسي ، وذكر الزنبورك بينها دليل على أنه واحد منها ، وجاء أيضاً فى : (العماد : الفتح القسى ، ١٦٨) : « وتوتر الجروج والزنبوركات ، وتطير الناركات » فالتوتر لا يكون إلا للقوس ، والتطير لا يكون إلا للسهم ، فالناوك - تبعاً لهذا - نوع من السهام ؛ وجاء أيضاً فى (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٤٦) : « والروم أهل صنائع وحرف وحكم ، وفهم صبر وخدمة ، ولهم حيل فى السياسات ووضع آلات حربية ، وحظهم فى الفروسية قليل ، ولهم ضرب بالسيف ، ورمى بالجرج والزنبورك .. إلخ » . وفى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٩) : « مراكب وحراريق وفيها رماة الجروج والزنبوركات » ولكن (Dozy Supp. Dict. Arab) يورد نصاً آخر نقلاً عن تاريخ بطارقة الاسكندرية يؤيد المعنى الثانى ، أى أن الزنبورك يعنى نوعاً من السهام ، قال ما ترجمته : « والزنبورك سهم فى سمك الإبهام ، وفى طول الذراع ، وله أربعة أوجه ، وطرفه من الحديد ؛ وهو مرئش ليكون فى انطلاقه أكثر ثباتاً ، وحيثما سقط فإنه مؤكد الإصابة ، وقد اخترق الزنبورك أحياناً - فى رمية واحدة - جسمى رجلين اثنين وقف أحدهما خلف الآخر ، واخترق فى نفس الوقت درع الجندى وملابسه ، ثم نفذ بعد ذلك واستقر فى الأرض ، وقد يصيب كذلك أحجار الأسوار ؛ ويقول =

والنشاب ، حتى لا يترك أحد يصل إليهم إلا بالنشاب فإنه ، كان يطير عليهم كالجراد ، وخیالتهم يسرون في وسطهم بحيث لم يظهر أحد منهم في ذلك اليوم أصلاً ، والكوسات تحفق ، والبيقات تنعر ، والأصوات بالتهليل والتكبير ترتفع ١١٨ أ / هذا والسلطان - رحمه الله - يمد الجاليش بالأطلاب والعساكر التي عنده حتى لم يبق معه إلا نفر يسير ، ونحن نشاهد الأحوال ، وعلم العدو مرتفع على عجلة هو مفروس فيها ، وهي تسحب بالبغال ، وهم يذبّون عن العلم ، وهو عال جداً كالمنارة ، خرقة بياض ، ملمع بجمرة على شكل الصليبان ^(١) ، ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهيرة إلى قبالة جسر دَعُوق ، وقد أجمعهم العطش وأخذ منهم التعب ، وأثختهم الجراح ، واشتد بهم الأمر ، وأجمعهم العطش من شدة الحر . ولقد قاتل المسلمون في ذلك اليوم قتالاً شديداً ، وأعطوا الجهاد حقه ، وهجموا عليهم هجوماً عظيماً ، واستداروا بهم كالحلقة ، وهم لا يظهر من رجالتهم ، ولا يحملون ، وكان الفعل معظمه للحلقة في ذلك اليوم ، فإنهم أذاقوهم طعم الموت ، وجرح منهم في ذلك اليوم جماعة كإياز الطويل - رحمه الله - ، فإنه قام ذلك الحرب أعظم مقام يحكى عن الأوائل ، وجرح جراحات متعددة وهو مستمر على القتال ، وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة ، وهو من فرسان الإسلام وشجعانه ، وله مقامات متعددة ، وجرح خلق كثير في ذلك اليوم ، ولم يزل الناس حولهم حتى نزلوا ظهيرة نهار ذلك اليوم عند جسر دَعُوق ، وقطعوا الجسر وأخربوه ، خوفاً من عبور الناس إليهم . ١١٨ ب / ورجع / السلطان - رحمه الله عليه - إلى تل الخروبة . وأقام عليهم يزكا يجرسهم ، وبات وأخبارهم تتواتر عليه حتى الصباح ، وعزم في تلك الليلة على كبس بقيتهم

= دوزى بعد هذا - نقلاً عن كاترمير - إن اللفظ قد يعنى « الزنبور الصغير » سمي كذلك للشبه بين الصوت الذي تحدثه تلك الحشرة الصغيرة « الزنبور » وبين الصوت الذي يحدثه وتر القوس عند انطلاق السهم ، ثم يردف دوزى بعد هذا قوله إن هذا اللفظ أصبح - منذ اكتشاف الأسلحة الحديدية - يطلق على نوع من المدفع الصغير الذي يحمل على ظهر الجمل . انظر كذلك :

(L. Lahen : Un Traité d'Armurerie etc. P. 153-154).

(١) هذا وصف طريف ونادر لعلم الجيوش الصليبية وطريقة رفعه أثناء المعركة

في الخيم ، وكتب إلى البلد يعرفهم ذلك حتى يخرجوا هم من ذلك الجانب ، ونحن من هذا الجانب ، فلم يصل من أهل البلد كتاب ، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخير الكتاب . ولما كان صباح الخميس رابع عشر الشهر وصل من آخر أن العدو عليه حركة الرحيل ، فركب السلطان - رحمه الله - وطلب الأطلاب ، وكف الناس عن القتال خشية أن يقتالوا ، فإن العدو كان قد قرب من خيمه ، وأوقف الأطلاب في الجانب الشرقي من النهر تسير قبالة العدو حتى وصل إلى خيمه ، وكان ممن جرح من مقدمهم في هذه السرية الكُنْدَهري والمركيس وتحلف ابن ملك الألمان في الخيم مع جمع كثير منهم ، ولما دخل العدو إلى خيمه كان لهم بها أطلاب مستريحة ، فخرجت على اليزك الإسلامي وحملت عليه ، وانتشب القتال بين اليزك وبينهم ، وجرى قتال عظيم قُتل فيه من العدو وجرح خلق عظيم ، وقُتل من المسلمين ثلاثة نفر ، وقُتل من العدو شخص كبير فيهم مقدم عندهم ، وكان على حصان عظيم ، ملبس بالزرد إلى حافره ، وكان عليه لبس لم ير مثله ، وطلبوه من السلطان - رحمه الله عليه - بعد انفصال الحرب فدفع إليهم جثته وطلب / رأسه فلم يوجد ، وعاد السلطان إلى مخيمه ، وأعيد الثقل إلى مكانه ، ١١٩ أ وعاد كل قوم إلى منزلتهم وعاد عماد الدين وقد أقلعت حُمَاه ، وبقي التياث مزاج السلطان ، وهو كان سبب سلامة هذه الطائفة الخارجة كونه لا يقدر على مباشرة الأمر بنفسه ، ولقد رأيته - رحمه الله عليه - وهو يركب في حال الحرب ، كيف لم يقدر على مخالطة ^(١) القوم ، ورأيته وهو يأمر أولاده واحداً بعد واحد بمصافحة الأمر ، ومخالطة الحرب - رحمه الله عليه - ولقد سمعت منه وقائل يقول له : إن الوحش قد عظم في مرج عكا ، بحيث أن الموت قد كثر في الطائفتين ، فأنشد متمثلاً :

اقتلاني ومالكاً واقتلا مالكا معي

يريد بذلك : أنسى قد رضيت أن أتلّف أنا إذا تلف أعداء الله ، وحدث
بذلك قوة عظيمة في نفوس العساكر الإسلامية .

ذكر وقعة الكمين

ولما كان يوم الجمعة الثاني والعشرون من شوال من شهور سنة ست وثمانين
 وخمسمائة رأى - رحمة الله عليه - أن يضع للعدو كميناً ، وقوى عزمه على
 ذلك ، فأخرج جمعاً من كفاة العسكر وشجعانه ، وأبطاله وفرسانه ، وانتخبهم
 من خلق كثير ، وأمرهم أن يسيروا في الليل ، ويكمنوا في سفح تلّ هو شمالي
 ١١٩ ب عكا ، / بعيداً عن عسكر العدو ، عنده كانت منزلة الملك العادل حين وقعت
 الوقعة المنسوبة إليه ، وأن يظهر للعدو منهم نفر يسير ، وأن يقصدوه في خيمه ،
 ويحركوه حتى إذا خرج انهزموا بين يديه نحو الكمين ^(١) ، ففعلوا ذلك ،
 وساروا حتى أتوا التل المذكور ليلاً ، فكمنوا تحته ، ولما علا ^(٢) نهار السبت
 الثالث والعشرين من شوال خرج منهم نفر يسير على جياد من الخيل ، فساروا
 حتى أتوا مخيم العدو ، ورموهم بالنشاب ، وحركوا حميتهم بالضرب المتواتر ،
 فانتحى لهم مقدار مائتي فارس ، وخرجوا شاكين في السلاح على خيل جياد ،
 بعدة تامة وأسلحة كاملة ، وقصدوهم وليس معهم راجل واحد ، وداخلهم الطمع
 فيهم لقلة عدتهم ، فانهزموا بين أيديهم ، وهم يقاتلون ويتقلون ^(٣) ، حتى أتوا
 الكمين ^(٤) فخرج عليهم رجاله ^(٤) ، وثارت عند وصولهم إليه أبطاله ، وصاحوا

(١) م : « نحو المسلمين » .

(٢) م : « نخل » .

(٣) م : « وهم يقاتلونهم ويقتلون » .

(٤) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

فيهم صيحة الرجل الواحد ، وهجموا عليهم هجوم الأسد على فريستها ، فثبتوا وصبروا وقاتلوا قتالا شديداً ، ثم ولوا منهزمين فتمكن أولياء الله منهم ووقعوا فيهم ضرباً بالسيف ، حتى ألقوا ^(١) منهم جمعاً عظيماً ، واستسلم الباقون للأسر ، فأسروهم ، وأخذوا خيلهم وعددهم ، وجاء البشير إلى المعسكر الإسلامي ، فارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير ، وركب السلطان / - قدس الله روحه - ١٢٠ أ يلتقى المجاهدين ، وسار - وكنت في خدمته - حتى أتى تل كيسان ، فتلقانا أوائل القوم ، فوقف هناك يتلقى العديدين من المجاهدين ، والناس يتبركون بهم ، ويشكرونهم على حسن صنيعهم ، وهو - رحمة الله عليه - يعتبر الأسارى ويتصفح أحوالهم ، وكان ممن أسر في ذلك اليوم مقدم عسكر الافرنسيس ، فإنه كان قد أنفذ نجدة قبل وصوله ، وأسر خازن الملك أيضاً . وعاد السلطان - رحمه الله - بعد تكامل الجماعة إلى مخيمه فرحاً مسروراً ، وأحضر الأسرى عنده وأمر منادياً ينادى : « ألا إن من أسر أسيراً فليحضره » . فأحضر الناس أسراهم وكنت حاضراً ذلك المجلس ، ولقد أكرم - رحمة الله عليه - المقدمين منهم ، وخلع على مقدم عسكر الافرنسيس فروة خصاصاً ، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة خرجية ، فإن البرد كان شديداً ، وكان قد أخذ منهم ، وأحضر لهم طعاماً أكلوه ، وأمر لهم بخيمة نصبت قريباً من خيمته ، وكان يكارمهم في كل وقت ، ويحضر المقدم على الخوان في بعض الأوقات ، وأمر بتقييدهم وحملهم إلى محروسة دمشق ، فحملوهم إليها مكرمين ، وأذن لهم في أن يرأسلوا أصحابهم ، وأن يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون إليه من الثياب وغيرها ، ففعلوا ذلك وساروا إلى محروسة دمشق .

١٢٠ ب ذكر / غزو العساكر من الجهاد

ولما هجم الشتاء ، وهاج البحر ، وأمن العدو أن يضرب مصافا ، وأن

(١) م : « ألقوا »

يبلغ في طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواترها ، أذن السلطان - قدس الله روحه - للعساكر الإسلامية في العود إلى بلادها ، لتأخذ نصيبا من الراحة ، وتجهز خيولها إلى وقت العمل ، فكان أول من سار عماد الدين صاحب سنجار ، لما كان عنده من القلق في طلب الدستور ، وكان مسيره يوم الاثنين خامس عشر شوال سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وسار عقيبه في ذلك اليوم ابن أخيه سنجر شاه صاحب الجزيرة ، هذا بعد أن أفيض عليهما من التشريف والإنعام والتحف ما لم ينعم به على غيرهما . وسار علاء الدين ابن صاحب الموصل في مستهل ذي القعدة من السنة المذكورة مشرفا سكرما ، معه التحف والطرائف ، وتأخر من العساكر الملك المظفر تقى الدين إلى أن دخلت سنة سبع وثمانين ، وتأخر أيضا ولده الملك الظاهر حتى دخلت السنة المذكورة ، وسار ولده الملك الظاهر إلى محروسة حلب ضاحي نهار الأربعاء تاسع المحرم سنة سبع وثمانين ، وسار الملك المظفر في ثالث صفر منها ، ولم يبق عند السلطان إلا نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاص .

١ / ذكر وفود زلفندار عليه رحمة الله عليه

أ ١٢١

وكان وفوده عليه في أثناء شهر ذي القعدة سنة ست وثمانين ^(١) ، فتلقيه وأكرم مشواه ، وصنع ^(٢) له طعاما يوم قدومه ، وبأسطه مباسطة عظيمة ، وكانت حاجته أن يوقع له بإعادة أملاك كانت في يده ثم انتزعت ، من أعمال نصيبين والخابور ، فوقع بإعادتها إلى يده ، وأجرى الأمر فيها بعد ذلك على وفق الشريعة المطهرة ، وخلع عليه وشرفه ، وسار فرحا مسرورا شاكراً لأياديه .

(١) لم يذكر هذا العنوان في م ، وإنما ورد النص متصلا بما سبقه هكذا : « وفي أثناء ذي القعدة سنة ست وثمانين وفد عليه زلفندار فتلقيه ... إلخ » .

(٢) م : « ووضع » .

ذكر اشتغال ^(١) السلطان - رحمه الله -

بإدخال البدل إلى البلد

ولما هاج البحر وأمنت غائلة مراكب العدو ، ورفع ما كان له في البحر من الشواني إلى البر ، اشتغل السلطان - رحمه الله عليه - في إدخال البدل إلى عكا ، وحمل المير والذخائر والنفقات والعدد إليها ، وإخراج مَنْ كان بها من الأمراء ، لعظم شكائهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر ، وملازمة القتال ليلا ونهارا ، وكان مقدم البدل الداخل من الأمراء الأمير سيف الدين على المشطوب ؛ دخل في يوم الأربعاء سادس عشر المحرم من شهور سنة سبع وثمانين وخمسمائة . وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها ، وهو الأمير حسام الدين أبو الهيجاء ، وأصحابه وَمَنْ كان بها من الأمراء / ^(٢) ودخل مع المشطوب خلق ١٢١ ب من الأمراء ^(٣) وأعيان من الخلق ، وتقدّم إلى كل من دخل أن يصحب معه ميرة سنة كاملة . وانتقل الملك العادل بعسكره إلى حيفا على شاطئ النهر ، وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب وتدخل إلى البلد ، وإذا خرجت تخرج إليه ، فأقام ثُمَّ يَحْثُ الناس على الدخول ، ويحرس المير والذخائر ، لئلا يتطرق إليها من العدو يتعرضها . وكان مما دخل إليها سبع بطس مملوءة ميرة ، وذخائر ونفقات ، كانت وصلت من محروسة مصر محملة ، قد تقدم السلطان بتعبثها من مدة مديدة ، وكان دخولها يوم الاثنين ثاني ذى الحجة من السنة الخالية ، فانكسر منها مركب على الصخر الذي هو قريب الميناء ، فانقلب كل من في البلد من المقاتلة إلى ^(٤) جانب البحر ^(٥) لتلقى البطس وأخذ ما فيها . ولما علم العدو انقلاب المقاتلة إلى جانب البحر أخذوا غرتهم ، ^(٦) واجتمعوا في خلق عظيم ^(٧) ، وزحفوا على البلد من جانب البر زحفة عظيمة ، وقاربوا الأسوار ،

(١) م : ارتحال ،

(٢) هاء الجملة ساقطة من (م)

وصعدوا في سلم واحد ، فاندق بهم السلم كما شاء الله تعالى ، وتداركهم أهل البلد ، فقتلوا منهم خلقا عظيما ، وعادوا خائبين خاسرين . وأما البطس فإن البحر هاج هيجا عظيما ، وضرب بعضها ببعض على الصخر ، فهلكت وهلك جميع ما كان فيها ، وهلك فيها خلق عظيم ، / قيل كان عددهم ستين نفرا ، وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت كفت البلد سنة كاملة ، وذلك بتقدير العزيز العليم ، ودخل على المسلمين من ذلك وهن عظيم ، وخرج السلطان بذلك حرجا شديدا ، واستخلف ذلك في سبيل الله ، وما عند الله خير وأبقى ، وكان ذلك أول علامم أخذ البلد والظفر به .

ذكر وقوع قطعة من السور^(١) فهي العلامة الثانية

ولما كانت ليلة السبت سابع ذى الحجة من السنة الخالية قضى الله وقدر بأن وقع من السور قطعة عظيمة ،^(٢) فوقعت بثقلها على الباشورة^(٣) فهدمت أيضا منها قطعة عظيمة ، فداخل العدو الطمع ، وهاج للزحف هيجا عظيما ، وجاءوا إلى البلد كقطع الليل المدم من كل جانب ، فتحايا الناس في البلد وثارتمهم ، فقتلوا من العدو وجرحوا خلقا عظيما ، وقتلوهم قتالا شديدا ، حتى ضرسوا وآيسوا من أن ينالوا خيرا ،^(٤) ووقفوا كالسد في موضع القطعة الواقعة^(٥) ، وجمعوا جميع من في البلد من البنائين والصناع ، ووضعوهم في ذلك المكان ، وحموهم بالنشاب والجروح والمناجيق ، فما مرت إلا ليال يسيرة حتى انتظمت ، وعاد بناؤها أحسن ما كان وأقواه وأتقنه ، والحمد لله .

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) م : « ونقلها على الباشورة » ، والباشورة - ج : بواشير - الحائط الظاهري من الحصن يمتد في ورائه الجند عند القتال ، ويقابلها في الفرنسية «Bastion» . انظر : (Dozy. Supp. Dict. Arab) .

(٣) م : « فوقفوا على سد موقع القطعة الواقعة » .

ذكر الظفر بمراكب العدو

وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع إلينا ، وقالوا للسلطان : / « نحن نخوض البحر في براكيس ^(١) ، ونكسب من العدو ، ١٢٢ ب ويكون [الكسب] بيننا وبين المسلمين » . فأذن لهم في ذلك ، وأعطاهم بركوسا ^(٢) ، وهو المركب الصغير ، فركبوا فيه ، وظفروا بمراكب للتجار من العدو ، وهى قاصدة إلى عسكرهم ، وبضائعهم معظمها فضة مصاغة وغير مصاغة ، فوقع عليها ، وقتلوهم حتى أخذوهم ، وكسبوا منهم مالا عظيما ، وأسروهم وأحضروهم بين يدي السلطان - رحمة الله عليه - ، وذلك في ثالث عشر ذى الحجة من السنة المذكورة ، وهى سنة ست . ولقد كنت حاضرا ذلك المجلس ، وكان من جملة ما أحضروه مائدة فضة ، وعليها مكبة مخرمة من فضة ، فأعطاهم السلطان - رحمه الله - الجميع ، ولم يأخذ منهم شيئا ، وفرح المسلمون بنصر الله عليهم بأيديهم .

ذكر موت ابن ملك الألمان

لعنه الله

وذلك أن العدو لما دخل الشتاء عليهم ، وتواترت الأنباء ، واختلفت الأهواء ، وخبم المرج وخما عظيما ، ووقع فيهم بسبب ذلك موتان عظيم ، وانضم إلى ذلك الغلاء الشديد ، وانسد عليهم البحر الذى كان يجيئهم منه المير من كل جانب ، فكان يموت منهم فى كل يوم المائة والمائتان على ما قيل ، وقيل أكثر من ذلك ، ومرض ابن ملك الألمان مرضا عظيما ، وعرض له مرض الجوف ،

(١) انظر ما فات هنا ص ١٤٣ ، هامش ٦ .

فهلك به في ثاني عشرين ذى الحجة سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وحزن الفرنج ١٢٣ أ عليه حزنا عظيما ، وأشعل له / نيران هائلة ، بحيث لم يبق لهم خيمة إلا وأشعل فيها النيران والثلاثة ، بحيث بقى عسكرهم كله نارا تقد ، وفرح المسلمون بموته بمثل ما حزن الكفار بفقده ، وهلك منهم كبير يقال له الكُند ينباط ^(١) ، ومرض الكندهرى وأشفى على الهلاك . وفي الرابع والعشرين منه أخذ منهم بركوسان فيهما نيف وخمسون نفراً . وفي الخامس والعشرين منه أخذ منهم أيضاً بركوس كبير ، وأخذ جميع ما كان فيه ، وكان من جملتها كان فيه ملوطة مكللة باللؤلؤ ، هي من تفاصيل الملك ، وقيل كان في البركوس ابن أخته ^(٢) ، وأخذ أيضاً ، والله الحمد .

ذكر غارة أسد الدين

وهذا أسد الدين هو شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير ، وهو صاحب حمص ، وكان من حديثه أن السلطان - رحمة الله عليه - كان قد رسم له أن يأخذ حذره من الفرنج بطرابلس ، ويأخذ نفسه بحراسة المسلمين والفلاحين في تلك الناحية ، وأنه قيل له : إن أهل طرابلس ^(٣) قد أخرجوا دشارهم ^(٤) وخيلهم إلى مرج هناك وأبقارهم ودوابهم ، وأنه قرر مع عسكره قصدهم ، فخرج على غرة منهم ، وهجم على دشارهم ^(٤) فأخذ منهم أربعمئة رأس من الخيل ، ومائة رأس من البقر ، فهلك من الخيل أربعون ، وسلم الباقي ، وعاد إلى البلد ، ولم يفقد من أصحابه أحداً والله الحمد ، ووصل الكتاب

(١) م : د بالياط .

(٢) م : د ابن أخيه .

(٣) م : د افرنج طرابلس .

(٤) م : د جشارهم .

بذلك في رابع صفر سنة سبع وثمانين وخمسمائة^(١) . وفي / ليلة هذا اليوم أُلقت ١٢٣ ب
الريح مركباً للعدو على الذيب فكسرتة ، وكان فيه خلق عظيم ، فبصر بهم
أصحابنا ، فوثبوا عليهم ، وأخذوهم عن آخرهم ، ولقد حضرتُ وقد عرض
منهم على السلطان - رحمة الله عليه - خمسة عشر نفرأ ، وليلة هلال ربيع الأول
من هذه السنة خرج أصحابنا من البلد ، وهجموا على العدو وقتلوا منهم مقتلة
عظيمة ، وأخذوا منهم من خيمهم جمعا عظيما ، منهم اثنتا عشرة امرأة على
ما قيل^(٢) .

ذكر وقائع عدة^(٢) في سنة سبع^(٢)

وفي ثالث ربيع الأول كان اليزك للحلقة السلطانية ، وخرج من العدو
إليهم خلق عظيم ، وجرى بينهم وقعة شنيعة ، قُتل فيها من العدو جماعة ، وقُتل
منهم رجل كبير على ما قيل ، ولم يُفقد من المسلمين إلا خادم كان للسلطان
- رحمة الله عليه - يسمى قراقوش ، وكان شجاعا عظيما ، له وقعات عظيمة
كثيرة ، استشهد في ذلك اليوم - رحمه الله - ولما كان يوم السبت تاسع ربيع
الأول سنة سبع بلغ السلطان - رحمه الله - أن العدو تخرج منه طائفة وينفسحون
لبعدنا عنهم ، فاقتضى رأيه - رحمه الله - أن أنفذ أخاه الملك العادل ، وفي خدمته
خلق عظيم من العساكر الإسلامية ، وأمره أن يكمن للعدو وراء التل الذي كانت
فيه الوقعة المعروفة به ، وسار هو وجمع من كبار أهله وأصحابه ، فأكمن وراء
تل العياضية ، فكان ممن كان معه من كبار أهله الملك المظفر تقي الدين ، وابنه
/ ناصر الدين محمد ، والملك الأفضل ولده ، ومعه من صغار أولاده الملك ١٢٤ أ
الأشرف محمد ، والملك المعظم تورانشاه ، والملك الصالح إسماعيل ، وكان من

(١) هذه الفقرة الطويلة كلها ساقطة من (م) .

(٢) م . في هذه السنة ،

المعممين القاضي الفاضل ، والديوان ، وكنث في الصحبة في ذلك اليوم . وركب جماعة من الشجعان على الخيول الجياد ، وناوشوا العدو وباسطوه فلم يخرج في ذلك اليوم ، وكأنه كان قد وشى إليهم بحلية الأمر ^(١) ، إلا أن ذلك اليوم لم ينفك إلا بنوع نصر ، فإنه وصل في أثناء ذلك اليوم خمسة وأربعون نفرا من أسارى الفرنج ، كان قد أخذوا في بيروت ، وسُيروا إليه - رحمه الله - فوصلوا في ذلك اليوم إلى ذلك المكان . ولقد شاهدتُ منه رقة قلب ورحمة في ذلك اليوم لم يُر أعظم منها - رحمه الله - وذلك أنه كان فيهم شيخ كبير طاعن في السن ، لم يبق في فمه ضرس ، ولم يبق له قوة إلا مقداراً يتحرك بها لاغير ، فقال للترجمان : « سله : ما الذي حملك على المجيء وأنت في هذا السن ؟ وم من ههنا إلى بلاده ؟ » فقال : « أما بلادي فبيني وبينها مسيرة عدة أشهر ، وأما مجيئي فإنما كان للحج إلى القيامة » ^(٢) . فرق له السلطان - قدس الله روحه - ومنّ عليه وأطلقه وأعادته راكباً على فرس إلى عسكر العدو ، ولقد طلب أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير ، فلم يفعل ، فسألته - رحمه الله - عن سبب المنع ، وكنث حاجبهم فيما طلبوه ، فقال : « لئلا يعتادوا من الصغر سفك الدماء ويهون / عليهم ذلك ، وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر » ^(٣) ولا يخفى مافي طي ذلك من الرأفة والرحمة للمسلمين - رأف الله به ورحمه ^(٤) - ولما أيس من خروج العدو عاد إلى الخيم في عشية ذلك اليوم ^(٥) وهو الأحد عاشر ربيع الأول سنة سبع ، فرحاً مسروراً ^(٦) .

ذكر وصول العساكر الإسلامية

وملك الافرنسيس

ومن ذلك الوقت انفتح البحر ^(٧) وطاب الزمان ، وجاء أوان عود

(١) م : « بحلية الأمراء » .

(٢) م : « القيامة » .

(٣) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٤) م : « الباب » .

العساكر إلى الجهاد من الطائفتين ، وكان أول من قدم من عساكر المسلمين علم الدين سليمان بن جندر من أمراء الملك الظاهر ولده صاحب حلب ، وكان شيخاً كبيراً مذكوراً له وقائع ، ذا رأى حسن ، والسلطان يحترمه ويكرمه ، وله قديم صحبة ، ثم قدم بعده مجد الدين بن عز الدين فروخشاه بن شاهنشاه ، وهو صاحب بعلبك ، ^(١) قدما في ربيع الأول من شهر سنة سبع وثمانين وخمسمائة ^(٢) ، وتتابع بعد ذلك العساكر الإسلامية من كل صوب . وأما عسكر العدو المخدول ، فإنهم كانوا يتواعدون اليك ومن يقاربهم من عساكر المسلمين بقدوم ملك الفرنسيين ، وكان عظيماً عندهم ، مقدماً محترماً ، من كبار ملوكهم ، ينقاد إليه الموجودون في العسكر بأسرهم ، بحيث إذا حضر حكم على الجميع ، ولم يزالوا يتواعدونا بقدومه حتى قدم - لعنه الله - في ست بطس تحمله وتحمل ميرته ، وما يحتاج إليه من الخيل وخواص أصحابه ، وكان قدومه يوم السبت / ثالث عشرين ربيع الأول من شهر سنة سبع وثمانين وخمسمائة . ١٢٥ أ

نادرة وبشارة

وكان قد صحبه من بلاده باز عظيم عنده ، هائل الخلق ، أبيض اللون ، نادر الجنس وكان يعزه ويحبه حباً عظيماً ، فشذ البازي من يده ، وطار وهو يستجيبه ولا يجيبه ، حتى سقط على سور عكا ، فاصطاده أصحابنا ، وأنفذوه إلى السلطان ... رحمه الله - وكان لقدومه روعة عظيمة ، واستبشار عظيم بالظفر ، ولقد رأيت أنه وهو يضرب إلى البياض ، مشرق اللون ، ما رأيت بازياً أحسن منه ، فتفائل المسلمون بذلك ، وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا ، وقدم بعد ذلك كند فرند ، وكان مقدماً عظيماً عندهم مذكوراً ، كان حاصر حماة وحارم في عام الرملة .

واقعة نادرة (١)

ولما كان الثاني عشر من ربيع الآخر سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصل كتاب من اللاذقية يخبر فيه أنه كان جماعة من المستأمنين قد أعطوا براكيس ؛ ليكسبوا عليها في البحر من العدو فأخذوها ونزلوا في جزيرة قبرص في عيد لهم ، وقد اجتمع جمع كثير من أهل الجزيرة في بيعة قريبة من البحر ، وأنهم صلوا معهم صلاة العيد ، وأنهم لما فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من كان في البيعة من الرجال والنساء ، وأخذوهم عن آخرهم حتى القس ، وحملوهم وألقوهم ١٢٥ ب في مراكبهم وساروا بهم حتى أتوا اللاذقية ، / وكان من جملة من كان سبع وعشرون امرأة وأموال عظيمة اقتسموها ، فوصل إلى كل واحد على ما قيل أربعة ألف درهم من الفضة النقرة ، وقدم بعد ذلك بدر الدين شحنة دمشق في سابع عشر ربيع الآخر ، وهجم أصبحابنا على غنم للعدو فأخذوها ، وكان عددها مائة وعشرين رأساً ، فركب في طلبها الفارس والراجل ، فلم يظفروا منها بشيء والله الحمد .

ذكر خير ملك الانكثار

لعنه الله

وهذا ملك الانكثار شديد البأس بينهم ، عظيم الشجاعة ، قوى الهمة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة على الحرب ، وهو دون الفرنسيين عندهم في الملك والمرتبة ، لكنه أكثر مالا منه ، وأشهر في الحرب والشجاعة ، وكان من خبره أنه لما وصل إلى جزيرة قبرص لم ير أن يتجاوزها إلا وأن تكون له ، وفي حكمه ، فنازلها وقاتلها ، فخرج إليه صاحبها ، وجمع له خلقاً عظيماً ، وقاتله

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

قتالا شديداً ، فأنفذ الانكتار إلى عسكرهم ^(١) يستنجد منهم الجماعة ، ليعينوه على مقصوده ، فأنفذ إليه الملك جفرى أخاه ومعه مائة وستون فارساً ، وبقي الفرنج على عكا منتظرين ما يكون بين الطائفتين منهم . ولما كان يوم الأحد سلخ ربيع الآخر من سنة سبع وصلت كتب من بيروت تخبر أنه قد أخذ من مراكب الانكتار القاصدة نحو عسكر / العدو خمس مراكب ، وطراًدة ^(٢) فيها خلق ١٢٦ أ عظيم ، رجال ونساء وميرة وأخشاب وآلات وغير ذلك ، وفيها أربعون فارساً ^(٣) ، وكان ذلك فتحاً عظيماً ، استبشر به المسلمون . ولما كان يوم الخميس رابع جمادى الأولى سنة سبع زحف العدو إلى البلد ، ونصبوا عليه مناجيق سبعة ووصلت كتب من عكا بالاستنفار العظيم ، والتماس شغل العدو عنهم ، فأعلم السلطان - رحمه الله - العساكر بالعزم على الرحيل لمضايقة العدو ومقاربته ، ^(٤) وأصبح على المسير إلى جهة العدو ، فسار حتى وقف على الخروبة ، ورتب العساكر ميمنة وميسرة وقلباً ^(٥) ، ثم أنفذ من كشف حال العدو وحال خنادقهم ، هل فيها كمين للعدو أم لا ، فعادوا وأخبروا بخلوها عن الكمين ، فسار بنفسه ومعه نفر يسير من مماليكه حتى أتى خنادقهم ، وصعد تلا كان يعرف بتل الفضول ، هو قرب العدو ، مشرف على خيمه ، وشاهد المنجنوقات وما يعمل منها ، وما هو بطلال . ثم عاد سائراً إلى مخيمه . وأنا في خدمته - رحمه الله - وفي صبيحة هذه الليلة أتاه اللصوص برضيع له ثلاثة أشهر ^(٦) قد أخذوه من أمه وسرقوه ^(٧) .

(١) م : « إلى عكا » .

(٢) انظر ما فات ها ص ٤٨ ، هامش ٣ .

(٣) م : « فارسا » .

(٤) النص في م : « وأصبح على أهبة السير إلى العدو ، ورتب العساكر ، ثم أنفذ .. إلخ »

(٥) النص في م : « قد أخذ من أمه سرقة »

ذكر قصة الرضيع

وذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون ، وكان من قضيتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً ١٢٦ ب له / ثلاثة أشهر ، وساروا به حتى أتوا به إلى خيمة السلطان - رحمه الله - وعرضوه عليه ، وكان كل ما يأخذونه يعرضونه عليه ، فيخلع عليهم ويعطهم ما أخذوه ، ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور في طول تلك الليلة حتى وصل خبرها إلى ملوكهم ، فقالوا لها : « إنه رحيم القلب ، وقد أذن لك في الخروج إليه ، فأخرجي واطلييه منه ، فإنه يردده عليك » فخرجت تستغيث إلى اليك الإسلامى ، فأخبرتهم بواقعها ^(١) بترجمان كان يترجم عنها ^(٢) ، فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان ، فأتته وهو راكب على تل الخروبة ، وأنا في خدمته وفي خدمته خلق عظيم ، فبكت بكاء شديداً ، ومرغت وجهها في التراب ، فسأل عن قصتها ، فأخبروه ، فرق لها ، ودمعت عينه ، وأمر بإحضار الرضيع ، فمضوا فوجدوه قد بيع في السوق ، فأمر بدفع ثمنه إلى المشتري ، وأخذ منه ، ولم يزل واقفاً - رحمه الله عليه - حتى أحضر الطفل ، وسلم إليها ، فأخذته وبكت بكاء شديداً وضمته إلى صدرها ، والناس ينظرون إليها ويبكون ، وأنا واقف في جملتهم ، فأرضعته ساعة ثم أمر بها ، فحملت على فرس ، وألحقت بعسكرهم مع طفلها . فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشر ، اللهم إنك خلقتة رحيماً فارحمه رحمة واسعة من عندك ، يا ذا الجلال والإكرام ، فانظر إلى شهادة الأعداء ١٢٧ أ له بالركة والكرم / والرافة والرحمة .

ومليحة شهدت لها ضراتها والحسن ليس لحقه من ناكر

وفي ذلك اليوم وصل ظهير الدين بن البلنكرى ، وكان مقدماً عظيماً من

(١) هذه الجملة ساقطة من (م)

أمراء الموصل ، وصل مفارقا لهم طالبا خدمة السلطان - رحمة الله عليه - ولما عاد السلطان إلى مخيمه لم يمكث إلا ساعة حتى وصله الخبر بتجديد الزحف على عكا ، فعاد وركب من ساعته ، وسار نحو البلد ، فوصل وقد انفصل الحرب بدخول الليل بين الطائفتين .

ذكر انتقال السلطان - رحمه الله -

إلى تل العياضية

ولما كان صبيحة الثلاثاء تاسع جمادى الأولى بلغ السلطان - رحمة الله عليه - أن الفرنج قد ضايقوا البلد ، وركبوا عليه المناجيق ، فأمر الجاوش أن صاح بالناس ، وركب لركوبه العسكر : راجلهم وفارسهم ، وسار حتى أتى الخروبة ، وقوى اليك بتسييره جماعة من العسكر المنصور إليه ، فلم يخرج العدو ، واشتد زحفهم على البلد ، فضايقهم - رحمه الله - مضايقة عظيمة حتى قاتلهم قتالا شديدا ، وهجم عليهم في خنادقهم ، ولم يزل كذلك حتى عادوا عن الزحف ظهيرة نهار الثلاثاء المذكور ، وعاد العدو إلى خيمه ليأسه من أمر البلد ، وعاد السلطان - رحمه الله عليه - إلى خيمة لطيفة ضربت له هناك ، يستظل بها من الشمس ، فنزل لصلاة الظهر والاستراحة ساعة ، وقوى اليك ، وأمر الناس بالعود إلى الخيم لأخذ جزء من الراحة . وكنت في خدمته - رحمه الله - ١٢٧ ب

فبينما هو كذلك إذ وصل من اليك من أخبر أن القوم قد عادوا إلى الزحف لما أحسوا بانصرافه عنهم أشد ما كانوا أولا ، ^(١) فأمر من تبع الناس وأمرهم بالعود ^(٢) ، فتراجعت العساكر إلى جهة المخدول أصلا بأطلابا ، وأمرهم بالمبيت على أخذ لأمة ^(٣) الحرب ، وأقام هو هناك على عزم المبيت ، وفارقت

(١) النص في م : « فأمر من نه الناس وأمر بالعود » .

(٢) راجع ما فات هنا ، ص ٨٨ ، هامش ١ .

خدمته آخر نهار الثلاثاء ، وعدت إلى الخيمة ، وبات هو - - رحمه الله - وجميع
العسكر على تعبئة القتال طول الليل ، وأمر طائفة منهم بمضايقه العدو . ثم سار
العسكر أواخر ليلة الأربعاء عاشر جمادى الأولى من سنة سبع وثمانين وخمسمائة
إلى تل العياضية ، قبالة العدو ، وضربت له عليه خيمة لطيفة ، ^(١) وأمر الناس
أن ينزلوا على التل حوله على العادة في منازلهم العام الماضي ، لكن جرائد ، مع
بقاء الثقل على الخروبة ^(٢) ونازل العدو في ذلك اليوم أجمع بالقتال الشديد ،
والضرب المبرح المتواتر ، الذى لا يفتتر ، شغلا لهم عن الزحف على البلد من جميع
جوانبهم ، وهو بنفسه - رحمه الله - يدور بين الأطلاب ، ويحثهم على الجهاد
ويرغبهم فيه ، كل ذلك لشغل العدو عن مضايقة البلد . ولما رأى العدو تلك
المنازلة العظيمة ، والملازمة الهائلة ، خاف من الهجوم على خيمهم ، فتراجعوا
١٢٨ أ عن الزحف ، واشتغلوا بحفظ الخنادق ، وحراسة الخيم . ولما / رأى فتورهم عن
الزحف ، عاد إلى خيمه في تل العياضية ، ورتب على خنادقهم من يخبره بحالهم
ساعة فساعة ، إذا رجعوا إلى الزحف ^(٣) كل ذلك والعدو على إصراره في
مضايقة البلد والزحف عليه ^(٤) .

ذكر الشروع في مضايقة البلد

وقد بلغ من مضايقتهم البلد ، ومبالغتهم في طمّ خندقه أنهم كانوا يلقون
فيه موتى دوابهم بأسرها ، وآل الأمر حتى كان يلقون فيه موتاهم ، وقالوا :
كان إذا جرح منهم واحد جراحة مؤثرة مشخنة ألقوه فيه ، بهذا جميعه تواصلت
كتب أصحابنا من البلد . وأما أهل البلد فإنهم انقسموا أقساما : قسم ينزلون

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٢) النص في م : كل ذلك دفعا للعدو عن مضايقة البلد والزحف عليه .

إلى الخنادق ، ويقطعون الموقى والدواب التى يلقونها فيه قطعاً ، ليسهل نقلها ، وقسم ينقلون ما يقطعه ذلك القسم ويلقونه فى البحر ، وقسم يذبون عنهم ويدفعون حتى يتمكنون من ذلك ، وقسم فى المنجنىقات وحراسة الأسوار ، وأخذ منهم التعب والنصب ، وتواترت شكائهم من ذلك ، وهذا ابتلاء لم يُثَلِّ بمثله أحد ، ولا يصبر عليه جَلْد ، وكانوا يصبرون ، والله مع الصابرين . هذا والسلطان - رحمة الله عليه - لا يقطع الزحف عنهم ، والمضايقة على خناقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلاً ونهاراً حتى ، ^(١) يشغلهم عن البلد ، وصوبوا منجنىقاتهم إلى برج عين البقر ، وتواترت عليه أحجار المنجنىقات ليلاً ونهاراً ^(٢) حتى أثرت فيه الأثر البين ، وكلما / ازدادوا فى قتال البلد ازداد السلطان فى قتالهم ، وكبس خنادقهم ، ١٢٨ ب والهجوم عليهم ، حتى خرج منهم شخص يطلب من يتحدث معه ، فلما أخبر السلطان بذلك قال : « إن كان لكم حاجة فليخرج منكم واحد يتحدثنا ، فأما نحن فليس إليكم شغل ، ودام ذلك متصل الليل مع النهار حتى وصل الانكثار » .

ذكر وصول ملك الانكثار

ولما كان يوم السبت ثالث عشر جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وخمسمائة قدم ملك الانكثار الملعون بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاستيلاء عليها ، وكان لقدمه روعة عظيمة ، وصل فى خمسة وعشرين شانياً مملوءة بالرجال والسلاح والعدد ، وأظهر الفرنج سروراً عظيماً بقدومه وفرحاً شديداً ، حتى إنهم أوقدوا تلك الليلة نيراناً عظيمة فى خيامهم فرحاً به ، ولقد كانت تلك النيران مهولة عظيمة ، تدل على نجدة عظيمة كثيرة ، وكان ملوكهم يتواعدونا به ، وكان المستأمنون منهم يخبرون عنهم أنهم متوقفون بما يريدون يفعلونه من مضايقة البلد إلى حين قدومه ، فإنه ذو رأى فى الحرب مجرب ، وأثر قدومه فى قلوب المسلمين خشية ورهبة ، هذا والسلطان - رحمة الله عليه - يتلقى ذلك كله بالصبر والاحتساب والاتكال على الله تعالى ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

(١) هذه الفقرة ساقطة من (م) .

ذكر غريق البطسة الإسلامية

وهي العلامة الثالثة على أخذ البلد . ولما كان السادس عشر من جمادى الأولى من شهور سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصلت بطسة من بيروت ، عظيمة هائلة ، مشحونة بالآلات والأسلحة والمير والرجال الأبطال المقاتلة . وكان السلطان - رحمه الله - قد أمر بتعبئتها في بيروت ، وتسييرها ، ووضع فيها من المقاتلة خلقا عظيما ، حتى تدخل إلى البلد مراغمة للعدو ، وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلا ، فاعترضها الانكثار الملعون في عدة شوان ، قيل كان في أربعين قلعا ، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها ، واشتدوا في قتالها ، وجرى القضاء بأن وقف الهواء ، فقاتلوها قتالا عظيما ، وقتل من العدو عليها خلق عظيم ، وأحرقوا على العدو شانيا كبيرا فيه خلق ، فهلكوا عن آخرهم ، وتكاثروا على أهل البطسة ، وكان مقدمهم رجلا جيدا شجاعا ، مجربا في الحرب ، فلما رأى إمارات الغلبة عليهم ، ورأى أنهم لا بد وأن يقتلوا ، قال : « والله لا نقتل إلا عن عز ، ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئا » . فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول يهدمونها ، ولم يزالوا كذلك حتى فتحوها من كل جانب أبوابا ، فامتلأت ماء ، وغرق جميع من فيها وما فيها من الآلات والمير وغير ذلك ، ولم يظفر العدو منها بشيء أصلا ، وكان اسم المقدم / يعقوب ، من رجال حلب - رحمه الله - ، وتلقف العدو بعض من كان فيها وأخذوه إلى الشواني من البحر ، وخلصوه من الفرق ، ^(١) ومثلوا به ^(٢) ، وأنفذوه إلى البلد ليخبرهم بالوقعة ، وحزن الناس لذلك حزنا شديدا ، والسلطان - رحمه الله عليه - يتلقى ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله تعالى ، والصبر على بلائه ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

(١) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

ذكر حريق الدبابة

وذلك أن العدو المخلول كان قد اصطنع دبابة عظيمة هائلة ، بأربع طبقات : الطبقة الأولى من الخشب ، والثانية من الرصاص ، والثالثة من الحديد ، والرابعة من النحاس ، وكانت تعلو على السور ، وتركب فيها المقاتلة ، وخاف أهل البلد منها خوفا عظيما ، وحدثتهم نفوسهم بطلب الأمان من العدو ، وكانوا قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور إلا مقدار خمسة أذرع على ما يشاهد برأى العين ، وأخذ أهل البلد في تواتر ضربها ليلا ونهاراً بالنفط ، حتى قُدِّر الله حريقها واشتعال النار فيها ، وظهر لها ذؤابة نار نحو السماء ، واشتدت الأصوات بالتكبير والتهليل ، ورأى الناس ذلك جبراً لذلك الوهن ، ومحووا لذلك الأثر ، ونعمة بعد نقعة ، وإيناساً بعد يأس ، وكان ذلك في يوم غريق البطسة ، فوقع من المسلمين موقعاً وكان مسلياً لحزنهم وكآبتهم .

١٣٠ أ

/ ذكر وقعات عدة

ولما كان يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى زحف العدو على البلد زحفا عظيما ، وضايقوه مضايقة شنيعة ، وكان قد استقر بيننا وبينهم أنه متى زحف العدو عليهم دقوا كوسهم فضربوا كوسهم ، فأجابه كوس السلطان - رحمه الله - وركبت العساكر وضايقهم السلطان - رحمه الله - من خارج ، وزحف عليهم حتى هجم المسلمون عليهم في خيامهم ، وتجاوزوا خنادقهم ، وأخذوا القدور من أثافيها ، وحضر من الغنيمة المأخوذة من خيامهم شيء عند السلطان - رحمه الله عليه - وأنا حاضر ، ولم يزل القتال يعمل حتى آيقن العدو أنه قد هجم عليه وأخذ ، فتراجعوا عن قتال البلد ، وشرعوا في قتال العسكر ، وانتشبت الحرب بينهم ، ولم تزل ناشبة حتى قام قائم الظهيرة ، وغشى الناس من الحر أمر عظيم من الجانبين ، فتراجعت الطائفتان إلى خيامهم ، وقد أخذ منهم التعب والحر ، وانفض القتال في ذلك اليوم .

وقعة أخرى (١)

ولما كان يوم الاثنين ثالث عشرين جمادى الأولى سنة سبع وثمانين دق كوس البلد فجأوبه كوس السلطان - رحمه الله - وثار القتال بين الطائفتين ولج العدو في مضايقة البلد ثقةً منه أن الناس لا يهجمون على خيمهم ، وأنهم يهابونها ، ١٣٠ ب فكذب العسكر ظنونهم وهجموا الخيم أيضاً ونهبوا منها ، / فراجع العدو إلى قتلهم ، ووقع الصائح فيهم ، فلحقوا جماعة من المسلمين عظيمة داخل خنادقهم وأسوارهم ، وجرى بينهم وقعة عظيمة قتل فيها اثنان من المسلمين وجرح جماعة ، وقتل جماعة من العدو . وأعجب ما في هذه الوقعة أنه كان وصل في ذلك اليوم رجل كبير مذكور من أهل مازندران يريد الغزاة فوصل والحرب قائمة ، فلقى السلطان ، واستأذنه في الجهاد ، وحمل حملة عظيمة استشهد فيها - رحمه الله - في تلك الساعة ، ولما رأى العدو دخول المسلمين إلى خنادقهم وتوغلهم إلى داخل أسوارهم ، حركتهم الحمية ، وبعثتهم النخوة ، فركب فارسهم صحبة راجلهم ، وخرجوا إلى ظاهر أسوارهم ، وحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد ، فثبت المسلمون لهم ثبوتاً عظيماً لم يتحركوا عن أماكنهم ، والتحم القتال من الجانبين ، واشتد الضرب من الطائفتين فصبر المسلمون صبر الكرام ، ودخلوا في الحرب باقتحام ، فلما رأى العدو ذلك الصبر المعجز ، والإقدام المزعج ، أنفذ رسولا في غضون ذلك ، فاستؤذن له في الوصول ، فأذن له فوصل الرسول أولاً إلى الملك العادل - رحمه الله - فاستصحبه ، ووصل به إلى الخدمة السلطانية ومعه أيضاً الملك الأفضل ، فأدى الرسالة ، وكان حاصلها : أن ملك الانكتير يطلب الاجتماع بالسلطان ، فلما سمع السلطان - رحمه الله عليه - تلك الرسالة ١٣١ أ أجاب عنها في الحال من غير / تفكر ولا ترو ، بأن قال : « الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة ، وما يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة ، وإذا أراد ذلك

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

فلا بد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة ، ولا بد من ترجمان نثق فيه في الوسط ،
يُفَهُمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا مَا يَقُولُ الْآخَرُ ، فليكن الرسول بيننا ذلك الترجمان ، فإذا
استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى .

وقعة أخرى ^(١)

ولما كان يوم السبت ثامن عشرى جمادى الأولى خرج العدو راجلهم
وفارسهم على المسلمين من جانب البحر شمالى البلد ، وعلم السلطان - رحمه
الله - ذلك ، فركب وركب العسكر ، وانتشب القتال بين الطائفتين ، وقُتل
من المسلمين بدوى وكردى ، وقتل من العدو جماعة ، وأسر واحد بلبسه ^(٢)
وفرسه ، ومثل بين يدى السلطان - رحمه الله - ولم يزل القتال يعمل حتى
حال الليل بين الطائفتين .

وقعة أخرى ^(١)

ولما كان الأحد تاسع عشرى جمادى الأولى خرج من العدو رجاله كثيرة
على شاطئ النهر الحلو ، فلقبهم طائفة من اليزك وجرى بينهم قتال عظيم ،
ووصلت رجاله من المسلمين ، والتحم الحرب فأسروا مسلما ، وقتلوه وأحرقوه ،
وأسر المسلمون منهم واحداً فقتلوه وأحرقوه ولقد رأيت النارين تشتعلان في زمان
واحد ، ولم تزل الأخبار تتواصل من أهل البلد باستفحال أمر العدو ، والشكوى
من ملازمتهم / قتالهم ليلا ونهارا ، وذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر ١٣١ ب

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) م : « بسلحه » .

الأعمال المختلفة عليهم من حين ^(١) قدوم الانكتير الملعون ، ثم مرض مرضاً شديداً أشفى فيه على الهلاك ، وجرح ^(٢) الإفرنسيس ولا يزيدهم ذلك إلا إصراراً وعتوا .

ذكر هرب خادمين للملك ^(٣)

وكان من حديثهما أنهما كانا لأخت ملك الانكتير ، وكانا مسلمين في الباطن ، لأن إقامتهما كانت في صقلية في خدمة صاحبها ، وكانت هي زوجة صاحب صقلية ، فلما مات ومر أخوها بالبلد أخذها وصحبها معه إلى العسكر ، ولما وصل الخادمان إلى العسكر ، وقاربوا المسلمين هربا إلى العسكر الإسلامي ، وقبلهما السلطان - رحمه الله - وأنعم عليهما إنعاماً عظيماً .

ذكر هرب المركيس إلى صور

ولما كان يوم الثلاثاء سلخ جمادى الأولى قوى استشعار المركيس من أنه إن أقام قبضوا عليه ، وأعطوا صور للملك القديم ، الذي كان قد أسره السلطان - رحمه الله - لما عاناه من الأسر في نصرة دين المسيح ، فلما صبح ذلك عنده هرب إلى صور ، وأنفذوا خلفه قسوساً ليردوه ، فلم يفعل ، وسار في البحر حتى أتى صور ، وشق ذلك عليهم وعظم لديهم فإنه كان ذا رأى وشجاعة وخبرة .

(١) م : ١ من جريدة .

(٢) م : ١ وحرج .

(٣) هذا العنوان غير موحود في (م) .

ذكر قدوم بقية عساكر المسلمين

ولما كان يوم الثلاثاء سلخ جمادى الأولى قدم فيه عسكر سنجار يقدمه مجاهد الدين / یرنقش ، فلقية السلطان - رحمه الله - واحترمه وكان ديناً عاقلاً ١٣٢ أ محبا للغزو . وأنزله السلطان - رحمه الله - في الميسرة ، بعد أن كرمه وأنزله في خيمته ، وفرح بقدومه فرحا شديدا في ذلك الوقت . ثم قدم بعد ذلك قطعة عظيمة من عسكر مصر المحروسة كعلم الدين كرجى ، وسيف الدين سنقر الدوادار ، وجماعة كثيرة ، ثم قدم بعد ذلك علاء الدين ابن صاحب الموصل في عسكره ، فلقية السلطان - رحمة الله عليه - بالخروبة ، ونزلوا هنا إلى بكرة الغد من اليوم الثاني من شهر جمادى الآخر من شهور سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وأصبح سائراً حتى أتى بمحفلة قبالة العدو ، فعرض عسكره هناك ، وأنزله السلطان - رحمه الله - في خيمته ، وحمل له من التحف ، وقدم له من اللطائف ما يليق بكرمه ، وأنزله في الميمنة . وفي يوم الجمعة ثالث جمادى قدمت طائفة من عسكر مصر أيضاً ، واشتد مرض الانكتير بحيث شغل الفرنج مرضه وشدته عن الزحف ، وكان ذلك خيرة عظيمة من الله تعالى ، فإن البلد كان قد ضعف من فيه ضعفا عظيماً ، ^(١) واشتد بهم الخناق شدة عظيمة ^(٢) ، وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل ، هذا واللصوص يدخلون عليهم إلى خيامهم ، ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم ، ويأخذون الرجال في عافية ، ١٣٢ ب بأن يجيئوا إلى الواحد وهو نائم فيضعوا السكين على حلقه ويوقظوه ، ويقولون له بالإشارة : إن تكلمت ذبحناك ويحملونه ويخرجون به إلى عسكر المسلمين ، وجرى ذلك مراراً كثيرة ، وعساكر المسلمين تجتمع ويتواتر وصولها من كل جانب حتى تكامل وصولها .

(١) النص في م : « وصاق بهم الخناق »

ذكر " خروج رسولهم " إلى السلطان رحمه الله

كنت قد ذكرت خروج رسول منهم يلتمس من جانب الانكتار أنه يجتمع بالسلطان ، وذكرت عذر السلطان عن ذلك ، وانقطع الرسول وعاد معاوداً في المعنى ، وكان حديثه مع الملك العادل - رحمه الله - ثم هو يلقيه إلى السلطان - رحمه الله - ، فاستقر بالآخرة أنه رأى أن يأذن له في الخروج ، ويكون الاجتماع في المرج ، والعساكر محيطة بهما ، ومعهما ترجمان ، فلما أذن في ذلك تأخر الرسول أياماً عدة ^(١) ، يحمل تأخره على مرضه ، واستفاض أن ملوكهم اجتمعوا إليه ، وأنكروا عليه ذلك ، وقالوا : « هذه مخاطرة بدين النصرانية » ، ثم بعد ذلك وصل رسوله يقول : « لا تظنن تأخرى بسبب ما قيل ، فإن زمام قيادى مفوض إلى وأنا أحكم ولا يحكم [على] غير أنى في هذه الأيام اعتري مزاجى التياث ، منعى من الحركة ، فهذا كان العذر في التأخر لاغير ، وعادة الملوك إذا تقاربت منازلهم أن يتهادوا ، / وعندى ما يصلح للسلطان ، وأنا أستخرج الإذن في إيصاله إليه » : فقال له الملك العادل : « قد أذن لك في ذلك بشرط قبول المجازاة على الهدية » : فرضى الرسول بذلك وقال : « الهدية شيء من الجوارح قد جلبت من وراء البحر ، وقد ضعفت فيحسن أن تحمل إلينا طير ودجاج حتى نطعمها فتقوى ونحملها ، فداعبه الملك العادل - رحمه الله - وكان فقها فيما يحدثهم به ، وقال : « الملك قد احتاج إلى فراريح ودجاج ويريد أن يأخذها منا بهذه الحجة » ثم انفصل حديث الرسالة بالآخرة على أن قال الرسول : « ما الذى أردتم منا ؟ إن كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع » فقليل له : « عن ذلك نحن ما طلبناكم ، أنتم طلبتمونا ، فإن كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمعه » . وانقطع حديث المراسلة إلى يوم الاثنين سادس

(١) م : « وصول رسولهم » .

(٢) م : « عنده » .

جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، فخرج رسول الانكثار الملعون إلى السلطان - رحمة الله عليه - ، ومعه إنسان مغربى قد أسروه من مدة طويلة ، وهو مسلم قد أهداه إلى السلطان - رحمه الله - ، فقبله ، وأحسن إليه ، وأطلقه ، وأعاد الرسول مشرفاً مكرماً إلى صاحبه ، وكان غرضهم بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها ، وكان غرضنا بقبول الرسائل نعرف ما عندهم من ذلك أيضاً .

/ ذكر خبر قوة زحفهم على البلد ومضايقته ١٣٣ ب

ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمنجنيات المتواصلة الضرب ، ويثقلوا^(١) أحجارها واختصروا من القتال على هذا القدر ، حتى خلخلوا صور البلد ، وأضعفوا بنيانه ، وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم ، حتى إن جماعة منهم بقوا ليالى عدة لا ينامون أصلاً ، لا ليلاً ولا نهاراً ، والخلق الذين عليهم عدد كثير يتناوبون على قتالهم ، وهم نفر يسير قد تقسموا على الأسوار والخنادق والمنجنيات والسفن ، ولم يزل الضرب بالمنجنيات حتى تخلخل السور وظهر للعدو تخلخله وضعفه وتقلقل بنيانه . ولما أحسن العدو بذلك شرعوا في الزحف من كل جانب ، وانقسموا أقساماً ، وتناوبوا فرقاً ، كلما تعب قسم استراح وقام غيره مقامه ، وشرعوا في ذلك شروعا عظيما براجلهم وفارسهم ، وذلك في يوم الثلاثاء سابع جمادى الآخر ، هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرجالة والمقاتلة ليلاً ونهاراً ، فلما علم السلطان ذلك بأخبار من شاهده وإظهار العلامة التى بيننا وبين البلد وهى دق الكوس ، ركب وركب العسكر بأسرهم^(٢) ،^(٣) وجميع الراجل والفارس ، ووعدهم ورغبهم ، وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر عليهم^(٣) ، وجرى في ذلك اليوم / ١٣٤ أ

(١) م : « وتثقلوا » .

(٢) م : « إليهم » .

(٣) هذه العبارة ساقطة من (م) .

قتال عظيم من الجانبين ، وهو - رحمه الله - كالوالدة الشكلي ، يتحرك بفرسه من طُلب إلى طُلب ، ويحثُّ الناس على الجهاد ، ولقد بلغنا أن الملك العادل حمل بنفسه دفعتين في ذلك اليوم ، والسلطان - رحمه الله - يطوف بين الأطلاب ، وينادى بنفسه : « يا للإسلام » وعيناه تذرفان بالدمع ، وكلما نظر إلى عكا ، وما حلَّ بها من البلاء ، وما يجرى على ساكنيها من المصائب العظيمة ، اشتدَّ في الزحف والحث على القتال ، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاما البتة ، وإنما شرب أقداح مشروب كان يشير بها الطبيب ، وتأخرت عن حضور هذا الزحف لما عراني من مرض شوش مزاجي ، فكنت في الخيمة في تل العياضية وأنا أشاهد الجميع ، ولما هجم الليل عاد - رحمه الله - إلى الخيمة بعد عشاء الآخرة وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن ، فنام لاعن غفو ، ولما كان سحر تلك الليلة أمر الكوس أن دق ، وركبت العساكر من كل جانب ، وأصبحوا على ما أمسوا عليه . وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها : « إنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ، ونحن في الغد - يعني يوم الأربعاء ثامن جمادى الآخرة - إن لم تعملوا معنا شيئا نطلب الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا » وكان هذا أعظم خير ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم ، فإن عكا قد / كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر أيضاً وجميع البلاد الإسلامية ، واحتوت على كبار من أمراء العسكر وشجعان الإسلام ، كسيف الدين المشطوب ، وبهاء الدين قراقوش ، وغيرهما ؛ وكان بهاء الدين قراقوش ملزماً بحراستها منذ نزل العدو المخنول عليها ، وأصاب السلطان - رحمه الله - من ذلك ما لم يصبه بشيء غيره ، وخيف على مزاجه التشوش ، وهو لا يقطع ذكر الله والرجوع إليه في جميع ذلك ، صابراً محتسباً ملازماً مجتهداً ، والله لا يضيع أجر المحسنين ، فرأى الدخول على القوم ومهاجمتهم فصاح في العساكر الإسلامية الصائح ، وركبت الأطلاب ^(١) واجتمع الراجل

(١) م : د الأبطال .

والفارس واشتد الزحف في ذلك اليوم ، ولم يساعده العسكر في ذلك اليوم على الهجوم على العدو ، فإن الرجال من الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك^(١) والنشاب من وراء أسوارهم ، وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم ، فثبتوا وذبوا غاية الذب . ولقد حكى بعض من دخل عليهم أسوارهم أنه كان هناك راجل واحد فرنجي ، وأنه صعد سور خندقهم ، واستدبر للمسلمين ، وإلى جانبه جماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور خندقهم ، وقال : « إنه وقع فيه زهاء خمسين سهما وحجرا وهو يتلقاها ، / ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب والقتال ، حتى ضربه ١٣٥ أ زراق مسلم بقارورة نبط فأحرقه » . ولقد حكى لي شيخ عاقل جندي أنه كان من جملة من دخل قال : « وكان داخل سورهم امرأة عليها ملوطة خضراء ، فما زالت ترمينا بقوس من خشب حتى جرحت منا جماعة ، وتكاثرنا عليها ، وقتلناها ، وأخذنا قوسها ، وحملناها إلى السلطان - رحمه الله - ، فعجب من ذلك عجباً عظيماً » . ولم يزل الحرب يعمل بين الطائفتين إما قتلا وإما جرحا ، حتى فصل الليل بين الطائفتين .

ذكر ما آل أمر البلد إليه من الضعف

ووقوع المراسلة بين أهل البلد والفرنج

ولما اشتد زحفهم على البلد ، وتكاثروا عليه من كل جانب ، وتناوبوا عليه وقتل رجاله البلد وخيالاته ، بكثرة القتل منهم ، وقلة البديل الذي يدخل إليهم ، ضعفت نفوس أهل البلد لما رأوه من عين الهلاك ، واستشعروا الضعف والعجز عن الدفع وتمكن العدو من الخنادق فملأوها ، وتمكنوا من سور البلد الباشورة ، فنقبوه وأشعلوا فيه النار بعد حشو النقب ، ووقعت بدنة من الباشورة ،

(١) انظر ما فات هنا من ١٤٨ هامش ١ .

ودخل العدو إلى الباشورة وقتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نفساً وصاعداً عن
 ١٣٥ ب ذلك ، وكان منهم ستة أنفس من / كبارهم ، فقال لهم واحد : « لاتقتلوني
 حتى أرّحل الفرنج عنكم بالكلية » . فبادر رجل من الأكراد وقتله ، وقتل الخمسة
 الباقية . وفي الغد ناداهم الفرنج : « احفظوا الستة فإننا نطلقكم كلكم بهم » .
 فقالوا : « قد قتلناهم » . فحزن الفرنج لذلك حزناً عظيماً ، وبطلوا عن الزحف
 بعد ذلك أياماً ثلاثة . وبلغنا أن سيف الدين المشطوب خرج بنفسه إلى ملك
 الأفرنسيس ، وهو كان مقدّم الجماعة في المرتبة ، خرج إليه بأمان وقال : « إنا
 قد أخذنا منكم بلاداً عدة ، وكنا نهدم البلد وندخل فيه ، ومع هذا إذا سألونا
 الأمان أعطيناهم وحملناهم إلى مآمنهم وأكرمناهم ، ونحن نسلم البلد ، وتعطينا
 الأمان على أنفسنا ؟ » فأجابه بأن : « هؤلاء الملوك الذين أخذتموهم منا ، وأنتم
 أيضاً مماليكى وعبيدى ، فأرى فيكم رأى » . وبلغنا بعد ذلك أن المشطوب
 أغلظ له في القول ، وقال أقاويل كثيرة في ذلك المقام منها : « إنا ما نسلم البلد
 حتى نقتل بأجمعنا ، ولا يقتل واحد منا حتى يقتل خمسين نفساً من كباركم » .
 وانصرف عنه . ولما دخل المشطوب بهذا الخبر خاف جماعة ممن كان في البلد ،
 فأخذوا لهم بركوساً ، وهو مركب صغير ، وركبوا فيه ليلاً خارجين إلى العسكر
 الإسلامى ^(١) وذلك في ليلة الخميس التاسع من جمادى الآخرة سنة سبع
 ١٣٦ أ وثمانين ، وكان ^(٢) فيهم من المعروفين / أرسل ، وابن الجاولى الكبير ، وسنقر
 الوشاقى ، فأما أرسل وسنقر فإنهما لما وصلا العسكر المنصور تغيباً ، ولم يعرف
 لهما مكان خشية من نقمة السلطان - رحمة الله عليه - وأما ابن الجاولى فإنه
 ظفر به ، ورمى به في الزردخاناه . وفي سحرة تلك الليلة ركب السلطان -
 رحمه الله - مشعراً أنه يريد كبس القوم ، ومعه المساحى وآلات طم الخنادق ،
 فما ساعده العسكر على ذلك ، وتخاذلوا عن ذلك وقالوا : « نخاطر بالإسلام
 كله ولا مصلحة في ذلك » . وفي ذلك اليوم خرج من الأنكتار رسل ثلاثة
 طلبوا فاكهة وثلجاً ، وذكروا أن مقدم الاسبتارية يخرج في الغد - يعنى الجمعة

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

- يتحدث ويتحدثون معه في معنى الصلح ، غير أن السلطان - رحمة الله عليه - أكرمهم ، ودخلوا سوق العسكر ، وتفرجوا فيه ، وعادوا تلك الليلة إلى عسكرهم ^(١) وفي ذلك تقدم إلى صارم الدين قايمار النجمي حتى يدخل هو عليهم ، وترجل جماعة من أمراء الأكراد كالجناح إلى أسوارهم وأصحابه وهو أخو المشطوب ولفيفهم وزحفوا حتى بلغوا أسوار الفرنج ^(٢) ، ونصب قايمار النجمي علمه بنفسه على سورهم وقاتل عن العلم قطعة من النهار . وفي ذلك اليوم وصل عز الدين جرديك النوري ، وصل وسوق الزحف قائم ، فترجل هو وجماعته ، وقاتل قتالا شديداً ، واجتهد الناس في ذلك اليوم اجتهداً عظيماً .

ولما كان يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة أصبح / القوم ساكنين من ١٣٦ ب الزحف ، والعساكر الإسلامية محدقة بهم وقد باتوا ليلتهم شاكين في السلاح ، راكبين ظهور خيولهم ، منتظرين عسى يمكنهم مساعدة إخوانهم المقيمين بعكا ، يهجمون على طرف من الفرنج ، فيكسرونهم ، ويخرجون يحمي بعضهم بعضاً ، ويخرقون العسكر ، وتجاوبه العساكر من الجانب ، فيسلم من يسلم ، ويؤخذ من يؤخذ ، فلم يقدرُوا على الخروج ، وكان قد ثبت ذلك معهم ، فلم يتبهاً لهم في تلك الليلة خروج ، بسبب أنه كان هرب منهم بعض الغلمان ، فأخبر العدو بذلك فاحتاطوا عليهم ، وحرسوهم حراسة عظيمة . ولما كان يوم الجمعة خرج منهم رسل ثلاثة ، واجتمعوا بالملك العادل ، وتحدثوا معه ساعة زمانية ، وعادوا إلى أصحابهم ، ولم ينفصل الحال في ذلك اليوم ، وانقضى النهار على مقام المسلمين بالمرج في قبالة العدو المخدول ، وباتوا على مثل ذلك .

ولما كان السبت الحادى عشر من جمادى الآخرة لبست الفرنجية بأسرها لباس الحرب ، وتحركوا حركة عظيمة ، بحيث اعتقد أنه ربما كان مصافاً ، واصطفوا ، وخرج من الباب الذى تحت القبة زهاء أربعين نفساً ، واستدعوا

(١) كذا في الأصل ، والجمل في اضطراب يجعلها غير مفهومة ، وما يقابلها في (م) غير واضح كذلك فالنص هناك : « تقدم إلى صارم الدين قايمار النجمي حتى يدخل هو وأصحابه إلى أسوارهم ، وترجل جماعة من أمراء الأكراد كالجناح وأصحابه وهو أخو المشطوب ، وزحفوا حتى وصلوا أسوار الأفرنج » .

جماعة من المماليك ، وطلبوا منهم العدل الزبداني ، وذكر أنه صاحب صيدا ، طليق السلطان - رحمه الله - فحضر العدل ، وجرى مبادئ أحاديث في معنى ١٣٧ أ إطلاق العسكر الذي بعكا ، واشتطوا فيما طلبوا / في مقابلة ذلك اشتطاطاً عظيماً ، وتصرم نهار السبت ولم ينفصل حال .

ذكر كتب وصلت من البلد

ولما كان يوم الأحد ثاني عشر جمادى الآخر وصل من البلد كتب يقولون فيها : « إنا قد تبايعنا على الموت ، ونحن لا نزال نقاتل حتى نُقتل ، ولا نسلم هذا البلد ونحن أحياء ، ^(١) فابصروا كيف تصنعون ^(٢) في شغل العدو عنا ، ودفعه عن قتالنا ، فهذه عزائمتنا ، وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو أو تليّنوا له ، فأما نحن فقد فات أمرنا » . وذكر العوام الواصل بهذه الكتب أنه لما وقع بالليل [الصوت] ظن الفرنج أن عسكراً عظيماً قد عبر إلى عكا وسلم ، وصار فيها ، قال : « وجاء إنسان فرنجي فوقف تحت السور ، وصاح إلى بعض من على السور ، وقال له : بحق دينك ألا أخبرتنى كم عدد العسكر الذي دخل إليكم البارحة - يعني ليلة السبت - وكان قد وقع في الليل صوت ، وانزعج الطائفتان ، ولم يكن له حقيقة ، فقال : « ألف فارس » . فقال : لا ، لكنه دون ذلك أنا رأيتهم وهم لا يسون ثياباً خضراً » . ثم تتابعت العساكر الإسلامية وتواصلت ، واندفع كيد العدو عن القوم في تلك الأيام ، بعد أن كان قد أشفى البلد على الأنخذ ، ^(٣) فقدم يوم الثلاثاء رابع عشرة سابق الدين صاحب شيزر ، ويوم الأربعاء خامس عشرة بدر الدين دلدرم ، ومعه تركان كثير ، كان قد أنفذ إليه السلطان - رحمه الله - ذهباً / أنفق فيهم ^(٤) ، ويوم الخميس سادس عشرة أسد ١٣٧ ب

(١) م : « فانظروا أنتم كيف تعملون » .

(٢) هذه العبارة ساقطة من (م) .

الدين شيركوه . واشتد ضعف البلد وكثرت ثغر سوره ، وجاهد المقيمون فيه ، وبنوا عوض الثلثة سوراً من داخلها ، حتى إذا تم انهدامها قاتلوا عليه ، واشتد ثبات الفرنج - لعنهم الله - على أنهم لا يصالحون ولا يعطون الذين في البلد أماناً حتى يطلق جميع الأسرى الذين في أيدي المسلمين ، وتعاد البلاد الساحلية إليهم وبذل لهم تسلم البلد وما فيه دون مَنْ فيه فلم يفعلوا ، ^(١) وبذل لهم في مقابل كل واحد من الذين في البلد واحداً من أسرائهم مقابله فلم يفعلوا ^(٢) ، وبذل لهم أيضاً مع ذلك صليب الصليبوت فلم يفعلوا ، واشتد عتوهم ، واستفحل أمرهم ، وضائق الحيل عنهم ومكروا ، ومكر الله ، والله خير الماكرين .

ذكر حديث مصالحة أهل البلد

ومصانعتهم عن نفوسهم

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة خرج العوام من الثغر ، ونطقت كتبه أن أهل البلد ضاق بهم الأمر وكثرت الثغر ، وعجزوا عن الحفاظ والدفع ، ورأوا عين الهلاك ، وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضربت أعناقهم عن آخرهم ، وأخذ جميع مافيه من العدد والأسلحة والمراكب وغير ذلك ، فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع مافيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتي ألف دينار ، وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال ، / ومائة أسير ^(٢) ١٣٨ أ معينين من جانبهم ، يختارونهم ، وصليب الصليبوت ، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين ، وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم ، وذرائعهم ونسائهم وضمنوا للمركيس ^(٣) الملعون - فإنه كان قد استرضى وعاد ^(٣) - عشرة آلاف دينار ،

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) رغم أهميتها

(٢) م . و فارس .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (م)

لأنه كان واسطة ، ولأصحابه أربعة آلاف دينار ، واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج .

ذكر استيلاء العدو على عكا يسر الله فتحها

ولما وقف السلطان - رحمة الله عليه - على كتبهم ، وعلم مضمونها ، أنكر ذلك إنكاراً عظيماً وعظماً عليه هذا الأمر ، وجمع أرباب المشورة من أرباب دولته وأكابرها ، وعرفهم ذلك وشاورهم فيما يصنع ، واضطربت به آراؤه ، وتقسم فكره ، وتشوش حاله ، وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع العوام ، وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه ، وهو في مثل هذا الحال ، فما أحس المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد وذلك في ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخر سنة سبع وثمانين وخمسمائة . وصاح الفرنج صيحة واحدة ، وعظمت المصيبة على المسلمين ، واشتد حزن الموحدين وانحصر كلام العقلاء من الناس في تلاوة : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ . وغشى الناس بهتة عظيمة ، وحيرة شديدة ، ووقع في العسكر ١٣٨ ب / الصياح والعيويل والبكاء والنحيب ، وكان لكل قلب حظ في ذلك ، على قدر إيمانه ، ولكل إنسان نصيب من هذا الحظ على قدر ديانته ونخوته ، واقشعت الحال على أنه استقرت تلك القاعدة بين أهل البلد وبين الفرنج على ذلك الحال المتقدم ، وأن المركيس الملعون دخل البلد ومعه ^(١) أربعة أعلام للملوك ^(٢) ، وأخذ عوضه رهنا محمد بن باريك - رحمه الله - وكان شجاعاً من شجعان الإسلام - رحمه الله ^(٣) - ، فنصب المركيس علماً على القلعة ، وعلماً على معذنة الجامع في يوم الجمعة ، ^(٤) وعلماً على برج الداوية ^(٥) ، وعلماً على برج

(١) (م) : « ومعه أعلام الملوك » .

(٢) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٣) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

القتال ، عرضاً عن علم الإسلام ، وحيز المسلمون إلى بعض أطراف البلد ، وجرى على أهل الإسلام المشاهدين لذلك الحال ما كثر التعجب من الحياة معه . ومثلت بخدمة السلطان - - رحمة الله عليه - وهو أشد حالة من الوالدة الثكلى والولمة الحيرى ، فسليته بما تيسر من التسلية ، وأذكرته الفكر فيما قد استقبله من الأمر فى معنى البلاد الساحلية والقدس الشريف ، وكيفية الحال فى ذلك ، وإعمال الفكر فى خلاص المسلمين المأسورين فى البلد ، وذلك فى ليلة السبت الثامن عشر منه . وانفصل الحال على أن رأى التأخر عن تلك المنزلة مصلحةً فإنه لم يبق غرض فى المضايقة ، فتقدم بنقل الأثقال ليلاً إلى المنزلة التى كان عليها أولاً بشفرعم ، / وأقام هو جريدة - رحمة الله عليه - فى مكانه لينظر ماذا يكون ١٣٩ أ من أمر العدو وحال أهل البلد ، ^(١) فانتقل الناس فى تلك الليلة إلى الصباح ^(١) ، وأقام هو جريدة راجياً من الله تعالى أنه ربما حملهم غرورهم وجهلهم بالخروج إليه ، والهجوم عليه ، فينال منهم غرضاً ، ويلقى نفسه عليهم ، ويعطى الله النصر لمن يشاء ، فلم يفعل العدو شيئاً من ذلك ، واشتغلوا بالاستيلاء على البلد ، والتمكن منه ، فأقام - رحمة الله - إلى بكرة التاسع عشر من الشهر ، وانتقل سحرة تلك الليلة إلى الثقل . وفى ذلك اليوم خرج منهم ثلاثة نفر ، ومعهم الحاجب قوش ، صاحب بهاء الدين قراقوش ، فكان لسانه فإنه كان رجلاً عاقلاً ، مستنجزين ماوقع عليه عقد الصلح من المال والأسرى ، فأقاموا ليلة مكرمين ، وساروا إلى دمشق يبصرون الأسارى ، فكان مسيرهم يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من جمادى الآخرة وأنفذ السلطان - رحمة الله عليه - رسولا إلى الفرنج يسأل منهم كيف جرت الحال ، ويستعلم كم مدة تحصيل ما وقعت عليه المصالحة ، واستقرت عليه المهادنة .

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

ذكر وقعة جرت في أثناء ذلك

ولما كان يوم الخميس سلخ جهادى الآخر خرج الفرنج من جانب البحر شمالى البلد ، ومن جانب القبة ، وانتشروا انتشاراً عظيماً ، راجلهم وفارسهم ، ١٣٩ ب وضربوا / أطلاباً للقتال ، فأخبر اليّك بذلك السلطان - رحمة الله عليه - ، فدى الكوس وركب ، وأنفذ إلى اليّك ، وقوّاه برجال كثيرة ، وتوقف حتى ركبّت العساكر الإسلامية واجتمعوا ، فوقع بين اليّك وبين العدو وقعة عظيمة وقتال شديد قبل اتصال العسكر باليّك ، وكان اليّك قد قوى بمن أنفذ إليه ، فحملوا على العدو حملة عظيمة ، فانكسر العدو من بين أيديهم ، وانهمزت الخيالة ، وأسلمت الرّجالة ، وظنوا أن وراء اليّك كميناً ، فاشتدوا نحو خيامهم ، فوقع اليّك في الرّجالة ، فقتل منهم زهاء خمسين نفرًا ، وجرح خلق عظيم ، ولم يزل السيف فيهم حتى دخلوا خنادقهم . وفي ذلك اليوم وصل رسل الفرنج الذين بعثوا إلى دمشق لتفقد حال أسرائهم ، ووصل معهم من ميمزى أسرائهم أربعة نفر ، ووصل منهم في عشيته أيضاً رسل إلى السلطان في تحرير أمر الأسارى والمسلمين الذين كانوا بعكا ، ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين ، حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

ذكر خروج ابن باريك

وفي ذلك اليوم خرج حسام الدين حسين بن باريك المهرانى ، ومعه اثنان من أصحاب الانكتار ، فأخبر أن ملك الفرنسيس سار إلى صور - يسّر الله ١٤٠ أ فتحها - / وذكروا شيئاً من تحرير أمر الأسارى ، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصليوت ، وأنه هل هو في العسكر أو حُمل إلى بغداد ؟ فأحضر صليب الصليوت ، وشاهدوه وعظموه ، ورموا نفوسهم إلى الأرض ، ومرغوا وجوههم على التراب وخضعوا خضوعاً عظيماً لم يُر مثله ، وذكروا أن الملوك قد أجابوا

السلطان - رحمة الله عليه - إلى أن يكون ما وقع عليه القرار يُدفع في تروم (أى نجوم) ثلاثة ، كل ترم شهر ثم أرسل السلطان - رحمه الله - إلى الفرنسيين رسولا سار إليه إلى صور - يسر الله فتحها - بهدايا سنية وطيب كثير وثياب جميلة ، ^(١) وعاد ابن باريك ورفيقه إلى الانكثار ^(٢) . وفي صبيحة يوم السبت العاشر من رجب انتقل السلطان - رحمة الله عليه - بحلقته وخواصه إلى تل ملاصق لشفرعم ، ونزل العساكر في منازلهم على حالهم ، وهو قريب من منزلته الأولى ، ليس بينهما إلا الوادى ، ولم تزل الرسل تتواتر في تحرير القاعدة وتنجزها حتى حصل لهم ما كانوا التمسوه من الأسارى والمال المختص بذلك الترم ، وهو الصليب ، ومائة ألف دينار ، ^(٣) وألف وستمئة أسير ^(٤) ، وأنفذوا ثقاتهم ، وشاهدوا الجميع ماعدا الأسارى المعينين من جانبهم ، فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ، ولم يكلموهم حتى يحصلوا ، ولم يزالوا يطاولون ويقضون الزمان حتى انقضى الترم الأول / فكان انقضاؤه في ثامن عشر رجب . ثم أنفذوا في ذلك ١٤٠ ب اليوم يطلبون ذلك فقال لهم السلطان - رحمه الله - : « إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا ، وتتسلموا الذى عين لكم في هذا الترم ، ونعطىكم رهائن على الباقي ، يصل إليكم في ترومكم الباقية ، وإما أن تعطونا رهائن على ما نسلمه إليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا » . فقالوا : « لا نفعل شيئا من ذلك ، بل تسلمون ما يقتضيه هذا الترم ، وتقنعون بأماننا حتى نسلم إليكم أصحابكم » . فأبى السلطان - رحمه الله - ذلك ، لعلمه أنهم إن تسلموا المال والصليب والأسرى ، وأصحابنا عندهم ، لا يؤمن غدرهم ، ويكون وهن الإسلام عند ذلك عظيما لا يكاد ينجبر .

(١) هذه الحملة ساقطة من (م) .

(٢) م : « وستمئة أسير » .

١) ذكر إخراج الفرنج خيامهم

ولما رأوه - رحمة الله عليه - قد امتنع من ذلك ، أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم مبرزين ، وذلك في نهار الأربعاء الحادى والعشرين من رجب من شهور سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وكان الذى برز ملك الانكثار ومعه خلق عظيم من الخيالة والرجالة والتركلى (١) .

ذكر قتل المسلمين الذين بعكا رحمة الله عليهم

ولما رأى الانكثار الملعون توقف السلطان - رحمة الله عليه - فى بذل المال والأسارى والصليب غدر بأسارى المسلمين ، وكان قد صالحهم وتسلم البلد منهم على أن يكونوا / آمنين على نفوسهم على كل حال ، وأنه إن دفع السلطان إليهم ما استقر أطلقهم بأموالهم وذرائعهم ونسائهم ، وإن امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق ، وأخذهم أسارى ، فغدر بهم الملعون ، وأظهر ما كان أبطن ، وفعل ما أراد أن يفعله بعد أخذ المال والأسارى على ما أخبر به عنه أهل ملته فيما بعد ، وركب هو وجميع عسكر الفرنجية راجلهم وفارسهم فى وقت العصر من يوم الثلاثاء سابع عشرين رجب من سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وساروا حتى أتوا الآبار تحت تل العياضية ، وقدموا خيامهم إليها ، وساروا حتى توسطوا المرج بين تل كيسان والعياضية ، (٢) وكان اليك الإسلامى قد تأخر إلى تل كيسان لما قدموا خيامهم إلى تحت تل العياضية (٣) ، ثم أحضروا من الأسارى المسلمين من كتب الله شهادته فى ذلك ، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم فى الحبال ،

(١) هذه الفقرة كلها غير موجودة فى (م) .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

وأوثقوهم في الحبال ، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد ، فقتلوهم صبرا طعنا وضربا بالسيف - رحمة الله عليهم - واليزك الإسلامى يشاهدهم ، ولا يعلم ماذا يصنعون لبعدهم عنهم ، وكان اليزك قد أنفذ إلى السلطان - رحمة الله عليه - وأعلمه بركوب القوم ووقوفهم ، فأنفذ إلى اليزك مَنْ قَوَّاه ، وبعد أن فرغوا حمل المسلمون عليهم ، وجرت بينهم حرب عظيمة ، جرى فيها قتل وجرح من الجانبين . ودام القتال إلى أن فصل الليل بين / الطائفتين ، وأصبح المسلمون ١٤١ ب يكشفون الحال ، فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم ، وعرفوا مَنْ عرفوه منهم ، وغشى المسلمين بذلك حزنٌ عظيم وكآبة عظيمة ، ولم يبقوا من المسلمون إلا رجلا معروفاً مقدماً أو قويا أيدا ^(١) ، للعمل في عمائرهم ، وذكر لقتلهم أسباب منها : أنهم قتلوهم في مقابلة من قتل منهم ، وقيل : إن الانكثار كان عزم على المسير إلى عسقلان للاستيلاء عليها ، فما رأى أن يخلف تلك العدة في البلد وراءه ، والله أعلم .

ذكر انتقال العدو إلى طرف البحر

من جانب الغرب ^(٢)

ولما كان يوم الخميس تاسع عشرين من رجب ركبت الفرنجية بأسرها ، وقلعت خيامهم ، وحملوها على دوابهم ، وساروا حتى قطعوا النهر إلى الجانب الغربى ، وضربوا الخيام على طريق عسقلان ، وأظهروا العزم على المسير على شاطئ البحر ، وأمر الانكثار بيباقى الناس أن يدخلوا إلى البلد ، وكانوا قد سدوا ثغره وثلمه ، وأصلحوا ما استرم منه ، وكان مقدم العسكر الخارج السائر الانكثار - لعنه الله - وجمع عظيم من الخيالة والرجالة .

(١) م : « أقوى يد » .

(٢) نص العنوان في (م) : « ذكر مسير العدو إلى عسقلان وانتقاله إلى طرف البحر من جانب العرب » وهو قد أدمج العنوان الأصل في العنوان الذى يليه هنا بمتن الأصل ، والمخطوطة التى اعتمدناها فصلت بين العنوانين .

ذكر مسيرهم إلى جهة عسقلان

ولما كان يوم الأحد مستهل شعبان سنة سبع ثمانين وخمسمائة اشتعلت نيران العدو في سحرة ذلك اليوم وعادتهم أنهم إذا أرادوا الرحيل أشعلوا نيرانهم ، ١٤٢ أ وأخبروا اليك بحركتهم ، / فأمر السلطان الثقل أن يرفع حتى يبقى الناس على ظهر ، ففعل الناس ذلك ، وهلك من الناس قماش كثير ، وحوائج كثيرة من السوق ، لم يكن معهم ظهر يحمل جميع ما عندهم ، لأن كل إنسان كان يحصل ما يحتاج إليه في أشهر ، وكل واحد من السوق عنده ما ينقله من منزل إلى منزل في مرار متعددة ، لكن هذا المنزل لم يمكن أن يتخلف فيه أحد لقربه من الفرنج الذين بعكا ، والخوف منهم . ولما أن علا النهار شرع العدو في السير على جانب البحر ، وتفرقوا قطعا ثلاثة كل قطعة تحمل نفسها ، وقوى السلطان - رحمة الله عليه - اليك ، وأنفذ معظم العساكر تسير قبالتهم ، فمضوا وقاتلوهم قتالا شديداً ، وأنفذ ولده الملك الأفضل يخبره أنه انقطع طائفة منهم عن الرفقة ^(١) ، وقد لوزناهم ^(٢) بالقتال حتى قد عادوا يطلبون خيامهم ، فلو قوينا لأخذناهم ، فسير السلطان - رحمه الله - خلقاً عظيماً من العسكر ، وسار هو بنفسه حتى أتى أوائل الرمل ، وأمر الثقل أن يسير على الطريق إلى القيمون ، وسار هو - وأنا في خدمته - حتى أتينا أوائل الرمل ، فلقينا الملك العادل ، وأخبر السلطان أن تلك الطائفة قد التحقت بالطائفة الأولى ، ومعظم القوم قد عبروا نهر حيفا ، ونزلوا ، والباقون قد لحقوهم ، وليس للمسير خلفهم حاصل إلا إتعاب الخيل ١٤٢ ب وضياع النشاب لا غير ، فتراجع السلطان / - رحمه الله - عن القوم لما تحقق ذلك ، وأمر طائفة من العسكر تسير وراء الثقل ، تلحق ضعيفهم بقويهم ، وتكف عنهم من يلتحق بهم من العدو من الطماعة ، وسار هو حتى وصل إلى القيمون

(١) م : « الموافقة » .

(٢) م : « نازلناهم » .

- وأنا في خدمته - حتى أتى القيمون عصر ذلك النهار ، فنزل وقد ضرب له الدهليز ، وشقة دائرة حوله لا غير ، واستحضر الجماعة ، وأكلوا شيئاً ، واستشارهم فيما يفعل .

المنزل الثاني :

فاتفق رأى الجماعة على أنهم يرحلون بكرة غد هذا ، وقد رتب حول الفرنج يزكا يبيتون حوله يرقبون أمره . ولما كان صباح الاثنين ثانی شعبان المذكور رحل السلطان - رحمة الله عليه - الثقل ، وأقام هو يترصد أخبار العدو ، فلم يصله منها شيء إلى أن علا النهار فسار في أثر الثقل حتى أتى قرية يقال لها الصباغين ، فجلس ساعة يترقب أخبار العدو ، فلم يصله خبر وكان ^(١) قد نزل على الدين سليمان بن جندر في منزلته بالأمس ^(١) ، وخلف جورديك قريب العدو ^(٢) ، وبعث خلقاً عظيماً ^(٢) باتوا قريب العدو ، فلم يصله خبر أصلاً ، فسار حتى أتى الثقل ، وهو في منزلة يقال لها عيون الأسود . ولما بلغنا المنزل - رأى رحمة الله عليه - خيماً فسأل عنها ، فقيل إنها خيم الملك العادل ، فعدل لينزل عنده ، وسرنا نحن ونزلنا في خيمنا ، فأقام عنده ساعة ، ثم أتى خيمته ، وفُقد الخبز في هذه المنزلة بالكلية ، / وغلا الشعير حتى بلغ الربع درهما ، وبلغ ١٤٣ أ ^أ البقسماط رطل بدرهمين . ثم أقام السلطان - رحمه الله - حتى عبر وقت الظهر ، ثم ركب وسار إلى موضع يسمى الملاحه ، يكون منزلاً للعدو إذا رحل من حيفا ، وكان قد سبق لتفقد المكان ، وأنه هل يصلح للمصاف أم لا ، وتفقد أراضي قيسارية بأسرها إلى الشعرا ، وعاد إلى المنزل بعد دخول وقت العشاء الآخرة ، وقد أخذ منه التعب ، وكنث في خدمته ، وسألته عما بلغه من خبر العدو فقال : « وصل إلينا مَنْ أخبرنا من أصحابنا أنه ما رحل العدو من حيفا إلى عصر يومنا

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٢) م : « وتعقب خلق عظيم » .

هذا - يعنى يوم الاثنين ثانى شعبان - ، وها نحن مرتقبون أخبارهم ، ويكون العمل بمقتضاها . وبات تلك الليلة ، وأصبح مقيماً بتل الزلزلة ينتظر العدو ، ونادى الجاوش بالعسكر للعرض ، فركب الناس على ترتيب المصاف وأهبطه ، ^(١) وخرجوا عن الخيم ، واصطفوا ميمنة وميسرة وقلبا ، وكان بحمد الله على ما يؤثر أولياء الإسلام ، ثم عاد إلى خيمه ، وعاد الناس ^(٢) وقد علا النهار ، ونزل السلطان - رحمة الله عليه - في خيمته ، وأخذ نصيباً من الراحة بعد الغذاء ومثول جماعة من الأمراء بخدمته ، وأخذ رأيهم فيما يصنعون ، ثم صلى الظهر وجلس يطلق أثمان الخيول المجروحة وغيرها إلى عشاء الأخيرة من مائة دينار إلى ١٤٣ ب مائة وخمسين وزائداً / وناقصاً ، فما رأيت أفسح صدراً منه ولا أبسط وجهها في العطاء . واتفق الرأي على رحيل الثقل في عصر ذلك اليوم إلى مجدل يابا .

المنزل الثالث :

وكان نزول الثقل بمجدل يابا بكرة ، وأقام هو بالمنزل جريدة إلى الصباح ، ورحلوا ^(٣) إلى جهة العدو ، فرحل الثقل من وقت العشاء ، ولم يبق مع الناس المقيمين مع السلطان إلا خف من الأقمشة ، وبات في منزلته إلى الصباح يوم الأربعاء رابع شعبان سنة سبع وثمانين ^(٤) ، وركب وسار إلى رأس النهر الجارى إلى قيسارية ، ونزل جريدة هناك ، وبلغ البقسماط إلى رطل بأربعة دراهم في تلك المنزلة ، والشعير الربع بدرهمين ونصف ، والخبز لم يوجد أصلاً ، ونزل في خيمته قريب صلاة الظهر ، وأكل خبزاً وصلى الظهر ، وركب إلى طريق العدو لتجديد ارتياده ^(٥) في ضرب المصاف ، ولم يعد إلى أن دخل وقت

(١) هذه الفقرة ساقطة من (م) .

(٢) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٣) م : « إرشاده » .

العصر ، فجلس ساعة ، وأخذ جزءاً من الراحة ، ثم عاد وركب وأمر الناس بالرحيل ، ورمى خيمته ، ورمى الناس خيامهم في أواخر نهار الأربعاء^(١) رابع شعبان سنة سبع^(٢) .

المنزل الرابع :

وكان الرحيل إلى رابية متأخرة عن تلك الرابية لكنها في المنزل أيضاً ، فنزل هناك الثقل ، وعاد هو من ركوبه - رحمه الله - بعيد المغرب ، وفي تلك المنزل أوتى باثنين من / الفرنج قد تخطفهم اليّزك من العدو ، فأمر بضرب رقابهما ، ١٤٤ أ فقتلا وتكاثر الناس عليهما بالسيوف تشفياً ، ثم بات هناك ، وأصبح مقيماً بالمنزلة لأنه لم يصح عن العدو رحيل ، وأنفذ إلى الثقل حتى يعود إليه في تلك الليلة مما طراً على الناس من الضيق في المأكل والقضم ، وركب - رحمة الله عليه - في وقت عادته ، وساروا إلى جهة العدو ، وأشرف على قيسارية ، وعاد إلى الثقل قريب الظهر ، وقد وصله الخبر أن العدو لم يرحل بعد من الملاحاة ، وأحضر عنده اثنان أيضاً قد أخذ من أطراف العدو ، فقتلا أيضاً شر قتلة ، وكان في حدة الغيظة^(٢) لما جرى على أسرى عكا ثم أخذ جزءاً من الراحة ، وجلس بعد صلاة الظهر ، وحضرتُ عنده وقد أحضر بين يديه من العدو فارس مذكور قد أخذ ، وهيئته تخبر عن أنه متقدم فيهم ، فأحضر ترجمان ، وبحث منه عن أحوال القوم ، وسأله : « كيف يسوى الطعام عندكم ؟ » . فقال : « أول يوم رحلنا من عكا كان الإنسان يشبع بستة قراطيس ، ثم لم يزل السعر يغلو حتى صار يشبع بثماني قراطيس » . وسئل عن سبب تأخرهم في المنازل فقال : « لانتظار وصول المراكب بالرجال والميرة » . فسئل عن القتلى والجرحى في يوم رحيلهم ، فقال : « كثير » . فسئل عن الخيل التي هلكت في ذلك اليوم فقال : « مقدار

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٢) م : « الضيقة » .

١٤٤ ب. أربعمائة فرس « فأمر بضرب عنقه ، / ونهى عن التمثيل به فسأل الترجمان عما قال السلطان - رحمه الله - فأخبره بما قال ، فتغير تغيراً عظيماً . وقال : « أنا أخلص لكم أسيراً من عكا » . فقال له - رحمه الله - « بل أميراً » . فقال : « لا أقدر على خلاص أمير » فشفع الطمع فيه وحسن خلقته ، فإني ما رأيت أتم خلقة مع ترف في الأطراف ورفاهية ، فأمر أن يترك الآن ويؤخر ، فصُفِّد ، وعاتبه على ما بدا منهم من الغدر بقتل الأسرى ، فاعترف بأنه قبيح ، وأنه لم يجر إلا برضا الملك وحده . ثم ركب السلطان - رحمه الله عليه - بعد صلاة العصر على عادته . هذا كله في يوم الخميس خامس شعبان . وبعد أن نزل السلطان - رحمه الله - أمر بقتل الفارس المذكور فقتل ، وأتى بعده باثنين فأمر بقتلهما ، فقتلا ، وبات في ذلك المنزل تلك الليلة ، وذكر له في السحر أن العدو قد تحرك نحو قيسارية ، وقارب أوائلهم البلد ، فرأى أن يتأخر من طريق العدو منزلاً آخر .

المنزل الخامس :

فرحل ، ورحل الناس إلى تل قريب من التل الذي كنا عليه ، فنزل الناس ، وضربت الخيام ، ومضى - رحمه الله - يرتاد الأراضى الكائنة في طريق العدو ، لينظر أيها أصليح للمصاف ، ونزل قريب الظهر ، واستدعى أخاه الملك العادل ، وعلم الدين سليمان بن جندر ، وأخذ رأيهما فيما يصنع ، وأخذ جزءاً من ١٤٥ أ. الراحة ، وأذن الظهر ، فصلى وركب للتشوف / على العدو ، وتنسم أخباره ، وأتاه اثنان من الفرنج قد نهبوا ، فأمر بقتلهما ، فقتلا ، ثم أتى باثنين آخرين ، فقتلا أيضاً ، وذلك في يوم الجمعة سادس شعبان المذكور ، وجيء في أواخر النهار باثنين فقتلا أيضاً ، وعاد من الركوب آخر النهار صلاة المغرب ، فصلى وجلس على عادته ، واستدعى أخاه الملك العادل - رحمه الله - وصرف الناس وخلا به إلى هَوَيٍّ ^(١) من الليل ، ثم بات ، وأصبح ونادى الجاوش لعرض

(١) م : « هوى » .

الحلقة لا غير ، وركب إلى جهة العدو ، ووقف على تلول مشرفة على قيسارية ، وكان العدو قد وصل إليها نهار الجمعة ولم يزل يعرض هناك إلى أن علا النهار ، ثم نزل وأكل الطعام ، وركب إلى أخيه ، وعاد بعد صلاة الظهر ، وأخذ جزءاً من الراحة ، وجلس ^(١) فتوضأ وصلى ^(٢) ، وأتى بأربعة عشر من الفرنج وامرأة فرنجية بينهم أسيرة ، وهى بنت فارس مذكور ، ومعها أسيرة مسلمة قد أخذتها ، فأطلقت المسلمة ، ودفع الباقيون إلى الزردخانا ، وهؤلاء أتى بهم من بيروت ، أخذوا في ركب من جملة عدد كثير قتلوا كل ذلك في نهار السبت سابع شعبان وهو في المنزلة ينتظر رحيل العدو المخدول ، مجتمعاً على لقائه إذا رحل .

المنزل السادس :

ولما كان صبيحة يوم الأحد الثامن من شعبان / سنة سبع ركب السلطان ١٤٥ ب - رحمة الله عليه - على عادته ، ثم نزل فوصل من أخبر أن العدو على حركة ، وكانت الأطلاب قد باتت حول قيسارية في مواضعها ، فأمر بمد الطعام ، وأطعم الناس ، فوصل ثانياً وأخبر أن القوم قد ساروا ، فأمر بالكوس فدق ، وركب - رحمه الله - وركب الناس معه ، وسار وسرّت في خدمته حتى أتى عسكر العدو ، فصاف الأطلاب حوله وأمر بقتالهم ، وأخرج الجاليش ، فكان النشاب بينهم كال مطر ، وكان عسكر العدو المخدول قد ترتب ، فكانت الرجالة حوله كالسور وعليهم الكبورة ^(٢) الشخينة ، والزرديات السابعة المحكمة ، بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون ^(٣) ، وهم يرمون بالزنبورك ، فيجرح خيول المسلمين وخيالتهم ورجالته ، ولقد شاهدتهم وينغرز في ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة ،

(١) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٢) م : « اللبود » .

(٣) م : « ولا يتأثرون » .

وهو يسير على هيئته من غير انزعاج ، وثمّ قسم آخر من الرجال مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم فإذا تعب هؤلاء المقاتلة أو أثختهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح ، واستراح القسم العمّال ^(١) هذا والخيالة في وسطهم لا يخرجون عن الرجال إلا في وقت الحملة لا غير ، وقد انقسموا أيضا ثلاثة أقسام : الأول الملك العتيق جُفري وجماعة الساحلية معه في المقدمة ، والانكثار ١٤٦ أ والفرنسيّة / معه في الوسط ، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أخرى في الساقة . وفي وسط القوم برج على عجلة ، وعلمهم على ما وصفته من قبل يسير أيضا في وسطهم على عجلة كالمنارة العظيمة .

هذا ترتيب القوم على ما شاهدته وأخبر به من خرج منهم من الأسرى والمستأمنين . وساروا على هذا المثال وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين ، والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنشاب ، ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا ، وهم يحفظون أنفسهم حفظا عظيما ، ويقطعون الطريق على هذا الوضع ، ويسرون سيرا رفقاً ، ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر إلى أن أتوا المنزل ، ونزلوا ، وكانت منازلهم قرية لأجل الرجال ، فإن المستريحين منهم كانوا يحملون أثقالهم وخيامهم ، لقلة الظهر عندهم ، فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة من غير ديوان ^(٢) ولا نفع ، وكان منزلهم قاطعاً نهر قيسارية ، يسر الله فتحها .

المنزل السابع :

ولما كانت صبيحة الاثنين التاسع من شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصل مَنْ أخبر أن العدو قد ركب سائراً ، فركب السلطان - رحمة الله عليه - أول الصبح ، وطلب الأطلاب ، وأخرج من كل طَلَب جاليشا ، وسار يطلب

(١) م : « المقاتل » .

(٢) م : « دين » .

القوم ، فأتيناهم وهم سائرون على عادتهم ثلاثة أقسام ، فطاف الجاليش حولهم من كل جانب ولزوهم / بالنشاب وهم سائرون على المثال الذي حكيت ، وكلما ١٤٦ ب ضعف قسم عاونه الذي يليه وهم يحفظ بعضهم بعضا ، والمسلمون محدقون بهم من ثلاث جوانب ، والقتال عليهم شديد ، والسلطان - رحمه الله - يقرب الأطلاب ، ورأيتهم يسير بنفسه بين الجاليش ونشاب القوم يتجاوزوه ، وليس معه إلا صبيان بجنيبين لا غير ، وهو يسير من طلب إلى طلب ، يحثهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم ومقاتلتهم ، والكوسات تخفق ، والبوقات تنعر ، والصياح بالتهليل والتكبير يرتفع ، هذا والقوم على أتم ثبات على ترتيبهم لا يتغيرون ولا ينزعجون ، وجرت حملات كثيرة ، ورجالتهم تخرج المسلمين وحيولهم بالزنبورك والنشاب ، ولم يزل الناس حولهم يقاتلونهم من كل جانب ، ويحملون عليهم وهم ينكثون بين أيديهم ثم يعكرون عليهم ، إلى أن أتوا إلى نهر يقال له نهر القصب ، فنزلوا عليه ، وقد قام قائم الظيرة ، وضربوا خيامهم ، وتراجع الناس عنهم ، فإنهم كانوا إذا نزلوا أيس الناس من أمر يتم معهم ، ورجعوا عن قتالهم .

وفي ذلك اليوم قُتل من فرسان الإسلام ^(١) وشجعانه إياز الطويل ^(٢) بعض ممالك السلطان - رحمه الله عليه - وكان قد قتل فيهم ، وقتل خلقا عظيما من خيالتهم وشجعانهم ، وكانت قد استفاضت شجاعته بين العسكرين / بحيث إنه ١٤٧ أ جرت له وقعات كثيرة صدقت أخبار الأوائل ، وصار بحيث إذا عرفه الفرنج في موضع تجافوا عنه . تقنطر به فرسه ، فاستشهد في ذلك اليوم ، ^(٣) ودُفن على تل مشرف على البركة ^(٤) ، وحزن المسلمون عليه حزنا عظيما ، وقُتل عليه مملوك له ، ونزل السلطان بالثقل على البركة ، وهو موضع تجتمع فيه مياه كثيرة ، وأقام - رحمه الله عليه - في تلك المنزلة إلى بعد صلاة العصر ، أطعم الناس

(١) م : « شجاع اسمه إياز الطويل » .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

خبزاً ، واستراحوا ساعة ، ثم رحل بعد صلاة العصر ، وأتى نهر القصب ، فنزل عليه أيضاً فكنا نشرب من أعلاه ، والعدو يشرب من أسفله ليس بيننا إلا مسافة يسيرة . وبلغ الشعير في هذه المنزلة الربع بأربعة دراهم ، والخبز موجود كثيراً وسعره رطل بنصف درهم ، وأقام ينتظر رحيل الفرنج حتى يرحل في مقابلتهم ، وباتوا تلك الليلة هناك وبتنا أيضاً .

ذكر وقعة جرت

وذلك أن جماعة من العسكر الإسلامى كانوا يتشرفون ^(١) على العدو فصادفوا جماعة منهم غير مسلحين يتشرفون أيضاً على العسكر الإسلامى ، فظفروا بهم ، وهجموا عليهم وجرى بينهم قتال عظيم ، فقتل من العدو جماعة ، وأحس بهم عسكر العدو فثار إليهم منهم جماعة واتصل الحرب ، وقتل من المسلمين ١٤٧ ب نفران ، وأسر من العدو ثلاثة ، ومثلوا بخدمته - رحمة الله عليه - / فسأهم عن الأحوال ، فأخبروا أن ملك الانكتار كان قد حضر عنده بعكا إثنان بدويان ، وأنهما أخبراه بقلّة عدد العسكر الإسلامى ، وتشذبه ، وأن ذلك هو الذى أطعمه حتى خرج ، وأنه لما كان بالأمس - يعنى يوم الإثنين - رأى من المسلمين قتالا عظيما ، واستكثر الأطلاب ، وأنه جرح أمس زهاء ألف نفس ، وقتل جماعة ، وأن ذلك هو الذى أوجب إقامته اليوم حتى يستريح عسكره ، وأنه لما رأى ما أصابهم بالأمس من القتال العظيم ، ورأى كثرة المسلمين أحضر البدويين عنده ، وواقفهما ، وضرب أعناقهما وأقمنا فى ذلك اليوم فى تلك المنزلة ، لإقامة العدو بها ، وهو يوم الثلاثاء العاشر من شعبان سنة سبع وثمانين وخمسائة .

المنزل الثامن :

ولما كان ظهيرة نهار الثلاثاء المذكور ، ورأى السلطان - رحمه الله -

(١) م : مشرفين .

الرحيل والتقدم إلى قدام العدو ، فدى الكوس ، ورحل ورحل الناس ، ودخل في شعرا أرسوف حتى توسطها إلى قل عنده قرية تسمى دير الراهب فنزل هناك ، ودرهم الناس الليل ، فتقطعوا في الشعرا ، وأصبح مقيما ينتظر بقية العساكر إلى صباح الأربعاء ، الحادى عشر من شعبان المذكور ، وتلاحقت العساكر الإسلامية ، وركب يرتاد موضعا يصلح للقتال ولقاء العدو ، وأقام ذلك اليوم أجمع هناك . ومن أخبار العدو في ذلك اليوم أنه أقام / على نهر القصب في ذلك ١٤٨ أ اليوم أيضا ، وأنه لحقه نجدة من عكا في ثمانى بطس كبار ، ويذكر الإسلام حوله يواصلون بالأخبار المتجددة لهم ، وجرى بين اليزك وبين حشاشة العدو قتال ، وجرح من الطائفتين .

ذكر مراسلة جرت في ذلك اليوم

وذلك أن العدو المخدول طلب من اليزك مَنْ يتحدث معه ، وكان مقدم اليزك علم الدين سليمان بن جندر ، فإنها كانت نوبته ، فلما مضى إليهم من يسمع كلامهم . كان كلامهم طلب الملك العادل حتى يتحدثوا معه ، فاستأذن ، ومضى ، وبات تلك الليلة في اليزك - أعنى ليلة الخميس - وتحدثوا معه ، وكان حاصل حديثهم : « إنا قد طال بيننا القتال ، وأنه قُتل من الجانبين الرجال الأبطال ، وإنا نحن جئنا في نصرة فرنج الساحل ، فاصطلمحوا أنتم وهم ، وكل منا يرجع إلى مكانه » . وكتب السلطان - رحمه الله عليه - إلى أخيه الملك العادل - رحمه الله - في صبيحة يوم الخميس الثانى عشر من شعبان من سنة سبع رقعة يقول له فيها : « إن قدرت أن تطاول الفرنج في الحديث ، فلعلهم يقومون اليوم ، حتى يلحقنا التركمان ، فإنهم قد قربوا منا » .^(١) وفى ذلك اليوم اجتمع الملك العادل بالانكتار الملعون ، فكان الترجمان بينهما ابن الهنفرى^(٢) .

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) .

ذكر اجتماع الملك العادل والانكثار

١) ولما طلبوا الملك العادل - رحمه الله - أذن له - رحمه الله عليه -
 ١٤٨ ب في المضى إليهم ، فسار حتى / أتى اليَزْك ^(١) ، ولما عرف الانكثار وصوله إلى
 اليَزْك طلب الاجتماع به ، فأجابه إلى ذلك ، واجتمعا بنجوة ^(٢) من أصحابهما ،
 وكان يترجم بينهما ابن الهنفرى ، وهو من فرنج الساحل من كبارهم ، ورأيتُه
 يوم الصلح ، وهو شاب حسن إلا أنه مخلوق اللحية - على ماهو شعارهم -
 وكان الحديث الجارى بينهما أن الانكثار شرع في ذكر الصلح ، وأن الملك العادل
 قال له : « أنتم تطلبون الصلح ولا تذكرون مطلوبكم فيه حتى أتوسط أنا الحال
 مع السلطان » . فقال الانكثار له : « القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا ،
 وتنصرفون إلى بلادكم » . فأخشن له الجواب ، وجرت منافرة اقتضت أنهم رحلوا
 بعد انفصالهما . ولما أحس السلطان - رحمه الله - برحيلهم ، أمر الثقل
 بالرحيل ^(٣) ، وقدم عليهم أمير آخر أسلم ^(٤) ، ووقف هو . وعبأ الناس تعبئة
 القتال ^(٥) ، ووقف يتنسم مايرد إليه من أخبار العدو ^(٦) ، وسار الثقل الصغير
 أيضاً حتى قارب الثقل الكبير ، ثم ورد أمر السلطان - رحمه الله - بعودهم
 إليه ، فعادوا ، ووصلوا وقد دخل الليل ، وتخبَّط الناس في تلك الليلة تخبُّطاً
 عظيماً ، واستدعى أخاه الملك العادل لتعريفه ما جرى بينه وبين الملك ، وخلا
 به لذلك وذلك في ليلة الجمعة ثالث عشر شعبان من سنة سبع وثمانين وخمسمائة .
 وأما العدو فإنه سار ونزل على موضع يسمى البركة أيضاً ، مشرف على البحر ،
 وأصبح السلطان - رحمه الله - في يوم الجمعة . ^(٧) فأمر الثقل فسار إلى قرية
 ١٤٩ أ تسمى بركة . فأقام السلطان - رحمه الله - فطلَّب / الأطلاب في مكانه ^(٨) .

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) .
 (٢) كذا في الأصل ، ولى (م) : « بفرقة » .
 (٣) هذه الجملة غير موجودة في (م) .
 (٤) هذه الجملة غير موجودة في (م) .
 (٥) هذه العبارة غير موجودة في (م) .

متطلعا إلى أخبار العدو . فأحضر عنده اثنان من الفرنج قد تخطفهما اليزك . فأمر بضرب أعناقهما فقتلا ووصل من أخبر أن العدو لم يرحل اليوم من منزلته تلك . فنزل السلطان - رحمه الله عليه - في تلك المنزلة أيضاً . واجتمع بأخيه الملك العادل - رحمه الله يتحدثان في هذا الأمر . وما يصنع من العدو المخذول . وبات تلك الليلة في تلك المنزلة .

ذكر وقعة أرسوف ^(١)

وهي التي أنكت في قلوب المسلمين

ولما كان يوم السبت رابع عشر شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة بلغ السلطان - رحمه الله عليه - أن العدو قد تحرك للرحيل نحو أرسوف . فركب ورثب الأطلاب للقتال . وعزم في ذلك اليوم على مصافة القوم ومصادمتهم وأخرج - رحمه الله عليه - الجاليش من كل طُلب وسار العدو حتى قارب شعرا أرسوف وبساتينها . أطلق عليهم الجاليش النشاب . ولزتهم الأطلاب من كل جانب . والسلطان - رحمه الله عليه - يقرب الأطلاب . ويوقف بعضها ليكون ردءاً . وضايق العدو مضايقة عظيمة . والتحم القتال ، واضطربت ناره من الجانبين . وقُتل منهم وجرح . واشتدوا في السير عساهم يبلغون المنزلة فينزلون . واشتد بهم الأمر وضاق بهم الخنق والسلطان - رحمه الله عليه - / يطوف من ١٤٩ ب الميمنة إلى الميسرة يحث الناس على الجهاد . لقيته مراراً وليس معه إلا صبيان بجنيبين لا غير ولقيت أخاه وهو على مثل الحال والنشاب يتجاوزهما - رحمه الله عليهما - ولم يزل الأمر يشتد بالعدو . وطمع المسلمون فيهم طمعا عظيما حتى وصل أوائل راجلهم إلى بساتين أرسوف . ثم اجتمعت الخياله ، وتواضعوا على الحملة خشية على القوم ، ورأوا أنهم لا ينجيهم إلا الحملة ، ولقد رأيتهم وقد اجتمعوا

(١) (م) : د أرمون ، وهو خطأ واضح .

في وسط الرجالة ، وأخذوا رماحهم ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وفرج لهم رجالهم ، وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها ، فحملت طائفة على الميمنة ، وطائفة على الميسرة ، وطائفة على القلب ، فاندفع الناس بين أيديهم ، واتفق أنى كنت في القلب ، ففر القلب فرارا عظيما ، فنويت التحيز إلى الميسرة ، وكانت أقرب إلى ، فوصلتها وقد انكسرت كسرة عظيمة ، فنويت التحيز إلى الميمنة ، فرأيتها وقد فرت أشد فرار من الكل ، فنويت التحيز إلى طلب السلطان - رحمه الله - ، وكان رداً الأطلاب كلها كما جرت العادة ، فأتيته ولم يُبق السلطان فيه إلا سبعة عشر مقاتلا لا غير ، وأخذ الباقين إلى القتال ، لكن الأعلام باقية ، والكوس يُدق لا يفتتر . وأما السلطان - رحمه الله عليه - فإنه لما رأى ما نزل ١٥٠ أ بالمسلمين من هذه النازلة سار / حتى أتى طلبه ، فوجد فيه هذا النفر القليل ، فوقف فيه الناس يفرون من الجوانب ، وهو يأمر أصحاب الكوس بالدق ، بحيث لا يفترون ، وكل من رآه فارا يأمر من يحضره عنده ، وفي الجملة ما أقصر المسلمون في فرارهم ، فإن العدو حمل حملة ، ففروا ، ثم وقف خوفا من الكمين ، فوقفوا ، وقاتلوا ، ثم حمل حملة ثانية ، ففروا وهم مقاتلون في فرارهم ، ثم وقف فوقفوا ، ثم حمل حملة ثالثة ، حتى بلغ إلى رؤوس رواى هناك وأعلى تلول ، ففروا إلى أن وقف العدو فوقفوا . وكان كل من رأى طلب السلطان واقفا والكوس يُدق يستحى أن يجاوزه ويخاف غائلة ذلك ، فيعود إلى الطلب ، فاجتمع في الطلب خلق عظيم ، ووقف العدو قبالتهم على رعوس التلول والرواى ، والسلطان - رحمه الله - واقف في طلبه ، والناس يجتمعون إليه ، حتى ثابت العسكر بأسرها ، وخاف العدو أن يكون في الشعرا كمين ، فتراجعوا يطلبون المنزلة ، وعاد السلطان - رحمه الله عليه - إلى تل في أوائل الشعرا ، ونزل عليه لا في خيمه ^(١) . ولقد كنت في خدمته - رحمه الله عليه - أسليه وهو لا يقبل

(١) م : د في خيمته .

السلو ، وظلل عليه بمنديل ، وسألناه أن يطعم شيئاً من الطعام ، فأحضر له شيء لطيف ، فتناول منه شيئاً يسيراً ، وبعث الناسُ خيولهم إلى السقى ، فإن الماء كان بعيداً منهم ، وجلس ينتظر الناس من العود / من السقى ، والجرحى يحضرون ١٥٠ ب بين يديه ، وهو يتقدم بمداواتهم وحملهم ، وقُتل في ذلك اليوم رجاله كثيرة ، وجُرح جماعة من الطائفتين : وكان ممن ثبت الملك العادل - رحمة الله عليه - والطواشي قايمز النجمي ، والملك الأفضل ولده . صدم في ذلك اليوم وانفتح دمل كان في وجهه ، وسال منه دم كثير على وجهه ، وهو صابر محتسب في ذلك كله - رحمة الله عليه - . وثبت ذلك اليوم طلب الموصل ومقدمه علاء الدين ، وشكره السلطان على ذلك . وتفقدُ الناسُ بعضهم بعضاً فوجد وقد استشهد جماعة من العسكر عرف منهم ^(١) أمير شكار مُوسك ^(٢) . وكان رجلاً شجاعاً معروفاً ، وقايمز العادلي وكان مذكوراً ، وأبعوش ^(٣) . وكان شجاعاً ، أسف السلطان - رحمة الله عليه - عليه ، وجرح خلق كثير وخيول كثيرة ، وقُتل من العدو جماعة ، وأسر واحد ، وأحضر ، فأمر - رحمه الله - بضرب عنقه فقتل ، وأخذت منهم خيول أربعة . وكان قد تقدم - رحمه الله - إلى النقل أن يسير إلى العوجا ، وذكر أن المنزل يكون على العوجاء فاستأذنته وتقدمته إلى المنزل ، وجلس هو - رحمه الله - ينتظر اجتماع العساكر وما يرد من أخبار العدو ، وكان العدو قد نزل على أرسوف قبلها .

المنزل التاسع :

وسرث بعد صلاة الظهر حتى أتيت الثقل ، وقد نزل / قاطع النهر المعروف ١٥١ أ بالعوجا في منزلة خضرة طيبة نضرة على جانب النهر ، ووصل السلطان - رحمه الله - إلى المنزلة أواخر النهار ، وازدحم الناس على القنطرة ، فنزل على تل مشرف

(١) م : « أمير كبير مملوك » .

(٢) م : « ليفوش » .

على النهر ، ولم يعبر ^(١) إلى الخيمة ، وأمر الجاوش أن نادى في العسكر بالعبور إليه ، وكان في قلبه من الوقعة أمر لا يعلمه إلا الله تعالى ، والناس من جريح الجسد وجريح القلب ، وأقام السلطان - رحمة الله عليه - إلى سحرة ليلة الأحد الخامس عشر من شعبان ، سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، ودق الكوس ، وركب الناس ، فسار راجعاً إلى جهة العدو حتى وصل إلى قريب من أرسوف ، وصف الأطلاب للقتال ، رجاء خروج العدو ومسيره حتى يصادمه ، فلم يرحل العدو في ذلك اليوم لما ناله من التعب والجراح ، فأقام - رحمة الله عليه - قبالتهم إلى آخر النهار ، وعاد إلى منزلته التي بات بها ، فبات بها ليلة الاثنين السادس عشر .

ولما كانت صبيحة الاثنين دق الكوس ، وركب ، وركب الناس ، وسار نحوهم ، ووصل خبر العدو وقد رحل طالباً جهة يافا ، فقاربهم - رحمة الله عليه - مقاربة عظيمة ، ورُتب الأطلاب ترتيب القتال ، وأخرج الجاليش ، وأحرق العسكر الإسلامي بالقوم ، وألقوا عليهم من النشاب ما كاد أن يسد ١٥١ ب الأفق ، وقاتلوهم قتال الحنق ، وقصد - رحمة / الله عليه - تحريك عزماتهم على الحملة ، حتى إذا حملوا ألقى الناس عليهم ، ويعطى الله النصر لمن يشاء ، فلم يحملوا ، وحفظوا نفوسهم ، وساروا مصطفين على عادتهم حتى أتوا نهر العوجا ، وهو النهر الذي منزلنا أعلاه ، فنزل في أسفله ، وعبر بعضهم النهر ، وأقام الباقون من الجانب الشرقى . ولما علم نزولهم تراجع الناس عنهم ، وعاد السلطان إلى الثقل ، فنزل - رحمة الله عليه - في خيمته ، وأطعم الطعام ، وأتى بأربعة من الفرنج قد أخذتهم العرب ومعهم امرأة فدفعوا إلى الزردخاناه ، وأقام بقية اليوم في تلك المنزلة يكتب الكتب إلى الأطراف باستحضار بقية العساكر ، وحضر من أخبره أنه قتل من العدو يوم أرسوف خيل كثيرة ، وأنه تتبعها العرب

(١) م : « ولم يعبر » .

وعدوها فزادت على مائة ، وخرج أيضاً من المسلمين خيل كثيرة ، وأمر السلطان - رحمة الله عليه - أن رحلت الجمال ، وتقدمت إلى الرملة وباتت بها ، وبات هو - رحمة الله عليه - في تلك المنزلة .

المنزل العاشر :

ولما كان يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة صلى الصبح - رحمة الله عليه - ورحل ورحل معه الثقل الصغير ، وسار يريد الرملة ، وأوتى باثنين من الفرنج فأمر بضرب أعناقهما ، ووصل من اليك الإسلامى من أخبر أن العدو رحل يريد يافا ^(١) ، وسار السلطان - رحمة الله - إلى أن / أقي ١٥٢ أ الرملة ، ونزل في الثقل الكبير ، وأتى باثنين من الفرنج أيضاً ، فسألهم عن أحوال القوم ، فذكروا أنه ربما أقاموا بيافا أياما ، وفي أنفسهم عمارتها وإشحاتها بالرجال والعدد ، وأحضر السلطان - رحمة الله عليه - أرباب مشورته وشاورهم في أمر عسقلان ، وأنها هل تخرب أم تبقى ، واتفق الرأي على أن يتخلف الملك العادل ومعه طائفة من العسكر قريباً من العدو ليعرف أخباره وإيصالها ، وأن يسير هو - رحمة الله - يخرب عسقلان خشية من أن يستولى عليها الفرنج وهي عامرة فيتلفوا من بها من المسلمين ، ويأخذوا بها القدس الشريف - يسر الله فتحه - ويقطعوا بها طريق مصر المحروسة ، وخشى السلطان من ذلك ، وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا ، وما جرى على من كان مقيماً بها ، وتجاوى الناس عن الدخول في عسقلان ، وادخرت القوة في عسكر الإسلام لحفظ القدس المحروس ، فتعين لذلك كله خراب عسقلان ، فسار الثقل الجمالى من أول الليل ، وتقدم - رحمة الله - إلى ولده الملك الأفضل أن سار عقيب الثقل نصف الليل ، وسار هو - رحمة الله عليه - وأنا في خدمته سحرة ليلة الأربعاء .

(١) م : « رحل من يافا » .

المنزل الحادى عشر :

وهو على عسقلان

١٥٢ ب ولما كان يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة / وصل السلطان - رحمه الله - إلى مِينَى ، فنزل بها وضحى ، وأخذ الناس راحة ، ثم رحل - رحمه الله عليه - وسار حتى أتى أرض عسقلان بعد صلاة العصر ، وقد ضربت خيمته بعيدا منها شمالى البلد فى أرض طيبة حسنة ، فبات هناك مهموما بسبب خراب عسقلان ، وما نام تلك الليلة إلا قليلا ، ولقد دعانى إلى خدمته سحرا ، وكنت فارقت خدمته بعد مضى نصف الليل ، فحضرتُ ، وبدأ الحديث فى معنى خرابها ، وأحضر ولده الملك الأفضل وشاوره فى ذلك وأنا فى خدمتهما ، وطال الحديث فى المعنى ولقد قال لى رحمه الله عليه : « والله لأن أفقد أولادى كلهم أحبُّ إلى من أهدم منها حجرا واحدا ، ولكن إذا قضى الله بذلك وعيَّنه لحفظ مصلحة المسلمين طريقا فكيف أصنع ؟ » .

ذكر خراب عسقلان

ثم استخار الله تعالى ، فأوقع الله فى نفسه أن المصلحة فى خرابها لعجز المسلمين عن حفظها عن الفرنج ، فاستحضر الوالى بها قيصر^(١) وهو من كبار مماليكه وذوى الآراء منهم ، فأمره أن يضع فيها المعول ، وذلك فى سحرة ليلة الخميس التاسع عشر من شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، ولقد رأيتُه وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر^(٢) الناس للخراب ، وقسم السور على

(١) كذا فى الأصل ، ولى (م) : « قيصر » .

(٢) م : « مستقر » وهو خطأ واضح .

الناس ، وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر / بَدَنَة معلومة وبرجا معلوما ١٥٣ أ
يخربونه ، ودخل الناس البلد ووقع فيه الضجيج والبكاء ، وكان بلدا نضرا خفيفا
على القلب ، محكم الأسوار ، عظيم البناء ، مرغوبا في سكناه ، فلحق الناس
عليه حزن عظيم ، وعظم عويل أهله وبكاؤهم على مفارقة أوطانهم ، وشرعوا
في بيع ما لا يمكن حمله ، وبيع ما يساوى عشرة دراهم بدرهم واحد ،
^(١) ورمى الناس أقمشتهم بالثمن البخس حتى بيع اثنا عشر طيرا من الدجاج
بدرهم واحد ^(٢) واختبئوا بالبلد ، وخرج أهله إلى العسكر المنصور بذرارهم
ونسائهم ، خشية أن يهجم الفرنج البلد ، وبذلوا في الكرى أضعاف ما يساوى ،
قوم إلى مصر ، وقوم إلى الشام ، وقوم يلبثون ^(٣) إذا لم يقع لهم كرى ، وجرى
أمور عظيمة ، وفتنة هائلة ، لعلها لم تختص بالذين ظلموا ، وكان هو بنفسه
وولده الملك الأفضل يستعملان الناس في الخراب والحث عليه ، خشية إن سمع
العدو فيحضر ولا يمكن من خرابها ، وبات الناس في الخيم على أتم حال من التعب
والنصب . وفي تلك الليلة وصل من جانب الملك العادل من أخبر أن الفرنج
تحدثوا معه في الصلح ، وأنه خرج إليه ابن الهنفرى ، وتحدث معه في المعنى ،
وأنه طلب جميع البلاد الساحلية ، فرأى السلطان - رحمه الله - أن ذلك مصلحة
لما رأى في نفوس الناس من الضجر والسامة من القتال والمصابرة ، / وكثرة ١٥٣ ب
ما علاهم من الديون ، وكتب إليه يسمح له في الحديث في ذلك ، فقوض أمر
ذلك إلى رأيه . وأصبح يوم الجمعة العشرين من شعبان على الإصرار من الخراب ،
واستعمال الناس فيه ، وحثهم عليه ، وأباحهم الهري الذى كان ذخيرة في البلد
للعجز عن نقله ، وضيق الوقت ، والخوف من هجوم الفرنج ، وأمر بحريق البلد ،
فأضرمت النار في بيوته وآدره ، فاضطربت النار فيه ، ورفض أهله بواقي أقمشتهم
للعجز عن نقلها ، والأخبار تتواتر من جانب العدو بعمارة يافا . وكتب الملك

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٢) م ه يمشون .

العادل يخبر أن القوم لم يعلموا بخراب البلد ، وكتب إلى الملك العادل أن :
 « سوف القوم وطول الحديث معهم لعلنا نتمكن من خراب البلد » . وأمر بحشو
 أبراج البلد بالأحطاب ، وأن تحرق . وأصبح يوم السبت الحادى والعشرون ركب
 - رحمة الله عليه - يحث الناس على الخراب والحريق ، ودام على ذلك يستعمل
 الناس فى التخريب ويطوف عليهم بنفسه يحثهم على ذلك حتى التاثر مزاجه التياثا
 قريبا ، امتنع بسببه من الركوب والغذاء يومين ، وأخبار العدو تتواصل إليه فى
 كل وقت ، ويجرى بينهم وبين اليزك والعسكر القريب وقعات وقلبات ، والأخبار
 تتواصل إلينا وهو يواظب على الحث على الخراب ، ونقل الثقل إلى قريب البلد ،
 ليعاونوا الغلمان والحمالين وغيرهم فى ذلك ، فخرب من السور معظمه ، وكان
 ١٥٤ أ / عظيم البناء بحيث إنه كان عرضه فى مواضع تسعة أذرع ، وفى مواضع عشرة
 أذرع ، وذكر بعض الحجارين للسلطان - رحمه الله - وأنا حاضر ، أن عرض
 البرج ^(١) الذى ينقبون فيه مقدار رمح ، ولم يزل الخراب والحريق يعمل فى البلد
 وأسواره إلى سلخ شعبان المذكور .

وعند ذلك وصل من جرديك كتاب يذكر فيه أن القوم تفسحوا وصاروا
 يخرجون من يافا ويغيرون على البلاد القريبة منها ، فلو تحرك السلطان فلعله يبلغ
 منهم غرضا فى غرتهم ، فعزم على الرحيل وعلى أن يخلف فى عسقلان حجارين
 ومعهم خيل تحميمهم مستقصون فى الخراب ، فرأى أن يتأخر بحيث يحرق البرج
 المعروف بالاسبتار ، وكان برجا عظيما مشرفا على البحر كالقلعة المنيعة ، ولقد
 دخلته وطفته ، فرأيت بناءه أحكم بناء يُفرض أن يكون ، لا تعمل فيه المعاول ،
 وإنما أراد أن يحرقوه حتى يبقى بالحريق قابلا للخراب ، ويعمل الهدم فيه وأصبح
 يوم الإثنين مستهل رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة أمر ولده الملك الأفضل
 أن يياشر ذلك بنفسه وخواصه ، ولقد رأيت يحمل الخشب هو وخواصه لحريق
 البرج ، ولم يزل الناس ينقلون الخشب ويحشونه فى البرج حتى امتلأ ، ثم أطلقت

(١) م . السور .

فيه النار ، فاشتعل الخشب ، / وبقي النار تشعل فيه يومين بليتيها ، ولم يركب ١٥٤ ب
السلطان - رحمة الله عليه - في ذلك اليوم تسكيناً لمزاجه ، وعرض لي أيضاً
تشوش مزاج افتضى انقطاعي عنه في ذلك اليوم ، وقد تردد إلي من يسأل عن
مزاجي عنه ثلاث مرات ، مع اشتغال قلبه - رحمه الله - بذلك المهم ، فالله
تعالى يرحمه ، فلقد ماتت محاسن الأخلاق بموته ، رحمه الله .

ذكر نزوله يئني^(١)

ورحل تلك الليلة وهي ليلة الثلاثاء ثاني رمضان من سنة سبع وثمانين
وخمسمائة وكان رحيله نصف الليل خشية على مزاجه من الحر ، وصلينا الصبح ،
ورحلنا ، ووصل هو - رحمة الله عليه - يئني ضاحي نهار الثلاثاء ، وبدأ فنزل
في خيمة أخيه الملك العادل ، واستعلم منه أخبارهم ساعة . ثم ركب ونزل في
خيمته ، وبات تلك الليلة في تلك المنزلة .

ذكر رحيله إلى الرملة

وأصبح في يوم الأربعاء ثالث رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة راحلاً
إلى جهة الرملة ، فسار حتى أتاها ضاحي نهار ، ونزل بالثقل الكبير هناك نزول
 وإقامة ، ورثب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً ، وأطعم الناس الطعام ، ثم أخذ
جزءاً من الراحة ، وركب بين صلاتي الظهر والعصر ، فسار إلى لد ، فرآها
ورأى بيعتها وعظم بنائها ، فأمر بخرابها وخراب قلعة الرملة أيضاً ، ووقع الخراب
في الموضعين في ذلك اليوم / وفرّق الناس فرقاً لتخريب المكانين ، وأباح ما فيهما ١٥٥ أ

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) ، وإنما مكانه هناك العنوان التالي بالمتن هنا . وقال باقوت :

يئني بالضم ثم السكون ونون وألف : بليد قرب الرملة . ١٠٠٧/٤ ط لبيزج .

من التبن والشعير في الأهراء السلطانية ، وأمر من كان فيهما من المقيمين بهما إلى الانتقال إلى المواضع العامرة ، وما كان بقي في المكانين إلا نفر يسير ، وظل الناس يخربون إلى أن أمسى المساء . ثم عاد إلى خيمته .

وأصبح يوم الخميس رابع رمضان ، وأقام الحجارين في المكانين ورتب عليهم من يستخدمهم في ذلك ، وهو يتردد إليهم في الأصائل حتى جاء وقت المغرب ، فمد الطعام وأفطر الناس ، وانفصلوا إلى خيامهم ، ووقع له أن يسير خفية في نفر يسير يشاهد أحوال القدس الشريف - يسر الله خلاصه - فسار من أول الليل حتى أتى بيت نوبة ، فبات فيها حتى أتى الصباح وصلى ، وسار حتى أتى القدس الشريف - خلّصه الله تعالى - في يوم الجمعة خامس رمضان المذكور ، وخلف أخاه الملك العادل - رحمه الله - في العسكر بحث الناس على الخراب ، فصلى الجمعة ، وأقام ذلك اليوم يتصفح أحوال القدس في عمارته وميرته وعدته ورجاله وغير ذلك . وظفر في ذلك اليوم غلمان الطواشي قايماز بنفر من النصارى ، ومعهم كتب قد كتبها الوالى إلى السلطان قرية التاريخ ، يذكر فيها إعواز البلد للغلة والعدة والرجال ، وأرادوا حملها إلى العدو ، فوقف على الكتب ، ١٥٥ ب وضربت / رقاب من كانت معهم ، ومازال يتصفح أحوال المكان ، ويأمر بسد خلله إلى يوم الاثنين ثامن رمضان . ولما كان الاثنين خرج سائر العسكر بعد صلاة الظهر فبات في نوبة . وفي هذا اليوم وصل معز الدين قيسر شاه - صاحب ملطية - ابن قليج أرسلان ، وافدا عليه مستنصراً به على أخوته وأبيه ، فإنهم كانوا يقصدون أخذ بلده منه فلقية الملك العادل - رحمه الله - قاطع لّد ، واحترمه وأكرمه ، ثم لقيه بعده ولد السلطان الملك الأفضل ، وضربت خيمته قريباً من لّد ، وفي ذلك اليوم خرج من العدو حشاشة فحمل عليهم اليك ، ووصل الخبر إلى عسكرهم ، فخرج في نصرتهم خيالة ، وجرى بينهم وبين اليك قتال ، وذكر بعض الأسرى أنه كان معهم الانكثار ، وأن مسلماً قصد طعنه ، فحال بينه وبينه فرنجى ، فقتل الفرنجى وجرح هو ، هكذا ذكر والله أعلم .

ذكر عوده إلى المسكر ^(١) رحمة الله

ولما كان يوم الثلاثاء تاسع رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصل -
رحمة الله - إلى المسكر ولقيه الناس مستبشرين بقدومه ، ولقيه ابن قليج أرسلان ،
فنزل له واحترمه وأكرمه ، ونزل في خيمته - رحمة الله عليه - وأقام يحث على
الخراب ، وتتواصل أخبار العدو إليه ، ويقع بينهم وبين اليزك وقعات ، وتسرق
/ العرب من خيولهم ^(٢) وبغالهم ورجالهم ^(٣) .

١٥٦ أ

ذكر وصول رسول المركيس ^(٣)

وفي غضون ذلك وصل رسول من المركيس يذكر أنه يصلح الإسلام
بشرط أن يعطى صيدا وبيروت على أن يجاهر الفرنج بالعداوة ، ويقصد عكا
ويحاصرها ويأخذها منهم ، واشترط أن يبدل له السلطان - رحمة الله عليه -
اليمين على ذلك ابتداءً ، فسير إليه العدل النجيب ، وحمل الإجابة إلى ملتسمه
لقصد فصله عن الفرنج ، فإنه كان خبيثاً ملعوناً ، وكان قد استشعر منهم أخذ
بلده ، وهى صور ، منه ، فأنحاز عنهم ، واستعصم بصور وهى منيعة ، فقبل
ذلك القول منه بهذا السبب .

وسار النجيب العدل مع رسوله في يوم الجمعة ثاني عشر رمضان من السنة
المذكورة ، واشترط عليه أن يبدأ بمحاصرة ^(٤) القوم وحصار عكا وأخذها ،

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) م : « ويقاثلهم رجالهم » .

(٣) الأصل : « ذكر وصول المركيس » والتصحيح عن (م)

(٤) م : « بمجاهرة » .

وإطلاق من بها ومن بصور من الأسارى ، وعند ذلك يسلم إليه الموضعان .
وفي عشية ذلك اليوم خرج رسول الانكتار إلى الملك العادل في تحريك سلسلة
الحديث في الصلح .

ذكر رحيل السلطان من الرملة

رحمه الله ^(١)

ولما كان يوم السبت الثالث عشر من رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة
رأى السلطان - رحمه الله عليه - أن يتأخر بالعسكر إلى الجبل ، ليتمكن الناس
من إنفاذ دوابهم إلى العلوفة ، فإننا كنا على الرملة قريبين من العدو ، وما يمكن
١٥٦ ب التفريط في / للدواب خشية المهاجمة ، فرحل - رحمه الله عليه - ونزل على
تل متصل بجبل النظرون بالثقل الكبير وجميع العسكر ماعدا اليزك على العادة ،
وذلك بعد خراب الرملة ولُدّ ، ولما نزل هناك في ذلك اليوم دار حول النظرون ،
وأمر بتخريبها ، وكانت قلعة منيعة حصينة من القلاع المذكورة ، فشرع في
خرابه ، وترددت الرسل بين الملك العادل والانكتار يذكرون عنه أنه قد سلّم
أمر الصلح إلى الملك العادل ، وأُخذ إليه ، وخرج منه عشرة أنفس إليه إلى اليزك ،
فأخبروه بأخبار طيبة ، كتب بها السلطان - رحمه الله عليه - في عشية الأربعاء
سابع عشر رمضان من سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

ذكر موت الافرنسيس ^(٢)

فكان مما أخبر به الملك العادل أن ملك الافرنسيس مات ، وكان موته

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) هذا العنوان غير موجود في (م) .

في أنطاكية عن مرض عرض له ، وأن الانكثار عاد إلى عكا ، وكان سبب عوده إلى عكا أنه صبح عنده مراسلة المركيس للسلطان - رحمة الله عليه - وبلغه أن المركيس قد انتظم الحال بيننا وبينه ، وأنه قد استقرت القاعدة على عكا ، فعاد هو إلى عكا لفسخ هذه المصالحة ، واسترجاع المركيس إليه ، وأقام الملك العادل في اليزك ، وركب السلطان - رحمه الله - يوم الخميس الثامن عشر من الشهر ، وسار السلطان - رحمة الله عليه - إلى اليزك ، واجتمع / بأخيه الملك العادل ١٥٧ أ في لد ، وسأل منه الأخبار ، وعاد إلى الخيم وقت العصر ، وأتى باثنين من الفرنج قد تخطفهما اليزك ، فأخبرا بصحة موت الافرنسيس وعود الانكثار إلى عكا .

ذكر مسير الملك العادل إلى القدس الشريف

يسر الله خلاصه

(١) ووصول خبر وفاة قزل بن إلد كز (١)

ولما كان يوم الجمعة التاسع عشر من رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة اقتضى الحال تفقد أحوال القدس والنظر في عمائره ، وكان الملك العادل قد عاد من اليزك ، وعلم بُعد مقدمى الفرنج عنا ، فرأى أن يكون هو الذى يسير إلى القدس ، ويتفقد أحواله ، فسار في ذلك لهذا الغرض .

وفي تاريخ هذا اليوم - وصل كتاب من الملك المظفر تقي الدين - رحمه الله - يخبر فيه أن قزل صاحب ديار العجم ابن ايلد كز قفز عليه أصحابه فقتلوه ، وقيل : إن ذلك كان من تحت يد زوجته تعصباً للسلطان طغرل ، وجرى بسبب قتله في بلاد العجم خبط عظيم ، وكان قتله - على ما بلغنا - في أوائل شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، والله تعالى أعلم .

(١) هذا الجزء من العنوان غير موجود في (م) .

ذكر عود الملك العادل

رحمه الله

من القدس الشريف (١)

ولما كان يوم الأحد حادى عشرى رمضان قدم الملك العادل من القدس ١٥٧ ب قبيل العصر . وفي تاريخ هذا اليوم وصل كتاب / من الديوان العزيز النبوى ينكر فيه قصد الملك المظفر تقى الدين خلاط ، ويُظهر فيه العناية التامة ببيكتمر ، ويشفع فيه فى حسن بن قفجاق ، ويتقدم بإطلاقه ، وكان قد قبض عليه مظفر الدين بإربل المحروسة ، ويتقدم بمسير القاضى الفاضل إلى الديوان لبت حال وفصل أمر فسير الكتاب إلى القاضى الفاضل ليقف عليه ، وكتب إلى الملك المظفر بذلك .

ذكر أخبار يزك كان على عكا

وقضية لصوص دخلوا فى خيام العدو

ولما كان يوم الاثنين الثانى والعشرين من رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة أحضر اللصوص فرسا وبغلة قد دخلوا إلى خيم العدو وسرقوها منهم ، وكان قد ديون (٢) - رحمة الله عليه - ثلاثمائة لص من شلوح العرب يدخلون ويسرقون منهم أموالهم وحيولهم ، ويسرقون الرجال أحياء ، وذلك أنه يكون الواحد منهم نائما ، فيوضع على حلقه الخنجر ، ثم يوقف فيرى الشلح والخنجر فى يده ، وقد وضعه فى نحره ، فيسكت ولا يتجاسر أن يتكلم ، فيُحمل وهو على هذا الوضع إلى أن يخرج من الخيمة ، ويؤخذ أسيرا ، وتكلم منهم جماعة

(١) هذا العنوان غير موجود فى (م) .

(٢) م : « رتب » .

فنحروا ، فصار من أصابه ذلك سكت واختار الأسر على القتل ، وداموا على ذلك مدة طويلة إلى انتظام الصلح . وفي تاريخ ذلك اليوم وصل من اليزك المرتب / على عكا في موضع يقال له الزيب خبر أسارى مع رسول من اليزك أخبر أنهم ١٥٨ أ خرجوا من عكا وتفسحوا ، وأن اليزك حمل عليهم فأسر منهم أحداً وعشرين نفساً وأن الأسارى أخبروهم بصحة عود الانكثار إلى عكا ، وأنه مريض بها ، وأخبروا عن ضعف أهل عكا وفقروهم وقلة الميرة عندهم . وفي هذا التاريخ وصلت للعدو مراكب عدة قيل إنها وصلت من عكا ، وإن فيها الانكثار قد عاد بجماعة عظيمة ليقصد عسقلان ويعمرها ، وقيل ليقصد القدس ، والله أعلم .

ذكر خبر وصول الأسارى المذكورين ^(١)

ولما كان يوم الأربعاء الرابع والعشرون من رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصل الأسارى من الزيب ، وكان وصولهم مفرجا للمسلمين مبشرا بكل خير . وفيه وصل رسول قزل كان قد سيّره قبل وفاته ، ورسول ابن أخيه إينانج . وفي عشيته وصل رسول من الانكثار ومعه حصان إلى الملك العادل في مقابلة هدية كان أنفذها إليه .

ذكر وفاة حسام الدين بن لاجين ^(١)

فيه وصل خبر وفاته بمحرقة دمشق لمرض كان اعتراه ، وصعب على السلطان - رحمه الله عليه - موته وشق عليه . وفيه وصل كتاب من سامة يذكر فيه أن البرنس - لعنه الله - أغار على جبلة واللاذقية ، وأنه كسر كسرة عظيمة ، / قتل منه جماعة ، وعاد إلى أنطاكية مخذولا . ١٥٨ ب

(١) العنوان غير موجود في (م) .

ذكر دخول رسول الملك العادل إلى الانكسار

ولما كان يوم الجمعة سادس عشرى من رمضان سنة سبع وثمانين كان اليك للعادل ، فطلب الانكسار رسوله ، فأنفذ إليه الصنيعة ، وهو كاتبه ، كان شابا حسنا ، فوصل إليه وهو في يازور ، وصل إليه وقد خرج جمع كثير من الرجال ، وانبشوا في تلك الأرض ، فاجتمع به وسير معه زمانا طويلا ، وحدثه في معنى الصلح ، وقال : « لا أرجع عن كلام تحدثت به مع أخى وصديقى - يعنى الملك العادل رحمه الله - » وذكر له كلاما عاد إلى الملك العادل وأخبره به ، وكتبه في رقعة ، وأنفذها إلى السلطان - رحمه الله - فوصلت قبيل العصر من اليوم المذكور وكان يتضمن : « إنك تسلم عليه ، وتقول له : إن المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد ، وخرجت من يد الفريقين بالكلية ، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين ، وقد أخذ هذا الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب ، والبلاد ، والقدس فمتعبدنا ما نزل عنه ، ولو لم يبق منا واحد ، وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن ، وأما الصليب فهو خشبة لا مقدار له عندكم ، وهو عندنا عظيم ، فيمن به السلطان علينا ، ونصطليح ونستريح من هذا العناء الدائم » . ولما / وقف السلطان - رحمه الله - عليه - على هذه الرسالة استدعى أرباب المشورة من دولته ، واستشارهم في جواب ذلك ، والذي رآه السلطان - رحمه الله - في جواب ذلك أن قال : « القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن نزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين ، وأما البلاد فهي أيضا لنا في الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئا عليها ، لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت ، وما أقدركم الله على عمارة حجير منها مادام الحرب قائما ، وما في أيدينا نحن منها نأكل بحمد الله مغله وننتفع به ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة ، ولا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها » . وسار هذا الجواب إليه مع الواصل منه .

ذكر هرب شيركوه بن باخل الكردي من عكا وكان فيها أسيرا

ولما كان أواخر نهار الجمعة سادس عشرى من رمضان المذكور وصل شيركوه بن باخل الزرزاري ^(١) ، وهو من جملة الأمراء المأسورين بعكا - يسر الله فتحها - ، وكان من قصته أنه هرب ليلة الأحد الحادى والعشرين من شهر رمضان ، وذلك أنه كان ادخر له حبلا فى مخدته ، وكان الأمير حسين / بن ١٥٩ ب باريك - رحمه الله - ادخر له حبلا فى بيت الطهارة ، فاتفقا على الهرب ، ونزلا من طاقة كانت فى بيت الطهارة ، وانحدرا من السور الأول ، وعبر شيركوه من الباشورة أيضا ، وكان ابن باريك حالة نزوله انقطع به الحبل ، ونزل شيركوه سليما ، فرآه وقد تغير من الواقعة ، فكلمه فلم يجبه ، وحركه فلم يتحرك ، فهزه عساه ينشط ويسير معه فلم يقدر ، فعلم أنه إن أقام عنده أخذوا جميعا ، فتركه وانصرف ، واشتد هربا فى قيوده ، حتى أتى تل العياضية وقد طلع الصبح ، فأكمن فى الجبل حتى علا النهار ، وكسر قيوده ، وسار ، وستر الله تعالى عليه ، حتى أتى المعسكر المنصور فى ذلك الوقت ، ومثل بخدمة السلطان - قدس الله روحه - وكان من أخباره أن سيف الدين المشطوب ضيق عليه ، وأنه قطع عن نفسه قطعة عظيمة من خيل وبغال وأنواع أموال ، وأن ملك الانكتار - خذله الله تعالى - أتى عكا ، وأخذ كل من كان له بها من خدمه ومماليكه وأقمشته ، ولم يُبق له فيها شيئا ، وأن فلاحى الجبل يمدونه بالميرة مدا عظيما ، وأن طغرل السلاحدار أحد خواص مماليك السلطان - قدس الله روحه - وهربوا قبل هروب شيركوه .

(١) هذا اللفظ غير موجود فى (م) .

ذكر رسالة سيري في الملك العادل

إلى السلطان - قدس الله روحه -

مع جماعة من الأمراء

١٦٠ أ / وذلك أنه لما كان يوم الاثنين التاسع والعشرون من شهر رمضان استدعاني الملك العادل في صبيحته ، وأحضر جماعة من الأمراء : عَلم الدين سليمان ، وسابق الدين ، وعز الدين بن المقدم ، وحسام الدين بشاره ، وشرح لنا ماعاد به رسوله من الانكثار المخدول من الرسالة والكلام ، وذلك أنه ذكر أنه ^(١) قد استقرت القاعدة على أن ^(١) يتزوج الملك العادل بأخت الانكثار - وكان قد استصحبها معه من صقلية - فإنها كانت زوجة صاحبها وكان قد مات ، فأخذها أخوها لما اجتاز بصقلية ، فاستقرت القاعدة على أن يزوجه من الملك العادل ، وأن مستقر ملكهما يكون بالقدس الشريف وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل التي في يده من عكا إلى يافا وعسقلان وغير ذلك ويجعلها ملكة الساحل ، وأن السلطان - قدس الله روحه - يعطي الملك العادل جميع ما في يده من بلاد الساحل ويجعله ملك الساحل ويكون ذلك مضافا إلى ما في يده من البلاد والإقطاع وأنه يسلم إليه صليب الصليبوت ، وتكون القرايا للداوية والاستبارية ، والحصون لهما ، وأسرانا يفك أسرهم ، وكذلك أسراهم ، وأن الصلح يستقر على هذه القاعدة ويرحل ملك الانكثار طالبا بلاده في البحر

١٦٠ ب وينفصل الأمر . / هكذا ذكر رسول الملك العادل له عن الملك ، ولما عرف ذلك الملك العادل بنى عليه أنه استحضرنا عنده ، وحملنا هذه الرسالة إلى السلطان - قدس الله روحه - ، وجعلني المتكلم فيها والجماعة يسمعون ، ويعرض عليه هذا الحديث فإن استصوبه ورآه مصلحة له وللمسلمين شهدنا عليه بالإذن في

(١) م : « أنه أراد أن يتزوج الملك العادل .. الخ » .

ذلك والرضى به ، وإن أباه شهدنا عليه أن الحال في الصلح قد انتهى إلى هذه الغاية ، وأنه هو الذى رأى إبطاله ، فلما مثلنا بالخدمة السلطانية عرضت عليه الحديث ، وتلوت عليه الرسالة بمحضر من الجماعة المذكورين ، فبادر إلى الرضا بهذه القاعدة ، معتقدا أن الملك الانكثار لا يوافق على ذلك أصلا ، وأن هذا منه هزؤ ومكر ، فكررت عليه الرضى بذلك ثلاث مرات ، ^(١) وهو يصرح ويشهد على نفسه بالرضا به ^(٢) ، فلما تحققنا ذلك منه عدنا إلى الملك العادل فعرفناه ما قال ، وعرفه الجماعة أنى كررت عليه الحديث فى تقييد الشهادة عليه ، وأنه أصر على الإذن فى ذلك ، واستقرت القاعدة عليه .

ذكر عود الرسول إلى الانكثار

بالجواب عن هذه الرسالة

ولما كان يوم الأربعاء ثانى شوال سار ابن النحال رسولا من جانب السلطان - قدس الله روحه - ومن جانب الملك العادل ، فلما وصل إلى مخيم العدو ، وأنفذ عرف الملك / بقدمه أنفذ إليه أن الملكة عرض عليها أخوها حديث النكاح ١٦١ أ فتسخطت من ذلك ، وغضبت بسببه ، وأنكرت ذلك إنكارا عظيما ، وحلفت بدينها المغلظ من يمينها أنها لا تفعل ذلك ، وكيف تمكن مسلما من غشيانها ، ثم قال أخوها : إن كان الملك العادل يتنصر فأنا أتم ذلك ، وإن رضيت فأنا أفعل ذلك . وترك باب الكلام مفتوحا فكتب الملك العادل إلى السلطان - رحمة الله عليه - وعرفه ذلك .

(١) م : « وهو يقول نعم ويفرح ويشهد على نفسه به » .

ذكر أخذ مركب مشهور للفرنج

يسمى المسطح وكان عظيما عندهم ^(١)

ولما كان يوم السبت خامس شوال فيه وصل الخبر أن الأبطال الإسلامي استولى على مراكب الفرنج ، وفيها مركب يعرف بالمسطح ، قيل : إنه كان فيه خمسمائة نفر أو زائد على ذلك ، وأنه قتل منهم خلق عظيم واستبقوا منهم أربعة نفر كبار مذكورين ، وسر المسلمون بذلك ، وضربت بشائر النصر ، ونعق بوق الظفر ، والله الحمد والمنة .

ذكر اجتماع الرأى من الأمراء

بين يدى السلطان - قدس الله روحه - ^(١)

ولما كان يوم الأحد سادس شوال جمع السلطان - قدس الله روحه - أكابر الأمراء وأرباب الآراء من دولته ، وشاورهم كيف يصنع إن خرج العدو ، وكان قد تواصلت الأخبار عنهم أنهم قد اتفقوا على الخروج إلى العسكر الإسلامي ١٦١ ب فانفصل الرأى بين ذوى الآراء من المسلمين على أنهم يقيمون / فى منزلتهم بعد تخفيف الأثقال ، فإن خرج الفرنج كانوا على لقاءهم . وفى عشية هذا اليوم استأمن من الفرنج اثنان على فرسين ، وأخبرا أن العدو على عزم الخروج فى يوم الثلاثاء ، وأنهم زهاء عشرة آلاف فارس ، وذكر أنهم لا يعرفون قصدهم ، وهرب أسير مسلم من جانبهم وأخبر أنهم قد أظهروا الخروج إلى الرملة ، ثم فيها يتفقون على موضع يقصدونه . ولما تحقق السلطان - قدس الله روحه - ذلك أمر الجاوش أن ينادى بالعسكر المنصور حتى يتجهز جريدة ، وشدت الرايات ، وحقق عزمه على أنه يقف قبالة القوم إن خرجوا ، وسار فى يوم الاثنين مؤيدا منصورا حتى أتى قبلى كنيسة الرملة ليلا ، فخيم هناك وبات ليلته .

(١) هذا العنوان غير موجود فى (م) .

ذكر خروج الفرنج عن يافا

ولما كانت صبيحة يوم الثلاثاء ثامن شوال رُتب الأطلاب للقتال ، وسلم اليَزَكُ للملك العادل ، ف تبعه من يريد الغزاة ، وكان وصل جماعة من الروم يريدون الغزاة ، فخرجوا في جملة من خرج ، فلما وصلوا إلى خيام الفرنج - خذلهم الله تعالى - هجم عليهم المماليك السلطانية ، لقوة جأشهم ، وأنسهم بقتالهم ، وثقتهم بمراكيبهم وعُددهم ، ورموا عليهم النشاب ، فرآهم الغزاة والواصلون من الروم ، فاغثروا بأقدامهم ووافقوهم في فعلهم ، وقاربوا عسكر العدو ، فلما رأى الفرنج تلك المضايقة والمنازلة / ثارت همهم ، وحركتهم نخواتهم ، فركبوا ١٦٢ أ من داخل الخيام ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد وحملوا في جمع كثير فنجا من سبق به جواده ، وقدرت في القدم نجاته ، وظفر بجماعة قتلوا منهم ثلاثة نفر على ما قيل خيامهم إلى يازور ، وأقام السلطان - قدس الله روحه - تلك الليلة منازلهم إلى الصباح .

ذكر وفاة الملك المظفر

رحمة الله عليه

ولما كان يوم الجمعة حادى عشر شوال ركب السلطان - قدس الله روحه - إلى جهة العدو ، فأشرف عليهم ثم عاد . وأمرني بالإشارة إلى أخيه الملك العادل بأن يحضر معه علم الدين سليمان بن جندر ، وسابق الدين بن الداية ، وعز الدين بن المقدم ، فلما مثل الجماعة بخدمته أمر خادما أن أخلى المكان عن سوى الحاضرين ، وكنت في جملتهم وأمره بإبعاد الناس عن الخيمة ، ثم أخرج

كتاباً من قباه ، وفضّه ووقف عليه ، وبدرت دموعه - رحمه الله - وغلبه البكاء والنحيب ، حتى وافقناه من غير أن نعلم السبب ماهو ، وفي أثناء ذلك ذكر أنه يتضمن وفاة الملك المظفر - رحمه الله عليه - فأخذ الجماعة في البكاء حتى أتوا بوظيفته . ثم أذكرته بالله تعالى وإمضاء ^(١) قضائه وقدره فقال : « استغفر ١٦٢ ب الله وإنا لله وإنا إليه راجعون » . ثم قال : « المصلحة كتم ذلك وإخفاؤه / لئلا يتصل بالعدو ونحن منازلوه » . ثم أحضر الطعام وأكل الجماعة وانفصلوا . وكان الكتاب الواصل المتضمن نعيه هو غير الكتاب الواصل إلى حماة بنعيه في طي كتاب وصل من النائب بها . وكانت وفاته في طريق خلاط عائداً إلى ميافارقين ، فحمل ميتاً حتى وصل إلى ميافارقين ، ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بأرض حماة ، وحُمل إليها ودفن ، وزرث ضريحه - رحمه الله عليه - وكانت وفاته يوم الجمعة تاسع عشر رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، رحمه الله عليه .

ذكر كتاب وصل من بغداد

ولما كان يوم السبت الثاني عشر من شوال من السنة المذكورة وصل من دمشق كتاب من النواب بها في طيه كتاب من بغداد من الديوان العزيز النبوي - مجده الله تعالى - يتضمن فصولا ثلاثة : الأول : الإنكار على الملك المظفر في مسيره إلى بكتمر ، وبولغ فيه حتى قيل إن الديوان العزيز لا يُسلمه . والفصل الثاني : يتضمن الإنكار على مظفر الذين في مسك حسن بن قفجاق ، والأمر بإعادته إلى الكرخان ، وبولغ فيه حتى قيل فيه : إن الديوان العزيز لم يأذن لغيره في سكنها ؛ وكان من قصة حسن بن قفجاق أنه قصد أرميه إلى السلطان طغرل ، فإنه كان نزل به في بيوته ^(٢) لما هرب من ديار العجم ، واستنصر

(١) م : « وانتهاء » .

(٢) م : « في معونته » .

به ، وتزوج أخته ، ووقع في ذهنه أنه يكون أتابكه ، ويملك به / البلاد فقصدوا ١٦٣ أ
أرميه ، فقتل أهلها على ما قيل ، وسبى نساءهم وذرائعهم ، وتعرض للقوافل ،
وكان معقله الكرخاني ، فلما وجد السلطان طغرل قوته تركه وانصرف عنه ،
وعاد هو إلى بلاده ، وأظهر الفساد في الأرض ، والتعرض للقوافل على ما قيل ،
فاستعطفه مظفر الدين - صاحب إربل - حتى عاد إليه وانخرط في سلك
أصحابه ، وقبض عليه ، فأنفذ الديوان العزيز ذلك في معناه ، لاستيلاء مظفر
الدين على بلاده ، ولعله يشفع إلى الديوان ، فاقترضت عاطفته ذلك في حقه .
وأما الفصل الثالث : فكان يتضمن التقدم بإحضار القاضي الفاضل إلى الديوان
العزيز رسولا ليقرر معه قواعد ، وتكشف ^(١) إليه أسباب . هذا كان مضمون
الكتاب . وأما الجواب عنه فإن السلطان - قدس الله روحه - أجاب : عن
الفصل الأول : « بآنا لم نأمره بشيء من ذلك ، وإنما عبر ليجمع العساكر ويعود
إلى الجهاد ، فاتفق أسباب اقتضت ذلك ، وقد أمرناه بالعود عنه » . وأما الفصل
الثاني فأجاب عنه : بأن عرفهم حال ابن قفجاق وما تصدى له من الفساد في
الأرض ، وأنه قد تقدم إلى مظفر الدين حتى يحضره معه إلى الشام ، فيقطعه
فيه ، ويكون ملازما للجهاد . وأما الفصل الثالث : فإنه اعتذر عن القاضي / ١٦٣ ب
الفاضل بأنه كثير الأمراض ، وقوته تضعف عن الحركة إلى العراق . فكان هذا
حاصل الجواب .

ذكر وصول صاحب صيدا

رسولا من جانب المركيس

ولما كان يوم الثلاثاء خامس عشر شوال ^(٢) من السنة المذكورة وصل من

(١) م . « ويسر » .

(٢) م : « ولما كان ثالث عشر شوال » .

أخبر بوصول صاحب صيدا من جانب المركيس صاحب صور ، وكان قد جرى بيننا وبينهم أحاديث متردة ، حاصلها أنهم ينقطعون عن الفرنج ونصرتهم ، ويصبرون معنا عليهم بناء على فتنه كانت جرت للمركيس مع الملوك بسبب امرأة تزوجها كانت زوجة لأخى الملك جفرى ، وفسخ نكاحها بأمر اقتضاه دينهم ، واضطربت آراؤهم فيه ، فخاف المركيس على نفسه ، فأخذ زوجته وهرب من تحت الليل إلى صور ، وأخلد إلى السلطان - قدس الله روحه - والاعتضاد به ، وكان فى ذلك مصلحة للمسلمين ، لانقطاع المركيس عن الفرنج ، فإنه كان من أشدهم بأسا وأعظمهم للحرب مراسا ، وأثبتهم فى التدبير أساسا ، وحيث اتصل خبر وصول هذا الرسول بالسلطان - قدس الله روحه - أمر بإجلاله واحترامه ، فضربت خيمة ، وضرب حولها شقة ، ووضع فيها من الطرح والفرش ما يليق بعظمائهم وملوكهم ، وأمر بإنزاله فى الثقل ليسترخ ، ثم يجتمع به .

ذكر واقعة الكمين

التي استشهد فيها إياز المهرانى

قدس الله روحه

١٦٤ أ / ولما كان سادس عشر شوال من السنة المذكورة أمر السلطان - قدس الله روحه - الحلقة أن كمنت للعدو فى بطون أوادٍ هناك ، واستصحبوا جمعا من العرب ، فلما استقر الكمين فى موضعه ظهرت العرب على جارى عاداتها فى مناوشتها العدو ، فكان العدو يخرج منه جماعة للاحتشاش والاحتطاب قريبا من مخيمه ، ^(١) فبصر العرب بهم فضربوا عليهم ^(٢) ، ووقع الحرب بينهم ، وثار الصياح ، فسمع الفرنج فركب منه جمع من الخيالة ، وطلبوا جهة الصوت ^(٣) ،

(١) م : « تضرب العرب وتضرب العرب عليهم فضربوا عليهم » .

(٢) كذا فى الأصل ، و (م) : « العرب » .

وانهزم العرب من أيديهم إلى جهة الكمين والعدو يتبعهم طمعا فيهم ، حتى قاربوا الكمين ، وخرج الكمين عليهم ، وصاحوا بهم صيحة الرجل الواحد ، فانهزموا بين أيديهم نحو خيامهم . واتصل الخبر بالعدو ، فركب منهم خلق عظيم ، وقصدوا نحو الوقعة ، والتحم القتال ، واشتد الأمر ، وقُتل جمع من الطائفتين وجُرح وأسر جمع من العدو وأخذ منهم خيل كثيرة .

كان سبب انفصال الحرب أن السلطان - قدس الله روحه - ^(١) حسب مثل هذا الواقع ^(٢) ، فأنفذ أمير آخر أسلم ، وسيف الدين يازكج ، ومن يجرى مجراهم ، رداءً للكمين ^(٣) ، وقال : « إذا رأيتم الغلبة على الكمين فاطهروا » . فلما رأوا الكثرة من جانب العدو خرجوا على العدو بخيلهم ورجلهم ، ولما رأى العدو الأطلاب الإسلامية قد صوبت نحوه أعنة خيولها ولوا / الأدبار نحو ١٦٤ ب خيامهم ، والسيف يعمل في قفيهم ، حتى دخلوا الخيام ، وانفصل الحرب قبيل الظهر من نهار الأربعاء سادس عشر شوال . وكان السلطان - قدس الله روحه - قد ركب متشوقا أخبار الكمين ، وكنت في خدمته ، فكان أول من وصل الوقعة جماعة من العرب ، ومعهم خمسة رؤوس من الخيل ، قد أخذوها من الوقعة ، وانفصلوا قبل انفصال الحرب . ثم مازالت القلائع ^(٣) تتواتر ، والبشائر تتواصل ، وقتل في الوقعة من العدو على ما قيل زهاء ستين نفرا ، وجرح من المسلمين جماعة ، وقتل من المعروفين من المسلمين جماعة ، منهم إياز المهراني - رحمه الله عليه - وكان شجاعا معروفا ، وجاولي غلام الغيدى ، وسار مصرع إياز المعظمى ، وجرح عدة جرائح ، وحمل إلى المسلمين ، وأسر من العدو فارسان معروفان ، واستأمن اثنان بخيولهما وعدتهما . وعاد السلطان - رحمه الله - إلى خيمته فرحا مسرورا مُعوضا من قُتل فرسه ، متلطفًا بالجريح ، مترحما على

(١) م : « أحسن بهذه الواقعة » .

(٢) م : « للمسلمين » .

(٣) كذا في الأصل ، و (م) : « القلائع » .

الشهيد . وفي بقية اليوم المذكور وصل رسول الانكتار إلى الملك العادل يعثبه على الكمين ويطلب الاجتماع به ، ^(١) فاستأذن ، فأذن له ، فسار إليه ^(٢) .

ذكر ما جرى للملك العادل والانكتار

واجتماعهما

ولما كان يوم الجمعة ثامن عشر شوال من السنة المذكورة سار الملك العادل ١٦٥ أ / إلى اليزك ، وضربت له فيه توبئية ^(٢) عظيمة ، وسار معه من الأطعمة والتجملات والتحف ما جرت العادة أن يُحمل من الملك إلى ملك ، وهو إذا تجمل في ذلك لا يُغلب . وسار الانكتار إلى خيمته ، وحضر عنده على ما قيل ، واحترمه احتراماً عظيماً ، ووصل مع الانكتار شيء من طعامهم الذي يختصون به ، فأتحف به الملك العادل على وجه المطاينة ، فتناول منه الملك العادل ، وتناول هو وأصحابه الواصلون معه من طعام الملك العادل ، وقدم إليه ما كان حمل إليه ، وتحادثا معظم ذلك النهار ، وتفاصيلاً عن تواريخ ومطايينة ، ومحبة أكيدة .

ذكر الرسالة التي أنفذها الانكتار

إلى السلطان - قدس الله روحه -

في معنى الاجتماع به وجوابها

وفي ذلك اليوم سأل من الملك العادل أن يلتمس له من السلطان - قدس الله روحه - الاجتماع به ، والمثول بين يديه ، ولما وصلت هذه الرسالة شاور

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٢) م : قبة .

السلطان - قدس الله روحه - الجماعة في الجواب ، فما منهم من وقع له ما وقع له - رحمة الله عليه - وذلك أنه قال له : « الملوك إذا اجتمعوا يقبح منهم الخاصة بعد ذلك ، فإذا انتظم أمر حسن الاجتماع ، والاجتماع لا يكون إلا لمفاوضة في مهم ، وأنا لا أفهم بلسانك ، وأنت لا تفهم بلساني ، ولا بد من ترجمان بيننا ، تثق به وأثق به ، فليكن ذلك / الترجمان رسولا حتى يستقر ١٦٥ ب أمر ، وتستتب قاعدة ، وعند ذلك يكون الاجتماع الذي يعقبه الوداد والمحبة . قال الرسول : « ولما سمع الانكثار ذلك استعظم هذا الجواب ، وعلم أنه لا يقدر على بلوغ غرض إلا بالدخول تحت المراضى السلطانية » .

ذكر حضور صاحب صيدا بين يدي السلطان

- قدس الله روحه -

وأداء الرسالة والحديث الذي وصل فيه

ولما كان يوم السبت تاسع عشر شوال من السنة المذكورة جلس السلطان - قدس الله روحه - واستحضر صاحب صيدا لسماع رسالته وكلامه ، فحضر وحضر معه جماعة وصلوا معه ، وكنت حاضرا المجلس ، وأكرمه - رحمة الله عليه - إكراما عظيما ، وحادثهم وقدم بين أيديهم ما جرت به العادة ، ولما رُفع الطعام تحلى بهم ، وكان حديثه في أن السلطان يصالح المركيس صاحب صور ، وكان قد انضم إليه جماعة من أكابر الفرنجية ، منهم صاحب صيدا وغيره من المعروفين ، وقد سبقت قصته . وكان من شرط الصلح معه إظهار عداوته للفرنج البحرية ، وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم ، وواقعة وقعت له معهم بسبب الزوجة ، وبذل له السلطان - قدس الله روحه - الموافقة على شروط قصد بها - رحمة الله عليه - الإيقاع بينهم ، وأن ينفل بعضهم^(١) ؛ فلما سمع السلطان

(١) م : « وأن يقتل بعضهم بعضا » .

١٦٦ أ - قدس الله روحه - رسالته ، وعده / بأن يرد عليه الجواب فيما بعد ، وانصرف عنه في ذلك اليوم .

ذكر وصول رسول الانكتار

ولما كانت عشية ذلك اليوم وصل رسول ملك الانكتار وهو ابن الهنفرى وهو من أكابرهم وملوكهم ومن أولاد ملوكهم ، وصل رسولا وفي صحبته شيخ كبير منهم ، ذكروا أن عمره مائة وعشرون سنة ، فأحضره السلطان - قدس الله روحه - عنده وسمع كلامه . وكانت رسالته أن الملك يقول : « إني أحب صداقتك ومودتك ، وأنت قد ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك ، فأريد أن تكون حكما بينى وبينه ، وتقسم البلاد بينى وبينه ولا بد وأن يكون لنا علة بالقدس الشريف ، ومقصودى أن تقسم البلاد بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين ، ولا على لوم من الأفرنجية » . فأجابه في الحال بوعده جميل ، ثم أذن لهم في العود في الحال ، وتأثروا بذلك تأثرا عظيما ، وأنفذ وراءهم من سألهم عن حديث الأسارى ، وكان منفصلا عن حديث الصلح ، فقالوا ^(١) : « إن كان الصلح فعل الجميع وإن لم يكن صلح فلا يكون من حديث الأسارى شيء » . وكان غرضه - قدس الله روحه : [أن] يفسخ قاعدة الصلح ، فإنه التفت إلى [آخر] ^(٢) المجلس بعد انفصالهم ، وقال لى : « متى صالحناهم لم تؤمن غائلتهم ، فإني لو حدث لى حادث الموت ماتكاد تجتمع هذه العساكر ، ب ١٦١ ويقوى الفرنج ، والمصلحة / ألا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل ، أو يأتينا الموت » . هذا كان رأيه - قدس الله روحه - وإنما غلب على الصلح - قدس الله روحه .

(١) م : « فقال » .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (م) .

ذكر مشورة ضربها في التخيير بين الصالحين

١) صلح الملك و صلح المركيس صاحب صور^(١)

ولما كان يوم الاثنين حادى عشرين شوال^(٢) جمع السلطان الأمراء والأكابر وأرباب المشورة ، وذكر لهم القاعدة التى اتتمسها المركيس ، واستقر الأمر من جانبه عليها ، وهى أخذ صيدا ، وأن يكون معنا على الفرنج ، ويقاتلهم ويجاهرهم بالعداوة ، وذكر لهم ما اتتمسه الملك من تقرير قاعدة الصلح ، وهى أن يكون له من القرايا^(٣) الساحلية مواضع معينة ، ويكون لنا الجبلات بأسرها ، أو تكون القرايا^(٤) كلها مناصفة ؛ وعلى هذين القسمين يكون لهم أقساء^(٥) في بيع القدس الشريف وكنائسه وكان الانكتار قد خيرنا بين هذين القسمين ، فشرح - قدس الله روحه - الحال في القاعدتين للأمراء ، واستنبط آراءهم في ترجيح إحدى الجانبين^(٥) : الانكتار والمركيس ، وترجيح أحد القسمين المذكورين من جانب الملك ، فرأى أرباب الرأى أنه إن كان صلح فليكن مع الملك ، فإن مُصافاة الفرنج للمسلمين بحيث يخالطوهم بعيدة ، صحته غير مأمونة الغائلة . وانفض الناس وبقي الحديث مترددا في الصلح والرسل تتواصل / في تقرير قواعد الصلح ، وأصل القاعدة : أن الملك قد بذل أخته للملك العادل ١٦٧ أ بطريق التزويج وأن تكون البلاد الساحلية الإسلامية والفرنجية لهما . فأما الفرنجية فلها من جانب أخيها والإسلامية للملك العادل من جانب السلطان . وكان آخر الرسائل من الملك فى المعنى أن قال : « إن معاشر دين النصرانية أنكروا على

(١) م : « بين الانكتار والمركيس » .

(٢) م : « ولما كان حادى عشر شوال » .

(٣) م : « القرى » .

(٤) م : « قسوس » .

(٥) م : « أحد الحالين » .

وضع أختي تحت مسلم بدون مشورة البابا ، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه ،
وها أنا أسير إليه رسولا يعود في ثلاثة ^(١) أشهر ، فإن أذن فيها ونعمت ، وإلا
زوجتك ابنة أختي ^(٢) ، وما أحتاج في إذنه في ذلك . هذا كله وسوق الحرب
قائم ، والقتال عليهم ضربة لازب ، وصاحب صيدا يركب مع الملك العادل في
الأحيان ، ويشرف على الفرنج ^(٣) وقتال المسلمين لهم ^(٤) ، وهم كلما رأوه
تحركوا لطلب الصلح خوفا من أن ينضاف المركيس إلى المسلمين ، وعند ذلك
تنكسر شوكتهم ، ولم يزل الحال كذلك إلى يوم الجمعة خامس عشر شوال من
السنة المذكورة .

ذكر رحيله إلى تل الجزر

قدس الله روحه

ولما كان يوم الجمعة أصبح السلطان - قدس الله روحه - على عزم
الرحيل ، وأحضر أرباب الرأي ، وشاورهم في جواب رسالة القوم ، وعرض
١٦٧ ب عليهم حديثهم ، وذكر ما عندهم في ذلك ، وأحضر الرسل ، وكان ابن / الهنفرى
يترجم بينه - قدس الله روحه - وبين البحرينى ، واستقرت القاعدة على أن
يُنْفَذَ معهم رسولين : من جانبه واحد ، ومن جانب الملك العادل الآخر ، لأن
الحديث كان يتعلق به ، وكان من جملة رسالتهم أن البابا إن أذن في هذا العقد
تم ، وإن لم يأذن فيه زوجنا الملك العادل بابنة أخت ^(٤) الملك ، وهى بكر ،
وذكروا أن من دينهم أن البابا إنما يحتاج إلى استئذانه في تزويج الثيب من بنات

(١) م : « في ستة أشهر » .

(٢) (م) : « ابنة أختى » .

(٣) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

(٤) م : « بابنة أختى الملك » .

الملوك ، وأما الأبيكار فيزوجها أهلها ^(١) وكان الجواب عن ذلك أنه إن كان عقد فيكون على هذه ، لأنه سبق الحديث فيها ، ونحن لا نرجع عما قلناه ، وإن لم يتهياً فلا حاجة بنا إلى غير ذلك ^(٢) وانفصل الحال على ذلك ، وسار الرسل إلى خيم الملك العادل ليتجهز رسول السلطان - قدس الله روحه - ويلحقهم ، ثم وصل بعد ذلك من اليزك من أخبر أن الفرنج قد انتشر منهم راجل كثير ، وخرجوا عن الأسوار التي لهم ، ولم يظهر لخروجهم غائلة وسار - قدس الله روحه - إلى تل الجزر لارتياح المنزل ^(٣) وتبعه الناس في الرحيل ، فما كان الظهر إلا ووصل ^(٤) الناس إلى السلطان - قدس الله روحه - فنزلنا بتل الجزر ، ولما عرف الفرنج - خذلهم الله - بعود السلطان رحلوا عائدين ، وأقام السلطان بتل الجزر ، ثم رحل إلى جهة القدس الشريف ورحل / الفرنج إلى جهة بلادهم ، ١٦٨ أ واشتد الشتاء وعظمت الأمطار ، وسار السلطان إلى القدس الشريف ، وأعطى العساكر دستوراً . وأقمنا بالقدس في ذلك الشتاء أجمع ، وعاد العدو إلى بلاده ، وأرصد ^(٥) الانكثار في يافا عساكر ^(٦) ثم عاد إلى عكا ينظر في أحوالها . وأقام مدة ثم وصل منه رسول يقول : « إن الملك يقول : إني أؤثر الاجتماع بالملك العادل أخى فقيه مصلحة تعود على الطائفتين ، فقد بلغنى أن السلطان فوض أمر الصلح إلى أخى الملك العادل » . فعقد السلطان - قدس الله روحه - مشورة في مضي الملك العادل ، واتفق الرأي على أنه يمضى بحيث يجتمع بعساكرنا التي في الغور وكوكب وتلك النواحي ، ويحدثه ويقول له : « إن الحديث ، قد جرى بيننا مراراً ، وما أسفر عن مصلحة ، فإن كانت هذه الدفعة كذلك الدفعات ، فلا حاجة إلى الحديث وإن كان الغرض بث حال تقارب الأمر ، وأنا لا أجتمع

(١) هذه العبارة كلها ساقطة من (م) .

(٢) م : « اليزك » .

(٣) م : « ورحل » .

(٤) م : ووصل و الانكثار وعساكره إلى يافا » .

بك إلا أن أرى ما يقارب فصل الحال . وقرر مع الملك العادل أنه إن رأى ما يمكن فصل الحال عليه فصله ، وإلا طاوله وماطله إلى أن تصل العساكر من الأطراف ، فالتمس الملك العادل تذكرة تتضمن نهى ما ينفصل الحال عليه ، فكتب معه تذكرة ذكر فيها المناصفات ، وذكر فيها من أمر بيروت أنه إن أصر على طلبها ^(١) اشترط خرابها / ولا تُعمر ، وكذلك القابون ، وإن التمسوا عمارة وخر أجيب ^(٢) ، ويُعطى صليب الصليبوت ، ويكون للقمامة قس ، ويفتح لهم باب زيارتها بشرط أن لا يحملوا السلاح ، وكان الحامل على ذلك ما أخذه الناس من تعب مواظبة الغزاة ، وكثرة الديون . والبعد عن الأوطان فإن من الناس من كان لا يفارق السلطان ، ولا يمكنه طلب دستور منه .

ذكر مسير الملك العادل

رحمه الله

وكان مسيره من القدس الشريف عصر الجمعة رابع ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، ثم وصل كتابه من بيسان يخبر أنه لقيه الهنفرى مع الحاجب أبى بكر رسولا من الانكتار يقول : « إنا قد وافقنا على مقاسمة البلاد ، وأن كل من فى يده شئ فهو له ، فإن كان مافى أيدينا زائداً أخذتم فى مقابلته ما يقابل الزيادة مما يخصنا ، وإن كان مافى أيديكم أكثر فعلنا كذلك ، ويكون القدس لنا ، ولكم فيه الصخرة » .

هذا كان مضمون الكتاب فأوقف السلطان عليه الأمراء ، فاستصوب ذلك الأمير أبو الهيجاء : ورأوا أن من قال هذا المقال ^(٢) يوافق على ما مضى عليه الملك العادل ، وهو مصلحة . وسار الجواب إلى الملك العادل بذلك . ولما كان

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٢) م : « ورأوا من حال هذا المقال أن يوافق عليه الملك العادل » .

يوم الثلاثاء الخامس عشر من ربيع الأول^(١) وصل الحاجب أبو بكر صاحب الملك العادل يخبر أن الانكثار الملعون سار إلى يافا من عكا ، وأن الملك العادل ما رأى أن يجتمع / به إلا عن قاعدة منفصلة ، وأنه جرى بين هذا الحاجب ١٦٩ أ وبين الانكثار مفاوضات كثيرة ، حاصلها أنه نزل على أن تكون الصخرة لنا . والقلعة لنا ، والباقي مناصفة ، وأن لا يكون في البلد منهم مقدم مذكور ، وأن يكون قرايا القدس وباطنه مناصفة .

ذكر عود الملك العادل من الغور^(٢)

ثم قدم الملك العادل في سادس عشر ربيع الأول ، ولقيه السلطان - قدس الله روحه - واجتمعا ، وحكى ما سبق من الخبر .

ذكر غارة الفرنج خذلهم الله تعالى^(٣)

وفي بقية ذلك اليوم وصل مَنْ أخبر أن الفرنج أغاروا على حلة عرب قريب الداروم ، وأنهم أخذوا منهم جماعة ، وأخذوا منهم زهاء ألف رأس غنم ومواشى^(٤) ، فعظم ذلك على السلطان وشق عليه ، وسير جماعة فلم يلحقوهم .

(١) م : د ولا كان حادى عشر ربيع الأول .

(٢) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٣) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٤) هذا اللفظ غير موجود في (م) .

ذكر انفصال رسول المركيس

وكان قد وصل يوسف غلام صاحب صيدا رسولا من جانب المركيس ،
يتمس الصلح مع المسلمين ، فاشترط - رحمة الله عليه - شروطا منها : أن
يقاتل جنسه ويأينهم . ومنها : أن كل ما أخذه من البلاد الفرنجية يعد الصلح
بانفراده تكون له ، وما نأخذه نحن بانفرادنا يكون لنا ، وما نتفق نحن وهو على
أخذه يكون له نفس البلد ، ويكون لنا ما فيه من أسارى المسلمين وغير ذلك
١٦٩ ب من الأموال . ومنها : أن يطلق لنا كل / أسير في مملكته . ومنها أنه إن فُوض
إليه الانكثار أمر البلاد لأمر يجرى بينهم ، كان الصلح بيننا وبينه على ما استقر
بيننا وبين الانكثار ، ماعدا عسقلان وما بعدها ، فإنه لا يدخل في الصلح ،
فتكون الساحليات له وما في أيدينا لنا ، وما في الوسط يكون مناصفة ، وسار
رسوله على هذه القاعدة .

ذكر وصول العساكر الإسلامية

في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة^(١)

فأول من وصل أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ، وكان وصوله
يوم الاثنين ثامن عشر من ربيع الأول من السنة المذكورة ، وصل جريدة مقدما
على عسكره .

ذكر خروج سيف الدين بن المشطوب من الأسر

وكان وصوله إلى القدس الشريف يوم الخميس مستهل جمادى الآخرة ،
ودخل على السلطان - قدس الله روحه - بغتة ، وعنده أخوه الملك العادل -

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

رحمه الله - فنهض إليه واعتنقه ، وسرَّ به سروراً عظيماً ، وأخلى المكان ، وتحدث بطرف من أحاديث العدو ، وسئل عن حديث الصلح فذكر أن الانكثار سكت عنه .

وفي هذا اليوم كتب السلطان إلى ولده الملك الأفضل حتى يسير إلى قاطع الفرات يتسلم البلاد من الملك المنصور بن الملك المظفر ، وكان قد أظهر العصيان بسبب الخوف من السلطان على نفسه ، وأظهر ذلك ، ودخل في أمره الملك العادل ، وسير إلى الملك العادل حتى يتحدث في أمره ، وكان هو المتحدث / ١٧٠ أ له ، وكان ذلك قد شقَّ على السلطان - رحمة الله عليه - ، وأثار عليه مغيظة عظيمة ، كيف ^(١) فتح هذا الباب من أهله ^(١) ، ولم يكن أحدٌ من أهله خاف منه ولا طلب يمينه ، وهذا كان السبب في توقف الانكثار في الصلح ، وأنه ظن أن هذا خلاف يكدر على السلطان شرب الغزاة ، ويخرجه إلى الموافقة على مالا يرضى ، فنقذ إلى الملك الأفضل أن يسير إلى البلاد ، وكتب إلى الملك الظاهر بحلب المحروسة « إن أخاه إن احتاج إلى معونة عاونه » وجهزه بحملة كبيرة ، وسار باحترام عظيم حتى وصل حلب المحروسة : وأكرمه أخوه الملك الظاهر إكراماً عظيماً ، وعمل له ضيافة تامة ، وقدم بين يديه مقدمة سنية . وعدنا إلى حديث العدو .

ذكر عود رسول صور

ولما كان سادس ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وصل يوسف من جانب المركيس بجدد حديث الصلح ، ويقول : قد انفصل الحال على شيء بينه وبين الفرنجية ، فإن نجز في هذه الأيام سارت الفرنسيسية في البحر ، وإن تأخر

(١) م : « كيف يكون هذا الأمر من أهله » .

بطل الحديث في الصلح مع المركيس بالكلية ، فرأى السلطان - قدس الله روحه - الصلح مع المركيس مصلحة ، لاشتغال قلبه من جانب الشرق ، وخاف أن يتصل ابن تقي الدين بيكتمر ، فيحدث من ذلك ما يشغل الخاطر عن الجهاد ، ١٧٠ ب فأجاب إلى ما / يلتمس المركيس ، وكتب مع صاحبه مواصفة على نعت ماتقدم ، وسار ^(١) العدل في جواب يوسف الرسول ، وذلك بعد صلاة الجمعة تاسع ربيع الآخر من سنة ثمان وثمانين ^(٢) .

ذكر قتل المركيس الملعون

ولما كان سادس عشر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وصل من العدل الرسول المنفذ إلى المركيس كتاب يذكر فيه أنه قُتل ، وعجّل الله بروحه إلى النار ، وكان صورة قتله أنه تغذى ^(٣) يوم الثلاثاء ثالث عشرة عند الأسقف ، ثم خرج فقفز عليه اثنان من أصحابه بالسكاكين ، وكان خفيفاً من الرجال ، فما زالا يضربان فيه حتى عجّل الله بروحه إلى النار ، ومُسك الشخصان ، فسُئلا عن هذا الأمر ، ومن وضعهما عليه ، فقالا : « إن الانكتار وضعنا ^(٣) عليه » وقام بالأمر اثنان فحفظا القلعة ، إلى أن اتصل الخبر بالملوك واعتمدوا الأمر وتدير المكان .

ذكر تمة خبر الملك المنصور

وما جرى له

وذلك أنه لما بلغه موجدة السلطان - قدس الله روحه - عليه أنفذ إلى الملك العادل رسولا يستشفع به ليطيّب قلب السلطان عليه ، ويقترح أحد

(١) م : « وسار يوسف الرسول بالجواب تاسع ربيع الآخر » .

(٢) م : « تقدم » .

(٣) م : « حملنا » .

قسمين : إما حرّان والرّها وصميمصات ، وإما حماة ومنبج وسلمية والمعرة ، مع كفالة إخوته ، وراجع الملك العادل السلطان - رحمة الله عليه - مراراً فلم يفعل ذلك ، ولم / يُجب إلى شئ منه ، فكثرت الشفاعة إليه من جميع الأمراء ، وهزت ١٧١ أ شجرة كرمه ^(١) ، فرجع إلى خلقه النبوى رضى الله عنه ، وحلف له على حرّان والرّها وصميمصات ، على أنه إذا عبر الفرات أعطى المواضع التى اقترحها ، ويكفل إخوته ، ويتخلّى عن تلك المواضع التى فى يده ، ودخل تحت ضمان ذلك ، وكفله الملك العادل ، ثم اتّمس الملك العادل بخط السلطان رضى الله عنه فأبى ، وألحّ عليه ، فخرّق نسخة اليمين فى تاسع عشرى من ربيع الآخر ، وانفصل الحال ، وانقطع الحديث ، وقد كنتُ أتردد بينهما فى ذلك ، وأخذ من السلطان الغيظ كيف يُخاطب مثل ذلك من جانب بعض أولاد أولاده .

ذكر قدوم رسول الروم

ولما كان مستهل جمادى الأولى وصل رسول من قسطنطينية الكبرى ، والتقى بالإكرام والاحترام ، ومثل بالخدمة السلطانية فى الثالث من جمادى الأولى . وكانت رسالته تشتمل على مطالب ، ومنها : أن صليب الصليوت . ومنها : تكون القمامة بيد أقساء من جانبه وسائر كنائس القدس . ومنها : أن يقع الاتفاق معه على أن يكون عدو من عاداه ، وصديق من صادقه . ومنها : أن يوافق على قصد جزيرة قبرص فأقام إلى يومين ، ثم سيّر معه رسول يقال له : ابن البزار من الديار المصرية ، وأجيب بالمنع عن جميع مقترحاته ، وقيل / له إن الصليب قد بذل ١٧١ ب فيه ملك الكُرّج مائتى ألف دينار ، فلم يجب إلى ذلك .

(١) م : « وهزت شجرة رافة منه » .

ذكر ما جرى للملك العادل في البلاد

التي هي قاطع الفرات

وذلك أنه لما سار الملك الأفضل رَقُّ الملك العادل قلب السلطان على ابن تقي الدين ، وكثر الحديث في معناه ، وأنقذني السلطان لمشاورة الأمراء في خدمة الملك العادل في أمره ، فجمعهم في خدمته ، وذكرت لهم ما أرسلني فيه إليهم ، فانتدب الأمير حسام الدين أبو الهيجاء للجواب ، وقال : « نحن عبيده ومماليكه ، وذلك صبي ، وربما حمله خوفاً أن انضاف إلى جانب آخر ، ونحن فما نقدر على الجمع بين قتال المسلمين والكفار ، فإن أرادنا نقاتل المسلمين صالح الكفار وسرنا إلى ذلك الجانب ، وقتلناه بين يديه ، وإن أراد منا ملازمة الغزاة صالح المسلمين وسامحهم » . وهذا كان جواب الجميع ، فرق السلطان - قدس الله روحه - وجددت نسخة يمين لابن تقي الدين - رحمه الله - وحلف له بها ، وأعطاه خطه بما استقر من القاعدة . ثم إن الملك العادل - رحمه الله - التمس من السلطان - رحمة الله عليه - البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدين بعد انتقاله ، وجرت مراجعات كثيرة في العوض عنها ، وكنتُ الرسول بينهما ، وكان آخر ١٧٢ أ ما استقر أنه يتسلم تلك البلاد ، وينزل / عن كل ما هو شامي الفرات ، وما قطعها ماعدا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء ، وخاصة بمصر بعد النزول عن خبزه ^(١) وعليه في كل سنة ستة ألف غرارة غلة تحمل إلى السلطان من الصلت والبلقاء إلى القدس ، والمغل في السنة المذكورة في مواضعه له ، ومغل قاطع الفرات للسلطان في هذه السنة أيضاً ، وأخذ خط السلطان - رحمة الله عليه - بذلك ، وسار بنفسه ليصلح ابن تقي الدين ويطيّب قلبه . وكان مسيره في ثامن جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

(١) م : « الجيزة » .

ذكر استيلاء الفرنج على الداروم

وكان الفرنج - خذلهم الله تعالى - لما رأوا أن السلطان - رحمة الله عليه - قد أعطى العساكر دستوراً ، وتفرقت العساكر عنه ، فنزلوا على الداروم ، وطمعوا فيه ، وكان بيد علم الدين قيصر ، وفيه نوابه .

ولما كان يوم السبت تاسع جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين اشتد زحف العدو على المكان راجلاً وفارساً ، وكان الانكثار الملعون قد استفسد من نوبة عكا نقاين حلبين ، فتمكنوا من نقب المكان ، وأخرقوا النقب ، وطلب أهل الحصن مهلة بحيث يشاورون السلطان - رحمة الله عليه - فلم يمهلوهم ، واشتدوا بالقتال عليه فأخذوه عنوة ، فاستشهد منه من قدر الله له بذلك ، وأسر من قدر / له ذلك ، وكان ذلك قدراً مقدوراً .

١٧٢ ب

ذكر قصدهم لمجدل يابا

ولما استولى الفرنج على الداروم ، وساروا بعد أن قرروا أمره ، ووضعوا فيه من اختاروه له ، حتى نزلوا على منزلة يقال لها الحسى ، وهو قريب من جبل الخليل عليه السلام ، وذلك في رابع عشر جمادى الأولى ، فأقاموا عليه ، ثم تأهبوا لقصد حصن يقال له مجدل يابا ، فأتوه جريدة ، وخلفوا خيامهم في منزلتهم ، وكان بها عسكر ، إسلامي فلقبهم وجرى بينهم قتال عظيم ، وقتل من العدو كند مذكور فيما بينهم ، واستشهد من المسلمين فارس واحد ، وكان سبب قتله أنه وقع رمحاً ، فنزل ليأخذه فمنعه فرسه الركوب ، فبادروه وقتلوه ، وعادوا إلى خيامهم في بقية اليوم خائبين والله الحمد .

ذكر وقعة جرت في صور

ولما كان سادس عشر جمادى وصل كتاب من حسام الدين بشارة يذكر
١٠٨ أ فيه أنه تخلف (*) / في صور مائة راكب ، وانضم إليهم من عكا مقدار خمسين
وطمعوا فخرجوا لشن الغارة على البلاد الإسلامية ، فوقع عليهم العسكر المرصد
لحفظ البلاد من ذلك الطرف ، وجرى بينهم قتال شديد ، قُتل من العدو خمسة
عشر نفرا ، ولم يقتل من المسلمين أحد وعادوا خائبين خاسرين ، والله الحمد .

ذكر قدوم العساكر الإسلامية إلى الجهاد

ولما رأى السلطان - قدس الله روحه - ما جرى من العدو من التبسط
سيّر إلى العساكر من سائر الأطراف أن تسابق إلى الحضور ، فكان أول قادم
بدر الدين دلدريم مع خلق كبير من التركمان ، ولقيه السلطان - قدس الله روحه
- واحترمه ..

ذكر قدوم ابن المقدم ^(١)

١٠٨ ب / ووصل بعده عز الدين بن المقدم في سابع عشر جمادى الأولى بعسكر
حسن وأطلاب جيدة ^(٢) ورحب به السلطان - رحمة الله عليه - واحترمه .

ذكر حركة العدو من الحسى ^(١)

وأما العدو فإنه رحل من الحسى ، ونزل على مفرق طرق ، منها طريق

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) م : د وآلات جميلة .

عسقلان ، وطريق إلى بيت جبريل ، وإلى غير ذلك من الحصون الإسلامية ؛ ولما بلغ السلطان - قدس الله روحه - ذلك أمر العساكر أن سارت نحوه ، فخرج أبو الهيجاء . وبدر الدين ولدروم ، وابن المقدم وتتابعت العساكر وتخلّف (*) هو - رحمة الله عليه - في القدس لنوع التياث كان عرض له ، فلما أحسّ العدو المخدول بظهور العساكر الإسلامية إليه عاد خائباً خاسراً ناكصاً على أعقابهِ ، ووصلت الكتب من الأمراء يخبرون برحيل العدو إلى عسقلان ^(١) خائباً خاسراً ، والله الحمد والمنة ^(٢) .

ذكر تعبئة العدو لقصد القدس الشريف

ولما كان يوم السبت ثالث عشرى جمادى الأولى / وصل قاصد من العسكر ١٧٣ أ يخبر أن العدو قد خرج في راجله وفارسه وسوادٍ عظيم ، ونخيم على تل الصافية ، فسير السلطان - قدس الله روحه - إلى العساكر الإسلامية ينذرهما ويحذرهما ، ويستدعى الأمراء جريدة إلى عنده ، ليعقدوا رأياً فيما يقع العمل بمقتضاه ، فوصل ورحل العدو من تل الصافية إلى جانب النطرون ، فنزل شماليه ، وذلك في سادس عشرى جمادى الأولى . وكان قد سار من عرب الإسلام جماعة للغارة على بافا ، فوصلوا عائدين من غير علم بحركة العدو ، فنزلوا في بعض الطريق يقتسمون ، فوقعت عليهم عساكر العدو ، وأخذوهم ، وهرب منهم ستة نفر ، فوصلوا إلى السلطان ، وأخبروه الخبر ، ووصلت الجواسيس وأصحاب الأخبار من جانب العدو ، يخبرون أنه يقيم بالنطرون لنقل الأزواد والآلات التى تدعو الحاجة إليها في الحرب ، فإذا حصل عندهم ما يحتاجون إليه قصدوا القدس الشريف . وفي يوم الأربعاء وصل منهم رسول صحبة غلام كان للمشطوب عندهم ، تحدث في معنى قراقوش ، ويتحدثون في معنى الصلح .

(*) الفقرات المذكورة بين النجمتين سبق أن ذكرت خطأ في المخطوطة في ورقة ملحقة بين ص ١٠٨

أ و ١٠٨ ب ، وقد حذفت من هناك وأثبتت هنا ليتسق النص .

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

ذكر نزولهم في بيت نوبة

وهو موضع وطاة بين جبال ، بينه وبين القدس مرحلة

فرحلوا من النظرون يوم الأربعاء سابع عشرين من ربيع الأول ^(١) ونزلوا
 ١٧٣ ب بيت / نوبة ، ولما عرف السلطان - رحمة الله عليه - ذلك استحضر الأمراء
 وضرب مشوراً فيما يفعل ، وكان خلاصة الرأي أن تقسم الأسوار على الأمراء ،
 ويخرج ببقية العساكر جريدة إلى جهة العدو ، فإذا عرف كل قوم موضعهم من
 السور واستعدوا له ، فإن دعت الحاجة إليهم خرجوا ، وإن دعت الحاجة إلى
 ملازمة مواضعهم لازموها ، فكتبت الرقاع وسيّرت إلى الأمراء .

ذكر وقعة جرت ^(٢)

وكان طريق يافا سابلة بمن ينقل الميرة إلى العدو المخدول ، فأمر السلطان
 - قدس الله روحه - مَنْ في اليزك أن يعمل معهم ما يمكنه ، وكان في اليزك
 بدر الدين دُلدرم ، فكمن حول الطريق كميناً فيه جماعة جيدة ، فمر بهم جمع
 من خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة ، فاستضعفهم ، فحملوا عليهم ، وجرى
 قتال عظيم كانت الدائرة فيه على العدو ، وقتل ثلاثون نفرأ ، وأسر جماعة . ووصل
 الأسارى يوم السبت تاسع عشرى جمادى الأولى إلى القدس الشريف ، وكان
 لدخولهم وقع عظيم ، وجرى على العدو من ذلك وهن عظيم ، وقويت قلوب
 اليزكية ، وانبعثت همهم حتى حملوا على العسكر ، ونزلوا إلى أطراف الخيم ،
 والله الحمد .

(١) م : « جمادى الأولى » .

(٢) هذا العنوان غير موجود في (م) .

ذكر وقعة أخرى ^(١)

ولما علم المسلمون كون القوافل لا تنقطع خرج جماعة وأخذوا معهم عربا / كثيرة ، وكمنوا كميناً ، واجتازت القافلة ومعها جمع كثير ، فخرجت العرب ١٧٤ أ على القافلة ، فتبعتهم الخيالة ، فاندرجوا بين أيديهم منهزمين نحو المسلمين ، فخرجت الأتراك عليهم فأخذوا منهم وقتلوا ، وجرح من الأتراك جماعة ، وذلك في يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

ذكر أخذ قافلة مصر

حرسها الله تعالى

وكان قد تقدم السلطان - قدس الله روحه - إلى عسكر مصر بالمشير وأوصاهم بالاحتراز والاحتياط عند مقاربة العدو ، وأقاموا ببلييس أياما ، حتى اجتمعت القوافل إليهم واتصل خبرهم بالعدو المخدول ، ثم ساروا طالبين البلاد ، والعدو يترقب أخبارهم ، ويتوصل إليهم بالعرب المفسودين . ولما تحقق العدو خبر القفل ^(٢) أمر عسكره بالانحياز إلى سفح الجبل ، وركب في ألف راكب مرافقين ألف راجل ^(٣) ، وأمر العسكر بالاحتياط والتحفظ ، وسار حتى أتى تل الصافية فبات ، ثم سار حتى أتى تل الصافية ثم علّف على خيله فيه ، وسار حتى أتى ماء يقال له ^(٣) الحسنى ، واتصل خبر نهضة العدو فأنفذ وأخبر القافلة ، وكان المندوب لذلك أمير آخر أسلم ، والطنبا العادلي وجماعة من الفرسان المذكورين ، وأمرهم أن يיעدوا بالثقل في البرية ، ويعدوهم / عن العدو مهما ١٧٤ ب

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٣) م : « يقابل » .

أمكن ، فاتفق أن العسكر وصل الحسى قبل وصول العدو إليه فلو يقيموا عليها ، وساروا حتى اتصلوا بالقفل والعسكر المصرى ، فأتوا بالقفل على ذلك الطريق ، ثقةً منهم بأنهم لم يجدوا فى الطريق ذاعرا ، ولا أحسوا فيه بمخوف ، فرغبوا فى قرب الطريق ، وسلكوا بالناس على هذا الطريق ، فوصل الناس إلى ماء يقال له الخويلفة ، وتفرق الناس لأجل الماء ، فأخبرت العرب العدو بذلك وهو نازل برأس الحسى ، فقام من وقته وسرى حتى أتاهم قبيل الصبح ، وكان مقدّم العسكر المصرى فلك الدين أخو الملك العادل لأمه ، فأشار أسلم بالمسير ليلا ، قطعاً للطريق واستظهارا بالصعود إلى الجبل ، فخاف فلك الدين أنه إن رحل فى الليل جرى فى الليل أمرٌ على القافلة لتبدها ، فنادى فى الناس ألا يرحلوا إلى الصباح .

وأما الانكثار الملعون ، فإنه بلغنا أنه لما بلغه الخبر لم يصدق به ، فركب مع العرب بجميع يسير ، وسار حتى أتى القفل وطاف حوله فى صورة عربى ، ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس ، فعاد واستركب عسكره وكانت الكبسة قرية الصباح ، فبغت الناس ، ودفع بخيله ورجله ، فكان الشجاع الأيد القوى الذى ركب فرسه ونجا بنفسه ، وانهزم الناس إلى جهة القفل ، والعدو يتلوهم ، فلما ١٧٥ أ رأوا القفل أعرضوا / عن قتال العسكر ، وطلبوا القفل ، فانقسم القفل ثلاثة أقسام : قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب وعسكر الملك العادل ، وقسم أوغلوا فى البرية مع جماعة من العرب ، وقسم استولى عليهم [العدو] فساقهم بجماهم وأحاطها بجميع مامعهم ، وكانت وقعة شنعاء لم يصب الإسلام بمثلها من مدة مديدة . وكان فى العسكر المصرى جماعة من المذكورين ، كحسين الجراحى ، وفلك الدين ، وبنى الجاولى وغيرهم من المذكورين ، وقُتل من العدو مائة فارس على رواية ، وعشرة أنفس على رواية ، ولم يقتل من المسلمين معروف سوى الحاجب يوسف ، وابن الجاولى الصغير فإنهما استشهدا إلى رحمة الله تعالى ، ^(١) وكان للسلطان - قدس الله روحه - حُمل مع أليك العزيزى فقاتل دونه وسلم ؛ وتقدم عند السلطان بسبب ذلك ^(٢) وتبذد الناس فى البرية ، ورموا

(١) هذه الجملة ساقطة من (م) .

أموالهم ، وكان السعيد منهم من نجا بنفسه ، وجمع العدو ما أمكنه جمعه من الخيل والجمال والأقمشة وسائر أنواع الأموال وكلف الجمالين خدمة الجمال ، والخربندية خدمة البغال ، والساسة خدمة الخيل ، وسار في جحفل من غنيمة يطلب عسكره ، فنزل على الخويلفة ، وسقى منها ، ثم سار حتى أتى الحسى . ولقد كان حكى من كان أسيراً معهم أن في تلك الليلة وقع فيهم الصوت أن العسكر السلطاني قد قصدهم ، فتركوا الغنيمة / وانهزموا وبعثوا عنها زمانا ، ١٧٥ ب فلما انكشف لهم أن العسكر لم يلحقهم ، عادوا إلى الرحل ، وهرب في تلك الغيبة جمع من الأسارى المسلمين ، وكان الحاكي منهم فسأله : « بكم حزرتم الجمال والخيل ؟ » . فأخبر أن الجمال كانت تناهر ثلاثة آلاف جمل ، والأسارى خمسمائة ، وازنها ^(١) عِدَّة الخيل ، أخبر بذلك جماعة ، وكانت هذه الواقعة صبيحة الثلاثاء حادى عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين . ووصل [الخيل] إلى السلطان - قدس الله روحه - في عشية ذلك اليوم بعد عشاء الآخرة وكنت جالسا في خدمته ، ووصل بالخبر شاب من الأصبطلية ، فما مرَّ بالسلطان خبر أنكى منه في قلبه ولا أكثر تشوِيشا منه لباطنه ، وأخذت في تسكينه وتسليته وهو لا يكاد يقبل التسلية . وكان أصل القضية أن أمير آخر أسلم أشار عليهم أنهم يصعدون الجبل وينزلون ، فلم يفعلوا ، فصعد هو الجبل وأصحابه ، فلما وقعت الكيسة كان هو على الجبل لم يصل إليه أحد من العدو ، ولم يشعروا به ، ولما انهزم المسلمون تبعهم خيالة الفرنج ، وأقام الرِّجالة منهم يستولون على ما تخلف من المسلمين من الأقمشة ، فلما تحقق أمير آخر أن الخيالة قد بعدت عن الرجال نزل إليهم بمن معه من الخيل ، وكبسوهم من حيث لم يشعروا ، وقتلوا منهم جماعة ، وغنموا منهم دوابا من جهلتها بغل كان تحت هذا القاصد ، ثم سار / العدو يطلب خيامهم ، وكان وصولهم إلى مخيمهم في سادس عشر جمادى ١٧٦ أ الآخر . وكان يوما عندهم أظهر فيه من السرور وأسبابه ما لا يمكن وصفه ،

(١) م : « وتقرّب من ذلك » .

وأعادوا خيمهم إلى الموطأة على بيت نوبة ، وصحَّ عزمهم على القدس ، وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الأموال والجمال التي تقل الميرة والأزواد الواصلة من مصر مع عسكرها ، ورتبوا جماعة من ^(١) لد يحفظون الطريق على من ينقل الميرة ، وأنفذوا الكندهرى إلى صور وطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس . ولما عرف السلطان -- قدس الله روحه -- ذلك منهم ، عمد إلى الأسوار فقسَّمها على الأمراء ، وتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار ، وأخذ في إفساد المياه ظاهر القدس ، فأخرب الصهاريج والجباب ، بحيث لم يبق حول القدس ما يُشرب أصلاً ، وأظنَّ في ذلك إطناباً عظيماً ، وأرض القدس لا يطعم في حفر بئر فيها ما يعين في جمعها ، لأنها جبل عظيم وحجر صلب وسيَّر إلى العساكر يطلبها من الجوانب والبلاد .

ذكر قدوم الملك الأفضل

وكان لما استقرت القاعدة مع الملك العادل في عبوره إلى البلاد الفراتية سيَّر إلى الملك الأفضل يأمره بالعود من قصد تلك البلاد ، وكان قد وصل إلى حلب ١٧٦ ب المحروسة ، فلما وصله أمر السلطان / بالعود ، عاد مع انكسار في قلبه وتشوش في باطنه ، فوصل إلى دمشق معتباً ، ولم يحضر إلى خدمة السلطان ، فلما اشتدَّ خبر الفرنج سيَّر إليه وطلبه ، فما وسعه التأخر ، فسار مع من كان قد وصل من العساكر الشرقية إلى دمشق . وكان وصوله في يوم الخميس تاسع عشر جمادى الآخر ، فلقى السلطان قريب العازرية ، وترجَّل له جبراً لقلبه ، وتعظيماً لأمره ، وسار وفي خدمته أخواه الملك الظافر وقطب الدين في ظاهر القدس من جهة العدو .

(١) م : د على .

ذكر عود العدو إلى بلادهم وسبب ذلك

ولما كانت ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الآخرة أحضر السلطان - قدس الله روحه - الأمراء عنده ، فحضر الأمير أبو الهيجاء بمشقة عظيمة ، وجلس على كرسى في خدمة ^(١) السلطان وحضر المشطوب والأسدية بأسرهم وجماعة الأمراء ، ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد ، فذكرت ما يسر الله من ذلك ، وكان مما قلته : « إن النبي ﷺ لما اشتد به الأمر بايعة الصحابة - رضى الله عنهم - على الموت في لقاء العدو ، ونحن أولى من تأسى به - ﷺ - ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ، فلعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو » فاستحسن الجماعة ذلك ، ووافقوا عليه ، ثم شرع السلطان - قدس الله روحه - بعد أن سكت زماناً في صورة مفكر ، والناس / سكوت ، ١٧٧ أ كأن على رؤوسهم الطير ، ثم شرع وقال : « الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم ، فإن هذا العدو أمن له من المسلمين من تلقاه إلا أنتم ، فإن لو يتم أعتكم ^(٢) - والعياذ بالله - طوى البلاد كطوى السجل للكتاب ، وكان ذلك في ذمتكم فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا ، وأكلتم مال بيت المال ، فالمسلون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام » .

فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب ، وقال : « بامولانا : نحن مماليكك وعبيدك ، وأنت الذى أنعمت علينا وكبرتنا ، وعظمتنا وأعطينتنا ، وأغنيتنا ، وليس لنا إلا رقابنا وهى بين يديك ، والله ما يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن يموت » . فقال الجماعة مثل مايقول . فانبسطت نفسه بذلك المجلس ، وطاب قلبه ،

(١) م : « خدمة » .

(٢) م : « فإن وليتم بأنفسكم » .

وأطعمهم ثم انصرفوا . ثم انقضى يوم الخميس على أشد حال من التأهب والاهتمام ، حتى كان العشاء الآخرة ، واجتمعوا في خدمة السلطان على العادة ، وسمروا حتى مضى هزيع من الليل ، وهو غير منبسط على عادته ، ثم صلينا العشاء ، وكانت الصلاة هي الدستور العام ، فصلينا وأخذنا في الانصراف ، فاستدعاني - رحمة الله عليه - فلما جلست في خدمته قال لي : « علمت ماالذي ١٧٧ ب تجدد ؟ » فقلت : « وما الذي / تجدد ؟ » قال : « إن أبا الهيجاء أنفذ إلّى اليوم وقال : إنه اجتمع عندي جماعة المماليك والأمراء ، وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له ، وقالوا : لا مصلحة في ذلك ، فإننا نخاف أن نحصر ويجري علينا ما جرى على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الإسلام أجمع ، والرأى أن نلقى مصافا ، فإن قدر الله تعالى أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم ، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ، ومضى القدس ، وقد انخفضت بلاد الإسلام بعساكرها مدة بغير القدس » وكان - رحمة الله عليه - عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال ، فشقّ عليه هذه الرسالة ، وأقمتُ تلك الليلة في خدمته حتى الصباح ، وهى من الليالى التى أحيّاها ^(١) في سبيل الله - رحمه الله - وكان مما قالوه في الرسالة : « إنك إن أردتنا فتكون معنا أو بعض أهلك ، حتى نجتمع عنده وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك ، والأتراك لا يدينون للأكراد » . وانفصل الحال على أن يقيم من أهله . مجد الدين بن فروخشاه - صاحب بعلبك - ، وكان - رحمه الله - تحدثه نفسه بالمقام ، ثم منعه رأيه عنه ، لما فيه من خطر الإسلام . فلما قارب الصبح أشفقتُ عليه وخاطبته في أن يستريح ساعة ^(٢) لعل العين تأخذ حظها من النوم ^(٢) وانصرفت عنه إلى دارى ، فما وصلت إلا والمؤذن قد أذن ، فأخذت في أسباب الوضوء ، فما فرغت إلا والصبح ١٧٨ أ قد طلع ، وكنت أصلى / الصبح معه - رحمة الله عليه - في غالب الأحوال ، وقصدتُ

(١) م : « أحييتها » .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

إلى خدمته وهو يجدد الوضوء ، فصلينا ، ثم قلتُ له - - رحمة الله عليه - : « قد وقع لي واقع أعرضه » فأذن فيه ، فقلت : « المولى في اهتمامه وما قد حمل نفسه من هذا الأمر مجتهد فيما هو فيه ، وقد عجزت أسبابه الأرضية ، فينبغي أن يرجع إلى الله تعالى ، وهذا يوم الجمعة ، وهو أبرك أيام الأسبوع ، وفيه دعوة مستجابة - في صحيح الأحاديث - ونحن في أبرك موضع نقدر أن نكون فيه في يومنا هذا ، فالسلطان يغتسل للجمعة ، ويتصدق بشيء خفية ، بحيث لا يشعر أنه منك ، وتصلى بين الأذان والإقامة ركعتين تناجي فيهما ربك ، وتفوض مقاليد أمرك إليه ، وتعترف بعجزك عما تصدّيت له ، فاعل الله يرحمك ، ويستجيب دعاءك » .

وكان - رحمة الله عليه - حسن العقيدة ، تام الإيمان ، يتلقى الأمور الشرعية بأكمل انقياد وقبول ، ثم انفصلنا فلما كان وقت الجمعة صليت إلى جانبه في الأقصى ، وصلى ركعتين ، ورأيتُه ساجداً وهو يذكر كلمات ، ودموعه تتقاطر على مصلاه - رحمه الله - ثم انقضت الجمعة بخير ، فلما كان عشيّتها ونحن في خدمته على العادة وصلت رقعة جورديك ، وكان في اليك يقول فيها : « إن القوم ركبوا بأسرهم ، ووقفوا في البر على ظهر ^(١) ، ثم عادوا إلى خيامهم وقد سیرنا جواسيس تكشف أخبارهم » / ولما كان صبيحة يوم السبت وصلت ١٧٨ ب رقعة أخرى يخبر فيها أن الجواسيس رجعوا وأخبروا أن القوم اختلفوا في الصعود إلى القدس ، والرحيل إلى بلادهم ، فذهب الفرنسيّة إلى الصعود إلى القدس ، وقالوا : « نحن إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه » وقال الانكتار : « إن هذا الموضع قد أفسدت مياهه ، ولم يبق حوله ماء أصلاً فمن أين نشرب ؟ فقالوا له : « نشرب من ماء نقوع » وبينه وبين القدس مقدار فرسخ » . فقال : « كيف نذهب إلى السقى ؟ » فقالوا : « ننقسم قسمين : قسم يركب إلى السقى مع الدواب ، وقسم يبقى على البلد في المنزلة ، ويكون الشرب في اليوم مرة » .

(١) م : « وقفوا في التل وقت الظهيرة » .

فقال الانكتار : « إذا يأخذ العسكر البرانى الذى يذهب مع الدواب ويخرج عسكر البلد على الباقيين ، ويذهب دين النصرانية » . فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكموا الثلاثمائة اثنى عشر منهم ، وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهم ، وقد باتوا على حكم الثلاثة ، فما يأمرونهم به يفعل . فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل ، فلم يمكنهم المخالفة ، وأصبحوا فى بكرة الحادى والعشرين من جمادى الآخرة راحلين إلى نحو الرملة ، وعلى أعقابهم - والله الحمد - ناكسين ، ووقف عسكرهم شاكا فى السلاح إلى أن لم يبق فى المنزلة إلا الآثار ، ثم نزلوا بالرملة وتواتر الخبر بذلك ، فركب السلطان - قدس الله روحه - وركب الناس ، وكان يوم سرور وفرح ^(١) ولكن السلطان - قدس الله / روحه - خاف على مصر المحروسة لما حصلوا عليه من الجمال والظهر ، وكان قد ذكر الانكتار مثل هذا الحديث مرارا ^(٢) .

ذكر رسالة الكندهرى

ولما فرغ بال السلطان برحيل العدو استحضر رسول الكندهرى لسماع رسالته ، فحضر بين يديه - رحمة الله عليه - وأذن له فى أداء الرسالة ، فقال : « إن الكندهرى يقول : إن الانكتار قد أعطانى البلاد الساحلية ، وهى الآن لى ، فأعد على بلاذى حتى أصالحك ، وأكون أحد أولادك » . فغضب السلطان لذلك غضباً عظيماً ، بحيث إنه كاد يبطش به ، فأقيم من بين يديه ، فسأل أن يمثل ^(٣) حتى يقول كلمة أخرى ، فأذن له فى ذلك ، فقال : « يقول : إن البلاد فى يدك ، فما الذى تعطينى منها ؟ » فانتهره وأقامه . ولما كان يوم الثالث والعشرين من جمادى الآخرة استحضر الرسول وكان جوابه : « يكون الحديث بيننا فى صور وعكا على ما كان مع المركيس » ثم وصل بعد ذلك الحاجى ^(٣)

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٢) م : « يهمل » .

(٣) كذا فى الأصل ، وفى (م) : « الحاجب » .

يوسف صاحب المشطوب من الفرنج ، وذكر أن الانكثار أحضره وأحضر الكندهرى ، وأخلى المجلس ، وقال له : « تقول لصاحبك بأننا قد هلكنا نحن وأنعم ، والأصلح حقن الدماء ، ولا ينبغي أن تعتقد أن ذلك عن ضعف منى ، بل للمصلحة ويكون هو الوسطة بيننا وبين السلطان ، ولا تغتر بتأخرى عن منزلى ، فالكبش يتأخر لينطح » وأحضر مع الحاجى ^(١) شخصين يسمعان الكلام من / المشطوب ، وكان ظاهر الحال الكلام فى معنى إطلاق بهاء الدين ١٧٩ ب قراقوش ، وباطنه فى معنى الصلح ، وأخبر الحاجى ^(٢) أنهم رحلوا عن الرملة قاصدين يافا ، وأنهم على غاية من الضعف والعجز عن قصد مكان ، فاستحضر المشطوب من نابلس لسماع الرسالة ، فحضر وكان الجواب : « إن الكندهرى قد أعطى عكا ، ونحن نصالحه على ماله ، ويتركنا والانكثار فى بقية البلاد » .

وقعة جرت على عكا ^(٣)

وذلك أنه كان - رحمة الله عليه - قد جعل فى مقابلة عكا عسكريا خشية خروج العدو إلى تلك النواحي التى تليهم ، فلما كان يوم الأحد الثانى والعشرون من جمادى الآخرة خرج العدو المخدول من عكا غائرين على ما يليها من البلاد والرساتيق فثارت عليهم الكمينات من جوانب ، وكان قد شعر العسكر الإسلامى بخروجهم ، فكمن لهم فأخذوا منهم جماعة ، وقتلوا جماعة ، والله الحمد .

ذكر عود رسولهم فى معنى الصلح

ولما كان يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الآخرة عاد رسولهم صحبة الحاجى يوسف ، وقد حمل الحاجى يوسف رسالة يؤديها بحضور صاحبهم ،

(١) كذا فى الأصل ، وفى (م) : « الحاجب » .

(٢) هذا العنوان غير موجود فى (م) .

وهي : « إن الملك - يعنى الانكتار - يقول : إنه راغب فى مودتك وصادقتك ،
 وإنه لا يريد أن يكون فرعون يملك الأرض ولا يظن [ذلك] فيك ، ولا يجوز
 لك أن تهلك المسلمين كلهم ، ولا يجوز لى أن أهلك الفرنج كلهم ، وهذا ابن
 ١٨٠ أ أختى الكندهرى قد ملكته هذه الديار ، / وسلمته إليك يكون هو وعسكره
 بحكمك ، ولو استدعيتهم إلى الشرق ^(١) سمعوا وأطاعوا . ويقول : « إن
 جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها ، وأنا
 أطلب منك كنيسة ، وتلك الأمور التى كانت تضيق صدرك بما كان تجرى المراسلة
 مع الملك العادل قد قلت بتركها ، وأعرضت عنها ولو أعطيتنى مفرقة
 أو قرية ^(٢) قبلتها وقبلتها . فلما سمع السلطان هذه الرسالة جمع أرباب الرأى
 وأصحاب مشورته ، وسألهم عما يكون جواب هذه الرسالة ، فما منهم إلا من
 أشار بالمحاسنة وعقد الصلح لما كان قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب ،
 وعلاهم من الديون ، واستقر الحال على هذا الجواب : إنك إذا دخلت معنا هذا
 الدخول فما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، ابن اختك يكون عنده ك بعض
 أولاده . وسيلغك ما أفعل فى حقه من الخير ، وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهى
 القمامة ، وبقية البلاد نقسمها ، فالساحلية التى بيدك تكون بيدك والتى بأيدينا
 من القلاع الجبلية تكون لنا ، وما بين العمليين تكون مناصفة ، وعسقلان وما
 وراءها تكون خرابا ، لا لنا ولا لكم ، وإن أردتم قراياها تكون لكم ، والذى
 كنت أكرمه حديث عسقلان . وانفصل الرسول طيب النفس وذلك فى ثانى
 ١٨٠ ب يوم قدومه وهو الثانى / والعشرون من جمادى الآخرة من سنة ثمان ، واتصل
 الخبر أنهم بهد وصول الرسل إليهم راحلون إلى جهة عسقلان ، طالبين جهة
 مصر ، وصول يوم الجمعة سابع وعشرين من جمادى الآخرة رسولا من جانب
 قطب الدين بن قليج أرسلان يقول : « إن البابا قد وصل إلى قسطنطينية فى

(١) م : « الشنق » .

(٢) م : « خربة » .

خلق لا يعلم عددهم إلا الله تعالى » . وقال الرسول : « إننى قتلت فى الطريق اثنى عشر فرسا » . ويقول : « تقدم إلى من يتسلم بلادى فإنى قد عجزت عن حفظها » فلم يصدق السلطان هذا الخبر ولم يكثرث به .

ذكر عود رسول الفرنج ثالثا

ولما كانت عشية الأحد التاسع والعشرون من جمادى وصل الحاجى صاحب المشطوب ، ومعه جُفرى رسول الملك ، وقال : « إن الملك شكر أنعام السلطان » . وقال : « الذى أطلبه منك أن يكون لنا فى قلعة القدس عشرون نفراً ، وأن من سكن من النصارى والفرنج فى البلد لا يتعرض إليهم ، وأما بقية البلاد قلنا منها الساحليات والوطاة ، والبلاد الجبلية لكم » . وأخبرنا الرسول من عند نفسه مناصحة : « قد نزلوا عن حديث القدس ما عدا الزيارة ، وإنما يقولون ذلك تصنعاً ، وأنهم راغبون فى الصلح وأن الانكثار لا بد له من الرواح إلى بلده » . وأقام يوم الاثنين سلخ الشهر ، وكان معه فى هذه الوقعة بازان هدية / للسلطان ، فاستحضر الأمراء بأسرهم ، وشاورهم فيما يكون جواباً على ١٨١ أ هذه الرسالة ، وانفصل الحال على هذا الجواب وهو : « إن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة » . فقال الرسول : « وليس على الزوار شئ يؤخذ منهم ؟ » فعلم من هذا القول الموافقة . « وأما البلاد فعسقلان وما وراءها لا بد من خرابه » . فقال الرسول : « قد خسر الملك على سورها مالا جزيلا » . فسأل المشطوب السلطان - رحمة الله عليه - أن يجعل مزارعها وقراياها له فى مقابلة خسارته ، فأجاب . وأن الداروم وغيره يخرب ، ويكون بلدها مناصفة . وأما باقى البلاد فيكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها ، ومهما اختلفا فى قرية كانت مناصفة . فهذا كان جواب رسالته . وسار فى يوم الثلاثاء مستهل رجب سنة ثمان وثمانين ، ومعه الحاجى يوسف ، وكان قد طلب رسولا مذكوراً يُحلفه

إن استقرت القاعدة ، فأُخِر السلطان - رحمة الله عليه - تسير الرسول إلى حين استقرار القاعدة ، وأنفذ لهم هدية حسنة في جواب هديتهم ، وما كان - رحمه الله - يغلب في الهدايا .

ذكر عود الرسول

وكان عوده وقد مضى من الليل هزيع من ليلة الثالث من شهر الله رجب ،
 ١٨١ ب فحضر الحاج ليلا ، وأخبر السلطان / بالخبر ، وحضر الرسول في بكرة الخميس الثالث من رجب ، وأدى الرسالة وهي : « إن الملك يسألك ، ويخضع لك في أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة ، وأي قدر لها عند مُلكك وعظمتك ؟ وما سبب إصراره عليها إلا أن الفرنج لم يسمحوا بها ، وهو قد ترك القدس بالكلية ، لا يطلب أن يكون فيه رهبان ولا قسوس إلا في القيامة وحدها ، فتترك له أنت هذه البلاد ، ويكون الصلح عاما ، فيكون لهم كل مافي أيديهم من الداروم إلى أنطاكية ، ويسلم مافي أيديكم ، وينتظم الحال ويروح ، وإن لم ينتظم الصلح فإن الفرنج ما يمكنونه من الرواح ، ولا يمكنه مخالفتهم » . فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة ، والخشونة أخرى وكان - لعنه الله - مضطرا إلى الرواح ، وهذا عمله مع اضطرابه ، والله المسؤول في أن يكفي المسلمين شره ، فما بلوا بأعظم حيلة ولا أشد إقداما منه . ولما سمع السلطان - رحمة الله عليه - هذه الرسالة ، أحضر الأمراء وأرباب الرأي من دولته ، وسألهم عن الجواب ما يكون ، فكان خلاصة الرأي هذا الجواب ، وهو : « إن أهل أنطاكية لنا معهم حديث ، ورسلنا عندهم فإن عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح ، وإلا فلا ، وأما البلاد التي يسألكها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه ، وإلا فلا قدر لها / وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابلة ما خسر عليه لدا في الوطاة » . وسير الرسول صبيحة الجمعة رابع رجب سنة ثمان وثمانين .

ذكر قدوم ولده الملك الظاهر ^(١)

صاحب حلب

ولما كان السبت الخامس من رجب وصل ولده الملك الظاهر ، وكان كثير المحبة له والإيثار لجانبه ، لما يراه فيه من إمارات السعادة ، وصفات الكفاية ، وتوسم الملك ، فخرج السلطان - قدس الله روحه - إلى لقائه ، فلقاه في قاطع العازرية ، فإنه وصل على القُور ، ونزل له عند لقائه واحترمه ، وأكرمه ، وضمه إليه وقبّل بين عينيه ، ونزل في دار الاستتار .

ذكر عود الرسول رابعا ^(١)

ولما كان يوم الأحد السابع من رجب وصل الحاج يوسف وحده ، وذكر أن الملك قال له : « لا يمكننا أن نخرب من عسقلان حجراً واحداً ، ولا يُسمع عنا في البلاد مثل ذلك ، وأما البلاد فحدودها معروفة لا منكرة فيها ، وعند ذلك تأهب السلطان - رحمة الله عليه - للخروج إلى جهة العدو ، وإظهار القوة ، وشدة العزم على اللقاء .

ذكر تبريزه رحمة الله عليه

ولما كان العاشر من رجب بلغ السلطان - رحمة الله عليه - أن الفرنج - خذلهم الله تعالى - قد رحلوا طالبين نحو بيروت ، فبرز من القدس إلى منزلة يقال لها / الجيب ، وكان قدوم الملك العادل من البلاد الفراتية في بكرة الجمعة ١٨٢ ب

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

الحادى عشر من رجب ، فدخل الصخرة ، وصلى عندها ، ثم توجه يتبع السلطان . ثم إن السلطان رحل من الجيب إلى بيت نوبة ، وبعث إلى العسكر فى القدس ليحثهم على الخروج واللحوق به ، ولحق السلطان فى بيت نوبة فأبى كنت قد تخلفت عنه ليلة الاستعداد ، ثم رحل فى الأحد ثالث عشر إلى الرملة ، فنزل بها ضاحى نهاره على تلال بين الرملة ولد ، وأقام بها بقية الأحد . ولما كان صبيحة الاثنين رابع عشر ركب جريدة حتى أتى يازور وبيت دجن^(١) ، وأشرف على يافا ، ثم عاد إلى منزلته ، وأقام بها بقية يومه ، وجمع أرباب مشورته وشاورهم فى النزول على يافا ، واتفق الرأى على ذلك .

ذكر حصار يافا

ولما كان صباح الثلاثاء خامس عشر رحل طالباً جهة يافا ، فخيّم عليها ضاحى نهاره ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً ، وكان على البحر وطرف الميسرة أيضاً على البحر والسلطان فى الوسط ، وكان صاحب الميمنة ولده الملك الظاهر ، وصاحب الميسرة أخوه الملك العادل ، والعساكر فيما بينهما . ولما كان سادس عشر من الشهر زحف الناس إليها واستحققوا أمرها استحقاقاً عظيماً ، ١٨٣ أ ثم رتب السلطان - رحمة الله عليه - الناس للقتال ، وأحضر / المنجنىقات ، وركبها على أضعف موضع فى السور مما يلى الباب الشرقى ، وكان^(٢) فى ذلك اليوم على جذم من حائط قبالة المنجنىقات^(٢) ، وأطلق النقاين فى السور ، وارتفعت الأصوات وعظم الضجيج ، واشتد الزحف ، وأخذ النقاين النقب من شمالي الباب الشرقى إلى الزاوية طول البدنة ، وكان قد هدم المسلمون ذلك المكان فى الحصار الأول ، وبناء الفرنج ، وتمكن النقاين من النقب ، ودخلوا

(١) م : بيت جبرين .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

فيه ، ولم يشك الناس في أخذ البلد في ذلك اليوم ، هذا وأمر العدو في زيادة ، وكان الملك في عكا قد توجه إلى نحو بيروت ، وهذا الذي حمل السلطان على نزوله على يافا . ثم انفصل ذلك اليوم عن قتال شديد قد ضرس العدو منه ، وظهر من العدو من الشدة والحماية والذب والمنعة ما أضعف قلوب الناس ، هذا والنقايون قد تمكنوا من النقب ، فلما قارب الفراغ أخذ العدو في خسف النقب عليهم ، فخسفوه في مواضع عدة ، فخاف النقايون ، وخرج منهم جماعة وتفاثر الناس عن القتال ، وعلموا أن أمر البلد مشكل ، وأنه يحتاج إلى زيادة عمل في أخذه ، فعزم السلطان - قدس الله روحه - عزمة مثله ، وأمر النقايين أن يأخذوا النقب في بقية البدنة من البرج إلى الباب ، وأمر المنجنيقات أن تضرب / قبالة البدنة المنقوبة ، ففعلوا ذلك ، وأقام السلطان تلك الليلة هناك إلى أن مضى ١٨٣ ب من الليل مقدار ثلثه ، وعاد إلى الثقل ، وكان الثقل بعيداً عن البلد على تل قبالة ، وأصبحت المنجنيقات وقد أقيم منها اثنان ، وأقيم الثالث في بقية النهار وأصبح السلطان على القتال والزحف ، فلم يجد من الناس غير الفتور بسبب نصب المنجنيقات ظناً منهم أن المنجنيقات لا تعمل إلا بعد أيام . فلما علم السلطان - قدس الله روحه - من الناس التفاتر والتواكل حملهم على الزحف ، والتحم القتال ، واشتد الأمر ، وأذاقوا العدو مر الأمر ، وأشرف البلد على الأخذ ، وأيقنت ^(١) النفوس به وطمعت في ذلك طمعاً شديداً ، وضعف العدو إلا أنه جرح من المسلمين جماعة بالنشاب والزنبورك من البلد ^(٢) ، فمنهم الحاجب أبو بكر وختلخ - والى بعلبك ، وأصيب بعينه ، وطغرل التاجي ، وسراسنقر في وجهه ، وهما من مقرى الممالك ، وإياز جركس في يده ، وهو من كبارهم ^(٣) ولما رأى العدو المخدول ما قد حل بهم أرسلوا رسولين نصرانياً وفرنجياً يطلبان الصلح ، ويتحدثان فيه ، فطلب السلطان منهم قاعدة القدس وقطيعته ،

(١) م : « فانفتت » .

(٢) م : هذه العبارة ساقطة من (م) .

فأجابوا إلى ذلك ، واشترطوا أن ينظروا إلى يوم السبت الذى هو تاسع عشر
 ١٨٤ أ رجب ، فإن جاءتهم نجدة وإلا تمت القاعدة على ما / استقر ، فأبى السلطان
 الإنظار ، فعاد الرسول ، ثم رجعوا يسألونه فى الإنظار ، فأبى ذلك ، وتفاثر
 الناس عن القتال بسبب تواصل الرسل . سكونا إلى الدعة على جارى العادة ،
 فأمر السلطان النقاين بحشو النقوب بعد انتهاها ، ففعل ذلك ، ووُضعت النار
 فيه ، فوقع بعض البدنة ، وكان العدو قد عرف وقوع النار فى النقب ، وعلم
 أن ذلك المكان يقع ، فعمد إلى أخشاب عظيمة ، وهياها خلف ذلك المكان ،
 فلما وقع ذلك المكان ألهب النيران ، فمنعت من الدخول فى الثلمة ، فأمر السلطان
 الناس فزحفوا وضايقوا القوم مضايقة عظيمة ، والله درهم من رجال قتال ^(١) ،
 ما أشدهم وأعظم بأسهم ، فإنهم مع هذا كله لم يغلقوا لها بابا ، وما زالوا يقاتلون
 خارج الأبواب ، ولم يزل الناس فى أعظم قتال إلى أن فصل الليل بين الطائفتين ،
 ولم يقدر على البلد فى ذلك بعد حرق النقوب فى باقى البدنة ، وضاق صدر
 السلطان لهذا الأمر ، وتقسم فكره ، وندم كيف لم يجيهم إلى الصلح ، وبات
 تلك الليلة فى الخيم ، وقد عزم على أن يقيم تمام خمسة مناجيق ، يضرب بها البدنة
 الضعيفة بسبب النقوب والنيران والخسف من جانبهم .

ذكر فتح يافا وهى أول فتح الثالى

وما جرى عليها من الوقائع

١٨٤ ب / ولما كان يوم الجمعة ثامن عشر رجب سنة ثمان وثمانين أصبحت
 المنجنىقات وقد نُصبت ، وحجارتها قد جمعت من الأودى والأماكن البعيدة لعدم
 الحجر فى ذلك المكان ، وظلت ترمى البدنة المنقوبة ، وزحف السلطان - قدس
 الله روحه - ، وزحف ولده الملك الظاهر زحفا شديدا ، وزحف عسكر الملك

(١) م : أ أقبال .

العادل من الميسرة ، فإنه كان مريضاً ، وارتفعت الأصوات ، وضربت الكوسات ، وخفقت البوقات ورمت المنجنيقات ^(١) ، وأجابهم الويل من كل جانب ، واشتد عزم النقبين في إيقاد النار ، فما ارتفع من النهار ساعتان إلا ووقعت البدنة ، وكان وقعها كوقع الواقعة ، ونادى الناس : « ألا وإن البدنة قد وقعت ، فلم يبق من له أدنى إيمان إلا وزحف ، ولا قلب من العدو إلا رعد ورجف » . هذا وهم على القتل أشد وأحزم ، وعلى الموت أعز وأكرم ، وذاك أن البدنة لما وقعت علا غبار مع دخان وأظلم الأفق ، وعميت عين النهار ، وما تجاسر أحد على الولوج خوفاً من اقتحام النار فلما انكشفت الظلمة ظهرت أسنة قد نابت مناب الأسوار ورماح قد سدت الثلمة حتى عن نفوذ الأبصار ، ورأى الناس هولا عظيماً من صبر القوم وثباتهم ، وسداد حركاتهم وسكناتهم ، ولقد رأيتُ رجلين على ممشى السور يمنعان المتسلق فيه / من جهة الثلمة ، وقد ^{أ ١٨٥} أتى أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ونزل إلى داخل ، وقام رفيقه مقامه متصدياً لمثل ما لحقه أسرع من لمح البصر ، بحيث لم يفرق بينهما إلا ناقد بصير . ولما رأى العدو ماقد آل الأمر إليه سير رسولين إلى السلطان - قدس الله روحه - يلتمسان الأمان ، فقال - رحمه الله - : « الفارس بفارس ، والتركلي بمثله ، والراجل بالراجل ، والعاجز فعلى قطيعة القدس » . فنظر الرسول ، ورأى القتال على الثلمة أشد من إضرار النار ، فسأل السلطان أن يبطل القتال إلى أن يعود . فقال : « ما أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر ، لكن ادخل إلى أصحابك فقل لهم ينحازون إلى القلعة ويتركون الناس يشتغلون بالبلد ، فما بقى دونه مانع » . فعاد الرسول بهذه الرسالة ، فانحاز عدو الله إلى قلعة يافا ، بعد أن قتل منهم جماعة غلطا ^(٢) ، ودخل الناس البلد عنوة ، ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغلالاً كثيرة ، وأثاثاً وبقايا قماش مما نهب من القافلة المصرية . واستقرت القاعدة

(١) م : الأصل : « وخفقت المنجنيقات » والتصحيح عن (م) .

(٢) م : « جماعة عظيمة » .

على الوجه الذى قرره السلطان . ولما كان عصر يوم الجمعة المبارك وصل السلطان - رحمة الله عليه - كتاب من قائماز النجمي ، وكان في طريق الغور ^(١) لحمايته من عسكر العدو الذى في عكا ، يخبر فيه : أن الانكثار لما سمع خبر يافا أعرض ١٨٥ ب عن / قصد بيروت ، وعاد إلى قصد يافا ، فاشتد عزم السلطان على تنمة الأمر وتسلم القلعة ، وكنت ممن ^(٢) لم ير الأمان ، لأنه قد لاح أخذهم ، وكان الناس لهم مدة لم يظفروا من العدو بمغنم يوثبهم عليه ، فكان أخذهم عنوة مما يبعث همم العسكر ، غير أن الأمان وقع واتفق الصلح ، فكنت بعد ذلك ممن يبحث على إخراج العدو من القلعة وتسلمها خوفا من لحوق النجدة ، وكان السلطان - قدس الله روحه - يشتد حرصه ^(٣) ، غير أن الناس قد أقعدهم التعب عن امثال الأمر ، وأخذ منهم الحديد وشدة الحر ودخان النار ، بحيث لم يبق لهم استطاعة على الحركة ، وأقام السلطان يحثهم إلى هوى من الليل ، فلما رأى ما قد نزل بالناس من التعب ركب وسار إلى خيمته إلى الثقل ، وسرنا في خدمته ، ثم نزل في خيمته ، وعدت إلى خيمتى وعندى من القلق ما أقلقنى عن النوم . ولما كان سحرة تلك الليلة سمعنا بوق الفرنج وقد نطق فعلمنا بوصول النجدة ، فاستدعانى السلطان - رحمة الله عليه - من وقته وقال : « لاشك أن النجدة قد وصلت في البحر وعلى الساحل من عساكر الإسلام من يمنعهم النزول ، والمصلحة أن تسير إلى الملك الظاهر وتقول له : يقف ظاهر الباب القبلى ، وتدخل أنت ومن تراه إلى / القلعة ، وتخرجوا القوم ، وتستولوا على ما فيها من الأموال والأسلحة ، وتكتبها بخطك إلى الملك الظاهر وهو خارج البلد ، وهو يسيرها إلى ^(٤) عندنا » . وسير معى لتقوية اليد على ذلك ^(٥) عز الدين جورديك ، وعلم الدين قيصر ، ودرباس المهراني ، فسرت من ساعتى ومعى

(١) م : « في طرف العدو » وهو خطأ واضح .

(٢) م : « وتسلم القلعة ممن لم ير الأمان » .

(٣) م : « وكان السلطان يشتد خروجه » .

(٤) م : « ويسير معى لتقوية البلد على ذلك عز الدين .. الخ » .

شمس الدين عدل الخزانة ، حتى أتيت منزلة ولده الملك الظاهر ، وهو نائم في شقته ^(١) على تل قريب البحر في اليزك ، وعليه كَزَاغُنْدَه ، وهو بلأمة حربه ، فلا ضيع الله لهم صنيعهم في نصرة الإسلام ، فأيقظته ، وقام والنوم في عينيه ، وسرث في خدمته وهو يستفهم منى رسالة السلطان - رحمه الله - حتى وقف حيث أمر ، ودخلنا نحن إلى يافا وأتينا القلعة وأمرنا الفرنج بالخروج منها ، فأجابوا إلى ذلك ، وتهيأوا للخروج .

ذكر كيفية بقاء القلعة في يد العدو

وكان ذلك في بكرة السبت تاسع عشر رجب سنة ثمان وثمانين ، ولما أجابوا إلى الخروج قال عز الدين جرديك : « لا ينبغي أن يخرج منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية أن يتخطفوهم » . وكان الناس قد أدخلهم الطمع في البلد . وأخذ عز الدين يشتد في ضرب الناس وإخراجهم ، وهم غير مضبوطين بعدة ، ولا محصورين في مكان ، فكيف يمكن إخراجهم ١ / وطال الأمر إلى ١٨٦ ب أن علا النهار وأنا ألومه وهو لا يرجع عن ذلك ، والزمان يمضي ، فلما رأيت الوقت يفوت قلت له : « إن النجدة قد وصلت والمصلحة المسارعة في إخراجهم ، والسلطان فقد أوصاني بذلك » . فلما عرف السبب في حرصى أجاب إلى إخراجهم ، ومضينا إلى باب القلعة القريب من الباب الذى ولده الملك الظاهر قائم عنده ، فأخرجنا سبعة ^(٢) وأربعين نفرا بجيولهم ، وكتبناهم ، وسيرناهم ، ولما خرج هذا نفر اشتد نفس الباقين ، وحدثتهم أنفسهم بالعصيان ، وكان سبب خروج هؤلاء أنهم استقلوا بالمراكب التى جاءتهم ، وظنوا ألا نجدة لهم فيها ، ولم يعلموا أن الانكثار مع القوم ، ورأوهم وقد تأخروا عن النزول إلى علو النهار

(١) م : « شليته » .

(٢) م : « تسعة » .

فخافوا أن يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا ، فخرج من خرج ، ثم بعد ذلك قويت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركبا ، فقويت نفوس الباقين في الحصن ، فظهرت منهم إمارات العصيان ودلائله ، وخرج منهم من أخبرني بتشويش عزمهم وأخذوا الطارقيات والجنويات ، وعلو على الأسوار وكانت القلعة جديدة لم تشرف بعد ، فلما رأيت الأمر قد آل إلى ذلك نزلت من التل الذي كنت واقفا عليه وهو ١٨٧ أ ملاصق لباب / القلعة ، وقلت لعز الدين وهو واقف مع عسكريه في أسفل التل مع جمع من الأجناد : « خذوا حذرکم ، فقد تغيرت عزائم القوم » . فما كانت إلا ساعة بحيث صرت خارج البلد في خدمة ولده الملك الظاهر وقد ركب القوم خيولهم ، وحملوا من القلعة حملة الرجل الواحد ، وأخرجوا من كان في البلد من الأجناد ، ولقد ازدحم الناس في الباب حتى كاد أن يتلف منهم جماعة ، وبقي منهم جماعة في بعض الكنائس من رعا^(١) العسكر ، مشغولين بما لا يجوز ، فهجموا عليهم وقتلوا منهم ، وأسروا . وسيرني السلطان الملك الظاهر إلى والده السلطان - قدس الله روحه - فعرفته بالحال فأمر الجاوش ونادى في العسكر وضرب الكوس للقتال ونفر الناس من كل جانب للغزاة ، وهجموا البلد ، وحسروا العدو في القلعة وأيقن بالبوار ، واستبطأوا نزول النجدة إليهم ، وخافوا خوفا عظيما ، فأرسلوا بطركهم والقسطلان ،^(٢) وكان خلقه هائلة^(٣) ، رسولين إلى السلطان - رحمة الله عليه - يعتذران إليه مما جرى ، ويسألان القاعدة الأولى ، فخرج الرسل إلى السلطان - رحمة الله عليه - والقتال يشتد عليهم . وكان سبب امتناع نزول النجدة أنهم رأوا البلد مشحونا ببيارق المسلمين ورجالهم ، فخافوا أن تكون القلعة قد أخذت ، وكان البحر يمنع من سماع الصوت من كل جانب ، وكثرة الضجيج والتهليل والتكبير ، فلما رأى من في القلعة شدة ١٨٧ ب / الزحف عليهم ، وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها ، فإنها بلغت نيفا وخمسين

(١) م : « من أتباع العساكر » .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (م) .

مركبا ، منها خمسة عشر شانيا منها شانى الملك ، علموا أن النجدة قد ظنوا أن البلد قد أخذ ، فوهب رجل منهم نفسه للمسيح وقفز من القلعة إلى الميناء وكان رملا فلم يصبه شيء ، واشتد عدوا حتى أتى البحر . فخرج له شانى فأخذه إلى شانى الملك فحدثه الحديث ، فلما تيقن الانكثار ذلك أن القلعة بعد مع أصحابه اندفع يطلب الساحل ، فكان أول شانى ألقى من فيه من البرشانية ، وكان أحمر وقبته حمراء ، وبيرقه أحمر ، وكان رنكه ، فما كان إلا ساعة وقد نزل كل من قد الشوانى إلى الميناء ، هذا كله وأنا أشاهد ذلك ، ثم حملوا على المسلمين فاندجروا بين أيديهم وأخرجوهم من الميناء ، وكان تحتى فرس ، فسقت حتى أتيت السلطان ، وأخبرته بالخبر ، وبين يديه الرسولان ، وقد أخذ القلم بيده حتى يكتب لهما الأمان ، فعرفته فى أذنه ما جرى ، فامتنع من الكتابة وأشغلهم بالحديث ، فما كان إلا ساعة حتى فر المسلمون نحو السلطان ، فصاح فى الناس ، فركبوا ، وقبض على الرسل ، وأمر بتأخير الثقل والأسواق إلى يازور ، فرحل الناس ، وتخلف لهم ثقل عظيم مما كان قد نهبوا من يافا ، لم يقدرُوا على نقله ووصل الثقل وبقي السلطان جريدة فى الليل ، وبات من ليلته هناك وخرج الانكثار إلى / موضع السلطان الذى كان فيه لمضايقة البلد ، وأمر من فى القلعة أن يخرجوا ١٨٨ أ إليه ، فعظم سواده ، واجتمع به جماعة من المماليك وجرى بينهم أحاديث ومجانة ^(١) كثيرة .

ذكر تجديد حديث الصلح

ثم طلب الحاجب أبا بكر العادلى فحضر عنده ، وأييك العزيزى ، وسنقر المشطوب وغير هؤلاء ، وكان قد صادق جماعة من خواص المماليك ، ^(٢) وفرس منهم جماعة ^(٢) ودخل معهم دخولا عظيما بحيث كانوا يجتمعون به فى أوقات

(١) م : « ومجاوبات » .

(٢) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

متعددة ، وكان قد صادق من الأمراء جماعة كبدر الدين دلدرد وغيره ، فلما حضر هذا نفر عنده جدّ وهزل ، ومن جملة ما قال : « هذا السلطان عظيم ، وما في الأرض للإسلام ملك أكبر ولا أعظم منه كيف رحل عن المكان بمجرد وصولي ، ووالله ما لبست لأمة حرى ، ولا تأهبت لأمر ، وليس في رجلى إلا زربول البحر ، فكيف تأخر ؟ » ثم قال : « والله إنه لعظيم ، والله ما ظننت أنه يأخذ يافا في شهرين ، فكيف أخذها . في يومين ؟ » . ثم قال لأبى بكر : « تسلم على السلطان وتقول له : بالله عليك أجب سؤالي في الصلح ، فهذا أمر لا بد له من آخر ، وقد هلكت بلادى وراء البحر ، وما دوام هذا مصلحة ١٨٨ ب لا لنا ولا لكم » . ثم انفصلوا عنه ، وحضر أبو بكر عند السلطان / وعرفه ما قال . وكان ذلك في أواخر يوم السبت تاسع عشر رجب ، فلما سمع السلطان - رحمة الله عليه - ذلك أحضر أرباب المشورة ، وانفصل الحال على أن الجواب : « إنك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة ، وكان الحديث في يافا وعسقلان ، والآن فقد خرجت هذه يافا ، فيكون لك من قيسارية إلى صور » . فمضى إليه وعرفه ما قال فردّه إليه ومعه رسول فرنجى وقال : « يقول الملك : إن قاعدة الفرنج أنه إذا أعطى واحد لواحد بلدا صار تبعه وغلामه ، وأنا أطلب منك هذين البلدين : يافا وعسقلان ويكون عساكرهما في خدمتك دائماً ، وإذا احتجت إلى وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتى » . فكان جواب السلطان - رحمة الله عليه - : « حيث دخلت هذا المدخل فأنا أجيبك إلى أن نجعل هذين البلدين قسمين ، أحدهما لك وهو يافا وما وراءها والثانى لى وهو عسقلان وما وراءها » . ثم سار الرسولان ، ورحل السلطان إلى الثقل ، وكان الخيم بيازور ، ورتب اليك بها ، وأمر بخرابها وخراب بيت دجن ، ورتب النقابين لذلك ، واليكن عندهم ، وسار حتى أتى الرملة ، فخيم بها يوم الأحد العشرين ١٨٩ أ من رجب ، ووصل إليه الرسول مع الحاجب أبى / بكر ، فأمر بإكرامه والإحسان إليه ، وكانت رسالته الشكر من الملك على إعطائه يافا وتجديد السؤال في عسقلان ويقول : « إنه إن وقع الصلح في هذه الأيام الستة سار إلى بلاده ، وإلا احتاج أن يشتى ههنا » فأجابه السلطان في الحال ، وقال : « أما النزول عن عسقلان

فلا سبيل إليه ، وأما تشتيته في هذه البلاد فلا بد منها ، لأنه قد استولى على هذه البلاد ، ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة ، وإذا أقام أيضا إن شاء الله تعالى ، وإذا سهل عليه أن يشتى ههنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب في عنفوان شبابه ، ووقت اقتناص لذاته ، ما يسهل عليّ أن أشتى وأصيف وأشتى وأصيف وأنا في وسط بلادى ، وعندى أولادى وأهلى ، ويأتى إليّ ما أريده ومن أريده ، وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عنى ، والعسكر الذى يكون عندى في الشتاء غير العسكر الذى عندى في الصيف ، وأنا أعتقد أنى في أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطى الله النصر لمن يشاء . فلما سمع الرسول ذلك طلب أن يجتمع بالملك العادل ، فأذن له في ذلك ، فسار إلى خيمته وحضر وكان تأخر بسبب مرض اعتراه إلى موضع يقال له مارصموال ^(١) ، فسار الرسول إليه مع جماعة / ، ثم بلغ ١٨٩ ب السلطان أن عسكر العدو قد رحل من عكا قاصدا يافا للإنجاد ، فجمع أرباب الرأى ، وعقد مشورا في قصدهم ، فاتفق الرأى على أنهم يقصدونهم ، ويرحل الثقل إلى الجبل ويقصدونهم جريدة ، فإن لاحت فرصة انتهزوها ، وإلا رجعوا عنهم وهذا أولى من أن تصبروا حتى تجتمع عساكر العدو ، ونرحل إلى الجبل في صورة منهزمين وأما الآن فإذا رحلنا ففى صورة طالبين . فأمر السلطان الثقل يسير إلى الجبل في عشية الاثنين حادى عشرى رجب ، وسار هو - قدس الله روحه - جريدة في صبيحة يوم الثلاثاء حتى نزل على العوجا ، ووصل من أخبره أن عسكر العدو قد وصل قيسارية ودخل إليها ، ولم يبق فيه طمع ، وبلغه أن الانكثار قد نزل خارج يافا بنفر يسير ، وخيم قليلة ، فوقع له أنه ينتهز فيه الفرصة ويكبس خيمه ، وينال منهم غرضا ، وعزم على ذلك ، وسار من أول الليل والأدلة من العرب تتقدمه ، ويقطع الناس في البرية إلى أن أتى الصباح إلى خيم العدو ، فوجدها يسيرة ، مقدر عشر خيم ، فتداخله الطمع ، وحملوا عليهم

(١) م : « صمويل » .

١٩٠ أ فإني كنت / تأخرت مع الثقل ، ولم أحضر هذه الواقعة - والله الحمد لالتيات مزاجي - أن عدة الخيل كان يجرها المكثر بسبعة عشر والمقل بتسعة ، والرجالة دون الألف ، فمن قائل : ثلاثمائة ، ومن قائل : أكثر من ذلك . فوجد السلطان - رحمه الله - من ذلك موجدة ^(١) عظيمة ، ودار ^(٢) على الأطلاب بنفسه يحثهم على الحملة ، ويعدهم بالحسنى على ذلك ^(٣) ، فلم يجب دُعاه أحد سوى ولده الملك الظاهر - رحمه الله - ^(٤) فإنه تأهب للحملة ، فمنعه ^(٥) ، وبلغني أنه قال له الجناح أخو المشطوب : « قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا ، وأخذوا منهم الغنيمة ، يحملون ^(٦) » . وكان في قلوب الناس العسكر من صلح السلطان على يافا حيث فوتهم الغنيمة ، وجرى ما جرى ما أثر هذا الأثر . فلما رأى السلطان ذلك رأى أن وقوفه في مقابلة هذه الشرذمة اليسيرة من غير عمل خسارة بحتة ^(٧) . ولقد بلغني أن الانكثار أخذ رحمه ذلك اليوم ، وحمل من طرف الميمنة إلى طرف اليسرة ، فلم يعرض له أحد ، فغضب السلطان - قدس الله روحه - ثم أعرض عن القتال ، وسار حتى أتى يازور كالمغضب ، فنزل بها ، وذلك في يوم الأربعاء ثالث عشرى رجب ، وبات العسكر كاليزك . ثم أصبح يوم الخميس ، وسار إلى النظرون ، فنزل بها وأنفذ إلى العسكر فأحضره عنده فوصلنا إليه آخر نهار الخميس رابع عشرى رجب ، / فبات به . ثم أصبح يوم

(١) م : « فثبتوا في أماكنهم » .

(٢) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٣) م : « مغنطة » .

(٤) م : « ودار على الأطلاب يحثها فلم يجب .. إلخ » .

(٥) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٦) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٧) م : « خسة في حقه » .

الجمعة وسار إلى أخيه الملك العادل يفتقده ، ودخل القدس وصلى الجمعة ، ونظر
العمائر ورتبها ، ثم عاد من يومه إلى الثقل وبات فيه على النطرون .

ذكر قدوم العساكر

فأول من وصل علاء الدين بن أتابك - صاحب الموصل - وكان وصوله
ضاحي نهار السبت سادس عشر رجب ، فلقبه السلطان - قدس الله روحه
- عن بُعد ، وأكرمه واحترمه وأنزله عنده في الخيمة ، وعمل همه حسنة ، وقدم
له مقدمة جميلة ، ثم سار إلى نخيمه . وأما رسول الملك فإنه عاد في هذا اليوم
من الملك ، فإن الملك العادل كان قد حمّله مشافهة إلى الملك ، وعاد مع الحاجب
أبى بكر إلى يافا ، فعاد أبو بكر وحضر عند السلطان في ذلك اليوم وأخبره :
« إن الملك لم يتركنى أدخل إلى يافا ، وخرج إلّى وكلمنى في ظاهرها وكان
كلامه : إني كم أطرح نفسى على السلطان وهو لا يقبلنى ، وأنا كنتُ أحرص
حتى أعود إلى بلادى ، والآن فقد هجم الشتاء وتغيّرت الأنواء ، وعزمت على
الإقامة وما بقى بيننا حديث » . هذا كان جوابه ، خذله الله .

ذكر قدوم عسكر مصر المحروسة (١)

وأقام السلطان - قدس الله روحه - بالنطرون . ولما كان يوم الخميس
تاسع شعبان قدم عسكر مصر فخرج السلطان - رحمة الله عليه - إلى لقائهم ،
وكان فيهم مجد الدين / هُلْدِرَى ، وسيف الدين يازكج ، وجماعة الأسدية . وكان ١٩١ أ
في خدمته ولده الملك المؤيد مسعود ، وأظهر الزينة ونشروا الأعلام والبيارق ،
فكان يوما مشهودا ثم أنزلهم عنده ومد الخوان ، ثم ساروا إلى منازلهم .

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

ذكر قدوم الملك المنصور بن تقي الدين رحمه الله

وكان قد تسلّم البلاد التي وُعد بها ، وتجهز . وكان وصل إلى خدمة الملك العادل في يوم السبت حادى عشر شعبان فنزل عنده بمار صمويل ، وافتقده ، وكتب الملك العادل إلى السلطان - قدس الله روحه - يخبره بوصوله ، وسأله في احترامه وإكرامه وإطلاق الوجه ^(١) له ، ولما تحقق ولده الملك الظاهر وصول الملك المنصور استأذن والده في لقائه وافتقاد الملك العادل ، فأذن له في ذلك ، فسار فوجد الملك المنصور مخيما ببيت نوبة ، فنزل عنده وفرح بلقائه ، وأقام عنده إلى العصر ، وذلك في يوم الأحد ، ثم أخذه وسار به جريدة حتى أتى خيمة السلطان ، ونحن في خدمته ، فدخل عليه واحترمه ، ونهض واعتنقه وضمه إلى صدره ، ثم غشيه بالبكاء ، فصبر نفسه حتى غلبه الأمر وغشيه من البكاء ما لم يُر مثله ، فبكى الناس لبكائه ساعة زمانية ، ثم باسطة وسأله عن الطريق ، ثم انفصل / وبات في خيمته ولده الملك الظاهر ^(٢) - رحمه الله - إلى صبيحة الاثنين ، ثم ركب وعاد إلى عسكره ، ونشروا الأعلام والبيارق ، وكان معه عسكر جميل ، فقرت عين السلطان وذلك في صبيحة الاثنين ثالث عشر شعبان ، ونزل في مقدمة العسكر مما يلي الرملة .

ذكر رحيله - قدس الله روحه - إلى الرملة

وذلك أنه لما رأى العساكر قد اجتمعت جمع أرباب الرأي وقال : « إن الانكثار قد مرض مرضا شديدا والإفرنسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر

(١) م : « الرحمة » .

(٢) م : « وبات في خيمة الملك الظاهر » .

من غير شك ، ونفقاتهم قد قلت ، وهذا علو قد مكن الله منه ، وأرى أن نسير إلى يافا ؛ فإن وجدنا فيها طمعا بلغناه ، وإلا عدنا تحت الليل إلى عسقلان ، فما يلحقها ^(١) النجدة إلا وقد بلغنا منها غرضا « فرأوا ذلك رأيا ، وتقدم إلى جماعة من الأمراء ، كهر الدين جورديك ، وجمال الدين فرج وغيرهما بالمسير في ليلة الخميس سادس عشر شعبان حتى يكون قريبا من يافا في صورة تزك يستعرفون كم فيها من الخيالة والرجالة بالجواسيس ، ثم يعرفونه ذلك ، فساروا . هذا ورسل الانكتار لا تنقطع في طلب الفاكهة والثلج ، وأوقع الله عليه في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ ، وكان السلطان يمدّه بذلك ، ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل ، والذي انكشف من الأخبار أن فيها ثلاثمائة فارس على / قول ١٩٢ أ المكثر ومائتي فارس على قول المقل ، وأن الكندهرى يتردد بينه وبين الفرنسية في مقامهم ، وهم عازمون على عبور البحر قولا واحداً ، وأنه لا عناية لهم بسور البلد ، وإنما عنايتهم بعمارة سورة القلعة . وكان قد طلب الانكتار الحاجب أبا بكر العادلى وكان له معه انبساط عظيم ، فلما تحقق السلطان - رحمه الله - هذه الأخبار أصبح يوم الخميس راحلا إلى جهة الرملة فنزل بها ضاحى نهاره ، ووصل الخبر من العيارة ^(٢) يقولون : « إنا أغرنا على يافا فلم يخرج إلا ثلاثمائة فارس بعضهم ^(٣) على بغال » . فأمرهم السلطان بمقامهم هناك ، ثم وصل الحاجب أبو بكر ومعه رسول من عند الملك ، يشكر السلطان على إسعافه ^(٤) بالفاكهة والثلج . وذكر أبو بكر أنه انفرد به وقال له : « قل لأخى - يعنى الملك العادل - يصر كيف يتوصل إلى السلطان فى مضى الصلح ، ويستوهب لى منه عسقلان ، وأمضى ويبقى هو ههنا مع هذه الشرذمة اليسيرة ، يأخذ البلاد منهم .

(١) م : « فما تلحقنا » .

(٢) م : « من المغيرين » .

(٣) م : « معظمهم » .

(٤) م : « إنعامه » .

فليس لي غرض إلا إقامة جاهي بين الفرنجية ، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان ،
 فيأخذ لي منه عوضا عن خسارتي على عمارة سورها . فلما سمع السلطان ذلك
 سيرهم إلى الملك العادل ^(١) وكان معهم صاحب بدر الدين دلدردم الياروقي ،
 ١٩٢ ب متوسطا أيضا ، فلما ساروا ^(٢) أسر السلطان / إلى ثقة عنده بأن يمضي إلى الملك
 العادل ويقول له : « إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم ، فإن العسكر قد ضجر
 من ملازمته البيكار والنفقات قد نفدت وساروا ضاحي نهار الجمعة سابع عشر
 شعبان .

ذكر الإجابة إلى النزول عن عسقلان

ولما كان غروب الشمس من اليوم المذكور أنفذ بدر الدين دلدردم من
 اليزك يقول : « إنه خرج إلينا خمسة أنفس ، منهم شخص مقدم عند الملك يسمى
 هوات ، وذكروا أن لهم معي حديثا ، فهل أسمع حديثهم أم لا ؟ » فأذن له
 السلطان في ذلك . فلما كان عشاء الآخرة حضر بدر الدين بنفسه ، وأخبر
 أن حديثهم كان : « إن الملك نزل عن عسقلان ، وعن طلب العوض عنها ،
 وقد صبح مقصوده في الصلح » فأعاده السلطان بأنه يُنفذ إليه ثقة يأخذ يده
 على ذلك ، ويقول : « إن السلطان قد جمع العساكر ولا يمكنني أن أحدثه هذا
 الحديث إلا أن أثق بك أنك لا ترجع فيه وبعد ذلك أحدثه » . وسار بدر الدين
 على هذه القاعدة ، وكتب إلى الملك العادل يخبره بما جرى . ولما كان السبت
 ثامن عشر شعبان أنفذ بدر الدين وذكر أنه أخذ يده على هذه [القاعدة] من
 يثق به ، وأخذ حدود البلاد على ما استقر في الدفعة الأولى مع الملك العادل ،
 ١٩٣ أ فأحضر السلطان الديوان ، وذكر يافا وعملها ، وأخرج الرملة / ^(٣) منها ،
 ولدا ^(٤) ويني ، ومجدل يابا ، ثم ذكر قيسارية وعملها ، وأرسوف وعملها ،

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٢) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

وحيفا وعملها ، وعكا وعملها وأخرج منها الناصرة وصفورية ، وأثبت الجميع في ورقة ، وكتب جواب الكتاب وأنفذه على يد الطرنطاي مع الرسول ، وكان قد وصل الرسول لتحرير القاعدة مع بدر الدين في عصر السبت ، وقال للرسول : « هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم ، فإن صالحتهم على ذلك فمبارك قد أعطيتكم يدي ، فينفذ الملك مَنْ يحلف ، ويكون ذلك في بكرة غد وإلا فيعلم أن هذا تدفيع ومماثلة ، ويكون الأمر قد انفصل بيننا » . وساروا في بكرة الأحد على هذه القاعدة .

ولما كان عشاء الآخرة من يوم الأحد العشرين من شعبان وصل من أخير بوصول طرنطاي ومعه الرسل ، واستأذن في حضورهم فأذن - رحمه الله - في حضور طرنطاي وحده وذكر : « أن الملك قد وقف على تلك الرقعة وأنكر أنه نزل عن العوض » فأذكره الجماعة الذين خرجوا إلى بدر الدين دلدردم^(١) أنه نزل عن ذلك فقال : « إذا أنا قلته فلا أرجع عنه ، قولوا للسلطان : « مبارك » ، رضيت بهذه القاعدة ، ورجعت إلى مروءتك ، فإن زدتن شيئا فمن فضلك وإنعامك » وساروا وأحضر الرسل ليلا ، وأقاموا إلى بكرة ، وأحضروا الرسل عند السلطان بكرة / الاثنين العشرين من شعبان ، وذكروا ١٩٣ ب ما استقرّ عن صاحبهم ، ثم انفصلوا إلى خيمهم ، وحضروا عند السلطان أصحاب الرأي وأرباب المشورة ، واستقرّ الأمر ، وانفصل القاعدة ، وسار الأمير بدر الدين دلدردم إلى الملك العادل ، وأخذ الرسل معه في صورة من يسأل في زيادة الرملة ، وعاد عشاء الآخرة ليلة الثلاثاء^(٢) الثاني والعشرين من شعبان ، وكتبت المواصفة^(٣) وذكر فيها : « الشروط ، والصلح ثلاث سنين من تاريخها ، وهو الثلاثاء^(٤) الثاني والعشرون من شعبان سنة ثمان وثمانين

(١) م : « بين يدي دلدردم » .

(٢) م : « ليلة الاثنين » ولم يذكر التاريخ .

(٣) م : « المواصفة » .

(٤) م : « الأربعاء » .

وخمسمائة « ، وزيد فيها : « الرملة لهم ولد أيضا » . وسير العدل وقيل له :
 « إن قدرت أن ترضيهم بأحد الموضعين أو بمناصفتهم فافعل ، ولا يكون لهم
 حديث في الجبلية » . ورأى السلطان - قدس الله روحه - ذلك مصلحة لما
 غشى الناس من الضعف وقلة النفقات والشوق إلى الأوطان ، ولما شاهدوا من
 تقاعدهم على يافا يوم أمرهم بالحملة ، فلم يحملوا ، فخاف أن يحتاج إليهم فلا
 يجدهم ، فرأى أن يجهم^(١) مدة حتى يستريحوا وينسوا هذه الحالة التي صاروا
 إليها ، ويعمر البلاد ، ويشحن القدس بما يقدر عليه من الأسلحة^(٢) ويتفرغ
 لعمارتها ، وكان من القاعدة : « أن تكون عسقلان خرابا . وأن يتفق أصحابنا
 وأصحابهم على خرابها خشية أن يأخذها عامرة فلا يخربها^(٣) » . فمضى العدل
 ١٩٤ أ على / هذه القاعدة واشترط : « دخول بلاد الاسماعيلية^(٤) » . واشترطوا هم ،
 « دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في الصلح على قاعدة آخر صلح صالحناهم
 عليه » . واستقر الحال على ذلك . وسارت الرسل يوم^(٥) الثلاثاء حادى عشر
 شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة^(٦) ، وحكم عليهم أنه لابد من فصل الحال
 اليوم ولما بصلح أو بخصومة ، خشية أن يكون هذا الحديث من قبيل أحاديثه
 السابقة ومدافعاته المعروفة .

ذكر قدوم رسل من جهات متعددة^(٧)

وفي ذلك اليوم وصل رسول سيف الدين بكتر - صاحب خلاط - يدي

(١) م : « يجهم » .

(٢) م : « الآلة » .

(٣) م : « نأخذها عامرة فلا نخربها » وهو خطأ واضح .

(٤) م : « الإسلامية » .

(٥) هذه الجملة ساقطة من (م) .

(٦) هذا العنوان غير موجود في (م) .

الطاعة والموافقة وتسيير العسكر ، وحضر رسول الكُرج ، وذكر فصلا في معنى الديارات ^(٣) التي لهم في القدس وعماراتها ، وشكوا من أنها أخذت من أيديهم ، ويسأل عواطف السلطان - رحمة الله عليه - بردها إلى أيدي نوابهم ، ورسول صاحب أرزن الروم يبذل الطاعة والعبودية .

ذكر تمام الصلح

ولما وصل العدل إلى هناك أنزل خارج البلد في خيمة حتى أعلم الملك به ، فلما علم استحضره عنده مع بقية الجماعة ، وعرض عليه العدل النسخة ، وهو مريض الجسم فقال : « لا طاقة لي بالوقوف عليها ، وأنا قد صالحت ، وهذه يدي » . فاجتمعوا بالكندهرى والجماعة ، ووافقوهم على النسخة ، ورضوا ببلد الرملة / مناصفة ، وبجميع ما في النسخة ، واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون ١٩٤ ب بكرة يوم الأربعاء ؛ لأنهم كانوا قد أكلوا شيئا يوم الثلاثاء ، وما عادتهم الحلف بعد الأكل ، وأنفذ العدل إلى السلطان - رحمة الله عليه - من عرفه ذلك .

ولما كان يوم الأربعاء الثانى والعشرين من شعبان استحضر الجماعة عند الملك وأخذوا يده وعاهدوه ، واعتذر بأن الملوك لا يحلفون ، وقنع من السلطان بمثل ذلك ^(٤) ، ثم حلف الجماعة : فحلف الكندهرى ابن أخته المستخلف عنه فى الساحل ، وباليان بن بارزان ابن صاحبة طبرية ^(٥) ، ورضى الاستتار والدّاوية وسائر مقدمى الافرنجية بذلك ، وساروا فى بقية اليوم عائدين إلى الخيم السلطاني ، فوصلوا عشاء الآخرة ، وكان الواصلون من جانبهم ابن المنفرى ، وابن بارزان ، وجماعة من مقدميهم ، فاحترموا وأكرموا ؛ وضرب لهم خيمة

(١) م : « الزيادات » .

(٢) م : « وقنع السلطان بذلك » .

(٣) م : « صاحب طبرية » .

تليق بهم ، وحضر العدل وحكى ماجرى . ولما كان صبيحة الخميس الثالث والعشرين من شعبان حضر الرسل في خدمة السلطان - قدس الله روحه - وأخذوا يده الكريمة ، وعاهدوه على الصلح على القاعدة المستقرة ، واقترحوا حلف جماعة : الملك العادل ، والملك الأفضل ، والملك الظاهر ، وعلى بن أحمد المشطوب ، وبدر الدين دلدرد ، والملك المنصور ، وكل مجاور لبلادهم ، كابن المقدم - صاحب شيزر - / وغيرهم فوعدهم السلطان أن يُسير معهم رسولا إلى الجماعة المجاورين ليحلفهم ، وحلف لصاحب أنطاكية وطرابلس ، وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين ، فإن لم يحلفوا لم يدخلوا في الصلح ، ثم أمر المنادى أن ينادى في الوطاقات والأسواق . « ألا إن الصلح قد انتظم ، فمن شاء من بلادهم يدخل إلى بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا يدخل إلى بلادهم فليفعل » . وأشاع - رحمة الله عليه - أن طريق الحج قد فتح من الشام ، ووقع له عزم الحج في ذلك المجلس ، وكنت حاضرا ذلك جميعه ، ووقع له ذلك - رحمه الله - ، وأمر السلطان - قدس الله روحه - أن يسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أمير كبير ، وإخراج الفرنج منها ، ويكون معهم جماعة من الفرنج إلى حين وقوع الخراب في السور خشية من استبقائه عامرا ، وكان يوما مشهودا ، غشى الناس من الطائفتين من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، والله العليم أن الصلح لم يكن من إثارة ، فإنه قال لى - رحمة الله - في بعض محاوراته في الصلح : « أخاف أن أصالح وما أدري أى شيء يكون منى ، فيقوى هذا العدو ، وقد بقى لهم هذه البلاد ، فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس تله ^(١) - يعنى حصنه - » .

١٩٥ ب وقال : « لا أنزل ، ويهلك المسلمون » . فهذا / كلامه وكان كما قال ، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسأمة العسكر ، ومظاهرتهم بالخالفه ، وكان مصلحة

(١) م : « في رأس قلعه » .

فى علم الله تعالى ، فإنه اتفقت وفأته بعيد الصلح ، فلو كان اتفق ذلك فى أثناء الوقعات لكان الإسلام على خطر ، فما كان الصلح إلا توفيقا وسعادة له ، رحمة الله عليه .

ذكر خراب عسقلان

. ولما كان يوم السبت خامس عشرى شعبان ندب السلطان علم الدين قيصر إلى خراب عسقلان ، وسير معه جماعة من النقاين والحجارين واستقر أن الملك ينفذ من يافا من يسير معه ليقف على الخراب ، ويُخرج الفرج ، منها فوصلوا إليها يوم الأحد ، فلما أرادوا الخراب اعتذر الأجناد الذين بها : « بأننا لنا على الملك جامكية بلده ^(١) ، فإما أن يدفعها إلينا حتى نخرج ، أو ادفعوها أنتم إلينا » . فوصل بعد ذلك رسول الملك يأمرهم بالخروج فخرجوا ، ووقع الخراب فيها ضاحى نهار الاثنين سابع عشرى شعبان سنة ثمان وثمانين ، واستمر تخريبها ، وكتب على الجماعة رقاع فى المعاونة على الخراب ، وأعطى كل واحد قطعة معلومة من السور ، وقيل له : « دستورك خرابها » .

ذكر رحيل السلطان - قدس الله روحه -

من الرملة ^(٢)

ولما كان يوم الأربعاء التاسع والعشرون من شعبان رحل السلطان إلى النطرون ، / واختلط العسكران ، وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا فى طلب ١٩٦ أ التجارة ، ووصل خلق عظيم من العدو إلى القدس للحج ، وفتح لهم السلطان

(١) م : لمدة .

(٢) هذا العنوان غير موجود فى (م) .

- رحمه الله - الباب في ذلك ، ونفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردوهم إلى يافا ، وكثر ذلك من الفرنج ، وكان غرض السلطان - رحمه الله - بذلك أن يقضوا وطهرهم ^(١) من الزيارة ، ويرجعوا إلى بلادهم ، فيأمن المسلمون شرهم . ولما علم الملك كثرة من يزور منهم صعب عليه ذلك ، وسير إلى السلطان يسأله منع الزوار ، واقترح ألا يأذن لأحد إلا بعد حضور علامة من جانبه أو بكتابة ، وعلمت الفرنجية ذلك ، فعظم عليها ، واهتموا في الحج ، فكان يرد كل يوم منهم جموع كثيرة مقدّمون ، وأوساط ^(٢) ، وملوك متنكرون ، وشرع السلطان - رحمه الله عليه - في إكرام مَنْ يرد ، ومد الطعام ومباستطهم ومحدثهم ، وعرفهم إنكار الملك ذلك ، وأذن لهم السلطان في الحج ، وعرفهم أنه لم يلتفت إلى منعه الملك من ذلك ، واعتذر إلى الملك بأن قوماً قد وصلوا من ذلك البعد ^(٣) ، ويسر الله لهم زيارة هذا المكان الشريف لا أستحل منعهم . ثم اشتد المرض بالملك ، فرحل ليلة الأربعاء تاسع عشر شعبان ، وقيل : إنه مات ، وسار هو والكندهرى ، وسائر المقدمين إلى جانب عكا ، ولم يبق من يافا إلا مريض ١٩٦ ب أو عاجز / ونقر يسير .

ذكر عود العساكر الإسلامية إلى أوطانهم

ولما انقضى هذا الأمر واستقرت هذه القواعد ، أعطى السلطان الناس دستورا ، فكان أول من سار عسكر إربل ، فإنه سار مستهل شهر رمضان المبارك ، ثم سار بعده في ثانية عسكر الموصل وسنجار والحصن . وأشاع [السلطان] أمر الحج وقوى عزمه على براءة الذمة منه ، وكان هذا مما وقع لى ، وبدأت

(١) الأصل : « أن ينظر وطهرهم » والتصحيح عن (م) .

(٢) م : « وأسباط » .

(٣) م : « من بعد ذلك » .

بالإشارة به في يوم تتمه الصلح ، ووقع منه - رحمة الله عليه - موقعا عظيما ، وأمر الديوان : « إن كل من عزم على الحج من العسكر يثبت اسمه حتى يحصى عدة من يدخل معنا في الطريق » . وكتب جرائد بما يحتاج إليه في الطريق من الخنازير والأزواد وغير ذلك ، وسيورها إلى البلاد ليعدوها .

ذكر رحيله ، رحمة الله عليه ^(١)

ولما أعطى الناس دستورا ، وعلم عود العدو مدحورا إلى ورائه رأى الدخول إلى بيت المقدس الشريف لتهيئة أسباب عمارته ، والنظر في مصالحه ، والتأهب للمسير إلى الحج ، فرحل من النظرون في يوم الأحد رابع شهر رمضان ، وسار حتى أتى مار صمويل يفتقد الملك العادل بها ، فوجده قد سار إلى القدس ، وكنث عنده رسولا من جانب السلطان ، أنا والأمير بدر الدين دلدردم والعدل ، وكان قد انقطع عن أخيه مدة بسبب المرض ، وكان قد تماثل فعرفناه مجيء / ١٩٧ أ السلطان إلى مار صمويل لعيادته ، فحمل على نفسه ، وسار معنا حتى لقيه بذلك المكان ، وهو أول وصوله ، ولم ينزل بعد ، فلقينه ونزل وقبل الأرض ، وعاد فركب ، فاستدناه ، وسأله عن مزاجه ، وسارا جميعا حتى أتيا القدس الشريف في بقية ذلك اليوم .

ذكر وصول رسول من بغداد

ولما كان يوم الجمعة الثالث والعشرون من شهر رمضان صلى الملك العادل - قدس الله روحه - الجمعة ، وانصرف عائدا إلى الكرك عن دستور من السلطان ، لينظر في أحواله ، ويعود إلى البلاد الشرقية يدبرها ، فإنه كان قد

(١) هذا العنوان غير موجود في (م) .

أخذها من السلطان - قدس الله روحه - وكان قد ودّع السلطان - رحمة الله عليه - فلما وصل إلى العازرية نزل بها مخيماً ، فوصله من أخبره أن رسولا من بغداد واصل إليك ، فأنفذ إلى السلطان وعرفه وذكر أنه مجتمع به ، ويُطالع بما وصل فيه . ولما كان يوم السبت الرابع والعشرون دخل الملك العادل إلى الخدمة السلطانية ، وذكر أن الرسول وصل إليه من جانب ابن النافذ بعد أن ولي نيابة وزارة بغداد ، ومقصود الكتاب أنه يحثه على استعطاف قلب السلطان إلى الخدمة الشريفة ، والدخول بينه وبين الديوان العزيز ، والإنكار عليه في تأخر رسله عن ١٩٧ ب العتبة الشريفة ، واقتراح تسيير / القاضي الفاضل ليحضر الديوان في تقرير قواعد لا تتحرر بينه وبين السلطان - رحمة الله عليه - إلا به ، وقد وعد الملك العادل من الديوان بعود عظيمة إذا قرّر ذلك ، ويكون له يد عند الديوان يستثمرها فيما بعد ، وما يشبه هذا المعنى ، فحدث عند السلطان فكرة في إنفاذ رسول يسمع كلام الديوان ، ويستعلم أثر ^(١) دخول الملك العادل في البين ، وزاد الحديث ونقص ، وطال وقصر ، وقوى عزم السلطان على إنفاذ الضياء الشهرزورى . وعاد الملك العادل إلى مخيمه بالعازرية بعد تقرير هذه القاعدة ، وعرفه إجابة السلطان إلى إنفاذ رسول إلى خدمة الديوان العزيز ، وسار يوم الإثنين طالبا جهة الكرك . وسار الضياء متوجها إلى بغداد يوم الثلاثاء السادس والعشرين من ^(٢) شهر رمضان .

ذكر توجه ولده الملك الظاهر إلى بلاده

ووصية ^(٣) السلطان له

ولما كان بكرة يوم الأربعاء السابع ^(٤) والعشرين من شهر رمضان

(١) م : سبب .

(٢) الأصل : سادس شهر رمضان ، والتصحيح عن (م) .

(٣) م : ووحشة ، وهو خطأ واضح .

(٤) م : التاسع .

المبارك توجه ولده الملك الظاهر بعد أن ودّعه ، ونزل إلى الصخرة فصلى عندها ،
وسأل الله تعالى ما شاء . ثم ركب - وكنت ^(١) في خدمته - فقال لي : « قد
تذكرت ما احتاج فيه إلى مراجعة السلطان مشافهة » . فأنفذ من استأذن له
/ في العود إلى خدمته ، فأذن له في ذلك فحضر واستحضرني وأخلى المكان ثم ١٩٨ أ
قال : « أوصيك بتقوى الله تعالى ، فإنها رأس كل خير . وأمرك بما أمرك الله
به ، فإن سبب نجاتك . وأحذر من الدماء ، والدخول فيها والتقلد لها ، فإن
الدم لا ينال ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم ، فأنت أمين وأمين
الله عليهم ، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغت
مابلغت إلا بمداواة الناس . ولا تحقد على أحد ، فإن الموت لا يبقى أحداً ،
واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يُغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره
الله بتوبتك إليه فإنه كريم » . وكان ذلك بعد أن أفطرنا في خدمته ^(٢) ، ومضى
من الليل ما شاء الله أن يمضي ، وأكثر من ذلك ، ولكن هذا ما أمكن حكايته
وضبطه ، ولم يزل بين يديه إلى قريب السحر ، ثم أذن له في الانصراف ، ونهض
له وودّعه ، وقبل وجهه ومسح يده على رأسه ، وانصرف في دعة الله ، ونام
في برج الخشب الذي للسلطان يجلس عنده في الأحيان إلى بكرة ، وسرت في
خدمته إلى بعض الطريق وودّعه ، وسار في حفظ الله إن شاء الله .

ذكر مسير الملك الأفضل ^(٣)

رحمه الله

ثم سِير الملك الأفضل ثقله ، وأقام / يراجع السلطان على لسان في أشغال ١٩٨ ب
كانت له ، حتى دخل في شوال أربعة أيام وسار في ليلة الخامس منه نصف الليل
عن تعبت عليه جريدة على طريق الغور .

(١) م : « وركبت » .

(٢) م : « انصرفنا من خدمته » .

(٣) هذا العنوان غير موجود في (م) .

ذكر مسيره - قدس الله روحه -

من القدس

وأقام السلطان - قدس الله روحه - يُقطع الناس ، ويعطيهم دستورا ، ويتأهب للمسير إلى الديار المصرية ، وانقطع شوقه إلى الحج ، وكان من أكبر المصالح التي فاتته ، ولم يزل كذلك حتى صبحَّ عنده إقلاعُ مركب الانكثار المخدول ، متوجها إلى بلاده مستهل شوال ، فعند ذلك حرّر السلطان عزمه على أن يدخل الساحل جريدةً ، ويتفقد القلاع البحرية إلى بانياس ، ويدخل محروسة دمشق ، ويقيم بها أياما قلائل ، ويعود إلى القدس الشريف ، سائرا إلى الديار المصرية ، لتفقد أحوالها ، وتقرير قواعدها ، والنظر في مصالحها ، وأمرني بالمقام بالقدس الشريف ^(١) إلى حين عَوْدِهِ ^(٢) لعمارة بامارستان أنشأها فيه ، وإدارة المدرسة التي أنشأها فيه - رحمة الله عليه - إلى حين عودته ، وسار من القدس ضاحي نهار الخميس [سادس] شوال سنة ثمان وثمانين ، وودعته إلى البيرة ، ونزل بها ، وأكل فيها الطعام ، ثم رحل حتى أتى بعض طريق نابلس ، فبات ، ثم أتى نابلس ضاحي نهار الجمعة سابع شوال ، فلقبه خلق عظيم يستغيثون / على المشطوب ، ويتضرعون إليه سوء رعايته لهم ، فأقام - رحمه الله - يكشف عن أحوالهم إلى عصر يوم السبت ثامنه ، ثم رحل ونزل بسيفسطية يتفقد أحوالها ، ثم أتى في طريقه إلى كوكب ، ونظر في أحوالها ، وأمر بسدّ خللها ، وذلك في يوم الاثنين عاشره .

ذكر خروج بهاء الدين قراقوش ^(٢)

من الأسر

وكان انفكاكه من ربة الأسر يوم الثلاثاء حادى عشر شوال ومثّل بالخدمة

(١) هذه الكلمات ساقطة من (م) .

(٢) هذا العنوان ساقط من (م) .

الشريفة السلطانية ، ففرح به فرحا شديدا ، وكان له حقوق كثيرة على السلطان والإسلام ، واستأذن السلطان - رحمة الله عليه - في المسير إلى دمشق لتحصيل القطيعة ، فأذن له في ذلك ، وكانت القطيعة على - ما بلغنى - ثمانين ألفا .

ذكر وصول البرنس

إلى الخدمة السلطانية مسترفدا (١)

ولما وصل السلطان إلى بيروت وصل إلى خدمته البرنس - صاحب أنطاكية - مسترفدا ، فبالغ في إكرامه واحترامه ومباسطته ، وأنعم عليه بالعمق وازرغان ومزارع تغل (٢) خمسة عشر ألف دينار .

ذكر موت المشطوب بالقدس (٣)

وكان قد تخلف المشطوب بالقدس من جملة العسكر المعين له ، ولم يكن واليه ، وإنما كان عز الدين جورديك ، كان ولاه بعد الصلح حالة عوده إلى القدس بعد أن شاور فيه / الملك العادل والملك الأفضل والملك الظاهر على ١٩٩ ب لسانى ، وأشاروا به ، وأشار به أهل الدين والصلاح ، لأنه كان كثير الجد والخدمة لأهل الخير ، وأمرنى السلطان - رحمة الله عليه - أن أولّيه ذلك في يوم الجمعة عند الصخرة ، فوليته إياه بعد صلاة الجمعة ، واشترطت عليه الأمانة ، وعرفته موضع حسن اعتقاد السلطان فيه ، فاعتدق الأمر وقام به القيام المرضى .

وأما المشطوب فإنه كان مقيما بالقدس من جملة مَنْ كان فيه ، وتوفى - رحمة الله عليه - في يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال ، ودُفن في داره بعد أن صلى عليه في المسجد الأقصى ، رحمه الله .

(١) هذا العنوان ساقط من (م) .

(٢) الأصل . « تعمل » والتصحيح عن (م) .

(٣) هذا العنوان غير موجود في (م) .

ذكر عود السلطان - قدس الله روحه -

إلى محروسة دمشق

وكان عوده إليها بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها والتقدم بسد خللها وإصلاح أمور أجنادها ، وإشحانها بالرجال والأجناد ، فدخل إلى دمشق بكرة الأربعاء سادس عشرين شوال ، وفيها أولاده : الملك الأفضل والملك الظاهر ، والملك الظافر ، وأولاده الصغار ، وكان يحب البلد ، ويؤثر الإقامة فيه على سائر البلاد ، وجلس للناس في بكرة الخميس سابع عشرين منه ، وحضر الناس عنده ، وبلوا شوقهم من رؤيته - رحمة الله عليه - وأنشده ٢٠٠ أ الشعراء ، وعم ذلك المجلس الخاص والعام ، / وأقام ينشر جناح عدله ، ويهطل سحاب إنعامه وفضله ، ويكشف مظالم الرعايا في الأوقات المعتادة ، حتى كان يوم الاثنين مستهل ذى القعدة اتخذ الملك الأفضل دعوة للملك الظاهر ، فإنه لما وصل إلى دمشق بلغه حركة السلطان إليها ، فأقام بها حتى يتملى بالنظر إليه . ثانيا ، وكأن نفسه الشريفة كانت أحست بدنو أجل السلطان ، فودعه في تلك الدفعة مرارا متعددة ، وهو يعود إليه ولما اتخذ الملك الأفضل له دعوة أظهر فيها من بديع التجميل وغريبه ما يليق بهمته ، وكأنه أراد مجازاته عما خدمه به حين وصوله إلى حلب المحروسة ، وحضرها أرباب الدنيا الآخرة ، وسأل السلطان - قدس الله روحه - الحضور ، فحضر جبرا لقلبه ، ^(١) وكان يوما مشهودا ، على ما بلغنى ^(٢) .

ذكر قدوم الملك العادل أخيه

ولما تصفح الملك العادل أحوال الكرك ، وأمر بإصلاح ما قصد إصلاحه فيه ، عاد طالبا البلاد الفراتية ، فوصل أرض دمشق يوم الأربعاء سابع عشر ذى

(١) هذه الحملة ساقطة من (م) .

القعدة ، وكان السلطان قد خرج إلى لقائه ، وأقام يتصيد حول غباغب إلى
الكسوة ، حتى لقيه ، وساروا جميعاً يتصيدان ، وكان دخولهما إلى دمشق آخر
نهار الأحد حادى عشرى ذى القعدة سنة ثمان ، وأقام السلطان - رحمة / الله ٢٠٠ ب
عليه - بدمشق يتصيد هو وأخوه ، وأولاده يتفرجون فى أراضى دمشق ومواطن
الصبا ، وكأنه وجد راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب ، وسهر الليل
ونصب النهار ، وما كان ذلك إلا كالوداع لأولاده ومراتع تنزهه ، وهو لا يشعر
- رحمة الله عليه - ونسى عزمه لمصر ، وعرض له أمور أخرى ، وعزمات غير
ذلك . ووصلنى كتابه - قدس الله روحه - إلى القدس يستدعينى إلى خدمته ،
وكان شتاءً شديداً ، ووحلا عظيما ، فخرجت من القدس الشريف - حرسه
الله تعالى - فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة تسع وثمانين ، وكان
الوصول إلى محروسة دمشق يوم الثلاثاء ثانى عشر صفر سنة تسع . وكان وصل
أوائل الحاج على طريق دمشق ، ^١ وكان دخول السلطان إليها عصر الاثنين
حادى عشر ، فلم يتفق المثل فى خدمة السلطان إلى ضاحى نهار يوم
الوصول ^(١) فإنه اتفق حضورى ، وكان الملك الأفضل حاضرا فى الإيوان
الشمالى ، وفى خدمته خلق من الأمراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان
لخدمته ، فلما شعر بحضورى استحضرنى وهو وحده ، قبل أن يدخل إليه أحد ،
فدخلت عليه - رحمة الله عليه - فقام ولقينى ملقى ما رأيت أشد من بشره
فيه - رحمه / الله - ولقد ضمنى إليه ، ودمعت عينه . رحمة الله عليه . ٢٠١ أ

ذكر لقائه للحاج

رحمة الله عليه

ولما كان يوم الأربعاء ثالث عشر صفر طلبنى ، فحضرت عنده ، فسألنى
عمن فى الإيوان فأخبرته أن الملك الأفضل جالس فى الخدمة ، والأمراء والناس

(١) هذه العبارة ساقطة من (م) .

في خدمته فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة إقبال . ولما كانت بكرة الخميس استحضرتني بكرة ، فحضرت عنده ، وهو في صُفَّة البستان ، وعنده أولاده الصغار . فسأل عن الحاضرين فقليل : « رسل الفرنج ، وجماعة الأمراء والأكابر » . فاستحضر رسل الفرنج إلى ذلك المكان ، فحضروا ، وكان له ولد صغير ، وكان كثير الميل إليه ، يسمى الأمير أبا بكر ^(١) ، وكان حاضرا وهو - رحمه الله - يداعبه فلما وقع بصره على الفرنج ورأى أشكالهم ، وحلق ذقونهم ، وقص شعورهم ، وما عليهم من الثياب غير المألوفة خاف منهم وبكى ، فاعتذر إليهم وصرفهم بعد أن حضروا ، ولم يسمع كلامهم ، وقال لي : « أكلت اليوم شيئا ^(٢) ؟ » وكانت عادته - رحمة الله عليه - هذه المباشطة . ثم قال : « أحضروا لنا ما تيسر » . فأحضروا أرزاً بلبين وما يشبه ذلك من الأطعمة الخفيفة ، فأكل - رحمة الله عليه - وكنتُ أظن أن ما عنده شهوة وكان في هذه الأيام يعتذر للناس لثقل الحركة عليه ، وكأن بدنه كان ممتلئاً / وعنده تكسّل فلما فرغنا من الطعام قال : « ما الذي عندك من خبر الحاج ؟ » فقلت : « قد اجتمعتُ بجماعة منهم في الطريق ؛ ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم ، ولكنهم في غد يدخلون » . فقال : « نخرج إن شاء الله إلى لقائهم » . وتقدّم بتنظيف طرقاتهم من المياه ، فإنها كانت سنة كثيرة الأنداء ، وقد سالت المياه في الطرق كالأنهار . وانفصلتُ عن خدمته ولم أجد عنده من النشاط ما أعرفه منه . ثم بكر في يوم الجمعة فركب وتأخرتُ عنه تأخراً قريباً ، ثم لحقته وقد لقي الحاج ، وكان فيهم سابق الدين ، وقرالا الياروقي ، وكان كثير الاحترام للمشايخ - قدس الله روحه - فلقيتهم ، ثم لحقه الملك الأفضل ولده ، ولقي الجماعة ، وأخذني الملك الأفضل يحدثني ، فنظرت إلى السلطان - رحمة الله عليه - فلم أجد عليه كزاً عنده ، وما كان له عادة يركب بدونه . وكان يوماً عظيماً قد اجتمع فيه للقاء

(١) الاسم ساقط من (م) .

(٢) م : « وقال إن لي اليوم شغلا » ولا معنى لها ولا تتفق وسياق الكلام .

الحاج ، والتفرج على السلطان ، معظم من في البلد ، فلم أجد الصبر دون أن سرت إلى جانبه وحدثته في إهمال هذا ، فكأنه استيقظ ، فطلب الكزاعند ، فلم يوجد الزركش ^(١) ؛ فوجدت لذلك أمراً عظيماً وقلت في نفسي : « سلطان يطلب ما لا بد منه في عادته ولا يجده » . وأوقع الله في قلبي تطيراً بذلك ، فقلت له - رحمه الله - : « ما ثم طريق يُسلك ليس فيه خلق كثير ؟ » فقال : / « بلى » ثم سار - رحمه الله - بين البساتين يطلب جهة المنيع ، وصرنا في ٢٠٢ أ خدمته ، وقلبي يرعد لما قد أوقع فيه من الخوف عليه ، فسار حتى أتى القلعة ، فعبر على الجسر إلى القلعة وهو ، طريقه المعتاد ، وكانت آخر ركباته - رحمة الله عليه وقدس روحه .

ذكر مرضه ، رحمة الله عليه

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً ، فما نصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية ، كانت في باطنه أكثر منها في ظاهره . وأصبح في يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين متكسلاً ، عليه أثر الحمى ، ولم يُظهر ذلك للناس ، لكن حضرتُ عنده أنا والقاضي الفاضل ، ودخل ولده الملك الأفضل ، وطال جلوسنا عنده ، وأخذ يشكو من قلقه بالليل ، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر ، ثم انصرفنا والقلوب عنده ، فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الملك الأفضل ، ولم يكن للقاضي عادة بذلك ، فانصرف . ودخلت إلى الايوان القبلي ، وقد مُدَّ الطعام وولده الملك الأفضل قد جلس في موضعه ، فانصرفت ولم يكن لي قوة للجلوس ، استيحاشاً . وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلاً بجلوس ولده موضعه ، ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ ، ونحن نلازم التردد في طرفي النهار ، وندخل إليه أنا والقاضي / الفاضل في النهار مرارا ، ٢٠٢ ب

(١) م : « الزردكاش » .

ويعطى الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خفة . وكان مرضه في رأسه - رحمة الله عليه - وكان من إمارات انتهاء العمر ^(١) غيبة طيبه ^(٢) الذي كان قد ألف مزاجه سفرا وحضرا ، ورأى الأطباء فصدده ففصدوه في الرابع فاشتد مرضه ، وقلّت رطوبات بدنه ، وكان يغلبه اليبس غلبة عظيمة ، ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف ، ولقد أجلسناه في السادس من مرضه وأسندنا ظهره إلى مخدة ، وأحضر ماء فاتر ليشر به عقيب شرب ملين للطبع ، فشر به فوجدته شديد الحرارة ، فشكى من شدة حرّه ، فقُير وعرض عليه ثانيا ، فشكى من برده ، ولم يفضب ولم يصخب - رحمة الله عليه - ولم يقل سوى هذه الكلمات : « سبحان الله ، لا يمكن أحد تعديل الماء » . فخرجنا أنا والقاضي [الفاضل] يقول لي : « ابصر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ، والله لو أن هذا بعض الناس كان قد ضرب بالقدح رأس من أحضره » . واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ، ولم يزل متزايدا ، وتغيّب ذهنه - رحمة الله عليه - ولما كان التاسع حدثت به رعشة ^(٣) ، وامتنع من تناول المشروب ، واشتد الرجف في البلد ، وخاف الناس ، ونقلوا الأقمشة من ٢٠٣ أ / الأسواق ، وغشى الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته . ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد في كل ليلة إلى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه ، ثم نحضر في باب الدار ، فإن وجدنا طريقا دخلنا وشاهدناه وانصرفنا وإلا تعرفنا أحواله وانصرفنا . وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا إلى بيوتنا حتى تُقرأ أحواله من صفحات وجوهنا . ولما كان العاشر من مرضه حُقِنَ دفتين ، وحصل من الحقنة راحة ، وحصل بعض الخف ، وتناول من ماء الشعير مقدارا صالحا ، وفرح الناس فرحا شديدا ، فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع ، ثم أتينا باب الدار فوجدنا جمال الدولة إقبالا ، فآتمسنا منه تعريف الحال المتجددة ،

(١) هذان اللفظان ساقطان من (م) .

(٢) م : « حدثت عليه غشية » .

فدخل ثم أنفذ إلينا مع الملك المعظم تورانشاه - جبره الله تعالى - يقول : « إن العرق قد أخذ في ساقيه » . فشكرنا الله تعالى على ذلك ، والتمسنا منه أن يمس بقية بدنه ^(١) ، ويخبرنا بحاله في العرق ، فافتقده ثم خرج إلينا ، وذكر أن العرق سابغ ، فشكرنا الله تعالى على ذلك ، وانصرفنا طيبة قلوبنا . ثم أصبحنا في الحادى عشر من مرضه وهو يوم الثلاثاء السادس والعشرين من صفر حضرنا بالباب ، وسألنا عن الأحوال ، فأخبرنا أن العرق أفرط حتى نفذ في الفرش ، ثم في الحُصْر ، / وتأثرت به الأرض ، وأن اليبس قد تزايد تزايداً عظيماً ، وخارت ٢٠٣ ب القوة واستشعر الأطباء ^(٢) .

ذكر تحليف الملك الأفضل الناس

ولما رأى الملك الأفضل ما حلّ بوالده ، وتحقق اليأس منه ^(٣) ، شرع ^(٤) في تحليف الناس ، وجلس ، في دار رضوان المعروفة بسكنه ، واستحضر القضاة ، وعمل له نسخة يمين مختصرة مُحصّلة للمقاصد ، تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته ، وله بعد وفاته ، واعتذر للناس بأن المرض قد اشتد ، وما نعلم ما يكون وما نفعل هذا إلا احتياطاً على جارى عادة الملوك . فأول من استحضر للحلف سعد الدين مسعود ^(٥) أخو بدر الدين مودود - الشحنة - فبادر إلى اليمين من غير تشريط . ثم استحضر ناصر الدين - صاحب صهيون فحلف ^(٦) ، وزاد

(١) م : « قدمه » .

(٢) م : « وحات في القوة الأطباء » وهو خطأ واضح .

(٣) م : « وتحقق الناس موته » .

(٤) م : « تسرع » .

(٥) م : « هذا اللفظ ساقط من (م) » .

(٦) هذا اللفظ ساقط من (م) .

أن الحصن الذى فى يده له . وحضر سابق الدين - صاحب شيزر - فحلف ، ولم يذكر الطلاق ، واعتذر بأنه ما حلف به . ثم حضر خشتريين ^(١) الهكاري ، وحلف . وحضر نوشروان الزرزاري وحلف ، واشترط أن يكون له خبز يرضيه . ٢٠٤ أ علّكان ومنكلان وحلفا . ثم مُدّ الخوان ، وحضر الجماعة / وأكلوا . ولما كان العصر أعيد مجلس التحليف ، وأحضر ميمون القصرى وشمس الدين سنقر الكبير وقالوا : « نحن نحلف بشرط أن لا نسلّ فى وجه أحد من أخوتك سيفاً ، لكن رأسى دون بلادك » . - هذا قول ميمون - وأما سنقر ، فإنه امتنع ساعة ، ثم قال : « كنت حلفتى على النظرون يمينا ، وأنا عليها » . وحضر سامة ، وقال : ليس لى « خبز ، فعلى أى شىء : أحلف ^(٢) ؟ » . فزوج فحلف ، وعلّق يمينه بشرط أن يُعطى خبزا يرضيه . وحضر سنقر المشطوب ، وحلف ، واشترط فى يُرضى . ^(٣) وحضر اليكى الفارسى ، وحلف ^(٣) . وحضر أيبك الأفطس وحلف واشترط رضاه ، ^(٣) ولم يحلف بالطلاق ^(٣) . ^(٣) وحضر أخو سيّاروخ وحلف واشترط رضاه ^(٣) . وحضر حسام الدين بشارة وحلف - وكان مقدما على هؤلاء - ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، ولم يتعرض لهم ، بل حلف هؤلاء نفر ^(٤) ، ^(٣) وربما شدّ منهم غير معروف ^(٣) : ونسخة اليمين المحلوف بها وفصولها ^(٥) : الفصل الأول : إننى من وقتى هذا قد أصفيت نيتى ، وأخلصت طويتى للملك الناصر مدة حياته ، وإننى لا أزال باذلا جهدى فى الذبّ عن دولته ٢٠٤ ب بنفسى ومالى وسيفى ورجالى ، ممثلا أمره ، واقفا عند مرّاضيه ، ثم / من بعده

(١) م : « خشتريين بن حسين الهكاري » ، وهو خطأ واضح .

(٢) م : « فقل لى على شىء أحلف » .

(٣) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٤) م : « للتقرير » .

(٥) م : « مضمونها » .

لولده الملك الأفضل عليّ : ووالله إنني في طاعته ، وأذبُّ عن دولته وبلاده بنفسى ومالى وسيفى [ورجالى] ^(١) وأمثل أمره ونهيه ، وباطنى وظاهرى فى ذلك سواء ، والله على ما أقول وكيل ، ثم ^(٢) فصل التخرىج . هذه نسخة اليمين المحلوف بها ، أعنى مقاصدها ^(٣) .

ذكر وفاته - رحمة الله عليه

وقدّس الله روحه وأحسن خلفه للمسلمين

ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وهى الليلة الثانية عشرة من مرضه - رحمة الله عليه - اشتدَّ مرضه ، وضعفت قوته ، ووقع فى أوائل الأمر من أول الليل ، وحال بيننا وبينه النساء ، واستحضرتُ أنا والقاضى الفاضل فى تلك الليلة وابن الزكى ، ولم يكن عادته الحضور فى ذلك الوقت ، وعرض علينا ^(٣) الملك الأفضل أن نبيت عنده ، فلم يرَ القاضى الفاضل ذلك رأياً ، فإن الناس كانوا فى كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة ، فخاف أن لا ننزل فيقع الصوت فى البلد ، وربما نهب الناس بعضهم بعضاً ، فرأى المصلحة فى نزولنا ، واستحضر الشيخ أبى جعفر إمام الكلاسة ، وهو رجل صالح يبيت فى القلعة ، حتى إن احتضر - رحمة / الله عليه - بالليل ٢٠٥ أ حضر عنده ، وحال بينه وبين النساء ، وذكره بالشهادة وذكر الله تعالى ، ففعل ، ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه ، وبات فى تلك الليلة - رحمة الله عليه - على حال المنتقلين إلى الله تعالى ، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ، ويذكره بالله تعالى ، وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع ، لا يكاد يفيق إلا فى الأحيان ، وذكر

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (م) .

(٢) هذه العبارة ساقطة من (م) .

(٣) م : « وحضر بيننا » .

الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ﴾ . سمعه وهو يقول - رحمة الله عليه - : « صحيح » ؛ وهذه يقظة في وقت الحاجة ، وعناية من الله تعالى به ، فله الحمد على ذلك . وكانت وفاته - رحمة الله عليه - بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء سابع عشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وبادر القاضى الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته - رحمة الله عليه - ووصلت وقد مات ، وانتقل إلى رضوان الله ومحل كرامته . ولقد حكى لى أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى : ﴿ لا إله إلا هو عليه توكلت ﴾ . تبسم وتهلل وجهه وسلمها إلى ربه ، وكان يوما لم يصب المسلمون والإسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون ، وغشى القلعة والبلد ٢٠٥ ب والدنيا من الوحشة ما لا يعلمها إلا / الله تعالى . وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس يتمنون فداء مَنْ يعزُّ عليهم بنفوسهم ^(١) ، وما سمعت هذا الحديث إلا على ضرب من التجوز والترخص إلى ذلك اليوم ، فأني علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قبل « الفداء » لقدى بالنفس . ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء فى الإيوان الشمالى ، وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعممين ، وكان يوما عظيما قد شغل كل إنسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره ، وحُفظ المجلس عن أن يُنشد فيه شاعر أو يتكلم فيه فصال أو واعظ . وكان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس ، فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ودام الحال على ذلك إلى بعد صلاة الظهر ، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه ، فما مُكِّنا أن ندخل فى تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض ، حتى فى ثمن التبن الذى يُلْتُّ به الطين وغسله الدُّوْلَعى الفقيه ، وندبْتُ إلى الوقوف على غَسْله ، فلم يكن لى قوة تحمل ذلك المنظر . وأُخرج بعد صلاة الظهر - رحمة الله عليه - فى تابوت مسجى بثوب فوط ، وكان ذلك وجميع ما احتاج ٢٠٦ أ إليه من الثياب فى تكفينه قد أحضره القاضى الفاضل من وَجْهِه حُلَّ عرفه / .

(١) م : « فداء بنفوسهم » .

وارتفعت الأصوات عند مشاهدته ، ^(١) وعظم الضجيج ، حتى إن العاقل يتخيل أن الدنيا كلها تصيح صوتا واحدا ، وغشى الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة ^(٢) ، وصلى عليه الناس أرسالا ، وكان أول مَنْ أُمَّ بالناس القاضي محيي الدين بن الزكي ثم أعيد - رحمة الله عليه - إلى الدار التي في البستان ، وكان متمرضا بها - رحمة الله عليه - ودُفن في الضفة الغربية منها ، وكان نزوله في حفرته - قدس الله روحه ونور ضريحه - قريبا من صلاة العصر ، ثم نزل في أثناء النهار ولده الملك الظافر ، وعزى الناس فيه وسكن قلوب الناس ، وكان الناس قد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد ، فما يوجد قلب إلا حزين ، ولا عين إلا باكية ، إلا من شاء الله ، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع ، ولم يعد منهم أحد في تلك الليلة إلا أنا حضرنا ، وقرأنا ، وجددنا حالا من الحزن ، واشتغل ذلك اليوم الملك الأفضل بكتب الكتب إلى عمه وأخوته يخبرهم بهذا الحادث . وفي اليوم الثاني جلس للعزاء جلوسا عاما . وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء ، وتكلم المتكلمون ، ولم يُنشد شاعر ، ثم انفض المجلس / في ظهيرة ذلك اليوم ، واستمر الحال في حضور الناس بكرة وعشية لقراءة ٢٠٦ ب القرآن ، والدعاء له - رحمة الله عليه - واشتغل الملك الأفضل بتدبير أمره ، ومراسلة أخوته وعمه .

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام ^(٣)

وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله . هذه أخبار الملك الناصر أبي المظفر يوسف بن أيوب - رحمة الله عليه - فرغت من جمعها يوم

(١) النص في (م) : « وعظم من الضجيج والعويل ما شغلهم عن الصلاة » .

(٢) عد هذا البيت من الشعر ينتهي النص في نسخة (م) ثم ذكرت هناك كلمات الاحتام وبصها كما يلي « تم يعون الله ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين » .

أما مايلي ذلك من النص هنا فتنفرد بذكر نسخة الأصل ، وله أهميته الكبرى وخاصة الفصل التالى الذى أحصى فيه المؤلف أسماء المدن والقلاع التى فتحها صلاح الدين فى المدن من ٥٨٣ إلى ٥٨٦ هـ .

وفاته ^(١) - رحمة الله عليه - وقصدتُ بذلك وجه الله تعالى في حثِّ الناس على الترحم عليه ، وذكر محاسنه ، والله يحسن خلافته من بعده ، ويجزيه ما هو أهله ، بمحمد وآله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قال مولانا صاحب المصنف ، أدام الله علوه :

ذكر المدن والحصون التي يسّر الله فتحها على يديه

- رحمه الله عليه - من ديار الفرنج - خلد لهم الله تعالى -

من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة ست وثمانين

طبرية على بحر الأردن بالسيف . عكا على البحر الكبير بالأمان . حيفا على البحر بالأمان . الناصرة التي تنسب إليها النصارى . الرملة . قيسارية بالسيف ٢٠٧ أ / . أرسوف بالأمان . يافا بالسيف « مدينتها » . عسقلان بالأمان . غزة بالأمان . الداروم . صيدا على البحر . بيروت بالأمان . جبيل . هونين . جبيلة . تبين . أنطربوس « دون أخذ برجها » بالسيف . جبلة « مدينتها بالسيف ، وقلعتها بالأمان » اللاذقية ، مدينتها بالسيف ، وقلعتها بالأمان . السرفند . مدينة القدس الشريف ، خلّصه الله تعالى . نابلس . البيرة بأرض القدس . صفورية . الطور . حصن دُبورية . الفولة . حصن عَقْرَبلا . حصن جينين . سفسطية . كوكب . حصن عفرى « شمالي القدس » . بيت لحم . حصن العازرية بأرض القدس . البرج الأحمر « قريبا منه » . حصن الخليل « عليه السلام » بيت جبرين . تل الصافية . حصن مجدل يابا . قلعة الجيب فوقاني . « الجيب » . التحتاني .

(١) هذا النص هام يشير إلى التاريخ الذي انتهى فيه المؤلف من تصنيف كتابه هذا

النطرون . الحصن الأحمر . لُدُّ بأرض الرملة . قَلْنُوسَة « قريبا منها » . يُثْنَى .
القاقون والقيمون . قلعة الكرك « بعد حصار سنة ونصف » . قلعة الشوبك
« بعد حصار سنتين » . قلعة السَّلْع . الوعيرة . قلعة الجمع . قلعة الطفيلة .
قلعة الهرمُز . جمع ذلك في وادي موسى والسراة / . قلعة صَفَد . حصن يازور . ٢٠٧ ب
شقيف أرنون . حصن اسكندرونة « بين صور وعكا » . قلعة أوى الحسن « بأرض
صيدا » . صيدا أيضا حصن . بَلَدَة بالساحل الأعلى . المرقية « على البحر » .
حصن يحمور بأرض عكا . بلنياس بين جبلة والمرقب . صهيون . بلاطنس .
حصن الجماهرية . قلعة العيذد . بكَّاس . الشُّغْر . بكسراثيل . السُّرْمَانِيَة . قلعة
بُرْزِيَة . دَرْبَسَاك . بُغْرَاس « قريبا من أنطاكية » الدانور بأرض بيروت . السوفند
قريبا من صيدا .

آخره والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه
وسلامه . ووافق الفراغ منه ثانی عشر رجب المبارك سنة ست وعشرين
وستمئة ^(١) ، على يد العبد الفقير إلى رحمة ربه . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

* * *

(١) هذا أيضا نص هام يفيد تاريخ نسخ نسخة الأصل وهو سنة ٦٢٦ هـ أى أن النسخة كتبت
في عصر المؤلف وقبل وفاته ، فإنه تولى سنة ٦٣٢ هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده
اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
طالع فيه الفقير إلى الله تعالى ...

..... ١٢٧٦

....

طالعه من أوله إلى آخره أفقر العباد
داعيا لملكه بطول البقاء وعلو الارتقاء
... وملكته سنة ...

....

قوبلت بالأصل من أولها إلى آخرها ...

.....

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

٢٠٨ أ

فهم في بطون الأرض بعد ظهورها محاسنهم فيها بـوال دوائر
خلت دورهم منهم وأقوت عراصها وساقطهم نحو المنايا المقادر
وخلّوا عن الدنيا وما جمعوا لها وضمّتهم تحت التراب الحفائر

للملك داود :

وإني إذا ما العز أبدى مودتي خداعًا وأخفى الغل بين الأضالع
لأظهر جهلا بالذي أنا عالم بمكنونه فعل اللبيب الخادع
وأغدو إذا ما أمكنتني فرصة عليه بماضى الحد أبيض قاطع
بضربة مقدم ثبوت مجرب يغيبه بين اللهـا والأخادع
هكذا الدنيا تذل و ...



المختصرات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥

القسم الأول

في ذكر مولده وخصائصه وأوصافه وشمائله وخلالله	٢٩ : ٧١
ذكر مولده	٣١
ذكر ماشاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمر	
الشرعية	٣٣
ذكر عدله	٤١
« طرف من كرمه	٤٧
« شجاعته	٥٠
« اهتمامه بأمر الجهاد	٥٣
« طرف من صبره واحتسابه	٥٧
« نبذة من حلمه وعفوه	٦٢
« محافظته على أسباب المروءة	٦٦

القسم الثاني

في بيان تقلبات أحواله ووقائعه وفتوحاته في تواريخها	٧٣
ذكر حركته إلى مصر في الدفعة الأولى	٧٥

الموضوع	الصفحة
ذكر عوده إلى مصر في الدفعة الثانية وسبب ذلك	٧٦
» عودهم إلى مصر في الدفعة الثالثة وهي التي ملكوها فيها .	٧٨
» وفاة أسد الدين ومصير الأمر إلى السلطان	٨٠
» قصد الإفرنج دمياط	٨١
» طلبه والده	٨٥
» موت العاضد	٨٦
» أول غزوة غزاها من الديار المصرية	٨٦
» وفاة والده نجم الدين	٨٧
» فتح اليمن	٨٧
» وفاة نور الدين محمود بن زنكى	٨٨
» منافقة الكنز بأسوان	٨٩
» قصد الإفرنج ثغر الإسكندرية	٩٠
» خروج السلطان إلى الشام وأخذه لدمشق	٩٢
» تسير سيف الدين أخاه عز الدين إلى لقائه	٩٣
» مسير سيف الدين بنفسه	٩٤
» كسرة الرملة	٩٧
» عود السلطان إلى الشام	٩٨
» وفاة الملك الصالح	٩٩
» وصول عز الدين إلى حلب	٩٩
» مقايضة عز الدين أخاه عماد الدين زنكى بالبلاد	١٠٠
» عود السلطان من مصر	١٠١
» نزوله على الموصل	١٠٢
» أخذه سنجار	١٠٣
» قصة شاه أرمن	١٠٣
» عود السلطان إلى الشام	١٠٤

الصفحة	الموضوع
١٠٥	ذكر أخذه حلب
١٠٦	» أخذه حارم
١٠٧	» غزاة عين جالوت
١١٠	» غزاة أنشأها إلى الكرك
١١١	» إعطائه أخاه الملك العادل حلب
١١٢	» ذكر وصولنا إلى خدمته رسلا
١١٣	» غزاة أخرى إلى الكرك
١١٦	» خروج السلطان إلى جهة الموصل

« الدفعة الثانية »

١١٦	» قبض مظفر الدين وإطلاقه
١١٧	» موت شاه أرمن صاحب خلاط
١١٨	» أخذه ميافارقين
١١٨	» عود السلطان إلى الموصل
١١٩	» صلح المواصله معه
١٢٠	» عود السلطان إلى الشام
١٢١	» مسير الملك العادل إلى مصر
١٢٢	» عود الملك الظاهر إلى محروسة حلب
١٢٥	» غزاة أنشأها إلى الكرك
١٢٦	» وقعة حطين على المؤمنين
١٣١	» أخذ قلعة طبرية
١٣٢	» أخذ عكا
١٣٢	» أخذ تبين
١٣٣	» أخذ بيروت

الصفحة	الموضوع
١٣٣	ذكر أخذ عسقلان
١٣٤	» فتح القدس
١٣٦	» ذكر قصده صور
١٣٧	» وصول ولده الظاهر إليه
١٣٧	» نزوله على صور
١٣٧	» كسرة الأسطول
١٣٨	» نزوله على كوكب
١٤٠	» دخوله الساحل الأعلى وأخذه اللاذقية وجبله وغيرها
١٤٢	» ذكر دخوله إلى الساحل
١٤٢	» فتح أنطربوس
١٤٤	» فتوح جبلة
١٤٥	» فتوح اللاذقية
١٤٦	» فتوح صهيون
١٤٧	» فتوح بكاس
١٤٨	» فتوح برزيه
١٥٠	» فتوح دربساك
١٥٠	» فتوح بغراس
١٥٢	» فتح صفد
١٥٣	» فتوح كوكب
١٥٤	» توجهه إلى شقيف أرتون ؛ وهى السفرة المتصلة بواقعة عكا
١٥٥	» اجتماع الإفرنج لقصد عكا
١٥٦	» الواقعة التى استشهد فيها أيلك الأخرش
١٥٧	» وقعة ثانية استشهد فيها جمع من رَجالة المسلمين
١٥٨	» مسيرة جريدة إلى عكا وسبب ذلك
١٥٩	» وقعة أخرى

الصفحة	الموضوع
١٦٠	ذكر أخذ صاحب الشقيف وسبب ذلك
١٦٣	« وقعة عكا وسبب ذلك
١٦٦	« فتح الطريق إلى عكا
١٦٧	« تأخر الناس إلى تلك العياضية
١٦٩	« وقعة جرت العرب مع العدو
١٧٠	« نادرة في هذه الواقعة
١٧٠	« المصاف الأعظم على عكا
١٧٨	« وصول خير ملك الألمان
١٧٩	« وقعة الرمل
١٨٠	« وفاة الفقيه عيسى
١٨١	« نادرة
١٨١	« تسليم الشقيف
١٨٢	« طريفة
١٨٣	« وصول رسول الخليفة
١٨٤	« وصول الملك الظاهر ولده
١٨٥	« لطيفة تدل على سعادة ولده الملك الظاهر
١٨٧	« وصول عماد الدين زنكى
١٨٧	« وصول معز الدين سنجر شاه
١٨٨	« وصول علاء الدين
١٨٨	« وصول الأسطول ودخوله إلى عكا
١٨٩	« وصول زين الدين
١٩٠	« خير ملك الألمان
١٩١	« صورة كتاب الكاغيكوس الأرمنى
١٩٤	« مسير العساكر لأطراف البلاد التي في طريق ملك الألمان .
١٩٥	« تمام خير ملك الألمان

الصفحة	الموضوع
١٩٧	ذكر الواقعة العادلية
٢٠١	« وصول الكندهرى
٢٠٢	« كتاب وصل من قسطنطينية
٢٠٤	« حريق المنجنقات التى للعدو المخدول
٢٠٦	« الحيلة فى إدخال بطسة بيروت إلى البلد
٢٠٦	« قصة العوام عيسى
٢٠٧	« حريق المنجنقات
٢٠٧	« تمام حديث الألمانى
٢٠٨	« الحيلة التى عملها المركيس فى جمع الفرنج من وراء البحر ..
٢٠٩	« وصول البطس من محروسة مصر
٢١٠	« محاصرة برج الذبان
٢١٢	« وصول الألمان إلى عسكرهم المخدول
٢١٤	« حريق الكيش وغيره من الآلات
٢١٥	« قدوم الملك الظاهر
٢١٧	« حريق البطسة المعدة لأخذ برج الذبان
٢١٧	« خروج البرنس إلى الغارة على البلاد الشامية التى تليه
٢١٨	« أخذ البطستين من العدو
٢١٩	« انتقال العسكر إلى شغرعهم
٢١٩	« وفاته « رحمه الله »
٢٢٠	« قصة معز الدين
٢٢٢	« طلب عماد الدين الدستور
٢٢٣	« خروجهم إلى رأس الماء
٢٢٨	« وقعة الكمين
٢٢٩	« عود العساكر من الجهاد
٢٣٠	« وفود زلفندار عليه

الصفحة	الموضوع
٢٣١	ذكر اشتغال السلطان بإدخال البدل إلى البلد
٢٣٢	« وقوع قطعة من السور
٢٣٣	« الظفر بمراكب العدو
٢٣٣	« موت ابن ملك الألمان
٢٣٤	« غارة أسد الدين
٢٣٥	« وقائع عدة في سنة سبع
٢٣٦	« وصول العساكر الإسلامية وملك الأفرنسييس
٢٣٧	« نادرة وبشارة
٢٣٨	« واقعة نادرة
٢٣٨	« خبر ملك الإنكتار
٢٤٠	« قصة الرضيع
٢٤١	« انتقال السلطان إلى ثل العياضية
٢٤٢	« الشروع في مضايقة البلد
٢٤٣	« وصول ملك الإنكتار
٢٤٤	« غريق البسطة الإسلامية
٢٤٥	« حريق الدبابة
٢٤٥	« وقعات عدة
٢٤٦	« وقعة أخرى
٢٤٧	« وقعة أخرى
٢٤٧	« وقعة أخرى
٢٤٨	« هرب خادمين للملك
٢٤٨	« هرب المركيس إلى صور
٢٤٩	« قدوم بقية عساكر المسلمين
٢٥٠	« خروج رسلهم إلى السلطان
٢٥١	« خبر قوة زحفهم على البلد ومضايقته

الصفحة	الموضوع
	ذكر ما آل أمر البلد إليه من الضعف ووقوع المراسلة بين أهل البلد
٢٥٣	والفرنج
٢٥٦	» كتب وصلت من البلد
٢٥٧	» حديث مصالحة أهل البلد ومصانعتهم عن نفوسهم
٢٥٨	» استيلاء العدو على عكا
٢٦٠	» وقعة جرت في أثناء ذلك
٢٦٠	» خروج ابن باريك
٢٦٢	» إخراج الفرنج خيامهم
٢٦٢	» قتل المسلمين الذين بعكا
٢٦٣	» انتقال العدو إلى طرف البحر من جانب الغرب
٢٦٤	» مسيرهم إلى جهة عسقلان
٢٦٥	المنزل الثاني
٢٦٦	المنزل الثالث
٢٦٧	المنزل الرابع
٢٦٨	المنزل الخامس
٢٦٩	المنزل السادس
٢٧٠	المنزل السابع
٢٧٢	ذكر وقعة جرت
٢٧٢	المنزل الثامن
٢٧٣	ذكر مراسلة جرت في ذلك اليوم
٢٧٤	» اجتماع الملك العادل والإنكثار
٢٧٥	» وقعة أرسوف
٢٧٧	المنزل التاسع
٢٧٩	المنزل العاشر
٢٨٠	المنزل الحادي عشر ، وهو على عسقلان

الصفحة	الموضوع
٢٨٠	ذكر خراب عسقلان
٢٨٣	ذكر نزوله بينى
٢٨٣	» رحيله إلى الرملة
٢٨٥	» عوده إلى المعسكر
٢٨٥	» وصول رسول المركيس
٢٨٦	» رحيل السلطان من الرملة
٢٨٦	» موت الإفرنسييس
	» مسير الملك العادل إلى القدس الشريف ووصول خبر وفاة قزل
٢٨٧	ابن الدكر
٢٨٨	ذكر عود الملك العادل من القدس الشريف
٢٨٨	» أخبار يزك كان على عكا وقضية لصوص دخلوا في خيام العدو
٢٨٩	» خبر وصول الأسارى المذكورين
٢٨٩	» وفاة حسام الدين بن لاجين
٢٩٠	» دخول رسول الملك العادل إلى الإنكتار
٢٩١	» هرب شيركوه بن باخل من عكا وكان فيها أسيرا
٢٩٢	» رسالة سيرني فيها الملك العادل إلى السلطان مع جماعة من الأمراء
٢٩٣	» عود الرسول إلى الإنكتار بالجواب عن هذه الرسالة
٢٩٤	» أخذ مركب مشهور للفرنج يسمى المسطح وكان عظيما عندهم
٢٩٤	» اجتماع الرأى من الأمراء بين يدي السلطان
٢٩٥	» خروج الفرنج عن يافا
٢٩٥	» وفاة الملك المظفر
٢٩٦	» كتاب وصل من بغداد
٢٩٧	» وصول صاحب صيدا رسولا من المركيز
٢٩٨	» واقعة الكمين التي استشهد فيها إياز المهراني
٣٠٠	» ما جرى للملك العادل والإنكتار واجتماعهما

الصفحة	الموضوع
	ذكر الرسالة التي أنفذها الإنكثار إلى السلطان في معنى الاجتماع به
٣٠٠	وجوابها
	» حضور صاحب صيدا بين يدي السلطان وأداء الرسالة والحديث
٣٠١	الذي وصل إليه
٣٠٢	» وصول رسول الإنكثار
	» مشورة ضربها في التخيير بين الصالحين : صلح الملك و صلح
٣٠٣	المركيس صاحب صور
٣٠٤	» رحيله إلى تل الجزر
٣٠٦	» مسير الملك العادل
٣٠٧	» عود الملك العادل من الغور
٣٠٧	» غارة الفرنج
٣٠٨	» انفصال رسول المركيس
٣٠٨	» وصول العساكر الإسلامية
٣٠٨	» خروج سيف الدين بن المشطوب من الأسر
٣٠٩	» عود رسول صور
٣١٠	» قتل المركيس
٣١٠	» تنمة خبر الملك المنصور وما جرى له
٣١١	» تقدم رسول الروم
٣١٢	» ماجرى لملك العادل في البلاد التي هي قاطع الفرات
٣١٣	» استيلاء الفرنج على الداروم
٣١٣	» قصدهم لمجدل يابا
٣١٤	» وقعة جرت في صور
٣١٤	» قدوم العساكر الإسلامية إلى الجهاد
٣١٤	» قدوم ابن المقدم
٣١٤	» حركة العدو من الحسى

الصفحة	الموضوع
٣١٥	ذكر تعبئة العدو لقصد القدس الشريف
٣١٦	» نزولهم في بيت نوبة
٣١٦	» وقعة جرت
٣١٧	» وقعة أخرى
٣١٧	» أخذ قافلة مصر
٣٢٠	» قدوم الملك الأفضل
٣٢١	» عود العدو إلى بلادهم وسبب ذلك
٣٢٤	» رسالة الكندهرى
٣٢٥	» وقعة جرت على عكا
٣٢٥	» عود رسولهم في معنى الصلح
٣٢٧	» عود رسول الفرنج ثالثا
٣٢٨	» عود الرسول
٣٢٩	» قدوم ولده الملك الظاهر صاحب حلب
٣٢٩	» عود الرسول رابعًا
٣٢٩	» تبريزه
٣٣٠	» حصار يافا
٣٣٢	» فتح يافا وهى أول الفتح الثانى وماجرى عليها من الوقائع
٣٣٥	» كيفية بقاء القلعة في يد العدو
٣٣٧	» ذكر تجديد حديث الصلح
٣٤١	» قدوم العساكر
٣٤١	» قدوم عسكر مصر المحروسة
٣٤٢	» قدوم الملك المنصور بن تقي الدين
٣٤٢	» رحيله إلى الرملة
٣٤٤	» الإجابة إلى النزول عن عسقلان
٣٤٦	» قدوم رسل من جهات متعددة

الصفحة	الموضوع
٣٤٧	ذكر تمام الصلح
٣٤٩	» خراب عسقلان
٣٤٩	» رحيل السلطان من الرملة
٣٥٠	» عود العساكر الإسلامية إلى أوطانهم
٣٥١	» رحيله
٣٥١	» وصول رسول من بغداد
٣٥٢	» توجه ولده الملك الظاهر إلى بلاده ووصية السلطان له ...
٣٥٣	» مسير الملك الأفضل
٣٥٤	» مسيره من القدس
٣٥٤	» خروج بهاء الدين قرقوش من الأسر
٣٥٥	» وصول البرنس إلى الخدمة السلطانية مسترفدا
٣٥٥	» موت المشطوب بالقدس
٣٥٦	» عود السلطان إلى محروسة دمشق
٣٥٦	» قدوم الملك العادل « أخيه »
٣٥٧	» لقائه للحجاج
٣٥٩	» مرضه
٣٦١	» تحليف الملك الأفضل الناس
٣٦٣	» وفاته
	» المدن والحصون التي يسر الله فتحها على يده من ديار الفرنج
٣٦٦	من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة ست وثمانين
٣٦٨	زيادات

